على ضفاف لقياك





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

site: www.aseeralkotb.com-Web

● الطبعة الأولى: يناير 2023م

● رقم الإيداع: 2022/27449م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-187-7

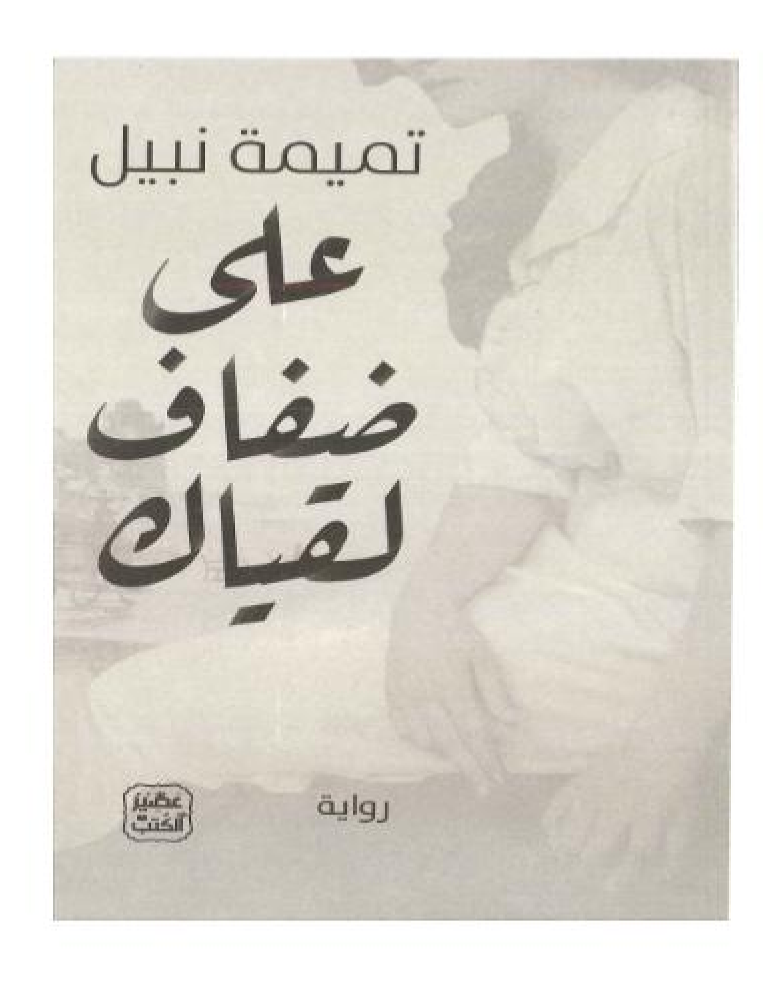
● المؤلفة: تميمة نبيل

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار




تميمة نبيل
على
ضفاف
لقياك
رواية
عصير الكتب


HTTPS://T.ME/MKTBTARAB



إهداء

إلى الدكتور محمد إبراهيم دسوقي رحمه الله،

إلى روح أبي الذي علمني القيم والإمساك بالقلم،

ستظل باقيًا بقلبي حتى آخر أنفاسي،

أُهديك هذا الكتاب يا حبيبي وكم أهديتني في حياتك.


HTTPS://T.ME/MKTBTARAB



الفصل الأول

«مفقودة»

أنهت كتابة القائمة الصغيرة وخرجت من المطبخ متجهة إلى حيث تجلس امرأة متقدمة في العمر بجوار النافذة متمتعة بالدفء المتسلل منها، مغمِضة عينيها مطرِقة برأسها وكأنها نائمة.

انحنت إليها قائلة: «سأخرج الآن».

فتحت المرأة جفنيها المثقَلين مجيبة بلطف: «حسنًا يا أمنية، انتبهي لنفسك ولا تذهبي إلى أي مكانٍ سوى المتجر المجاور، ولا تكلمي أحدًا في طريقك».

أومأت أمنية برأسها مكتفية بالإيماء كجواب للتعليمات الصريحة ثم خرجت من الشقة بخطواتٍ رتيبة. أخرجت هاتفها من حقيبتها الصغيرة في خروجها من المصعد متباطئة لتلقي نظرتها الصباحية على العالم بملامح فاترة وعينين فارغتين. مجرد تصفح عابر كالعادة عبر موقع التواصل لا تتوقع أن تجد فيه أي جديد، ثم كادت أن تعيد الهاتف إلى حقيبتها مع خروجها إلى الطريق، إلا أن شيئًا ما أوقفها، بل على الأصح صورة، صورة مألوفة لديها مع كلمة لم يستوعبها عقلها! كلمة «مفقودة»! خبر مكرر لشخص مفقود، لكن ما استوقفها هي الصورة! تعرف تلك الملامح، تعرفها جيدًا فقد كانت تحادثها ليلة أمس! أما أغرب ما في الخبر هو أنها مفقودة منذ شهور!

رفعت أمنية وجهها الباهت محدقة إلى الطريق الممتد أمامها بعينين واسعتين، فهبت ريح باردة ضربت صفحة ملامحها كصفعة تؤكد لها بأنها لا تتوهم ما قرأت للتو.

****

«كانت سرابًا!».

جالسة على سريرها الضيق في الغرفة الصغيرة التي أُعطيت لها لتقيم فيها، تحدق إلى الجدار الأبيض أمامها بملامح لا تحمل أي تعبير.

مر اليوم طويلًا، أو هكذا بدا لها بعد عودتها لتفعل مهامها اليومية دون كلام أو رد فعل، صامتة كعادتها بينما ذهنها لم يهدأ لحظة واحدة منذ أن رأت الخبر والصورة في الصباح.

بدت ساعات اليوم تمر كسنواتٍ حتى انقضى نهاره أخيرًا وجزء من مسائه، فدخلت غرفتها وجلست على سريرها شاردة للحظات ثم أخفضت عينيها إلى هاتفها الموضوع بجوارها، فأمسكت به لثانية قبل أن تتصل بها. تلك الشابة التي كُتِبَ عنها أنها مفقودة لم تقابلها وجهًا لوجه في العالم الواقعي مطلقًا، لكن جمعهما كلام طويل في العالم الافتراضي، ذلك العالم الأزرق الذي يلقّبها بالصديقة من خلاله، إلا أنها لا تعرف سوى ما يعرفه الغريب!

تعرفت عليها منذ شهورٍ على واحدٍ من مواقع التواصل، وبدأ بينهما الكلام مع تحفظ شديد منها، فلم يسبق لها أن تعرفت على غريب وتكلمت معه كما كلمت تلك الشابة، وانتقل الحوار بينهما بالتدريج من الرسائل إلى المحادثات المرئية.

لا تزال تتذكر ارتباكها وقلقها في المرة الأولى التي فتحت فيها الكاميرا وتكلمت معها، لكن ما عجِبتْ له أنها تخلت عن تحفظها أسرع مما تخيلت، وبدا الكلام معها طبيعيًا تلقائيًا مع مرور الأيام.

لم تهتم لمعرفة أي شيء عن حياتها الشخصية، فهل كانت أنانية إلى هذا الحد؟! أتراها كانت في خطرٍ وتحتاج إلى إنقاذ أو نجدة؟!

رمشت بعينيها مصدومة وتقلصت أصابعها حول الهاتف حين أدركت مع أولى محاولات الاتصال أنها لم تعد موجودة! لقد اختفت تمامًا! اختفت من كل مواقع التواصل كأن لم يكن لها وجود من قبل سوى في مخيلتها فحسب!

رفعت أمنية وجهها الباهت لا تستوعب ما يحدث! فكيف فُقِدَت منذ شهور بينما رأتها بالأمس عبر الشاشة؟! ولِمَ اختفت اليوم وكأنها كانت وهمًا من وحي خيالها؟!

نظرت إلى رقم الهاتف المرفق في الخبر لمن يجدها أو سبق له أن رآها، فرفعت أصابعها إلى فمها متسائلة إن كان من الحكمة الاتصال بهذا الرقم، فماذا ستخبرهم؟!

أين هي تلك الشابة المفقودة منذ شهورٍ كما ورد وقد تحولت إلى سرابٍ بين ليلة وضحاها؟!

ولم يستغرق منها التفكير طويلًا، فسرعان ما ضغطت أصابعها على الأرقام ووضعت الهاتف على أذنها، وبعد رنة واحدة سمعت بعدها صوت رجل، صوتًا يثير الرهبة في النفس، في نبرته حدة وكأنه كان مترقبًا لاتصالها!

انعقد حاجباها وشددت أصابعها حول الهاتف الموضوع على أذنها، ومع صمتها جاءها صوته مجددًا أكثر قوة.

وبلهجة آمرة سأل: «من؟».

سرت رعشة في جسدها فعقدت لسانها وبدت عاجزة عن النطق.

فصدح الصوت أقسى: «من؟ أسمع صوت أنفاسك».

رفعت يدها إلى عنقها شاعرة بالخوف يحتل صدرها، فأجبرت نفسها على النطق طوعًا بصوت خفيض.

قالت: «أنا... أتصل بخصوص الخبر...».

لم تكد تتم أحرف كلمتها الأخيرة حتى بدا وكأن صاحب الصوت المخيف قد قام من مكانه، أو كيانه هو ما انتفض.

ارتج الهاتف بين أصابعها على ذبذبات صوته وهو يسأل: «هل عرفتِ مكانها؟ أين هي؟ تكلمي، لماذا أنتِ صامتة؟».

أسئلة متعاقبة كالمطر المنهمر في عاصفة عنيفة اندفعت إليها دون ملجأ أو حماية، بدا لها أن حياة صاحب الصوت المخيف أو مماته متعلقان بالشابة المفقودة، فازداد خوفها، لم يكن الصوت ملائمًا لشخص خائف على مفقودٍ من أحبائه، بل كان في صوته ما هو أكثر.

ازدردت لعابها وردت بصوتها الرتيب المتردد: «لا أعرف مكانها».

وكأن اعترافها الخفيض فجَّر المتبقي من صبره.

سمعت صوت ضربة كقبضة هوت على سطح طاولة تبعها صوته يسألها مجددًا: «هل لديك أي معلوماتٍ عنها؟».

هل لديها معلومات؟! لا، لا تملك أي معلومات، والآن فقط تأكدت لها حماقة الاتصال، لكن ما دامت قد اتصلت فلتدلِ بالمعلومة الوحيدة التي تملكها.

لذا همست: «لقد رأيتها بالأمس».

ألجمه ردها وكأنه لم يتوقعه بمثل هذه السرعة، وكأنه دورها لتسمع صوت أنفاسه كهديرِ بحرٍ مجنون.

حتى إنه سأل بصوتٍ متهدج خلال الأنفاس الهادرة: «أين رأيتِها؟ لماذا تبخلين بما لديكِ؟ انطقي».

لماذا تبخل بما لديها؟ ربما لأنها ما إن سمعت صوته حتى أخبرها حدس مجنون بأنه هو الخطر على الشابة المفقودة! يأمرها أن تنطق كسجين عنده قيد التحقيق! هذا الرجل مخيف وربما عليها أن تغلق الاتصال ولتحظره لتختفي عنه تمامًا.

وبينما هي على وشك تنفيذ قرارها اخترق صوته الصمت القاتم بينهما، بطيئًا، جافًا: «إنها زوجتي».

تصريح مختصر لا يعرف العواطف، وتوضيح لصك الملكية كي تدلي باعترافها. لم تكن لديها فكرة أن صديقة العالم الأزرق متزوجة؛ لم يسبق لها أن ذكرت الأمر ولو عرضًا! لم يسبق لها أن رأت أو سمعت صوت شخصٍ يشاركها السكن، فتولَّد لديها انطباع أنها وحيدة وحياتها خاوية مما دفعها لملء تلك الوحدة عبر الشاشات والصداقات الرقمية التي كانت هي واحدة منها.

سمعت نفسها ترد بخفوت والخوف بداخلها يتزايد: «ربما كنتُ مخطئة، ربما لم تكن هي من رأيتها، فتلك التي أعرفها لم تكن مفقودة».

ساد الصمت للحظاتٍ تحمل من الرهبة ما يحملها صوته إذا تكلم.

تكلم قائلًا بنبرة قاطعة الصمت المهيب: «يجب أن أراكِ».

هل حقًّا سمعتْ ما ظنت أنها سمعته؟ هل أمرَها الغريب صاحب الصوت المخيف بقتل الحذرِ وصوتِ العقل كي تلقاه؟ ومن يدري؟ قد تلقى حتفها أو ربما ما هو أسوأ! هل حقًّا توقع منها أن تلقي بنفسها إلى المجهول؟!

اتسعت عيناها، وأمرها عقلها مجددًا بأن تغلق الاتصال على الفور.

وكأنما سمع أفكارها، فهدر قائلًا: «إياكِ وأن تنهي الاتصال، إياكِ».

ما بالها لا تقدر إلا على تنفيذ أوامره وهو الذي لا يملك عليها سلطانًا ولا تطالها يداه؟! فلماذا تخشاه وتبادر بطاعته؟!

صمتت؛ لا تجد ما تقوله، فتابع بعد فترة وقد شاب صوته بعض الحذر وكأنما يخاطب فرسًا يريد ترويضه.

قال: «اسمعيني أولًا».

يقال إن المخاطرة هي رحلة البحث عن الوجه الآخر للنجاة، فهل تخوضها؟ هل تذهب للبحث عن صديقة العالم الأزرق أم تراها في زاوية من نفسها تود البحث عن نفسها؟

بعد هذا الاتصال المريب استلقت في سريرها محدقة إلى السقف المظلم لساعات في صمتٍ ثقيل كثقل ظلام الغرفة، لا يقطعه سوى الصوت الرتيب لدقات ساعة الحائط.

لا تعلم متى أغمضت عينيها، لكنها وجدت نفسها جالسة على السرير ممسكة بهاتفها تقرأ الكلمات المقتضبة في الخبر الباهت الذي رأته اليوم صباحًا، كان الخبر هو نفسه والكلمات ذاتها تتقدمها الكلمة المقبضة «مفقودة». تحركت عيناها فوق الأسطر ثم انعطفتا إلى الصورة الملحَقة بالخبر ولكن... تسمرت عيناها فجأة واتسعتا، فلم تكن صورة صديقتها، بل كانت صورتها هي!

ظلت شفتاها تردّدان بذهولٍ وصدمة: «ما هذا؟! ما هذا؟!».

حتى انتفضت صارخة بقوة: «ما الذي يحدث؟!».

نظرت حولها لاهثة فوجدت نفسها في سريرها والصباح قد حل مبدِّدًا الظلام، مما جعلها تستقيم لتجلس ببطء تمسح وجهها المتعرق قبل أن تخفض يدها وتضعها فوق صدرها الخافق بشدة.

لقد نال منها ما حدث بالأمس، فاخترق أحلامها واحتل ذهنها المضطرب فزاده اضطرابًا.

****

«الوجه الآخر للنجاة»

تحركت قدماها ببطء شديد تتوسلان صاحبتهما كي تتراجع، كي تفر، كي تنجو بنفسها قبل فوات الأوان، لكنها حثت الخطى لتدخل من البوابة ماشية في الممر الموصل إلى البيت، وكلما اقتربت منه زاد عجزها عن إزاحة عينيها عنه أو حتى الفرار منه، داهمها شعور غريب بأنها قد دخلت هذا البيت مسبقًا، لكن عقلها لا يستطيع التمسك بذكرى محددة! تكاد أن تقسم إنها سبق ودخلته، لكن متى؟

لم يكن أول ما لفت انتباهها في هذا البيت القديم الذي تتكون بنايته من طوابق ثلاثة هو جدرانه ذات الحجر العتيق الذي منحه طابع القسوة تمامًا كصوت صاحبه الذي سمعته على الهاتف، لكن ما شدها كانت أشجار

الياسمين المزروعة في أحواضٍ تلتف من حوله! شجر الياسمين بأوراقه الخضراء وأزهاره البيضاء كان متناقضًا مع البيت الجاف في تصميمه، لا يعرف فن المعمار أو جمال التزيين.

أغمضت أمنية عينيها، ثم أخذت نفسًا عميقًا ملأت به رئتيها من رائحة الياسمين التي أزكمت أنفها مع اقترابها من البيت الكبير كتعويذة تشدها للاقتراب أكثر والدخول، تقدمت في سيرها ثم بالشعور الغريب نفسه بسابق المعرفة دارت حول البيت تتجاهل الباب الأمامي، حتى وقفت أمام الباب الخشبي الخلفي للبناية، الذي تُرك مفتوحًا.

دخلت أمنية بحذرٍ ترفع رأسها إلى أعلى محدقة إلى الأسقف العالية كحال البيوت القديمة، وقد بدا كطابق كامل يبدو خاليًا لكنه في الوقت نفسه مزدحم! جدرانه قديمة الدهان، لكن هناك جدارًا لم يكتمل تلوينه. هناك من مر بهذا الجدار فترك فيه أثرًا أوشك أن يكون جميلًا بذلك اللون الغريب على البيت حاملًا شغفًا وجرأة ودفئًا. تشعر وكأنها كانت هنا من قبل، إلا أنها لا تتذكر لون هذا الجدار وكأنه ما كان موجودًا.

تحركت تمشي بخطواتٍ مترددة تتأمل المكان مجددًا حتى توقفت عيناها على صورة معلقة فوق الجدار في إطار مذهب تضم مجموعة من الأشخاص.

اقتربت لتنظر إليها من كثب، لكن الصوت المهيب جاء من خلفها: «أتيتِ أخيرًا».

استدارت شاهقة لتجد نفسها واقفة أمام رجل ضخم مخيف الملامح كصوته وبيته، مخيف ككل شيء، فصرخت!

****

«ربما آن أوان الرحيل»

زفرت ترنيم منهَكة في عودتها إلى بيتها بعد نهار عمل ممل، تسير من زقاقٍ إلى أضيق منه، تجر قدميها محاوِلة اتقاء شر الحفر الموحلة، لا تتمنى في تلك اللحظة سوى إلقاء نفسها على سريرها.

ها هي ذي البناية المتهالكة تلوح لها في آخر الطريق المتكسر، تتوق لانقضاء آخر الخطوات وصولًا إليها، لكن على ما يبدو أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وبالنسبة إليها فأيٌّ مما تتمناه لا تدركه.

تلك هي حياتها، الملخص الحزين لحياة موحشة زاد من شقائها ذلك الذي ظهر لها فجأة وكأنه انبثق من شقٍّ من حممٍ باطن الأرض!

لا تعرف متى ظهر، لكنها رأته فجأة متكئًا بكتفه إلى جدار البناية يتلاعب بسلسالٍ سميك بين أصابعه، بينما تثبتت عيناه عليها بتلك النظرات ذات الشهوة القذرة التي لا يبذل جهدًا لإخفائها، بل يتفاخر بها كلما التقاها في خروجها ودخولها، وكأنه عقاب فُرض عليها.

توقفت مكانها للحظة واحدة فقط تجبر نفسها على ملاقاة عينيه بتحدٍّ وشجاعة كي لا تشعِره بخوفها، ثم تابعت سيرها بخطواتٍ ثابتة حتى وصلت إلى باب البناية وأوشكت على تجاوزه والدخول راجيةً المستحيل، لكنه في لحظة اعترض طريقها ليمنعها من الدخول واقفًا أمامها كحائط سدَّ سبيل الفرار، تعمدت إبقاء عينيها بعيدتين عنه ورسم ملامح جافة مزدرية على وجهها.

مرت اللحظات حتى نظرت إلى عينيه وأمرته بنبرة عنيفة مهدِّدة دون أن ترفع صوتها: «ابتعد عن طريقي يا صبحي».

إن كانت تخيلت امتثاله لأمرها بمثل تلك السهولة واليسر فستكون غبية مغبَّية، لكنه حوار معتاد عليها البدء به لتدخل معه في دوامة من العنف المكتوم حتى تتمكن من الفرار منه في النهاية لتختبئ خلف باب شقتها الوضيعة.

التوت شفتاه بابتسامة فجة ومال إليها قائلًا بنبرته المطاطة المثيرة للاشمئزاز والتقزز: «أتعلمين أنكِ الوحيدة من أهل المنطقة التي لا تزال تناديني باسمي الحقيقي؟ لدى الجميع هنا أنا ذخيرة، مما يجعلني أتساءل إن كان لهذا دلالة خاصة بيني وبينك».

أتبع الكلمتين الأخيرتين الخفيضتين بحركة من لسانه لامس بها طرف شفته أشعرتها بالقرف، ككل ما فيه يقرفها، قميصه القطني الممزّق كبنطاله الجينز، تلك السلاسل التي تتدلى من عنقه والخواتم التي تشوّه أصابعه ذات الأظافر الطويلة، والخواتم والأظافر لم تكن تشبهًا منه بالإناث، بل كانت الخواتم الثقيلة المدبّبة والأظافر الحادة أسلحة إضافية يستخدمها في الترويع وكأنه ينقصه المزيد من الأسلحة، ولقبه يشهد بهذا، فقد أُطلق عليه لقب ذخيرة لتوفر السلاح معه بصفة دائمة.

لقد أجبرها العمل على إتقان الشراسة في مواجهة من يحاول التطاول عليها وتجاوز الحدود التي فرضتها حول نفسها، فتتحول في لحظة واحدة من قطة وديعة إلى نمرة قادرة على نهش أحشاء المتعدي، لكن مع صبحي فالأمر يحتاج منها إلى التمهل والحيلة قبل الاندفاع لكسب عدائه الصريح.

صبحي واحد من أخطر مجرمي المنطقة، معروف أنه من الهجّامة على الطرق والقطارات والشقق، مهنته معروفة للجميع، بل وللشرطة أيضًا، ولا يكاد يحاسَب على أفعاله إلا نادرًا، فهو يروّع أهل منطقته كما أنه مهم للعديد من الكبار.

لقد تعلمتْ أن في اعتراضه لطريقها لا جدوى من الاستدارة والاستغاثة بأهل المروءة والشهامة لمنعه عنها، فلا أحد يجرؤ على التدخل، إذ سيفقد حياته في لحظة غدرٍ ولن يحاسَب الجاني على الأرجح، كلٌّ عليه حماية نفسه بنفسه، وهذا هو الدرس الذي تعلمتْه منذ أن وضعها صبحي برأسه ولمعت عيناه لها. نعم تخافه رغم شراستها التي أجبرتها عليها الأيام، تخاف الإجرام في عينيه والانتهاك في نياته، لقد انتُهكت روحها من الحياة مرارًا، فعلى الأقل فلتسعَ بكل الطرق لحماية جسدها من الانتهاك.

لذا أجبرت نفسها على الرد بقساوة واقتضاب: «ابتعد».

لكنه على العكس اقترب أكثر، فتراجعت خطوة تمنع نفسها من الهرب كي لا تظهر له خوفًا، وكأنما تتعامل مع كلب مسعور بسياسة وحذر.

مال بوجهه كي تتحرك عيناه ببطء على كل ذرة من جسدها، مما جعل غثيانها يتزايد وانتظرت متصلبة ترتعد داخليًا حتى صعدت العينان البشعتان إلى عينيها.

قال: «تأخرتِ اليوم يا... أستاذة».

كان لديها لقب هي أيضًا، لقب ساخر مرير، لقب اكتسبته بنزاهة بعد التخرج في كلية الحقوق منذ سنواتٍ، لكنها لم تعمل بشهادتها مجبورةً على ترك «الأستاذية» والبحث عن أي مصدر دخلٍ آخر.

تصميمه على مناداتها بالأستاذة ينكأ الجرح ويعزّز السخرية في صوته.

أغمضت عينيها وهمست بشدة من بين أسنانها وكأنها تترجى نفسها كي لا تتهور: «لا شأن لك بخروجي ودخولي. وابتعد».

لكنه لم يبتعد، بل مال مجددًا مقترِبًا خطوة أخرى، فتراجعت أمامه تكاد أن تتعثر في حجرٍ ناتئ خلف قدمها.

فقال بنبرته المقيتة: «لمَ كل هذا الشقاء يا بنت الناس وأنا أريدك في الحلال؟!».

زمّت شفتيها وأجبرت نفسها على رفع رأسها له محدقة إلى عينيه بصلابة، ثم همست بتقزز: «وهل يعرف مثلك الحلال يا صبحي؟».

لمعت عيناه بشرٍّ للحظةٍ ثم لم يلبث أن ضحك ضحكة خشنة لها رائحة كريهة.

رفع كفيه قائلًا بصوتٍ لم يأبه بخفضه: «أخطأتِ يا أستاذة، أعرف الحلال، فأنا أقدّمه أولًا».

صمت للحظة اختفى خلالها العبث وغابت الابتسامة ثم اقترب منها ليهمس كالفحيح: «فإن لم يُجدِ، حينها أفرض الحرام فرضًا».

ارتعش كل جزء منها لكنها أبقت رأسها مرتفعًا أمام تهديده الفاجر، فابتسم مجددًا، حينها فقط لم تتحمل ابتسامته أكثر من هذا.

دفعته في صدره بقبضتيها تصرخ فيه بانفعال: «لقد طفح الكيل، ابتعد عن طريقي».

تحولت عيناه في لحظةٍ إلى عينَي مجرم، أي عادتا إلى طبيعتهما الحقيقية.

ثم همس بنبرة وعيد: «يشفع لكِ جمالك، لكن الصبر لم يكن يومًا حبيبي، ومع ذلك تحملتُه فصبرتُ عليكِ حتى الآن، بإمكاني أن آخذ الأصغر، لكني فضّلتكِ أنتِ فلا تبالغي. الثقل صنعة، وصنعته لا بد أن تكون بمقدارٍ كي لا يلقي بكِ في الخطر».

اندفعت بكل قوتها تدفعه في كتفه كي تمر، وقد سمح لها، لكن لا لشيء إلا ليمد يده فيلامس بها جسدها بحركة قذرة أجفلتها، فشهقت بصوتٍ عالٍ ثم استدارت على عقبيها وفي لمح البصر هوت على وجهه بصفعة احمرَّت لها وجنته من قوتها!

ساد الصمت حولهما وكأن الحي المزدحم قد خلا فجأة من ساكنيه، أما هو فتراجع إلى الخلف ذاهلًا، فلم يتوقع أن تقدِم أنثى تدرك مدى شرِّه على تصرف كهذا على مرأى ومسمع من أهل منطقته!

كانت تلهث وقد عرفت أنها قد ألقت بنفسها للتو في جحيم ولن يرحمها في الأيام المقبلة، هذا إن لم يخرِج سلاحه الأبيض ليشوّه وجهها على الفور ودون انتظار.

استطاعت سماع صوت الشهقات الخفيضة من خلفها والهمهمات المصدومة، لكن أيًّا منهم لم يحاول التقدم لنجدتها.

رفع صبحي يده ببطء ليلامس بها مكان صفعتها دون أن يحيد بعينيه عن عينيها، فانتظرت مصيرها دون أن تخفض وجهها، فإن لاقت حتفها فلتلقَه بشرفٍ لآخر لحظة.

لذا صرخت فيه بجنون مطلقة العنان لغضبها: «أقسم أن أقطع لك يدك العفِنة إن أعدتها».

الآن بات صوت الشهقات مسموعًا أكثر، تبًّا لجبنهم، فلو كان والدها موجودًا...

غامت عيناها شاعرة بنفسها ضائعة في مهب الريح والخطر وفخ القذارة، لكن ما فعله صبحي هو أنه تنحى جانبًا وابتسم لها ابتسامة شريرة ظهر معها ضرس أسود.

ثم مد يده قائلًا بصوتٍ خفيض له نغمة مرعب: «اصعدي إلى جحرك يا أستاذة».

رمشت بعينيها غير مصدقة، ثم حل الخوف محل الحيرة لكنها لم تنتظر كثيرًا، بل اندفعت تجري لتصعد درجات السلم المتكسرة الضيقة تاركة تابع الشيطان خلفها، أتراه يتركها؟!

****

«أن يشتهيها شقي خطِر لهو أشبه بالجن العاشق الذي يتلبَّسها عازمًا على التغذي بالنجاساتِ فلا يحرِّرها أبدًا، وتوصَم باسمه إلى الأبد».

التعب الذي كان يحتلها غاب، والرغبة في النوم تسللت بعيدًا، فقد كان هناك شعور واحد سيطر على باقي أحاسيسها وحوَّلها إلى ارتجاف مستمر، إنه شعور الخوف!

جلست على سريرها رافعة ركبتيها إلى صدرها، تحيطهما بذراعيها محدقة إلى الجدران المتآكلة بعينين حمراوين واسعتين لا تذرفان الدموع حتى، لأول مرة ينتابها الخوف من المبيت وحيدة على الرغم من أنها تعيش بمفردها منذ فترة طويلة، لكن الليلة شعرت بالخوف وكأنها طفلة تنام وحدها للمرة الأولى، كل صوت في الخارج بدا مجسَّمًا كأشباحٍ تطرق جدرانها، الأنابيب الصدئة لها أصوات كأصوات الأقدام خارج باب غرفتها. تحركت حدقتاها في زوايا الغرفة المعتمة شاعرة بالذعر يطبق على صدرها، ظلت مستيقظة حتى تجاوزت الساعة الثالثة صباحًا، وبدأ جفناها في التثاقل وتضاعف احمرار عينيها، لكن كلما أغمضا انتفضت وفتحتهما بالقوة، حتى إنها صفعت نفسها

آخر مرة بإصرار كي لا يهزمها النعاس، وما إن فعلت حتى سمعت أصواتًا غريبة جمّدتها مكانها، الأصوات لم تتوقف طوال الليل، لكن هذه المرة بدت قريبة جدًا جدًا، بدت وكأنها داخل الشقة!

ازدردت ترنيم لعابها واتسعت عيناها أكثر ترهف السمع، لكنها لم تسمع شيئًا، فحاولت تهدئة نفسها وإقناعها أن النعاس مع الخوف يرسمان لوحات من التخيلات لا أساس لها من الحقيقة.

انخفض وجهها قليلًا حتى لامس ذقنها ركبتيها، لكنها قفزت فجأة مذعورة على صوت ارتطام في شقتها، لا مجال للخطأ الآن!

قفزت من فراشها وسحبت السكين التي أخفتها تحت وسادتها ثم اندفعت تجري خارجة من غرفتها تتبع أثر الصوت، رافضة أن يشلّها الخوف الذي قبض قلبها، إنها غريزة البقاء.

كان الصوت آتيًا من الزاوية الصغيرة التي تُعد مطبخًا، وما إن اقتربت منه حتى رأت الحقير يدخل من الشباك الذي تمكن من خلعه ليتلوى بجسده عابرًا وكأنه ثعبان مرن! وما إن حطّت قدماه على الأرض حتى التقت أعينهما للحظة واحدة ثم ابتسم تلك الابتسامة المرعبة المقيتة، وفي اللحظة التالية صرخت ترنيم بصوتٍ عالٍ واندفعت تجري تجاه باب الشقة، لكنه كان أسرع منها، فقبل أن تصل إلى الباب شعرت بذراعٍ تلتف حول خصرها لتعتصره بعنفٍ جعلها تظنه سوف يقطعها نصفين دون شك، ولم تجد الفرصة كي تصرخ مرة ثانية، فقد كتمت كفه فمها وأنفها معًا!

على الرغم من فقدانها القدرة على التنفس، فإنها حاولت التصرف بسرعة، فرفعت السكين التي تمسك بها وضربته بكل قوة لتخترق بها فخذه، مما جعله يصرخ ألمًا فخفّف من ضغط كفه وذراعه فتلوّت حتى تحررت منه شاهقة تطلب النفَس ثم النجدة صارخة بجنون، لكن لسوء حظها لم تكن ضربتها بالقوة الكافية، فقد بدت سطحية وهو يلقي بالسكين بعيدًا ليهجم عليها مجددًا فيقع معها أرضًا بينما هي تصرخ مخترقة تكميمه لها.

لم يسبق لها أن اختبرت عنفًا كهذا من قبل، لقد كان كحيوانٍ هائج لا سبيل لرده، وبعد لحظاتٍ من المقاومة العنيفة شعرت بأنها النهاية، سينال منها ويحصل على ما يريد، وتأكدت حين سمعت صوت تمزق ملابسها تحت يديه الجائعتين.

غامت عيناها حين التقتا بعينيه البشعتين بشراهة مخيفة، فليس هناك أسوأ من حيوان شرس إلا حيوانٍ فقد المتبقي من وعيه، فرائحة فمه وحركاته كانت تدل على أنه تعاطى الكثير، وعلى الرغم من ذلك لم تقِل قوته البدنية كما تعشمت، أهذه هي النهاية حقًا؟!

الهواء ينسحب والظلام يتزايد، وعيها يتراجع لكن ليس للدرجة التي تجعلها تغفل عن أصابعه المنتهِكة لها، أطبقت عينيها بشدة وهي تصرخ صرخة عالية مفزِعة، ثم اندفع الدم في عروقها فجأة لتنتهز فرصة أطبقت خلالها بأسنانها على جانب عنقه رافضة أن تحرِّره!

اتسعت عيناه ألمًا صارخًا كصرختها وحاول إبعادها عنه لكنه فشل، حتى اضطر إلى القبض على عنقها بكفيه كي تحرِّره من أسنانها الحادة، وعيها يتراجع أكثر لكنها ترفض أن تفقده فتفقد نفسها معه، لذا دفعت ركبتها لتضربه بجنون، ضربة أصابت هدفها فتلوى عنها ألمًا.

حينها فقط شعرت بنفسها تتحرر، فلم تدخر لحظة واحدة، بل اندفعت تجري تجاه الباب صارخة.

كانت في حالة من الإعياء جعلتها لا ترى خروجها أو نزولها على درجات السلم الضيق، تكاد أن تلقي بنفسها على درجاته كلها دفعة واحدة، أذناها تسمعان صوت صراخها المتواصل وكأنها منفصلة عن نفسها تراقب ما يحدث في صمت، لم تدرك سوى أنها أصبحت في الطريق وقد بدأ أهل الحي في الخروج من بيوتهم وشرفاتهم باحثين عن مصدر الصراخ المرعب.

تجمع حولها ثلاثة أفراد، ثم أربعة ثم ستة، اندست بينهم وهي لا تزال تصرخ في اللحظة التي خرج فيها صبحي من باب البناية مترنحًا باحثًا عنها بعينَي مجنون، حتى استقرتا عليها بين المتجمعين حولها.

لم تلحظ أن أصابعها قد تشبثت باثنين منهما خوفًا من أن يتخلى عنها أهل الحي خوفًا من بطشه، وبخاصة وهو يبدو بمثل هذا الحال من فقدان السيطرة.

أخرج سلاحه الأبيض من جيبه شاهرًا إياه في الهواء صارخًا بهمجية: «ابتعدوا».

شعرت بالتردد حولها، شعرت بخوفهم فازداد تشبثها بمن تطاله خوفًا من الخذلان والجبن، لكنهم لم يتحركوا حتى الآن.

صرخ صبحي يكاد أن يتعثر ملوحًا بسلاحه: «في لحظة أستدعي رجالي».

تهديده لم يكن من الفراغ، فلديه العديد من الهجّامة والمُسجّلين يستطيع استدعاءهم ليتحول هذا الحي في لحظة واحدة إلى ساحة مشتعلة بالنيران والسيوف، وقد سبق واندلعت معارك مماثلة مرتين أو ثلاث خلال حياتها هنا، لكن أيًّا منها لم يكن سببه اختطاف فتاة عنوة على مرأى ومسمع من الجميع، فهل بلغت سطوته الحد الذي يجعله قادرًا على تنفيذ تهديده؟!

هتفت مترجية وهي تنتفض: «لا تتركوني، أرجوكم».

هتافها اليائس يبدو أنه حرّك فيهم مبتغاه، فقد تحركوا قليلًا لكن لا ليبتعدوا، بل ليقتربوا أكثر وهي بينهم محدقين إلى صبحي بحذر.

نطق واحد منهم: «لقد فجر، لقد فجر وإن تركناه الليلة فسيدور على بناتنا كل ليلة».

ترنح صبحي مجددًا مهددًا بسلاحه ناظرًا حوله إلى الأعين المحدقة إليه ما بين غضب وترقب، أهو الفقر ما يلقي بالجبن في القلوب فتتراخى النخوة وتغيب الكرامة أمام العيش بالكاد؟ وكأن إيجاد اللقمة هو النجاة الوحيدة ويصبح الطريق الوحيد المتاح هو السير بجوار حائط آيل للسقوط لا يستر ولا يسند!

لوّح بسكينه مجددًا محدقًا إليهم بشراسة مع تزايد عدد الخارجين من بيوتهم، فتراجع باصقًا في الأرض ثم أومأ برأسه متوعدًا.

هدر متوعدًا ملوّحًا بذراعه مهددًا الجميع: «سترون، جميعكم سترون».

تحركت عيناه حتى اصطدمتا بعينَي ترنيم، فازدادتا كرهًا للغنيمة التي فشل في نيلها غصبًا.

أشار إليها ببطء قائلًا: «أما أنتِ... أنتِ، أقسم أن أخرِجك من هنا نجسة كوالدك».

وكأن الصفعة التي تلقاها على وجهه ردها إليها لكمات ولكمات في كلمات أوقعتها ميتة داخل جسد جامد يخرِج نفسًا ضئيلًا ويأخذ آخر سامًا، أيتوعد النجس الآخرين بالنجاسة؟ وكأنه ميراث كُتب عليها أن ترثه غصبًا!

تراجعت إلى الخلف مندسة بين أهل الحي وكأنها تستتر شاعرة بعري يفضحها بين الأعين، تراقبه وهو يتحرك مبتعدًا باصقًا في الأرض، يرميها بنظرة أخيرة حملت لها من نياته خبرًا واضحًا.

ما إن اختفى المدعو ذخيرة حتى بدأ الجميع في الالتفات إليها، كانوا يتكلمون في صوت واحد، منهم من يسألها إن كانت بخير، ومنهم من يسأل إن كانت في حاجة إلى الذهاب إلى طبيب، ومنهم من لا يحبها فيقف صامتًا معترضًا. تداخلت أصواتهم وملامحهم فلم تسمع شيئًا ولم تميز أحدًا، لم تكن تود سوى التستر والابتعاد عن الأعين المتفحصة، تضم سترة منامتها الواسعة شاعرة برجفة تنخر عظامها مهلِكة أعصابها.

حين بقيت صامتة في مواجهة الأسئلة شعرت بيدٍ تربت على كتفها فانتفضت مذعورة إثر الصدمة المتأخرة، وحدقت بعينين واسعتين حمراوين إلى وجه شيخ طيب من أهل حيها.

دعاها قائلًا بعطف: «تعالي لتبيتي ليلتك مع زوجتي وبناتي يا بنتي».

حركت ترنيم عينيها ببطء تجاه زوجته التي كانت تقف خلفه، وعلى الرغم من أنها أومأت برأسها ببطء موافقة، فإن ترنيم تمكنت من رؤية الخوف في عينيها جليًا، مؤكد، الخوف الذي يشل القلوب من ذلك الطاعون الذي انتشر في جسد الأزقة الفقيرة في السنوات الأخيرة متمثلًا فيمن امتهنوا البلطجة مروِّعين بها الجميع، فما الذي يضمن لتلك الأم ألا يعود ذخيرة ومعه بعض

من رجاله ليهاجموا من تجرّأ على إيوائها؟ وربما لا يكتفي بها، بل يتهجم على بناتها معاقبًا!

نقلت عينيها بين الوجوه فصدح أذان الفجر منقذًا منتشرًا في السماء، مما منحها بعض الراحة وجعلها تتمكن من النطق أخيرًا بصوتٍ ميت.

قالت: «لقد آن الفجر وانقضت الليلة، شكرًا لك، سأعود إلى شقتي».

تحركت مبتعدة تتجاوز من يحاول السؤال عنها أو عما قد تحتاج إليه، مسبلة جفنيها تزيد من ضم سترتها بقوة تاركة هم الليلة الآتية لوقتها.

****

هذه المرة لم تكن جالسة على سريرها، بل جالسة على المقعد الثقيل في مواجهة باب شقتها، وقد بدأت الشمس في الشروق تتسلل أشعتها لتلقي بوهجها الذهبي فوق خصلات شعرها المشعث، محدقة إلى ذلك الباب بعينين حمراوين بلون الدم، لكن دون دموع ترطب جفافهما، مطبقة شفتيها كما هما كفاها مطبقتان على ذراعَي المقعد وكأنها تمثال لا حياة فيه.

كم مرة جلست محدقة إلى الباب منتظرة عودة والدها! سنوات وهي تنتظر سماع صوت مفتاحه في الباب المتقشر، ترفض سماع صوت أمها الغاضب بمرارة وأسى تذكّرها على الدوام بأنه لن يعود، لقد فر بجبنٍ وتركهما وحيدتين كلقمة سائغة للكلاب، المتبقي من طفولتها ومراهقتها وبداية شبابها انتظرته محدقة إلى الباب هامسة لنفسها بأنه سيعود يومًا، لا بد وأن يعود، يخبرها أنه أخطأ في حقها وأمها وأنه دفع ثمن خطئه غاليًا، وأنه هنا الآن ولن يغادر أبدًا، فقد انتهى زمن الفرار.

انتظرت سماعه يقول: «سامحيني يا ترنيم، لقد عاد والدك ولن تحملي همًا بعد الآن، سامحيني»، وكانت ستسامحه، كانت ستسامحه، أما الآن ما عادت تنتظر، كانت تحدق إلى الباب فحسب مفكرة أنه آن أوان الاستسلام، أنه ربما آن أوان الرحيل.

انطلق صوت رنين هاتفها لكنه لم يجفِلها، فقد ظنت أنها فقدت الإحساس بكل شيء وأن روحها باتت خاوية جوفاء، فنظرت إلى الهاتف ببطء شديد وبلا تعبير قبل أن تمد يدها لتمسك به وتضعه على أذنها مجيبة بصوتٍ خفيض فاتر معاوِدة النظر إلى الباب.

أتاها الصوت المألوف يقول: «أعرف أن اتصالي مفاجئ في مثل هذه الساعة المبكرة يا ترنيم، لكن لدي خبرًا لكِ».

فتحت فمها تسأله دون تحية أو ترحيب بصوتها الخفيض: «أسمعك».

ساد الصمت للحظات ثم سمعت تنهيدته قبل صوته وهو يقول باقتضاب: «توفيت فاتن قبل ساعات».

بدا وكأن الكلمات قد اخترقت المسافة بينهما حتى حلقت في الفراغ من حولها، ثم توقفت كما توقفت معها اللحظات.

سألها بقلق: «ترنيم! أما زلتِ هنا؟».

رمشت بعينيها الجافتين ثم لعقت شفتها قبل أن ترد: «هل أستطيع مكالمتك بعد قليل؟».

بدا صوته متفهِّمًا وهو يوافقها على الفور، وبكلمة خافتة وضعت الهاتف جانبًا ثم عقدت ذراعيها محدقة إلى الباب تتأمل عروقه الخشبية الصامدة عبر السنوات، حتى بدأت تلك العروق في التلوي كأفاعٍ حية، ثم تشوشت صورتها وكأنها تسبح في بركة ضحلة، تلك البركة لم تكن سوى دموع أغرقت عينيها خلال لحظاتٍ ثم بدأت تثقل وتثقل حتى انحدرت على وجنتيها بصمتٍ أولًا حتى انفجرت فجأة في بكاءٍ عنيف، شاهقة بمرارة، مطبِقة عينيها بألمٍ لا يُطاق.

****

«الشبح»

الهروب من حيها الفقير الذي أصبح موصومًا بالعشوائية في السنوات الأخيرة كان مرعبًا، تشعر وكأن ذخيرة يراقبها مرسلًا كلابه خلفها، كانت

هاربة وكأنها المجرمة! أما الأكثر رعبًا فهو دخولها تلك الشقة الباردة ذات الجو العطن خلف امرأة ضخمة تتقدمها بخطوات بطيئة حذِرة.

توقفت ترنيم تلقائيًا خلفها، فالتفتت إليها المرأة قائلة بخفوت: «ادخلي بقدمك اليمنى وسمِّي الله ثم اقرئي الفاتحة».

تبعتها ونفَّذت ما قالت بطاعة، وبخاصة أن المرأة سبقتها في قراءة الفاتحة همسًا والعديد من الأذكار.

نظرت ترنيم حولها شاعرة بقبضة تطبق على صدرها، كما سرت رجفة مفاجئة في أوصالها، وكأن تيارًا باردًا اجتاحها رغم سخونة المكان المغلق، كان الظلام يعم أرجاءه، فاتجهت المرأة إلى النافذة وأزاحت الستائر ثم فتحتها ليتسلل بعض الضوء كي تتمكن من رؤية المكان بشكلٍ أوضح، لكن وكأنما كانت الرؤية أشد ترويعًا من الظلام. جالت بعينيها في المكان تزدرد لعابها بصعوبة، لم يسبق لها أن رأت مكانًا سوداويًا تسكنه الأشباح كهذه الشقة الضيقة!

لقد نُظِّف كما تعهدت صاحبة البناية، لكن وكأن الآثار لا تُمحى! خوف وغضب ودماء كثيرة في كل مكان خلف الجدران المغسولة غسلًا.

التفتت صاحبة البناية إلى ترنيم مدقِّقة النظر إليها بتفحص، متلاعبة بالمفتاح بين أصابعها ثم قالت: «أنتِ أول المستأجرين لها بعد الحادثة، لم يرغب غيرك في السكن فيها، فمن ذا الذي يقبل بمكانٍ سبق وقُتل فيه قتيل؟!».

كانت عينا ترنيم تتحركان في كل جزء باهت مقبض، ثم نظرت إلى المرأة وأجابتها: «أنا أقبل، وإن ظهر لي شبحه في ساعات الليل ستسعدني مواجهته».

استقرت عيناها على البقعة التي يُفترض أنها كانت المقر الأخير لجسد ذاك القتيل في هذه الشقة، ملقى فوق أرضها الخشبية، وانتفض كيانها حين صوَّر لها أنها رأته في لحظة خاطفة، لا يزال هناك، فعقدت ذراعيها وهي تطبق عينيها بشدة ترجو أن يختفي، وما إن تعيد فتحهما يبدو أنه استجاب

لرجائها، فبمجرد أن فتحت عينيها ببطء كانت الأرض أمامها خالية، فارتجف النَفَس المتسلل من بين شفتيها.

انتبهت إلى تدقيق المرأة فيها، لذا أخذت نفسًا آخر عميقًا حاولت أن تبدد به الغبار الذي ملأ رئتيها وكأنه رماد ناعم سام، وكأنه غبار يحمل تلك الرائحة المنفِّرة المقبِضة.

رددت بصوتٍ خفيض: «سأمكث في الشقة يا سيدتي».

ضاقت عينا المرأة قليلًا ثم طالبتها بصوتها الجاف: «ناديني بأم درويش».

ثم اقتربت منها وربتت على كتفها قائلة: «ارتاحي الآن وغدًا سنحكي، أمامك شهر، فإن تمكنتِ من الصمود خلاله ولم يخترق الخوف قلبك فلتدفعي للشهر التالي».

ربتت على كتفها مجددًا ثم ابتعدت متجهة إلى الباب.

وقبل أن تخرج التفتت إليها مضيفة: «أغراض ساكنيها متراصة في المخزن أسفل سلم البناية، انتابني الخوف من أن تصيب المكان بالفقر، لكن فكرت أن تبقى في حال جاء أحد من أقاربهم سائلًا عنها».

صمتت للحظة محدقة إلى عينَي ترنيم اللتين لا تبديان أي رد فعل.

ثم تنهدت قائلة: «أي إن المكان خالٍ فلا تقلقي».

أومأت لها بصمت فخرجت المرأة مغلِقة الباب خلفها بهدوء، وما إن فعلت حتى نظرت ترنيم حولها وهمست: «هيا اخرج وواجهني، لقد هربتُ لتوي من شقيٍّ يطاردني، فلن يخيفني شبح لا يملك ضرًا ولا نفعًا».

لكن في منامها تلك الليلة، أول ليلة لها تحت سقف تلك الشقة، رأته، رأته واقفًا، بل جثته واقفة أمامها، محدقًا إليها بعين واحدة في وجه أزرق مشوه ومغطى بالدماء، بينما العين الأخرى مفقودة.

منظر شديد البشاعة جعلها تنتفض جالسة على سريرها صارخة بصوتٍ عالٍ، ولم تتوقف صرخاتها حتى تمكنت اللحظات التالية من إقناعها أنه كان مجرد كابوس، وأنها وحيدة في تلك الشقة اللعينة، إلا إن كانت الأشباح تحيط بها.

****

مع كل خطوة تخطوها كانت تشعر بالثقل فوق صدرها يتزايد وبات التنفس صعبًا، يزداد في الصعوبة كلما تقدمت أكثر، لم تأكل، منذ متى؟ لا تتذكر آخر وجبة تناولتها. لم تنم لما يزيد على اليوم الكامل، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل كان الظلام كالساحر المغوي، يسحب جفنيها إلى أسفل فتقاومه بعناء، وزنها يزداد في كل خطوة، ليس بسبب الحقيبة الصغيرة التي تحوي كل ما تمتلكه في الحياة، بل لأن الوهن زاد فناشدها جسدها للنزول أرضًا بأي وسيلة، لكنها كانت تقاومه كذلك وتجبر نفسها على متابعة السير، تشعر وكأنها خرجت من شقة أم درويش منذ سنوات، لكنها في الحقيقة خرجت منذ يومين فقط.

شهر كامل قضته في شقة لم يرحمها الشبح الساكن فيها ولو لليلة، يزورها كل ليلة فتراه وكأنه يقف أمامها محدقًا إليها من لحم أزرق فاسد خالٍ من الدماء، إلا تلك المتجمدة حول التجويف الخالي من عينه المفقودة!

الرائحة تزكم أنفها وتجعلها غير قادرة على التنفس كل ليلة، فتجري لتفتح الشباك على الهواء البارد لتطردها، لكن دون جدوى. كان شهرًا له رائحة الجثث ولون الدم، قضته ترتعد منطوية على نفسها فوق سرير قاسٍ، حتى استيقظت ذات نهارٍ مدركة أن أوان الرحيل قد حان من جديد، فلم تتأخر لحظة واحدة إضافية، هزمها الشبح وفرت مطلِقة ساقيها للريح، أفلت النفَس المنهَك من بين شفتيها الزرقاوين فوازنت حِمل حقيبتها التي بدت ثقيلة أكثر مما تحتمل، واستندت بأصابع يدها الأخرى على أعمدة سور حديدي محيط ببيت كبير، لكنها لم تتوقف، بل تابعت سيرها ويدها تجري فوق الأعمدة المتتالية مستعدة أن تدعمها في اللحظة التي ستسقط فيها أرضًا.

رأت ترنيم بوابة السور على بعد أمتارٍ قليلة منها، فحثت قدميها مجددًا وبقوة أكبر إلى أن وصلت إليها، فأمسكت كلتا يديها بقضبان البوابة وفتحت فمها لتنادي أي إنسانٍ يسمعها.

في المرة الأولى لم يسمعها أحد لخفوت صوتها الذي بدأ يذوي مهدِّدًا بضياع المتبقي من وعيها.

لكنها استجمعت كل ما لديها من قوة متهالكة وهتفت: «مرحبًا، هل هناك أحد؟».

للحظات لم يصدر أي صوت، فأصدرت أنينًا يائسًا شاعرة بعدم القدرة على الوقوف أكثر، لكن في تلك اللحظة فُتح باب غرفة مجاورة للسور وخرج منها رجل ضخم يرتدي جلبابًا، هرول مقبلًا عليها حتى وصل إليها ووقف أمامها والسور بينهما، ملامحه شديدة السمار، جافة، ولها خطوط عميقة محفورة، يراقبها بعينيه الحذرتين العابستين.

ودون أن يبادر بفتح البوابة هتف بصوتٍ خشن يسألها: «من تريدين؟».

لهثت ترنيم في النطق بضعفٍ محاوِلة التمسك بقضيبَي البوابة: «ساعدني يا عم، أشعر بتعبٍ شديد».

ازداد انعقاد حاجبا الرجل الكثيفين وهو يدقق النظر إليها دون أن يستجيب لرجائها، فلم يتحرك لفتح البوابة.

رد: «اذهبي من هنا، رزقك على الله».

شعرت بالدنيا تدور من حولها والأرض تميد بها، فهمست بكلمة رجاء بصوت غير مسموع، وقد بدأ الظلام يتكاثف من حوله فحجب رؤيته، ثم بدأت أصابعها تتراخى عن السور فوقعت حقيبتها أرضًا قبل أن تتلاشى من حولها كل الأصوات وتغيب الرؤية عن عينيها، ثم وقعت لاحقة بحقيبتها فلم تسمع هتاف الرجل المصدوم.

****

مع بداية عودتها إلى الوعي انتابها خوف شديد شلَّ أطرافها للحظات، ففتحت عينيها دفعة واحدة على أقصى اتساعهما، حاولت الحركة وحاولت النطق لكنها كانت مصابة بالشلل اللحظي كما يحدث لها في الكثير من

الأحيان، عيناها تبصران مكانًا غريبًا يضمها، حيث تستلقي محدقة إلى السقف لكنها لا تستطيع التحرك أو الصراخ، أطرافها مشلولة والرعب يغمرها.

دمعة فرت من عينها فانزلقت على وجنتها الباردة بينما قلبها ينتفض بشدة، سيزول، كل هذا سيزول خلال ثوانٍ معدودة، لكن تلك الثواني تبدو لها كدهر مضنٍ تنتظر انقضاءه، ثم وببطء شديد بدأت أطرافها في الاستجابة لأوامر عقلها المثابر، فتحركت بضعف، وحينها انطلقت صيحة مختنقة من حلقها سرعان ما لحقتها بقفزة من السرير المستلقية عليه، ثم وقفت تترنح ناظرة حولها بقلبٍ خافق.

كانت في غرفة نومٍ صغيرة لا يوجد بها سوى السرير الذي كانت تحتله منذ لحظة، دارت حول نفسها لا تعلم أين هي، إلى أين نُقلت؟!

ثم استقرت عيناها على باب الغرفة، فجرت إليه حافية القدمين وفتحته وخرجت، لتجد نفسها في بهوٍ صغير خالٍ من كل شيء. الجدران خالية والأرض خاوية، تقف في منتصفها تدور حول نفسها، تزدرد لعابها وأصابعها ترتفع لتتخلل خصلات شعرها بعصبية، بينما أصابع اليد الأخرى مستقرة فوق صدرها الخافق بعنف. شقة خالية من كل شيء إلا منها والسرير فحسب، أين حقيبتها؟!

اتسعت عيناها أكثر ثم عادت جريًا إلى غرفة النوم تبحث عن حقيبتها في الأرجاء، لكن لم يكن لها أي أثر! لقد أخذوا حقيبتها!

عادت تجري خارجة من باب الغرفة، ثم قطعت البهو الخالي تنوي الفرار من باب الشقة، لكن الصدمة أنه كان موصدًا. فغرت ترنيم فمها تحاول مجددًا مرة بعد مرة، مع كل مرة يتأكد لها أن الباب موصد ولا أمل من فتحه.

كانت تطرق عليه بقوة هاتفة: «افتحوا الباب».

لكن لا مجيب لها، وكأنها استيقظت لتجد نفسها الناجية الوحيدة على سطح الكرة الأرضية.

تراجعت عن الباب بخطواتٍ متعثرة، ثم فطنت لوجود نافذة، جرت إليها وحاولت فتحها لكنها كانت موصدة كذلك. نظرت عبر الزجاج المغبّر محاولة

تبيُّن مكان وجودها، فرأت نفسها على ارتفاع طابقٍ ثانٍ أو ثالث تقريبًا لبناية أو بيت تحيط به حديقة، كان يفترض بها أن تكون حديقة، أرضها ليست خضراء، بل ترابية تنقصها الحياة، أما الأشجار فالكثير منها ذابل والباقي منه الجذوع الخشبية التي تحاول الصمود. ثم السور المحيط بالبيت، السور ذو القضبان التي تشبثت به ليلة أمس، إذن فهي داخل البيت الذي وقعت على بابه، محتجَزة دون أغراضها، لا أحد قادر على سماع صراخها إن فعلت.

تراجعت عن النافذة تشهق دون دموع، واستمرت في التراجع دون توقف ناظرة حولها بخوف، حتى ارتطم ظهرها بجدار فتركت لنفسها حرية الوقوع جالسة أرضًا، ثم رفعت ركبتيها إلى صدرها تضمهما بشدة وتحدق إلى الفراغ من حولها منتظرة مصيرها المجهول.

مضى الوقت بطيئًا، لا ساعة لديها لتعرف كم من الوقت مضى وهي جالسة على هذا النحو، لا شيء لديها سوى قسوة الانتظار.

تركوها بالساعات مرجِعة رأسها تسند به إلى الجدار من خلفها، محدقة إلى السقف، حتى سمعت فجأة صوت مفتاح في باب الشقة، انتفض رأسها ترفعه لتحدق إلى الباب برهبة، تراه يُفتح ولم تجد القدرة على النهوض، بل ظلت مكانها تترقب من قرّر فك أسرها.

ضاقت عيناها على العباءة السوداء التي طل طرفها من خلف الباب، كانت امرأة تلك التي دخلت الشقة، امرأة كبيرة في العمر لكن تبدو قوية ترتدي السواد، ملامحها قاسية ككل شيء في هذا البيت.

عيناها سوداوان، يحيط بوجهها وشاح أسود كذلك. ارتجفت ترنيم بخوف رفضت أن تظهِره، فعضّت باطن شفتها بقوة حتى أدمته محدقة إلى المرأة التي بادلتها النظر بعينين قويتين مخيفتين دون أن تترك ذرة منها إلا وتفحصتها.

ابتعدت ترنيم بظهرها عن الجدار ووضعت كفيها على الأرض بجوارها، وكأنها تستعد للهرب في أي لحظة شاعرة أن تلك المرأة تبدو كحيوانٍ شرس مستعد لأن ينقض عليها إن حاولت الفرار!

لكنها تكلمت فجأة، تكلمت بصوتٍ عميق النبرة، آمرًا بطبيعته وكأنها لا تعرف للترحيب أصولًا.

قالت: «إذن فقد استيقظتِ، ظننتك ستنامين يومًا كاملًا نظرًا إلى مقدار التعب الذي كنتِ عليه».

ازدردت ترنيم لعابها دون أن تحيد بعينيها الواسعتين عن عينَي المرأة المحدقتين إليها بقسوة.

ثم تكلمت بصوتٍ خفيض أجش: «أين... أين أنا؟».

رفعت المرأة ذقنها وأجابت بصوتها الأشبه بصوت الرجال: «أنتِ في المكان الذي وقعتِ أمام بابه ليلة أمس».

تحركت حدقتا ترنيم تدوران في أرجاء المكان الخالي ثم همست بعد فترة ببطء: «نعم، بالأمس كنت متعبة وجائعة، كنت في حاجة إلى المساعدة، لكن أظنني غبت عن الوعي قبل أن أتمكن من الطلب».

ساد الصمت فنظرت من تحت جفنيها إلى المرأة وتابعت همسًا: «أليس هذا ما حدث؟».

مالت المرأة برأسها ثم ردت رافعة حاجبيها: «تملكتني الصدمة حين دخلتُ غرفة عوض لأرى فتاة شابة ممددة على سريره في ساعة متأخرة».

رمشت ترنيم بعينيها ورددت بحيرة: «عوض!».

وضّحت المرأة باقتضاب: «الغفير».

أومأت ترنيم برأسها بتردد ثم سألت بخوف: «لكن لمَ أنا محتجزة هنا؟ وأين حقيبتي؟».

للمرة الأولى ترى ابتسامة على الوجه القاسي لتلك المرأة، هذا إن كان ذلك الارتفاع الطفيف الملتوي على شفتيها يعد تبسمًا.

أجابتها بجفاء: «اعذريني على إغلاق الباب، لكن وجود شابة غريبة في بيتي لا أعلم عنها شيئًا لم يشعرني بالراحة، فأنا متوجسة بطبعي ولا أثق في الآخرين كثيرًا، أما حقيبتك فقد أخذتها لنبحث في هاتفك أو محفظتك عن واحد من أهلك يمكننا أن نتصل به».

غامت عينا ترنيم على الفور وانخفض وجهها ثم أجابت بخفوت: «ليس لي أي أحد».

تفحصتها المرأة بتمعن، ثم أومأت مجيبة: «هذا ما استنتجته حين لم نعثر على أي شيء قد يساعدنا، فقررت الانتظار حتى تفيقي لتخبرينا عن نفسك».

أطرقت ترنيم بوجهها أكثر وانخفض جفناها دون أن تدلي بجواب.

قالت المرأة بعد لحظات باختصار وقد سُمع صوت من خلفها: «أظنك جائعة».

فور أن سمعت ترنيم الكلمتين استطاعت أن تشم رائحة طعام لم يمس جوفها منذ وقت طويل جدًا، جعلتها الرائحة ترفع رأسها منتفضة لترى الغفير المسمى عوض يظهر من خلف المرأة حاملًا صينية عليها بعض أطباق الطعام الشهي، فأشارت له أن يضعه أمامها، فقفزت ترنيم لتجلس فوق ركبتيها بعينين واسعتين لاهثة من شدة الجوع، مترقبة صينية الطعام التي اقترب بها الرجل حتى انحنى ووضعها أمامها على الأرض ثم تراجع ليبتعد، لم تحاول التظاهر بالعكس أو بالكرامة، بل انكبت على الطعام تأكل بشكلٍ همجي مستخدِمة كلتا يديها مصدِرة أنينًا كالعواء الضعيف.

راقبتها المرأة طويلًا في جوعها ونهمها وضعفها، فقد بدت أشبه بالمتسولين فاقدي كل شيء من هذه الدنيا.

ثم تراجعت قائلة بنبرتها الآمرة التي تبدو وكأنها لا تعرف غيرها: «سأتركك الآن كي تنهي طعامك، وربما تشائين العودة إلى النوم بعدها، فالإرهاق لا يزال باديًا على وجهك».

ارتفع وجه ترنيم على الفور وقد عاود الخوف ظهوره فوق ملامحها، فهتفت بصوتٍ مرتجف: «هل ستغلقين الباب مجددًا؟».

كانت المرأة قد استدارت لتغادر، إلا أنها توقفت فور سماعها لكلمات الفتاة، فالتفتت إليها ترقبها بتدقيق ثم ظهر الالتواء المتبسِّم على شفتيها من جديد.

وردت ببطء معقِّبة: «يبدو أنكِ أكثر مني توجسًا، الباب سيظل مفتوحًا، يمكنك الخروج وقتما تشائين، كما سأرسل حقيبتك مع عوض فور انتهائك من طعامك».

أخفضت ترنيم وجهها ثم همست بصوتٍ مرتعد: «اعذريني، فتجربتي مع آخر مكانٍ سكنته كانت مرعبة».

ساد الصمت قليلًا ثم قالت المرأة أخيرًا: «أنتِ لا تسكنين هنا، أنتِ مجرد ضيفة»

أطرقت ترنيم برأسها وقد تباطأت أسنانها في الأكل مفكِّرة في لحظة الخروج من هنا بينما استدارت المرأة لتغادر، إلا أن ترنيم سألتها بسرعة قبل أن تختفي: «هل يمكنني أن أسألك سؤالا أخيرًا؟ ما سبب خلو هذا المكان بهذا الشكل؟».

تنهدت المرأة وقد بدا عليها نفاد الصبر لكنها أجابت بخشونة: «لأننا حملناكِ إلى الشقة الخالية التي لا نستخدمها، أما أنا فأسكن في الطابق الأول».

صمتت قليلًا ثم نظرت إلى عينَي ترنيم بنظرة قاسية وأضافت بصوتٍ فظ آمر: «أنا لا أسمح ببقاء غريب في بيتي تحت أي ظروف، لذا أنصحك ألا تتجولي في البيت براحة، ابقي داخل حدود هذه الشقة الخاوية حتى تستردي قواكِ ثم اخرجي من هنا».

اتسعت عينا ترنيم بعدم تصديق، لقد طردتها المرأة لتوها بشكل صريح ومباشر دون أي تزيين من المكان!

فتحت فمها تنوي الرد بترجٍّ علها تتراجع، لكن المرأة قاطعتها قائلة بجفاء: «أراكِ لاحقًا يا ترنيم».

اتسعت عينا ترنيم قليلًا مصدومة، فالتوت شفتا المرأة ساخرة من خوفها المرضي وعقَّبت: «لقد بحثت في حقيبتك، أرجو ألا تعتبري تصرفي انتهاكًا لخصوصيتك».

لم تجد ردًا ترد به، لكنها لم تحتَج إلى واحدٍ، فقد ردت المرأة بنفسها بصلفٍ زائد: «أو اعتبريه كذلك، فأنتِ على أرضي وتلك قوانيني تجاه الأغراب».

****

فتشت في حقيبتها مقلِّبة في أغراضها، كل شيء موجود، محفظتها وهاتفها وملابسها القليلة وبعض الأغراض الخاصة، تنهدت براحة لحظية، فعلى الأقل بعد أن أكلت حد الشبع تمكنت من التحمم وبقيت تحت الماء الساخن لفترة طويلة، كان جسدها المتصلب في حاجة إلى كل لحظة منها، لكن الراحة لم تطُل، فالأفكار تتزاحم في عقلها، فتلك المرأة صاحبة البيت لا بد وأنها ستطالبها بالخروج في أي لحظة، فماذا تفعل حينها؟

اقتربت من النافذة ووقفت أمامها عاقدة ذراعيها تراقب الحديقة الجرداء الترابية، مقفرة وكئيبة كحال كل جزء في هذا البيت، لقد أوشكت الشمس على المغيب وسرعان ما سيحل الظلام من جديد.

دلَّكت ذراعيها، لا تزال ترتدي قميص نومها ولم تبادر بتبديله استعدادًا للمغادرة، إنها متعَبة، لا تزال متعَبة للغاية حتى بعد النوم والأكل والتحمم، ربما، ربما عليها الرحيل فحسب.

غارت عيناها فشدَّدت من عقد ذراعيها شاعرة بالبرد يسري عبر فقرات ظهرها وأوصالها، فحتى هذه اللحظة لم تخرج من باب تلك الشقة الكبيرة الخالية، لا يمكنها تبيُّن مَن فوقها أو مَن تحتها، لا تعرف من موجود في هذا البيت الصامت تمامًا وكأنها الوحيدة فيه.

وضعت يدها على صدرها تكتم تنهيدة مرتجفة محاوِلة تهدئة نفسها، عليها تدبُّر أمر المبيت لنفسها قبل أن يحل الظلام من جديد، لذا استدارت وقد عزمت الخروج من الباب أخيرًا.

حين خرجت وجدت أمامها سلمًا يوصل إلى الأعلى والأسفل، وكانت الشقة التي خرجت منها في المنتصف، وقفت محتارة للحظات ثم قررت الصعود.

وما إن وضعت قدمها على الدرجة الأولى حتى سمعت صوتًا آمرًا صارمًا تردد صداه في تجويف السلم: «أظنني أمرتك ألا تتجولي بحرية».

انتفضت ترنيم كاتمة شهقة خوف وبقيت مسمَّرة مكانها للحظاتٍ قبل أن تتمكن من تمالك نفسها، ثم اقتربت من حاجز السلم وتشبثت به بأصابعها وأطلت برأسها تنظر إلى الأسفل، فرأت المرأة صاحبة البيت واقفة أمام باب مفتوح خرجت منه لتوها في الطابق السفلي، رافعة وجهها ذا الخطوط القاسية المحفورة تحدق إليها بعينين غاضبتين.

تكلمت ترنيم بصوتٍ مرتبك: «خرجتُ لأبحث عنكِ؛ أردت الكلام معك».

زمَّت المرأة شفتيها بشدة ثم ردت بقساوة: «أخبرتك أنني في الطابق السفلي».

ارتعشت ترنيم فأجابت وقد تضاعف ارتباكها: «أعتذر، لم أتذكر معلومة كهذه، سامحيني، لم أقصد التطفل».

رمقتها المرأة بنظرة سوداء أخافتها، إلا أنها تراجعت في النهاية ولوَّحت لها آمرة بجفاء: «انزلي، تعالي».

زفرت ترنيم بنفَس مرتعش ثم تحركت لتتجه نزولًا، لكن في نزولها رفعت رأسها لأعلى قليلًا متسائلة عما تخفيه هذه المرأة بالأعلى، لكن سرعان ما أخفضت وجهها وسارعت بالنزول.

دفعت الباب ببطء ثم دخلت مُجيلةً عينيها حولها في شقة واسعة على نحو واضح، لها أسقف عالية، شقة أثاثها ضخم يفتقر إلى الجمال، وكأنه مكان لم يعرف بهجة أو تهاونًا.

قالت المرأة: «هل انتهيتِ من تقييمك لبيتي؟».

أجفلت مع سماعها لصوت صاحبة البيت، فنظرت إليها بسرعة ثم همست مجددًا: «أعتذر».

هزت المرأة وجهها قليلًا ثم لم تلبث أن قالت: «كفاكِ اعتذارات. ماذا تريدين؟».

تلك المرأة جافة المشاعر لا تعرف ترحيبًا، تمامًا كما لا يعرف بيتها ذوقًا ولا جمالًا!

شبَّكت ترنيم أصابعها ثم همست بصوتٍ ضعيف يائس: «لقد أردت أن... ما أردت قوله هو...».

لم تحاول المرأة مقاطعة تخبُّطها المؤلم في الكلام، بل اكتفت بمراقبتها حتى توقفت عاجزة ثم رفعت أصابعها تضغط بها جبهتها.

أغمضت عينيها وتنهدت بيأس قبل أن تهمس مجددًا بخفوت: «لا مكان لدي، ولا أحد ألجأ إليه، أنا مرتعبة من فكرة الخروج لليلة أخرى دون مأوى».

ضاقت عينا المرأة وارتفع حاجباها ثم سألتها بنبرة ساخرة: «ماذا تقترحين؟ أتودين البقاء هنا؟!».

كل أملٍ لديها زال مع صوت الاستهزاء في كلماتها.

لكنها حاولت من جديد: «إن سمحتِ لي بالبقاء حتى أجد مكانًا آخر، فالبحث في الطريق وحقيبتي على كتفي مأساة ترعبني فكرة تكرارها».

عقدت المرأة ذراعيها متفحصة ترنيم بعينين ذاهلتين في عمقهما رغم خطوطهما الخارجية التي لم تتغير في صلابتها.

ثم قالت أخيرًا ببطء شديد: «يا لكِ من فتاة جريئة!».

أطرقت ترنيم بوجهها الذي امتقع بشدة وزادت من ضغط أصابعها حتى كادت أن تكسرها.

ثم تمكنت من الهمس بصعوبة: «سامحيني، أظن أن كرمك معي خلال الساعات الماضية بعد ساعاتٍ سبقتها من الجوع والتجول والتعب الشديد قد زودني بتلك الجرأة».

ضاقت عينا المرأة وابتسمت، فغاص قلب ترنيم مجددًا إلا أنها سألت ببساطة: «كيف آوي غريبة ربما تنتظر الفرصة المناسبة كي تنحر عنقي بسكين خلال نومي؟!».

ساد صمت مخيف بينهما وقد حاكى شحوب وجه ترنيم بياض الموتى محدقة إليها بعينين واسعتين مصدومتين.

ثم لم تلبث أن هزت رأسها هامسة: «يا إلهي! لماذا أبادر بإيذاء من فتح لي بيته؟!».

خرجت ضحكة عميقة خشنة من حلقها مجيبة بهدوء: «بإمكاني منحك ألف سبب».

أطرقت ترنيم بوجهها الشاحب ثم همست بصوتٍ ميت لا يحمل تعبيرًا: «هل أرحل الآن إذن؟».

حتى وهي تطرح السؤال ذا الجواب المفروغ منه كان لديها بعض من الأمل، فلا يُعقل أن تخرج الآن!

التفتت المرأة إلى النافذة البعيدة عنها وظلت صامتة للحظات، ثم أعادت عينيها إلى ترنيم فاستقرت بهما فوق وجهها الضائع.

قالت بصوتها الجاف: «لقد حل الظلام وكان ما كان، يمكنك البقاء حتى الصباح».

انتفضت ترنيم ناظرة إليها بصدمة غير مصدِّقة.

سألتها المرأة بعد لحظاتٍ متهكمة: «لا أرى الرضا على ملامحك، إن كان أملك قد خاب فيمكنك الخروج الآن، فأنتِ حرة».

رمشت ترنيم بعينيها محاوِلة استعادة سيطرتها وقواها الخائرة، فهمست برهبة: «أنا فقط... أنا لا أدري كيف يمكنني شكرك».

التوت شفتاها أكثر ثم استدارت توليها ظهرها، وابتعدت معلِنة أن الزيارة غير المرغوب فيها قد انتهت.

وبالفعل قالت بصرامة: «اصعدي إلى المكان الذي نزلتِ منه ولا تخرجي منه إلا صباحًا».

ازدردت ترنيم لعابها بصعوبة قائلة: «شكرًا لكِ».

تحركت لتبتعد، لكنها توقفت للحظة ثم استدارت إليها سائلة: «أيمكنني معرفة اسمك؟».

التفتَ وجه المرأة قليلًا لكنها لم تستدر، فلم تتبين ترنيم تعبير وجهها.

ردّت: «بالنسبة إلى ضيفة ستغادر في الصباح فأنتِ تطلبين الكثير، لكن يبدو أنني اليوم متساهلة أكثر مما يسمح به طبعي المتحفِّظ عادة. اسمي عوالي».

استدارت ترنيم لتخرج مضطربة وقلبها يخفق بسرعة جنونية، إلا أن عوالي استوقفتها.

قالت: «عليّ القول إنكِ إما شديدة التهور وإما شديدة السذاجة والغباء كي تلقي بنفسك تحت رحمة أناس لا تعرفين عنهم شيئًا، فربما كان في البيت سفاح أو مجنون أو حتى مغتصِب».

فغرت ترنيم فمها شاعرة بتجمد الدم في أوردتها.

تابعت عوالي كلامها قائلة: «عليكِ أن تكوني أكثر حذرًا في المستقبل. تصبحين على خير يا ترنيم».

****

«هجّام وشبح و....»

لا أسوأ من ترقُّب اقتحام بلطجي عبر نافذة المطبخ، أو ظهور شبح في ظلام الحد الفاصل بين النوم والوعي إلا الجلوس في شقة خالية من كل شيء إلا من سرير ببيت غريب أشباحه مجهولة، يتردد صدى كل حركة عبر الجدران، لا يوقِفها الفراغ فترسم في الخيال كل القصص المرعبة التي يمكن أن يحيكها الذهن المرهَق.

حفيف أوراق الأشجار اليابسة أو المتبقي منها، وصفير الريح وكأنها صراخ فتاة تستغيث من بعيد، حتى عراك القطط قد ينبئ بقدوم السفاح أو المجنون كما أشارت عوالي!

أحيانًا تسمع صخبًا وصياحًا عاليًا، لكن بالنسبة إليها فهو خفيض لبُعده، لا يمكن تمييزه وكأنه تجمعٌ أو تجمهرٌ.

أطبقت ترنيم عينيها مطرِقة برأسها، فتلك المرأة محقة، وجودها هنا ضرب من الجنون ستدفع ثمنه غاليًا.

هدأ صفير الريح كما توقف الصياح البعيد منذ فترة، فتنهدت محاوِلة اللجوء للراحة، لكنها لم تجد الفرصة لتلتقط أنفاسها، فصوت آخر أوقف شعر رأسها. خطوات في الخارج على درج السلم!

حملقت في الغرفة الخالية بعينين واسعتين ووجه باهت، ثم نهضت من مكانها ببطء شديد وبحذر، سارت فوق أطراف أصابع قدميها الحافيتين لتخرج من بابها متجهة إلى باب الشقة، فوقفت خلفه مباشرة ثم أرهفت السمع في الظلام، لقد تجاوز صوت القدمين بابها وتابع صعوده.

لم تكن خطوات عوالي المتمهّلة الرتيبة، بل كان صوت قدمين مندفعتين قويتين، أيمكن معرفة الغضب من خلال صوت الخطوات؟!

أقسمت إن صاحب الخطوات غاضب في اندفاعه، وتوقعت أن تسمع صوت باب يُصفق، لكن الخطوات توقفت للحظات ثم عاودت النزول مجددًا! مؤكد أن صاحب الخطوات سيتابع النزول إلى طابق عوالي، لكن الخطوات المندفعة أبطأت بالتدريج مع اقترابها مما جعلها تقترب من الباب أكثر وتضع أذنها فوقه ثم... توقفت الخطوات خلف بابها مباشرة!

اتسعت عينا ترنيم وشعرت بتوقف دقات قلبها، هناك من يفصلها عنه باب فقط، يقف ساكنًا دون حركة أو صوت! وفجأة ودون توقُّع ضربت قبضة قوية الباب بينهما، مما جعل صرخة فزع تخرج من فمها وهي تتراجع إلى الخلف حتى وقعت أرضًا.

مؤكد أن صاحب الضربة سمع صرختها ولا يزالٍ واقفًا، فخط ضوء السلم تحت عقب الباب يقطعه ظل قدمين متباعدتين بتحفُز.

رفعت ترنيم كفها لتطبق بها فوق فمها مانعة نفسها من إصدار أي صوت آخر، وظلت قابعة مكانها أرضًا في الظلام بعينين جاحظتين للحظاتٍ بدت لها كعشرات السنين، حتى تحركت القدمان أخيرًا لتبتعدا، حينها فقط سمحت لنفسها بأن تفلت نفَسًا شاهقًا مرتجفًا.

****



الفصل الثاني

«يطول بنا الهرب من الأشباح، ثم نكتشف أننا كنا نلاحقها»

انقضى الليل المرعب ولم تنَم إلا مع حلول الأمان الذي جاء به شروق الشمس، تمكنت أخيرًا من اختطاف ساعات قليلة جدًا مطمئنة أن الأشباح لا يسرُّها نور الصباح.

انقضى الليل وها هي ذي من جديد تخرج من ملاذها غير الآمن لتواجه أمرًا جديدًا من صاحبة البيت بالطرد. توقفت خارج بابها ترفع عينيها إلى الطابق الذي يعلوها متذكرة ضربة الأمس على بابها، لقد كان صاحبها مجنونًا غير متزن العقل، تمامًا كما حذرتْها عوالي، لكن لحسن الحظ لم يحاول التهجم عليها، فقد صعد ليختبئ في جحره، لكنه لم يسكن خلال ساعات الليل المتبقية، فقد قضتها مرهفة السمع لأصوات ضربات وخبطات فوق رأسها مباشرة، مما زاد فزعها وتقوقعها حول نفسها، وكأن أحدهم محتجَز بالأعلى يأسره المجنون الذي ضرب على بابها.

مدت يدها تمسك بحاجز السلم تدقق النظر إلى أعلى، أمامها ثوانٍ معدودة قبل أن تطرق باب عوالي لتواجه مصيرها بالخروج من هنا، فهل ترضي الوحش الكامن داخلها بالصعود إلى أعلى وتفقُّد ما يخفيه؟

تنهدت مبعِدة الفكرة عن بالها، فلو ضبطتها عوالي فلن ترأف بمحاولتها التوسل للبقاء.

ضغطت جرس باب شقة عوالي مرارًا لكن لم تجد ردًّا، من الواضح أنها خرجت غير مترقِّبة لانصرافها مما منحها المزيد من الوقت. أوشكت على التحرك صعودًا لولا أن سمعت أصواتًا صاخبة وعالية وقد عادت من جديد، الأصوات نفسها التي سمعتها بالأمس! ليلة أمس ظننتها خارج حدود هذا البيت لبُعدها، أما الآن فقد تيقنت أن الأصوات قريبة وأقرب مما كانت تظن.

تجاوزت شقة عوالي وتابعت نزولها متتبعة الأصوات بحذر، التي قادتها إلى الجانب، تلتف حول بناء البيت وكلما اقتربت ارتفعت الأصوات فغاص قلبها. يوجد طابق أرضي، من الواضح أن بابه في الجانب الخلفي من البيت. تقدمت خطوة، والثانية...

ثم سمعت صوتًا يسأل من خلفها: «من أنتِ؟».

للمرة الثانية في هذا البيت تنتفض مستديرة على عقبيها ويدها فوق صدرها وقد باغتها أحدهم في تلصُّصها! استغرقت قدرتها على النطق بضع لحظات تمكنت خلالها من استيعاب الفتى الذي يقف أمامها محدقًا إليها بعينين واسعتين، يبدو تحت سن الثانية عشرة مستندًا إلى عكازٍ يعوِّضه عن ساق مبتورة.

رمشت بعينيها، بينما رافقت ابتسامة مصدومة اتساعَ عينيه وهو يقول: «فتاة!».

تحركت حدقتاها بريبة ثم اعتبرته سؤالًا، فأجابت بحذر: «أظن هذا».

ضحك ضحكة بلهاء فابتسمت رغمًا عنها بقلق، لكنه رد ضاحكًا: «غبية!».

اختفت ابتسامتها وعبست قليلًا إلا أنه مال برأسه يتأملها.

ثم قال ولا تزال الدهشة تتملكه: «لم يسبق لنا أن رأينا فتاة هنا!».

مسحت كفيها المتعرِّقتين بفستانها قائلة بخفوت: «حقًّا؟! أما أنا فقابلت السيدة عوالي، صاحبة البيت!».

أشار بكفه مجيبًا وهو يضحك: «وهناك أيضًا عزيزة زوجة عوض الغفير، لكنني لا أقصد النوع، قصدت فتاة مثلك».

تملَّكها الحذر على الفور ثم سألته بنبرة متحفِّظة: «ماذا تقصد بفتاة مثلي؟!».

كانت في عينيه نظرات إعجاب أقرب للانبهار، وكأنه لم يرَ فتيات في الحياة، لا في هذا البيت فحسب.

رد عليها دون تردد: «فتاة شابة وجميلة، لكنك لا تشبهيننا».

تنهدت ترنيم بنفاد صبر وهي تضع كفًّا فوق الأخرى بينما تنظر إلى الفتى النحيل شاحب الوجه الذي يبدو في حاجة ماسة إلى تغذية أفضل مما يحصل عليها بكل تأكيد.

قالت: «من أنتم بالضبط؟».

لكن عوضًا عن أن يجيب عن سؤالها نظر خلفها ونادى كمن عثر على كنز: «انظروا ماذا وجدتُ!».

استدارت على الفور ثم تسمرت مكانها وهي تجد نفسها في مواجهة أربعة فتيان آخرين يقاربونه عمرًا يحدقون إليها وعلى وجوههم الصدمة نفسها، والرغبة في العبث.

****

تعالى صوت صراخها بينما تتراجع ملتصقة بواحدٍ من جدران البيت، تحاول الهرب على كفيها وركبتيها كالقطط دون جدوى، فكلما حاولت الفرار اعترضها واحد منهم سامحين لأقواهم وأكثرهم ضخامة بإفزاعها من جديد ملوِّحًا بالفأر الذي يمسك بذيله، فيتدلى أمام وجهها يكاد أن يلامسه.

اقشعر جسدها وانهارت أعصابها بينما يحيط بها صوت ضحكاتهم العابثة الصاخبة.

صرخت: «يا سيدة عوالي، يا عم عوض، ساعداني».

شعرت وكأنها ستبقى أسيرة لديهم إلى الأبد، حتى سمعت أخيرًا صوت الخلاص متمثلًا في صوت الغفير هاتفًا: «ابتعد يا مجرم، ابتعد أنت وهو، ابتعدوا».

هجم عليهم عوض ممسكًا بعصا ضخمة ملوِّحًا بها، بينما لم تجرؤ ترنيم على رفع رأسها، بل أحاطت به بكفيها محتمية منهم بالأرض.

صرخ منهم من أصابته العصا بينما ازداد جنون وضحك من أفلت.

فصرخ عوض مجددًا: «ستنالون ما تستحقون من السيدة عوالي والسيد «علي»».

لكن الصخب لم يتوقف، حتى ارتفع صوت آخر أكثر صرامة وشدة فوق صوت الجميع: «ما الذي يحدث هنا؟!».

وكأن الصوت القوي الآمر قد أوقف الجنون السائد في لحظة واحدة، حيث توقف الفتيان الأربعة على الفور محدقين إلى المرأة التي وقفت أمامهم غاضبة الملامح مستعرة العينين.

مرت بضع لحظات قبل أن تتمكن ترنيم من سماع صوت عوالي يهدر مجددًا: «سبق وحذرتكم من تكرار أيٍّ من أفعالكم الهمجية في هذا البيت».

رفعت ترنيم وجهها الشاحب أخيرًا تنظر لاهثة إلى عينَي عوالي الغاضبتين، فأرعبتاها من شدة سيطرتهما والسطوة فيهما.

ثم أجفلت مع سماع صوتها العالي مجددًا غاضبًا شديد اللهجة: «هذه المرة سأكتفي بحرمانكم من طعام الغداء، أما إن تكرر منكم أي تصرفٍ آخر غير مقبول فجزاء صاحبه الطرد من هنا والعودة إلى الشارع من جديد، ما دام أنه غير قادر على نبذ تصرفات الشوارع».

تحركت عينا ترنيم بقلق فوق ملامح الفتية التي بدت متمردة غاضبة، لكن أيًّا منهم لم يجرؤ على الاعتراض، فرمقتهم عوالي بنظرة أخرى حادة عنيفة قبل أن تحط بعينيها فوقها، مما جعل ترنيم ترتعش متراجعة أكثر وكأنها تخشى العقاب كالفتيان، لكن عوالي وعلى الرغم من نظرتها القاتلة لها، فإنها لم تفعل سوى إصدار أمرها بخشونة.

قالت: «عودي إلى المدخل الآخر، هيا».

أومأت ترنيم برأسها بصعوبةٍ شديدة ثم تحركت متعثرة لتنهض على قدميها مستندة إلى الجدار من خلفها، وألقت نظرة أخيرة على الوجوه المتمردة قبل أن تستدير لتجبر ساقيها على الهرولة مبتعدة.

نظرت عوالي إلى عوض وسألته بحدة: «أين كنتَ حين خرجتْ من البيت وذهبتْ إليهم؟!».

هتف عوض مبرِّرًا: «خرجتُ لدقائق معدودة فحسب لأحضر شيئًا من الدكان على أول الطريق، والله لم أتأخر يا سيدة عوالي، وعند عودتي وجدتُ هؤلاء المجرمين يحتجزون الآنسة».

زمّت عوالي شفتيها مدركة أنه غادر ليبتاع الدخان منتهزًا خروجها، فرمقته بنظرة قاتمة انخفض لها وجهه.

ثم التفتت إلى الأولاد وقالت بصرامة: «حين يقرصكم الجوع اليوم، ستتعلمون الأدب».

لم يجبها أيٌّ منهم، بل رمقوا بعضهم بعضًا بضيق وعلامات محاولة لجم الشر في أعينهم بادية، فتركتهم واستدارت عائدة إلى الباب الأمامي للبيت.

كانت ترنيم في انتظارها على درجات السلم متمسكة بالسور بقبضتيها، وما إن رأتها حتى هتفت بوجهٍ شاحب: «لم أكن أعلم أن هناك أحدًا غيري هنا في البيت، صدقيني، لم أقصد أن...».

قاطعتها عوالي بصوت غاضب ممسكة بطرف عباءتها تصعد الدرجات القليلة الفاصلة بينهما: «لا أصدق مدى تطفلك، ليس فقط في أنكِ ما زلتِ هنا، بل وأيضًا تتجولين في المكان وكأنكِ تملكينه متسببة في المصائب».

هتفت ترنيم مبرِّرة: «كنتُ في انتظار عودتك، شعرتُ أنه ليس من المناسب انصرافي قبل رؤيتك».

ردت عوالي غاضبة ملوِّحة بإصبعها في وجهها: «بل انتظرتِني كي تتابعي توسلك في البقاء هنا، والآن اجمعي أغراضك وانصرفي حالًا».

هتفت ترنيم متوسلة بالفعل: «لكن لا مكان لدي...».

قاطعتها عوالي بصوتٍ أكثر قوة: «الآن».

ودون كلمة إضافية فتحت باب شقتها ودخلت ثم صفقته خلفها بعنف، استدارت ترنيم بوجهٍ يائس وكتفين منخفضتين بخذلان، فأبصرت أمامها خارج باب البيت الفتى ذا الساق المبتورة ينظر إليها وقد بدت على وجهه ملامح تأنيب الضمير.

****

أغلقت سحَّاب حقيبتها بعنفٍ ثم لكمتها بقوة مصدِرة صيحة غضب، ووقفت محدقة إلى الغرفة الخالية من حولها واضعة كفيها على خصرها، انتهى كل شيء وضاعت فرصتها في البقاء، وما عليها الآن سوى الرحيل.

غامت عيناها فابتعدت عن السرير واقتربت من النافذة عاقدة ذراعيها، من كان ليتخيل وجود هؤلاء العفاريت الذين بدوا وكأنهم انبثقوا من تحت الأرض! إذن فواحد منهم هو من أراد أن يرعبها ليلة أمس وضرب على بابها. وكأن الواقع قد امتزج بأفكارها، إذ سمعت صوت طرقات على باب الشقة، فالتفتت ناظرة خلفها عاقدة حاجبيها بتساؤل، ثم سرعان ما توقعت أن تكون عوالي تحثها على الإسراع في المغادرة.

زفرت بقنوطٍ متجهة إلى الباب، لكن ما إن فتحته حتى فوجئت بعوض الغفير حاملًا صينية طعام.

بادرها قائلًا بصوته الخشن: «السيدة عوالي أرسلت لكِ هذا الطعام كي تأكلي قبل مغادرتك، ويمكنك أخذ ما يكفيكِ منه».

مدت يديها لتأخذ منه الصينية واجمة الملامح بشفتين منتفختين كطفلٍ تعرض للخذلان، لكنه انصرف على الفور دون انتظار ردٍّ منها. نظرت ترنيم إلى صينية الطعام طويلًا، وفي الحقيقة لقد عاودها الجوع لكنها غضت الطرف عنه، ثم خلعت زوجَي حذائها ببطءٍ شديد قبل أن تخطو بقدميها الحافيتين خارج الشقة، تمد بصرها لتثبِّته على باب شقة عوالي لتنزل درجات السلم بحذر، حريصة على ألا تصدر أي صوت وكأنها تسير في حقل ألغام،

حتى تجاوزت شقتها ثم سارعت بالخروج لتدور حول البيت متلفِّتة حولها خوفًا من أن يراها عوض، لكنه كان قد ابتعد إلى غرفته بخطوات واسعة.

اتجهت إلى المدخل الخلفي ثم نادت همسًا: «أنتم، يا أولاد، أيها الهمَج».

للحظات لم تحصل على رد، فانحنت لتضع الصينية أرضًا أمام الباب الخشبي، إلا أنه فُتح فجأة فاستقامت بسرعة لتجد نفسها أمام الفتية يحملقون فيها عاقدين حواجبهم، إذن فهم الغاضبون بعد كل ما فعلوه!

زمّت شفتيها ثم أشارت إلى الصينية وقالت بصرامة: «هذا هو أقصى ما يمكن تدبره لليوم، تقاسموه بينكم».

ثم استدارت عنهم تنوي الانصراف، لكن الصبي ذا الساق المبتورة عبر فوق الصينية ولحق بها.

ناداها: «يا فتاة، انتظري».

لم تتوقف وكأنها لم تسمعه، فنادى مجددًا مما جعلها تستدير إليه هاتفة همسًا بغضب: «ششششش، سيسمعك الغفير وسيخبر صاحبة البيت».

استوقفها ملوِّحًا بيده قائلًا على مضض: «لم نقصد أن نتسبب في طردكِ».

نظرت إليه حانقة وهتفت بصوتٍ خفيض: «سيشكِّل هذا فرقًا كبيرًا بالفعل وأنا أقضي ليلتي في الطرقات».

ازداد إحساسه بالذنب فظهر على محياه جليًّا، وهذا أشعرها بتأنيب الضمير بدورها، فهي لم تكن منصِفة على الإطلاق، فقد كانت عوالي مصرة على رحيلها منذ الأمس، وهؤلاء الشياطين لا علاقة لهم بالأمر رغم حقارة ما فعلوه.

لذا تنهدت قائلة باقتضاب عابسة: «لقد طلبتْ مني المغادرة في كل الأحوال، لذا رحيلي ليس ذنبكم، لكن هذا لا ينفي سفاهة تصرفكم معي».

رد الصبي قائلًا بخشونة: «كنا نمرح فحسب».

نظرت خلفه متأمِّلة المكان ثم سألته بتمهُّل: «هل السيدة عوالي معتادة تجويعكم؟».

أجابها يرفع كتفه: «حينما نسيء التصرف، فلا شيء آخر تمنعه عنا يمكن أن يخيفنا».

تحركت عيناها بقلق إلى الصِّبية مستندين إلى إطار الباب الخشبي الضخم، كل منهم يمسك بجزء من الطعام يأكله محدقًا إليها بعنين شقيتين لكنها لم تخف، فوجود عوالي بالأعلى طمأنها، وهذا الشعور أدهشها، بل صدمها.

أعادت عينيها إلى الولد وسألته: «إذن هل هذا نوع من المأوى أو... ماذا؟».

تحركت عيناه مثلها ثم رفع كتفه مجددًا قائلًا: «ما أعرفه أن السيدة عوالي تفتح هذا الجزء من بيتها للمشرَّدين والضائعين أمثالنا تحت سن معينة، هناك من سبقونا ومؤكد أن هناك من سيأتون بعدنا، لكن ألا تعلمين هذا؟! ألم تأتي إلى هنا طلبًا للمأوى؟».

دققت النظر في المكان المحيط وتمهلت عيناها على وجوه الصبية، ثم سألت الفتى الذي يخاطبها: «لقد وقعتُ أمام الباب بالصدفة، قلتَ إنني الفتاة الأولى، ألم تأوِ السيدة عوالي فتيات من قبل؟!».

لمعت عينا الفتى بعبثٍ مجيبًا: «ليس على حد علمي، لكنها ستكون خطوة ممتازة منها إن قررتْ فعلها».

مطت ترنيم شفتيها ترمقه بجفاء ثم قالت أخيرًا بعصبية: «كي ترعبوهن كما فعلتم معي ليلة أمس حين ضربتم بابي؟».

ارتفع حاجبا الفتى بحيرة بدت حقيقية ثم عقَّب قائلًا: «لا يُسمح لنا بدخول المبنى من الباب الأمامي، لا يدخله إلا السيدة عوالي وعزيزة والسيد «علي»».

ضاقت عيناها وقد بدأ الخوف الحقيقي ينتابها من جديد إثر المعلومة البسيطة التي أدلى بها.

فكرَّرت بخفوت: «والسيد «علي»؟!».

****

طرقت على الباب بقوة رافعة ذقنها والتصميم الحاد في عينيها منتظِرة، أنفاسها تتسارع وقبضة يدها منقبضة حتى حفرت أظافرها بشدة في باطن راحتها، إن كانت سترحل في كل الأحوال فعلى الأقل لتقُل ما لديها.

فتحت امرأة بسيطة الحال الباب، مؤكد أنها عزيزة زوجة عوض، لكنه لم يكن وقت التعارف.

تكلمت معلِنة بصرامة: «أريد رؤية السيدة عوالي».

عبست المرأة وقد لاحظت الجفاء في صوت ترنيم، ثم انخفضت عيناها ببطء فارتفع حاجباها وهي ترى قدميها الحافيتين.

فتحت كفها متسائلة لكن ترنيم كررت بفظاظة: «السيدة عوالي، أعلم أنها موجودة».

فتحت المرأة فمها غاضبة تنوي صرفها بالحسنى اتقاءً لشر السيدة عوالي، إلا أن صوت الأخيرة ارتفع من خلفها يأمر بنبرة قاطعة مهيبة: «دعيها تدخل يا عزيزة».

رمشت ترنيم بعينيها مرتين مع سماعها للصوت القوي، إلا أنها أبقت ذقنها عالية رامقة عزيزة بتحدٍّ، بادلتها المرأة النظر بعدم رضا، لكنها لم تملك سوى إفساح الطريق لها كي تمر داخلة شقة عوالي.

تقدمت بخطوات غير مترددة تنظر حولها بحثًا عن صاحبة الشقة، حتى وجدتها جالسة على واحد من الكراسي الوثيرة ممسكة بهاتفها ونظارتها على عينيها، فاقتربت منها بقوة حتى وقفت أمامها مباشرة.

رفعت عوالي عينيها عن شاشة هاتفها محدقة إلى ترنيم بعينين غير مقروءتي التعبير، ثم رفعت النظارة عنهما ببطء حين أبصرت قدميها الحافيتين.

تقلصت أصابع قدمَي ترنيم لكنها تجاهلت حقيقة كونها حافية أمام تلك المرأة في شقتها وصممت على قول ما تريد.

تكلمت عوالي أولًا وسألتها: «أردتِ الكلام معي وقد بدا الأمر عاجلًا، لكنك صامتة الآن!».

ازدردت ترنيم لعابها واستجمعت شجاعتها من جديد قائلة: «خصصتِ جزءًا من بيتك للمشرَّدين ومن لا مأوى لهم، بينما ترفضين بقائي بضعة أيام! حتى إنكِ تحججتِ بتوجسك من الأغراب ورفضك لهم، أهو تحيُّز للذكور بالذات أم أنكِ وجدتِ بي ما أثار قلقك مني أكثر منهم؟!».

ضاقت عينا عوالي على ترنيم للحظات طويلة ثم تحركت يدها لترفع الهاتف إلى فمها.

قالت بصوت هادئ: «سأعاود الاتصال بك».

اتسعت عينا ترنيم مدركة أن المرأة كان لديها اتصال مفتوح خلال اللحظات السابقة، فشحب وجهها وارتبكت، حتى إن جسدها تململ راغبة في الهروب، لكنها تماسكت وظلت واقفة خاضعة لنظرات عوالي المتفحصة لها.

قالت عوالي ببطء شديد: «منذ اللحظة الأولى التي رأيتك بها أدركت أنكِ فتاة جريئة حد الوقاحة، لكن ما لم أتوقعه هو الحد الذي قد تصلين إليه في وقاحتك!».

احتقن وجه ترنيم بشدة من التوبيخ المهين وانعقد حاجباها، فأدارت عينيها بعيدًا وعضت باطن شفتها.

أما عوالي فتابعت قائلة بصوت حديدي رغم هدوئه وهي ممسكة بنظارتها تطرق بها على ذراع كرسيها: «هذا البيت الذي تقفين فيه هو بيتي، وأنا من تحدد من يبقى ومن يغادر. هل كلامي مفهوم؟».

تحرك حلق ترنيم بصعوبة وقد غامت عيناها وشعرت برغبة عارمة في البكاء، لكنها ردت بصوتٍ مختنق دون أن تسمح لنفسها بأن تذرف دمعة واحدة أمامها.

قالت: «مفهوم».

أشارت عوالي بذقنها آمرة بصلف: «الآن اذهبي».

استدارت ترنيم تسير ذليلة حافية القدمين حتى خرجت مغلِقة الباب خلفها بكل هدوء، نظرت عوالي إلى الباب المغلَق بعد انصرافها متجهِّمة الملامح غاضبة العينين لفترة طويلة، ثم تنهدت مرجِعة رأسها إلى الخلف، فقد غابت الراحة.

****

علّقت حقيبتها على كتفها ونظرت حولها مرة أخيرة بعينين فارغتين، ثم تحركت إلى باب الشقة تنوي الخروج، لكن ما إن فتحته حتى فوجئت بعزيزة تقف أمامها، مما أجفل ترنيم وبادلتها النظر عاقدة حاجبيها بترقب.

ثم قالت مستاءة: «اطمئني وأبلغي سيدتك أنني كنت خارجة لتوي».

ردت عزيزة ببرود: «السيدة عوالي سمحت ببقائك بضعة أيام حتى تجدي لكِ مأوى آخر».

اتسعت عينا ترنيم غير مصدِّقة، حتى إنها لم تملك القدرة على الرد، ففتحت فمها لا تدري ما تقوله، إلا أن عزيزة سبقتها تمد لها يدها بمفتاح.

مضيفة بجفاء: «هذا مفتاح الشقة، ستحتاجين إليه في عودتك كل يوم من بحثك عن مكان آخر لكِ».

أخذت ترنيم المفتاح بيد مرتجفة وقالت عزيزة بصرامة: «لبقائك هنا شروط عليك اتباعها، أولها أن حدود تلك الشقة هي حدودك الوحيدة، لا تحاولي تجاوزها إلا في خروجك للبحث عن مكان لكِ، كما لا دخل لكِ بالأولاد أو أي شخص آخر في هذا البيت، مفهوم؟».

سألتها ترنيم على الفور بصوتٍ خفيض مهتم: «وهل هناك غيرهم هنا؟».

رمتها عزيزة بنظرة غاضبة محذِّرة ثم ردت: «ماذا قلنا للتو؟!».

استدارت لتغادر لكنها توقفت ملتفِتة إلى ترنيم وكأنها تذكرت شيئًا آخر: «تقول لك السيدة عوالي لا تنزلي بحجة شكرها».

ارتفع حاجبا ترنيم قليلًا، لكن عزيزة كانت قد نزلت تاركة الفتاة تقف ممسكة بالمفتاح تتنفس بصعوبة، ثم خرج من بين شفتيها زفير طويل.

****

«أحيانًا يكون الخوف ناقوس خطر يحذِّرك من حرب مقبلة، فإن قررتَ خوضها تكون قد تغلبتَ على خصمك الأول»

لم تكن تلك الليلة أفضل من سابقتها، بل كانت أقسى وأفظع منها، فعلى الرغم من أنها عرفت من هم مصدر أصوات الصخب والشغب في الطابق السفلي الخلفي، فإن الأصوات المكتومة أعلى رأسها زادتها رعبًا، أصوات مكتومة والضربات لا تتوقف، أم تراها ركلات لا ترحم!

استقامت جالسة في سريرها ترهف السمع في الظلام، وفي الظلام تراءى لها شبحها من جديد، يقف عند باب غرفتها ناظرًا إليها بعينه المفقودة وجلده البارد الأزرق وجسده المتخشب، فارتعش جسدها وسارعت تطبِق عينيها بشدة واضعة كفيها على أذنيها.

الخوف هو خصمها اللعين الساكن عقلها، لا تستطيع التخلص منه لكنها لا تسمح له بهزيمتها، تقاومه لكنها عاجزة عن قتله.

ضربة قوية أتبعتها صيحة اخترقت حاجز كفيها، فوصلت إلى أذنيها مما جعلها تنتفض رافعة رأسها بعد أن حل الصمت التام للحظات، ثم سمعت صوت الخطوات تهبط على درجات السلم من جديد.

نهضت من فراشها ببطء وسارت على أرض الشقة تتلمس الجدران حتى وصلت إلى الباب، فوقفت خلفه كليلة أمس ترهف السمع، هل نزل صاحب الخطوات؟ قرَّبت أذنيها أكثر حتى لامست الباب ثم سمعت فجأة صوت تحرك قدميه خلف باب شقتها، فكتمت الصرخة هذه المرة ضاربة فمها بكفها، إنه هنا! واقف خلف الباب يفصل بينهما بضعة سنتيمترات فحسب.

وقف صامتًا بترقُّب وكأنه يستعد لاقتحام الشقة كي يرتكب جريمته في أي لحظة، وكان بها من الرعب ما جعلها غير قادرة على الابتعاد عن الباب، فظلت واقفة كاتمة أنفاسها وكأن كلًّا منهما ينظر إلى الآخر عبر الباب المغلق، أتراه سيضرب الباب مجددًا ليرعبها؟ لكن هذه المرة لم يفعل، بل

تابع خطواته لينزل باقي درجات السلم حتى اختفى صوته، على ما يبدو أنه خرج من البيت أخيرًا.

لهثت ترنيم زافرة بصوتٍ عالٍ واضعة يدها على قلبها، واليد الأخرى استندت بها فوق سطح الباب تحاول السيطرة على خوفها واضطرابها، وبعد فترة رفعت عينيها إلى أعلى وكأنها تتحقق من وجود أحدهم بالطابق العلوي.

ما هي متأكدة منه أن الشرير هو من غادر، فهو صاحب الخطوات المنفعلة وصاحب الضربة التي أراد أن يرعبها بها، كما أنه المترصد الذي وقف خلف بابها ليلًا مرتين حتى الآن.

أغمضت عينيها للحظات قليلة ثم حركت المفتاح في قفل الباب ببطء شديد، ومع سماع تكة فتحِه أخذت نفسًا عميقًا وخرجت.

****

ما تفعله هو ضرب من الجنون، الحماقة والتهور السفيه، لكن لم يكن لديها حل بديل، فهدفها تغلّب على الخوف بداخلها دون أن يقتله.

تحركت قدماها الحافيتان فوق درجات السلم الباردة ترتعشان في صعودهما، بينما يلتفت رأسها بخوف من شقة عوالي بالأسفل إلى الطابق الذي يعلو شقتها، حتى تعلقت عيناها به ما إن استقرتا على الباب الخشبي الضيق، لم يكن باب شقة، بل باب السطح، ولم يكن موصدًا، فدفعته داعية ألا يصدِر صريرًا كحال الأبواب القديمة، ثم خطت قدماها فوق أرض السطح شديدة البرودة. كانت السماء الحالكة سقفها الآن، ولم يكن هناك قمر يضيء العتمة أو حتى مصباح صغير، لكن على جانب السطح كانت هناك غرفة، غرفة لها باب مغلق ونافذة خشبية يتسلل الضوء عبر فتحات خشبها، وكأن خطوط الضوء لهبٌ يجذبها كالفراشة المصمِّمة على الهلاك، فسارعت على أطراف أصابعها حتى وصلت إلى نافذة الغرفة المطلة على السطح، ثم نظرت من بين الفتحات، كانت غرفة شديدة التواضع حد الزهد، لا تحتوي إلا على سرير خشبي فوضوي وخزنة ملابس وثلاجة صغيرة، الغرفة ملحق بها باب مفتوح لحمام ضيق، وكانت الغرفة خالية!

انعقد حاجباها محرِّكة رأسها إلى الأعلى والأسفل محاوِلة التأكد من خلو الغرفة من أي مخلوقٍ آخر سوى الوحش الذي خرج.

قبضة حديدية أغلقت فجأة على ذراعها تديرها على عقبيها، فارتطمت صارخة بهلع بصدر الرجل الذي قبض عليها، ثم اتسعت عيناها بذعر حين أسَرتهما عينان مخيفتان. كم من الثواني مرت وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر!

أفقدها الخوف القدرة على تقدير الزمن، ومع الخوف شيء آخر، فكأنما تعرفه ويعرفها، وكأنهما تشاركا العمر رغم أنها لم تره من قبل، لم يسبق لها أن رأت ملامح كتلك الملامح المنحوتة، لم ترَ عينين كعينيه مسبقًا، قادرتين على ابتلاع الإنسان في لحظة، ثم لفظِه في اللحظة التالية!

رجل يرتدي ملابس غالية، لكنها شعثاء، وكأنه انتهى لتوه من تعذيب إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة. يحيط به جو الامتلاك، لكن وكأنما هو زاهد لا يمتلك شيئًا! رجل على النقيضين من كل صفة.

مرت اللحظات وهي محدقة إلى عينيه بذعر، فاقدة القدرة على النطق، حتى سمعت صوته يسألها: «ماذا تفعلين هنا؟».

وكأن صوته هو المكمِّل المثالي والمنطقي لهيئته، فعلى الرغم من أن صوته لم يرتفع والكلمات لم تكن مهينة، فإن النبرة كانت كوقع نهايتها، ملقاة من فوق حافة الخطر.

تعلقت حدقتاها المهتزتان بغير ثبات بجرحٍ امتد على فكه قاطعًا لحيته الخفيفة كتشوه زاد صاحبه قسوة وتهديدًا.

همست بصوتٍ مرتعش أخرج النحيب: «أنا... أنا ترنيم».

يا له من أغبى جواب يمكن لها أن تدلي به! وبالفعل اشتدت أصابعه على لحم ذراعها ورد بسطوة: «لم أسأك عن اسمك، سألتك عما تفعلينه هنا».

غامت الرؤية أمام عينيها بغلالة من دموع الخوف، واحتُجز الصوت في حلقها فلم يمهلها لحظة إضافية، بل شعرت بنفسها تُجَر جرًا من خلفه تكاد قدماها ألا تمسا الأرض كي تلاحقا خطواته السريعة المندفعة، لم يسبق لها

أن شعرت في حياتها بمثل هذا الخوف، حتى الشبح الذي يلاحقها لم ينجح في إخافتها إلى هذا الحد.

نزولها على درجات السلم الباردة من خلفه كان عذابًا، فقد كانت تتعثر واقعة على ظهره ثم تعاود النزول مكرَهة، وما زاد رعبها أنه تجاوز شقتها المفتوحة متابعًا النزول.

حينها فقط انطلقت صرختها لاهثة: «إلى أين تأخذني؟!».

أوشكت على الصراخ مستغيثة بصاحبة البيت كي تنقذها من هذا المجرم، إلا أنها لم تكن في حاجة لتفعل، فقد توقف بها أخيرًا أمام شقة عوالي وطرق الباب بقبضته المضمومة، ثم ضغط الجرس مرارًا، حاولت نزع ذراعها من بين أصابعه لكن وكأنما كانت مكبلة بأغلالٍ لا تُهزم.

صرخت بقوة: «اتركني، دع ذراعي، لم أسرق منك شيئًا».

تابع دق الجرس حتى فتحت عوالي الباب مصدومة الملامح مما تراه بعينيها. شعرت ترنيم بنفسها تدفع بقوة حتى ارتمت على صدر عوالي.

قصف صوته من خلفها يقول بجفاء: «تسللت إلى غرفتي».

اتسعت عينا عوالي أكثر ناظرة إلى عينَي ترنيم التي كانت تهز رأسها نفيًا باكية، وحاولت النطق إلا أن صوته جاء من خلفها مهددًا خطيرًا.

قال: «مستقبلًا لن أكون متساهلًا معك كهذه المرة».

ثم سمعت صوت انصراف خطواته وكأنه اكتفى بإلقاء تهديده كما ألقى الرعب في قلبها، وتركها الآن لتتلقى حسابها من عوالي التي وقفت ترمقها بنظرة صامتة إنما متهِمة مخزية.

ازدردت ترنيم لعابها بصوت متحشرج وقالت: «لم أكن أعرف أنها غرفته».

أخفضت عوالي عينيها من وجه ترنيم المبلل إلى قميص نومها وصولًا إلى قدميها الحافيتين، فاشتدت نظرتها وازداد انعقاد حاجبيها، وقد وجدتها مدانة بتعمُّد.

أعادت عينيها إلى عينَي الفتاة وارتفع صوتها تتهمها بشدة: «كنت أعرف أنكِ تنوين قلب هذا البيت رأسًا على عقب».

هتفت ترنيم باكية تتوسل إليها: «لم أعلم أن هناك من يسكن بالأعلى، كنت أسمع ضوضاء وضربات فصعدت لأرى مصدرها».

هدر صوت عوالي القاسي: «وما دخلك إن سمعتِ أصواتًا أو غيرها؟! أنتِ مجرد ضيفة ليس عليكِ أن تتضايقي أو تتلصصي».

صرخت ترنيم فجأة تقاطعها بصوتٍ مرعب في علوِّه، مرتعِب في ارتجافه وصدقه: «كنت خائفة».

تراجع وجه عوالي قليلًا أمام صرختها العنيفة، لكنها فتحت فمها لترد، إلا أن ترنيم سبقتها وصرخت مجددًا بصوتٍ أشد عنفًا وقد تفجر بكاؤها بجنون.

قالت: «كنت خائفة، فهناك شبح يطاردني، يأبى أن يحرِّرني، يتحرك معي إلى كل مكان أذهب إليه، يرافقني في نومي وفي صحوي حتى ما عدت أعرف إن كان كابوسًا أم أنه حقيقة، وقد احتل حياتي منذ سكنت بيته».

انعقد حاجبا عوالي بشدة ناظرة إلى ترنيم وكأنها تنظر إلى مجنون يهذي.

رددت مستنكرة: «شبح؟!».

صرخت ترنيم رافعة كفيها إلى جانبَي جبهتها وكأنما انتابتها حالة هستيرية ما عادت قادرة على التحكم بها: «أنت لا تعلمين كيف هي حياتي، لا فكرة لديكِ عن عدم قدرتي على النوم، وإن نمت لكان هذا عذابًا أكبر، أستيقظ صارخة لكن دون صوت، جسدي مصاب بالشلل للحظات، لحظات أرى فيها هذا الشبح بينما أنا غير قادرة على الصراخ أو الحركة».

صمتت للحظات تشهق ببكاء مجنون، فغطت وجهها بكفيها المرتجفتين.

وتابعت صارخة من جديد: «لقد سكنتُ شقته ونمتُ على فراشه، ولهذا يرفض شبحه أن يحرِّرني، شكله...».

عادت لتصمت من جديد تحاول التقاط أنفاسها، ثم صرخت: «شكله مرعب، وإحدى عينيه مفقودة، فمه مفتوح على أقصى اتساعه لا يغلقه أبدًا، يلاحقني دائمًا».

هذه المرة حين توقفت كلماتها، لم يتوقف بكاؤها الهستيري الذي ارتفع وارتفع بينما كانت عوالي صامتة تمامًا تراقبها بملامح جامدة، وتسمع كل كلمة تهذي بها، وتراقب انتفاضها الذي لم يكن تمثيلًا بلا شك، فالفتاة مقتنعة أن هناك شبحًا يتبعها!

أما خارج شقة عوالي فقد كان صاحب الشق بطول الفك واقفًا مستندًا بظهره إلى الجدار يستمع إلى صراخها المجنون، ثم مال بوجهه جانبًا وكأنما يشعر بانتفاضاتها تتسلل منها إليه عبر الجدار الفاصل بينهما.

تكلمت عوالي أخيرًا ما إن بدأت ترنيم تهدأ رافعة يدها تمسح الدموع الغزيرة عن وجهها المتورم.

قالت: «أنتِ تتحركين عكس الاتجاه».

رفعت ترنيم عينيها الحمراوين بلون الدم محدقة إلى عوالي بنظرة ضائعة منهَكة وغير مستوعبة.

فأضافت عوالي: «إن ظهر لكِ شبح عليكِ الفرار منه، لا ملاحقته».

****

كل ما أرادته هو الخروج من هذا البيت، أرادت الفرار، لكن هل هي قادرة عليه فعلًا؟ هل تستسلم لرعبها وتفر ناجية بعمرها والمتبقي من كرامتها التي أراقها أصحاب هذا البيت القبيح؟ أم تبقى تحت سقفه صاغرة كحال الفتية الذين يُجوّعون كعقاب لهم؟

شعرت أنها ما عادت تحتمل هواءه الثقيل أكثر من هذا، لذا مع بداية النهار ارتدت واحدًا من فساتينها المتواضعة ثم خرجت من الشقة الخالية الباردة، ونزلت مندفعة على السلالم بعينين منتفختين لا تحيد بهما لأعلى مستطلعة وجود صاحب الندبة، ولا للأسفل مترقبة أن توقفها عوالي في أي لحظة،

اندفعت لا همّ لها سوى الخروج من هذا البيت كي تلتقط أنفاسها، أغمضت عينيها ما إن لفحها الهواء البارد بخروجها من باب البيت، فملأت منه رئتيها ثم تابعت سيرها متجهة إلى البوابة.

لكن صوتًا من خلفها ناداها: «يا فتاة، أنتِ يا فتاة، انتظري».

لم يبدُ أنها سمعته، بل تابعت اندفاعها بخطوات سريعة، فكابد مع عكازه ليصل إليها حتى سار بمحاذاتها لاهثًا.

قال: «يا فتاة انتظري، ألا تسمعين؟».

توقفت فجأة وصرخت فيه بغضب: «ماذا؟ ماذا؟».

توقف أيضًا مجفلًا من صراخها الغاضب ثم لم يلبث أن رد بحذر: «يبدو أن الصراخ طبعك، وأن ليلة الأمس لم تكن حالة استثنائية».

انعقد حاجباها واهتزت نظرتها للحظة، فسألته بخشونة مضطربة: «هل كان صوتي مسموعًا ليلة أمس؟!».

اتسعت عيناه كما فغر فمه ذاهلًا مبتسمًا وهو يجيب: «مسموع؟! لقد وصل صراخك إلى آخر العالم».

شعرت بيأسٍ بالغ وحاولت جاهدة تذكر ما خرج من فمها ليلة أمس، لكن وكأن عقلها قد محا هذيانها من الذاكرة لشدة شعوره بالخزي.

ضغطت جبهتها بأصابعها ثم همست مجددًا بصوتٍ أجش دون أن تنظر إليه: «أنت فقط من سمعتني كما أتعشم؟».

أشار خلفها إلى الباب الأمامي الذي خرجت منه لتوها وأجابها ببساطة: «بل سمعناكِ جميعًا، حتى إننا تجمعنا أمام الباب لنتابع ما يحدث، على الرغم من أنه لا يُسمح لنا بالخروج من مأوانا بعد الساعة التاسعة، لكننا جازفنا بخرق القوانين كي لا نفوّت مشهدًا كذاك».

أغمضت ترنيم عينيها شاعرة بإحباط بالغ، حتى إن تأوهًا خرج من بين شفتيها على شكل أنين عاجز، ثم استدارت عنه وتابعت سيرها ناحية البوابة لكنه لحق بها مجددًا.

سألها باهتمامٍ بالغ: «إذن هل ترين شبحًا بالفعل؟».

تجاهلت الرد على سؤاله وأبقت عينيها أمامها، فعقَّب قائلًا: «يقول الباقون إنكِ غير متزنة العقل، بينما أميل أنا إلى تصديقك، هل حقًّا يبدو كما وصفتِه؟».

أغمضت عينيها مجددًا دون أن تتوقف، بل زادت من سرعة خطواتها علَّه يتعب ويتوقف عن اللحاق بها. لكنه تابع.

قال: «كان حظك سيئًا في مواجهة غضب السيد «علي»، غضبه نادر، لكن ما إن يتفجر حتى يتحول إلى شخص مخيف، لا أعجب أن فقدتِ أعصابك وانهرتِ على هذا النحو».

تعثرت وكادت أن تقع لولا أن أمسك بذراعها، فتقبلت مساعدته وأبقت على تشبثها به للحظات وقد توترت أنفاسها بشدة.

ضحك قائلًا: «أنتِ خرقاء لدرجة حاجتك إلى صاحب ساقٍ واحدة كي يسندك».

نظرت إلى مكان الساق المفقودة حيث التفت ساق البنطال الخاصة بها معقودة حول نفسها تؤكد وجود الفراغ المؤذي.

قالت بخفوت تخفف ضغط أصابعها على ذراعه فورًا: «أعتذر».

نظر إلى ساقه المقطوعة ثم رفع كتفه قائلًا بسخافة مبتسمًا: «لا يمكنك أن تتسببي لها بالألم، وهذه أفضل مميزاتها».

انحنى حاجباها للحظة ناظرة إليه ثم ابتسمت بتردد، وكانت تلك الابتسامة الصغيرة المتحفظة وكأنها بادرة هدنة بينها وبين أول المشرَّدين من ساكني هذا المأوى الكئيب.

التفتت بوجهها ناحية البوابة تريد الخلاص، ثم ترددت للحظة قبل أن تسأله: «من يكون السيد «علي» هذا؟».

اتسعت عيناه أكثر وبدا وكأنه سيتكلم عن شخص خطير مهم، لا مجرد إنسان مجهول يسكن في غرفة متواضعة فوق السطح.

ثم قال: «لا أحد يعلم من يكون السيد «علي» بالنسبة إلى السيدة عوالي، لكنه موجود في هذا البيت دائمًا، سمعتُ أنه ابن أخيها، ومرة أخرى سمعنا أنه ابن أختها، وإشاعة تقول إنه ابن زوجها من امرأة أخرى، أما الأكيد فإنه الشخص الوحيد المهم للسيدة عوالي، فهو ساعدها الأيمن في التجارة التي ورثتْها عن زوجها بعد وفاته، وأوامره تنفَّذ دائمًا وكأن السيدة عوالي قد ولَّته كل شيء، هو الآمر الناهي حول من يبقى ومن يغادر، لذا ما كان عليك أن تثيري غضبه، فباستطاعته أن يحث السيدة على طردك في أي لحظة».

صامتة تمامًا تستمع لكل كلمة ينطق بها، مدركة أن الكلام عنه في المطلق يحمل التناقضات نفسها التي لاحظتها في هيئته الليلة السابقة، فكيف يكون الآمر الناهي وفي الوقت ذاته يسكن في تلك الغرفة المتواضعة، والأقل حتى من الطابق المخصص للأولاد المشرَّدين!

سألت الصبي بصوتٍ أجوف: «ألا يتعامل معكم أبدًا؟».

أجابها ناظرًا إلى الخلف: «يمكنك القول إنه رجل المهام الصعبة، لا نراه إلا في حالة الشجار التي تتطور إلى التشابك العنيف، حينها يتدخل ليفض العراك قبل أن يُصاب أحدهم، فهو عنيف في تدخُّله ولا يعرف الهوادة أو حلول الوسط، وأحيانًا يأتي ليصلح شيئًا أو يحضر آخر من أساسيات المأوى، يتكلم بالكاد وكلماته خشنة جافة ومختصرة، وبخلاف هذا فهو يحب عزلته كما هو واضح، ولا يرحم من يحاول اختراقها».

غامت عيناها تتدبر كل كلمة نطق بها الفتى حتى أنهى كلامه مضيفًا: «إن أردتِ نصيحة مني، حاولي إصلاح أمرك معه كي لا يطلب من السيدة أن تطردك».

سألته ترنيم بعد لحظاتٍ من التفكير: «يبدو أن الوقت الذي قضيتَه هنا لم يكن بالقصير نظرًا إلى كل المعلومات والنصائح والتدابير التي تحفظها عن ظهر قلب».

ابتسم مجددًا لكن دون مرح هذه المرة، ثم أشار بعينيه إلى ساقه المقطوعة وقال: «معظم من يأتون إلى هنا يكون لهم هدف واحد، وهو الحصول على وجبة جيدة وربما سرقة شيء ذي قيمة قبل هروبهم إن حالفهم الحظ،

ثم تسحَرهم الأسرة والسقف الآمن فيبقون لفترة، لكن سرعان ما يناديهم الشارع من جديد فيفرون عائدين إليه، أما أنا فقد كان الشارع قاسيًا عليَّ بعدما فقدت ساقي، لذا أحاول البقاء، أطول فترة بقاء هنا كانت من نصيبي».

ابتسمت مجددًا وعلى الرغم من أنها ظلت ابتسامة متحفِّظة، فإنها حملت بعض الدفء.

شردت ترنيم بعينيها للحظات ثم ارتفعتا إلى البيت، فلاحظت ظلًا فوق السطح اختفى قبل أن تتأكد من رؤيتها له فعلًا، فشهقت مجفلة دون أن تستطيع منع نفسها مما جعل الولد ينظر خلفه.

قال بقلق: «ماذا؟ هل رأيتِ الشبح؟! أهو موجود الآن؟».

التقطت أنفاسها ثم هزت رأسها بقوة قبل أن تعاود السير تنوي الخروج، فسار بجانبها بضع خطوات حتى وصلا قرب البوابة.

توقف أخيرًا قائلًا: «إلى هذا الحد ولا يمكنني مرافقتك إلى أبعد من هذا، فمن غير المسموح لنا الخروج من بوابة البيت».

نظرت إليه قائلة بحدة وغضب: «أما أنا فلا تطبَّق عليَّ أوامر الاحتجاز القسري».

****

لم تدرك كم مشت على قدميها حتى بدأت تشعر بالإعياء الشديد والألم، بدأت خطواتها تتثاقل وكأنها تجر خلف ظهرها أثقالًا من حديد، أنقذها سور متداعٍ، ألقت بثقلها وجلست فوقه بتعب محدقة أمامها بعينيها الحمراوين المنتفختين اللتين جذبتا الأنظار إليها، لكنها لم تر أحدًا. إلى متى ستبقى الحياة قاسية عليها إلى هذا الحد؟ كل صباح تستيقظ والسؤال العقيم يداهمها، فيمَ أخطأت؟ أيُّ ذنب اقترفته كي تعاقَب عليه كل يوم من أيام عمرها؟

قبضت بأصابعها فوق ركبتها المتألمة، تترجى دموعًا تريحها، لكن وكأنما قد جف نبعها بعد أن فاض آخرها ليلة أمس. كيف سمحت لنفسها أن تنهار بهذا الشكل المفزع أمامهم؟ ولا بد أنهم ضحكوا كثيرًا.

أطبقت عينيها بشدة تهز رأسها شاعرة بطعم الصدأ في حلقها وهمست: «كيف سمحتُ لنفسي؟ كيف! كيف!».

حزن وأسى وانتظار طويل، خوف ورعب وانتهاك لجسدها وروحها، تهرب من الأحياء الفاسدين فيلاحقها الأموات، وكأن الشقاء مكتوب عليها، وكأن لذهنها المنهَك بقيةً من القدرة كي تتحمل أصوات الاستغاثة التي تسمعها باستمرار في أذنها.

شعرت فجأة بنفسها مراقَبة، ففتحت عينيها المتورمتين ونظرت حولها بوجه شاحب، ثم عقدت ذراعيها شاعرة بالبرد يجتاحها. حدقتاها تجولان والشعور بداخلها يتعاظم، هناك من يلاحقها، فسرت الرجفة في أوصالها بعد أن شعر جسدها بعينين غريبتين تجتاحانه من زاوية مجهولة، في سيرها الطويل شكت في أن هناك من يلحقها، أما الآن فهي متأكدة. ازدردت لعابها بصعوبة ثم أعادت عقد ذراعيها وأخفضت وجهها تحث قدميها على الفرار عائدة بخطواتٍ تكاد أن تنهب الأرض جريًا.

****

صعدت درجات السلم جريًا ممسكة بالسور خوفًا من الوقوع لشدة تعبها وخوفها، وما كادت أن تمر بباب شقة عوالي حتى فُتح وخرجت منه عزيزة ممسكة بسلة المهملات، فلم تدخر جهدًا في إخفاء نظرتها غير المرحِّبة.

ثم سألتها بجمود: «أتراكِ وُفِّقتِ اليوم في إيجاد سكنٍ لكِ؟».

لم ترد ترنيم، بل ظلت واقفة ممسِكة بسور السلم وعلامات الخيبة على وجهها المنهَك.

فهزَّت عزيزة رأسها قائلة باقتضاب: «هذا ما توقعتُه».

ثم دخلت وأغلقت الباب خلفها دون مواساة أو تشجيع أو حتى سلام، فأغمضت عينيها مطرِقة برأسها للحظات قبل أن تجاهد في معاودة الصعود، حتى دخلت إلى حبسها الانفرادي وأغلقت الباب خلفها.

****

«إن لم تستطع التحرر من أشباحك، فاعقد معها هدنة».

نعم لقد مكّنها أصحاب هذا البيت خلال الساعات والأيام اللاحقة من معرفة السبب في كون الحبس الانفرادي يُعد من أشد أنواع العقاب قسوة لبعض من البشر، فساعات النهار تقضيها في الخارج تمشي على قدميها، أما ساعات الليل المظلمة فقد كانت الأسوأ، لقد حُرِّم عليها الكلام مع الأولاد ومع أي مخلوق بشري داخل حدود هذا البيت، أشعروها أنها منبوذة بنجاح، تركوها فريسة أوهامها حتى بدأت تألف الشبح المتمسك بها، فباتت تكلّمه خلال ساعات الليل بعدما لم تجد غيره لتكلّمه أيامًا وأيامًا. فكرت أنها إن تكلمت معه بالمنطق لربما يرأف بحالها ويحررها.

تمر الليالي الموحشة، لا يقطع صمتها سوى صوت صفير الرياح الأشبه باستغاثة فتاة صغيرة، وأصوات الضوضاء التي لم تتوقف بالأعلى، وكأنما ساكن غرفة السطح قرر عن سبق إصرار وتعمد أن يزيد من خوفها بكل وحشية، وكأنها ملّكته نقطة ضعفها فتفنن في الضغط عليها واستغلالها.

ما عاد الغطاء قادرًا على حمايتها، لذا خرجت هذه الليلة من تحته ثم خرجت من غرفتها في الظلام، تمشي بين أرجاء الشقة الخاوية، كلما رأته في غرفة تستدير لتوليه ظهرها، فتراه أمامها! حتى وقفت في البهو المظلم وهو يقف في مواجهتها بشكله المرعب، ظل كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر صامتًا، حتى انحنت ببطء شديد وجلست فوق الأرض الباردة دون أن تحيد بعينيها عنه، كانت تحاول عقد هدنة بينهما.

همست بخفوت: «لا أستطيع التحرر منك، لكن ما يخيفني هو شكي بأنني... ربما أكون غير راغبة في التحرر، وهذا في حد ذاته أسرٌ فوق أسرٍ».

نظرت إليه فكان الآن جالسًا أرضًا، متربعًا أمامها بشكله المخيف وفمه المفتوح على أقصى اتساعه وتجويف عينيه الأشبه بهوة سوداء سحيقة.

ارتفع صوت الخطوات المندفعة فوق درجات السلم، مما جعلها تنظر إلى الباب خلف شبحها الجالس أمامها، ككل ليلة لم يتوقف عن الصعود والنزول، وكأنه إما هائم على وجهه وإما مجنون سادي يريد أن يفقِدها أعصابها.

تصلبت شفتاها وانقبضت كفاها فوق ركبتيها ناظرة إلى شقِّ النور من تحت عقب الباب بعينين متقدتين بغضب حاولت كبته لكنها لم تستطع، وشعرت أنها على حافة انهيار جديد، فلم تدرك أن الشبح قد اختفى من أمامها بعد أن انصبَّ تركيزها بالكامل على وقع صاحب الخطوات أمام بابها، ها هو ذا يصعد وصوت الخطوات يبتعد لكنها لم تنتظر، بل قفزت واقفة والجنون يتربص بها من كل جانب، واندفعت إلى باب الشقة ففتحته وخرجت ناظرة إلى أعلى تتنفس بتسارع مخيف.

ثم صرخت بغضب: «لن تنجح في إخافتي، هل تسمعني؟ لن تنجح أنت وغيرك في إرعابي».

ظل باب السطح ساكنًا، بينما فُتح باب شقة عوالي لتخرج منه هي وعزيزة ناظرتين إلى ترنيم بذهول، لكنها لم تعبأ بهما.

صرخت مجددًا بشراسة: «لقد قاومتُ هجّامًا من قبلك، وشبحًا بعده، فلن تعجزني أنت وتجعلني أخرُّ على ركبتيَّ رعبًا».

في الطابق الأسفل كانت كلٌّ من عزيزة وعوالي تنظران إلى أعلى وعلامات الصدمة على وجهيهما.

همست عزيزة تربت على صدرها بهلع: «لا، لا. هذه الفتاة مؤكد تلبَّسها جن عاشق يا سيدة عوالي».

زمّت عوالي شفتيها مدققة النظر إلى ما يحدث بعدم رضا، ثم همست: «هذا ليس جيدًا أبدًا».

لم تكد تتم كلماتها حتى فُتح باب السطح بقوة كادت أن تقتلعه، ثم رأت الكائن الغاضب ينزل متجهًا إليها، لم يكن مندفعًا أو مهرولًا، بل كان متمهلًا وعيناه مثبتتان على عينيها. لم يكن في حاجة لينزل مندفعًا كي تعرف أنه

غاضب، بل عرفت أن في تمهله الخطورة وفي عينيه الحادتين إنذار بقرب نهايتها.

لقد واجهت ذخيرة في حالات كثيرة، مخمورًا أو متعاطيًا، مسلحًا متحرشًا، غاضبًا ومتباهيًا بإجرامه، سنوات وهي تواجهه بشجاعة دون أن تسمح له بأن يرهبها حتى وإن كانت خائفة، أما الآن، الآن في نظرها إلى الرجل المقترب منها محدقًا إلى عينيها، ملابسه حتى وإن كانت فوضوية لكنها نظيفة غالية، أما لحيته فحتى ولو كانت مهذبة فأثر الندبة التي تقطعها تمنع نمو الشعر في طريقها، حتى وإن كان يُعد وسيمًا فهو الشيطان بعينه، لا واحد من أتباعه!

لم تخشَ مواجهة ذخيرة لأنه مجرد جبان يستقوي بهمجيته ولديه نقطة ضعف وهي شهوته، أما هذا الرجل أمامها فلا نقطة ضعف لديه على ما يبدو، سيؤذيها لأنه يود أن يؤذيها فحسب.

كان قد وصل إليها فتراجعت وقد شحب وجهها وطارت شجاعتها الوهمية، لقد أدركت الآن أنها لم تكن شَجاعة، بل واحد من انهياراتها.

اهتزت حدقتاها الناظرتان إلى عينيه وساد الصمت في لحظة واحدة قبل أن يسألها آمرًا بصوته الغريب الأشبه بدوامة: «لماذا تصرخين؟».

شعرت بالرغبة في الإغماء إلا أنها تمسكت بغصن الوعي الضعيف: «أنا... أنا...».

قاطعها بنبرة هدرت كالرعد فجعلتها تقفز مكانها منتفضة: «أين تظنين نفسك؟».

شحب وجهها بعد أن فرّت الدماء منه وارتعشت.

لكنها تمكنت من القول بصوتٍ متحشرج خشن مخفضة وجهها علها تختفي من عينيه المخيفتين: «أنت... أنت تتعمد إخافتي بوقوفك خلف بابي كل ليلة».

ساد الصمت للحظات ثم ضاقت عيناه مرددًا ببطء: «بابك؟!».

انتفض قلبها خوفًا وخزيًا، لكن وكأن الحماقة قد وُصفت لها في تلك اللحظة.

فهمست قبل أن تستطيع منع نفسها: «إنه بيت السيدة عوالي، وقد أعطتني المفتاح لهذه الشقة، أي إنه بابي ولو مؤقتًا».

ظنت أنها رأت النار في عينه، أم تراه شهبًا خاطفًا واختفى!

بينما شهقت عزيزة بالأسفل هاتفة همسًا بذهول: «اسمعي الفتاة وتبجحها!».

أما عوالي فكانت وكأنما قد اكتفت، فلملمت عباءتها حول نفسها وشدت وشاحها ثم خرجت لتصعد درجات السلم التي تفصلها عنها.

ثم قالت بقسوة: «أنتِ لا تتعلمين أبدًا، أليس كذلك؟».

التفتت إليها ترنيم ممتقعة الوجه، وبخاصة مع رؤيتها لملامح عوالي الغاضبة التي لا تدل مطلقًا على أنها ستتخذ صفها دفاعًا عنها.

مع ذلك قالت بصوت متعثر مشيرة إليه بيدها: «دعيني أتكلم أولًا، إنه يتعمد إخافتي والوقوف خلف بابي... أقصد خلف الباب، كل ليلة».

فتحت عوالي فمها لتوقِفها بحدة، إلا أن صوته سبقها قائلًا بنبرة أشبه بالفحيح أرعبتها: «أتعمد إخافة نكرة متطفلة؟».

بالكاد يتكلم، كلامه شحيح كالمشاعر الإنسانية فوق ملامحه، لا يكاد ينطق بجواب شافٍ، وعلى الرغم من ذلك حروفه القليلة تفيض بالتهديد والوعيد دون بذل جهد منه.

غامت عيناها بالدموع التي سبحتا فيهما وهما تحدقان إلى عينيه.

قالت عوالي باقتضاب: «علي!».

لكن ترنيم لم تسمع تدخُّلها، بل تابعت التحديق إلى عينيه وقد ظهر في عينيها كره واضح.

فهمست بمقت: «أنت...».

ضاقت عيناه كما التوت شفتاه وهو يسألها بصوتٍ خفيض مقتربًا منها خطوة: «أنا ماذا؟ هيا تكلمي، كلي فضول لسماع ما لديكِ».

تحرك حلقها بصعوبة وهي تبتلع غصة مؤلمة في حلقها المتورم، ثم وقعت دمعة من عينها فوق وجنتها المزدحمة بتكاثفِ عشرات النقاط الذهبية، وربما كانت بالمئات، تمتد بين الوجنتين وفوق أنفها، تتزاحم كأقمارٍ مجرة واسعة.

تحركت شفتاها أخيرًا جاذبة عينيه وهمست بقهر: «كريه، مؤذٍ».

ازداد التواء شفتيه أكثر، فتعمق الجرح المحفور عبر لحيته، رأت على فكه استهزاءً، أما عيناه فلا تعرفان التهاون حتى وإن كان سخرية، تعبيرهما يكاد أن يهلِك من يجرؤ على تحديه، مخيفتان وغاضبتان على الدوام.

مدت عوالي يدها وأغمضت عينيها للحظة قبل أن تقول آمرة: «هذا يكفي يا «علي»، هذا يكفي».

وكأن يدها التي تمدها تشكّل بها حاجزًا تخوُّفًا من رد فعله، أتراه من الممكن أن يتهجم عليها؟!

بالطبع يمكنه هذا؛ إنه من النوع الذي يستطيع فعل أي شيء بدءًا من تجاوز الحدود وحتى ارتكاب جريمة ثم الجلوس لشرب القهوة بعدها بأعصاب باردة.

التفتت عوالي إلى ترنيم قائلة بقسوة: «وأنتِ، قبل أن تتواقحي في الكلام، فلتعلمي أن هذا بيت «علي»، وإن أشار بإصبعه لرماكِ في الخارج منذ الليلة الأولى».

صمتت تحاول التنفس بهدوء بعد أن زادت العصبية من ضغطها.

ثم نظرت إلى «علي» وقالت بصوتٍ جاف وإن كان يحمل بين طياته تعبير المعاملة الخاصة التي لا يحظى بها سواه: «اصعد إلى غرفتك يا «علي»».

لم تتحرك عيناه من فوق عينيها على الرغم من أنها لم تجد القدرة على النظر إليهما في تلك اللحظة، وأخفضت وجهها المحتقن، إلا أنه كان بإمكانها الشعور بعينيه وكأنهما شظيتان حادتان توشكان على فقء عينيها من قوة

نظرتهما. ولم تتحرك من مكانها، وبخاصة مع شعورها بتحركه ليتجاوزها، فابتعدت خطوة حتى التصق ظهرها بالجدار تكاد أن تقف على أطراف أصابعها وكل عصب فيها متشنج وكل ذرة ترتجف، التف وجهه إليها في مروره بها، فأشاحت بوجهها عنه تطبق عينيها بشدة، فتوالت الدموع في خط مستقيم هادئ ترسم لها طريقًا في الفضاء المزدحم بالأجرام والنجوم، أحست وكأنه تمهّل، وكأنه قارب على الوقوف أمامها مباشرة، فتوقفت أنفاسها لكن سرعان ما أفلت النفَس من بين شفتيها المرتجفتين مع سماعها صوت خطواته مجددًا مبتعدة صعودًا.

تمنت لو أنها تسمع صوت خطوات عوالي مبتعدة نزولًا كذلك، لكن حين طال الصمت عرفت أن أمامها مواجهة جديدة، ففتحت عينيها مضطرة صاغرة لتبصر عينَي عوالي الصارمتين اللتين لا تعرفان رأفة أو مواساة.

همست ترنيم بصوتٍ منهَك: «مؤكد أنني مطرودة هذه المرة».

لم تجبها عوالي، بل ازداد انعقاد حاجبيها كما ازداد تحجر عينيها، ثم قالت بجفاء: «تبدين وكأنكِ لم تتذوقي طعم النوم منذ سنين».

يمكنها تخيل المدى الذي وصل إلى شكل عينيها الحمراوين بالهالات القاتمة تحتهما، ومع شحوب وجهها الشديد فلا بد أنها باتت تشبه الشبح الذي يلاحقها إلى حدٍّ كبير.

تاهت حدقتاها وشعرت للمرة الأولى بمدى تعبها الذهني والجسدي.

همست مجددًا: «هل ستطردينني؟».

تجاهلت عوالي الرد على سؤالها الذي خرج بنبرة يائسة مثيرة للشفقة وسألت: «مرت أيام، ألم تجدي مكانًا لكِ أو عملًا؟».

تحرك حلق ترنيم بصعوبة وامتقع وجهها فهزته ببطء شديد نافية، محدقة إلى الأرض بعينين زائغتين.

ساد الصمت للحظات قبل أن تسمعها تقول بخشونة واقتضاب مجيبة عن سؤالٍ سابق: «بقاؤك أو طردك عائد إلى «علي»، يمكنه إبقاؤك إن أراد، وإن كنتُ أشك بعد ما فعلته مجددًا».

رفعت ترنيم عينيها الغائرتين إليها مستجدية، لكن عوالي كانت قد استدارت ونزلت إلى شقتها مغلِقة الباب خلفها.

كانت عزيزة في انتظارها، فهتفت مربِّتة على صدرها: «اسمعي مني يا سيدة عوالي، هذه الفتاة لن تجلب إلا الأذى لسكان البيت، انظري كم عامًا قضيتُها معكِ، والله ما خفتُ من أيٍّ من الأولاد المشرَّدين كما خفتُ وتوجستُ منها، إنها إما يتلبَّسها جن وإما أنها غير طبيعية».

تابعت عوالي سيرها المتمهل متجهة إلى غرفتها قائلة بصلابة: «معكِ حق يا عزيزة في كونها غير طبيعية، والمشكلة أنها جاءت إلى من لا قدرة لديهم على تحمُّل من هو غير طبيعي».

****

لم يصدر الأمر بالطرد بضعة أيام تلت، لكن استمر الحكم بنبذها، عجيب كيف لها أن تكون حرة والمفتاح تملكه ومع ذلك أشعروها بأنها غير مرئية، وأطعموها وحشة أكثر مرارة من وحدتها خلال السنوات الماضية، فشعرت وكأنها محتجَزة لا تملك الفرار، لا تزال أسيرة مخاوفها، لا تفعل أكثر من محاولة التأقلم معها.

لم يصدِر «علي» الأمر بطردها وهذا ما أثار تعجبها، مؤكد أنه ورغم جنون تصرفاتها وانهياراتها الذهنية المتكررة، فإنه وجد فيها ما يثير اهتمامه.

لا تعلم إن كان عليها أن تكون شاكرة ممتنة لعوالي التي ترسل إليها عزيزة يوميًا بالطعام دون أن تطلب، أم تمقتها للطريقة التي أوصت بها خادمتها بتركها للطعام ثم المغادرة دون كلمة أو ابتسامة، وكأنهم يطعمون حيوانًا ضالًا.

اعتادت كل ليلة سماع أصوات الأولاد الصاخبة بالأسفل، يضحكون بأصوات عالية ويعبثون ويقفزون كالقرَدة، وكم تمنت لو كانت مقيمة معهم بطابقهم كي تتفرج عليهم. من كان ليتخيل أن يأتي اليوم الذي قد تحسد فيه أولادًا لا بيت لهم ولا أهل ولا عنوان! والأكثر غرابة أن أصوات الخطوات فوق درجات السلم أمام بابها قد توقفت منذ الليلة التي خرجت فيها تصرخ كالمجنونة! لقد

خاف الجبان من هجومها غير المتوقَّع، ولهذا توقف عن ترصد بابها رغم هالة العنف والتهديد المحيطة به، هكذا هو حال المتنمرين المجرمين، يتقنون إرعاب غيرهم بينما يضمون بين أضلعهم جبنًا ممن قد يتمكن من الصراخ في وجوههم!

لم تسمع خطواته خلال الليالي التي تلت إلا مرة واحدة فقط، حيث سبق صوتَ خطواته صوتُ شجار عنيف اندلع بجنون بين الأولاد في الأسفل، ثم بدأت أصوات الضرب والتكسير بهمجية، تلك الليلة وضعت كفيها على سطح بابها وفكرت في النزول إليهم قبل أن يتأذى أحدهم، لكن صوت خطواته المندفعة فوق درجات السلم في اللحظة التالية سمَّر جسدها وجعلها ترتعد وتتراجع على الفور، ثم سمعت صوته يهدر وكأنما هو رعد قصف فجأة.

مع قصف صوته المدوي سكنت الأصوات كافة عدا صوته. كانت تظن الأولاد يخشونه خوفًا من احتمال طرده لهم، لكن ما إن سمعت صوته حتى علمت أنه يفرِض الخشية منه دون الحاجة إلى أسباب أو عواقب، فصوته لم يكن صراخًا، بل كان سطوة أسكتت الجميع خلال لحظات وجيزة، من الواضح أنها لم تقدِّر حجمه وتحكُّمه كفاية، لذا إن أرادت أن تبقى هنا فعليها نيل رضاه ولو غصبًا عن روحها التي كرهته منذ اللحظة الأولى.

هذا الصباح ما عادت قادرة على الخروج ككل يوم لتعود بالخيبة فوق كتفيها، كما لم تقدر على تحمل حجزها الانفرادي أكثر، لذا فتحت باب شقتها وخرجت مرتدية بنطالًا تملكه وقميصًا واسعًا، تجمع شعرها الطويل كذيل حصان. للحظة واحدة طالت بعينيها باب السطح وهي لا تزال على درجات السلم، ثم تابعت نزولها خارجة إلى الحديقة المحيطة بالبيت.

من الإجرام أن يمتلك الإنسان مساحة كهذه فلا يرسمها بالخَضار الزاهي ويحددها بالألوان، أما ما فعله سكان هذا البيت الموحِش هو أنهم فضَّلوا لون التراب الرمادي وجذوع الأشجار الميتة!

دارت تتأمل المكان بعينين شاردتين وعلى فمها طيف ابتسامة، فلطالما كان لديها حلم من تلك الأحلام التي لا يمكن لها أن تتحقق على أرض الواقع،

وهو أن يكون لها بيت ذات يوم، له حديقة تملؤها بالورود والأطفال، وحينها لن تترك أطفالها أبدًا كما هُجرَت وكأنها لم تكن يومًا سوى جذع جاف كتلك الجذوع، حلم لا مجال لتحقيقه في حياتها المُرة أبدًا، فورود حلمها تحتاج إلى الماء العذب كي يرويها، أما ما لديها فدموع عكِرة لا تروي ولا يزهر بها إلا الأسى.

أغمضت عينيها للحظات تبتلع الغصة في حلقها، ثم أخذت نفسًا عميقًا كادت معه أن تتفجر رئتاها، فتركته يخرج زفيرًا متهدجًا مما جعلها ترفع أصابعها لتضغط بها أعلى أنفها بقوة.

همست بنشيج عصبي تهز رأسها: «لا أستطيع فعل هذا، لا أستطيع الصمود أكثر».

فتحت عينيها المغرَقتين بالدموع فسقطت منهما قطرة بللت الأرض الترابية وحوّلتها إلى وحل، ضربت ترنيم القطرة الموحلة بقدمها بقوة، فأثارت موجة من الغبار أثارت غضبها مما جعلها تركل الأرض مجددًا، مرة بعد مرة، تلهث بشدة، وكلما وقعت دمعة من عينيها على الأرض وتحولت إلى سواد الوحل، كانت تركلها بعنف أكبر حتى أثارت حولها إعصارًا من الرماد وهي أسيرة بقلبه تصارع كالمجنونة.

لم تتوقف إلا بعد أن تعبت، فوقفت لاهثة ثم شعرت مجددًا أنها مراقَبة، لكن هذه المرة كان المؤشر لديها صادقًا، فقد أرشدها لترفع وجهها تجاه البيت وحينها لمحته واقفًا يراقبها من فوق السطح، تراجعت خطوة وكأنها ارتعبت من أن يطير من فوق كالوطواط إليها، ثم توقفت مجبِرة نفسها على التماسك، فرفعت يدها لتمسح بها وجنتيها، لكن الغبار الذي طال وجهها مع الدموع لطخه بالسواد، وظل كلٌّ منهما يحدق إلى الآخر عبر تلك المسافة.

ثم لم تلبث أن صرخت فجأة ملوّحة بذراعيها: «ماذا؟!».

لم يتحرك من مكانه ولم تتغير تعبيرات وجهه القاتم، فصرخت أعلى حتى انتفخت العروق في عنقها وكأنها تحارب شيئًا مجهولًا.

- ماذا؟!

خرج واحد من الأولاد ليستطلع سبب الصراخ، ثم تبعه الفتى ذو الساق المقطوعة، حتى خرج جميعهم يراقبون ما يحدث ذاهلين بأعين براقة وأفواه تبتسم تنشد مشاهدة المزيد من الجنون وتوابعه.

هتف أحدهم لاويًا وجهه لينظر مشيرًا إلى الأعلى: «إنها تصرخ في السيد «علي»!».

لحقت الأعين كلها بإصبعه شاخصة إلى الأعلى، بينما سمعته ترنيم فأخفضت عينيها بسرعة ناظرة إليهم بوجوم. لقد أفسدت الأمر من جديد! رائع!

رفعت أصابعها تلامس بها فكها الملطَّخ، لا تصدق أنها ومرة أخرى أعطته السبب لطردها، وكل مرة يكون السبب أفظع وأكثر إثارة للانتباه. رفعت عينيها إلى الأعلى إلى حيث تركته واقفًا، لكنه كان قد اختفى وكأنه لم يكن موجودًا من الأساس، فعضت على شفتها ناظرة حولها، ترى عوض الذي كان يراقبها مصدومًا عابسًا، والأولاد المبتسمين بشيطنة.

حتى قال أحدهم ضاحكًا: «يقوّيها العفريت الذي يسكنها».

تعالت ضحكاتهم وكلٌّ منهم يضرب كف الآخر، فغار قلبها شاعرة وكأن حجرًا ثقيلًا قد وقع مكانه، لقد أصبحت مسخًا مثيرًا للشفقة بسبب الشيطان الذي سمحت له أن يؤثر فيها على هذا النحو.

دخلت من باب البيت بعد فترة مثقَلة بالهمّ والقنوطِ تجرُّ قدميها لتصعد السلم، تريد أن تلوذ بشقتها بعد أن كانت قد خرجت منها غير قادرة على تحمُّل الوحشة فيها، لكنها تجمدت في منتصف الدرج مع سماعها صوت الخطوات المندفعة السريعة تهبط من أعلى، فاتسعت عيناها وشحب وجهها، فنظرت خلفها تفكر في الهرب لكنها أدركت مدى غباء الفكرة، لذا ظلت واقفة مكانها تتنفس بصعوبة وترقب حتى بدأ يظهر لها خياله، إلى أن أصبح أمامها مباشرة يعلوها بدرجتين فقط، ثم توقف!

نظرت إلى الحذاء الغالي أمامها، فازدادت سرعة تنفسها وشبكت أصابع كفيها بتوتر، ثم اتسعت عيناها أكثر وهي ترى القدمين في زوجَي الحذاء تهبطان درجة أخرى ببطء ثم توقفتا فما عاد يفصله عنها سوى درجة واحدة، على ما يبدو أن أوان الحساب قد آن من جديد، فتجرأت على رفع عينيها إليه

فصدمتها هيئته، فقد بدا وكأنه شخص مختلف تمامًا، ملابسه شديدة الترتيب والأناقة، ولحيته مشذبة، ورائحة عطره القوي ملأت فراغ السلم كاملًا، أما هي فقد كانت ملابسها بخسة شديدة التواضع، بالإضافة إلى كونها متسخة مغبرة.

احمرت وجنتاها حرجًا وشعورًا بالوضاعة فلم تقدر على الكلام، ساد الصمت بينهما وكل لحظة منه أخبرتها بوضوح أنه واقف ليسمِعها الأمر بالطرد، تستطيع الشعور بتلك الطاقة من الغضب والكره الموجَّهَين منه إليها والعكس، وكأنهما خصمان في حلبة صراع مظلم.

انتظرت، وانتظرت، لكنه لم يتكلم، فقط كان مكتفيًا بهوايته في الوقوف مراقبًا بصمت، وكأنه مستمتع بدفعها إلى حافة الانهيار ثم شدها للعودة بدفعها من جديد.

نظرت إلى عينيه أخيرًا فتلقَّف عينيها، وإن كان لديها شك في الكره الموجود بينهما قبل هذه اللحظة فالآن تأكدت، لكن أيمكن للكاره أن يكون مفتونًا؟! أم تراها المجنونة؟ فعيناه تتجولان فوق وجنتيها لتضيقا ثم تسافرا بعيدًا!

انفتح باب عوالي خلفهما فجأة، وخرجت منه المرأة المهيبة بعباءتها الفخمة السوداء ترفُّ من حولها، ثم توقفت وقد فاجأها وقوف الخصمين متقابلين لا يفصل بينهما سوى درجة سلمٍ واحدة.

وكأن صوت فتح الباب قد نبَّهه، فتحرك نازلًا درجتين معًا كي لا يتوقف على درجة هي واقفة فوقها، ثم خرج من باب البيت، أما هي فبقيت واقفة تولي المغادر ظهرها بتصميمٍ رغم الارتباك الذي اجتاحها.

قالت عوالي باستنكارٍ بالغ: «يا إلهي! لمَ أنتِ متسخة بهذا الشكل وبقع الوحل تلطخ وجنتيك؟ هل كنتِ تلعبين في الطين كما يفعل الأولاد بالأسفل؟».

أجفلت ترنيم رافعة يدها تلقائيًا إلى وجنتها، وكأنها تريد التأكد من كلمات عوالي الموبِّخة، ثم زمّت شفتيها مدركة أن الرجل الكريه ما كان ينظر إلى وجنتيها إلا لأن الوحل يبقِّعهما، ولا وجود لفاتن أو مفتون!

كانت تبدو أمام عوالي و«علي» وكأنها حيوان ضال متسخ وضئيل، بينما تشع منهما النظافة ويغطيهما العز والشبع، إنها حاقدة عليه، حاقدة على ملابسه

الفخمة ورائحة عطره الغالي، حاقدة على البيت الكبير الذي يملكه والحديقة الكبيرة رغم بشاعة المبنى والحياة التي غابت عن نباتاته، فهي لم تملك يومًا شيئًا مما يملكه، إنه قاسٍ كريه وغير عادل، فلماذا تكافئه الحياة بكل ما لديه؟!

تنهدت عوالي ثم تابعت آمرة بترفُّع: «سأخرج أنا و«علي» إلى أعمالنا، اصعدي إلى الشقة وأغلقي بابك على نفسك ولا تحاولي التواصل مع الأولاد، فوجودك بينهم خطير».

هزت عوالي رأسها بعدم رضا وازداد جفاء ملامحها وهي تمر بترنيم متعمِّدة إبعاد طرف عباءتها عن ملابس الفتاة المتسخة كي لا تصيبها بعدوى الاتساخ والقذارة.

ثم قالت بخشونة: «فتاة شابة وجميلة بمفردها مع مجموعة من الأولاد في سن خطيرة، ممن لم يساعد الشارع في تنبيههم للفرق بين الصواب والضلال، لا أعلم إلى متى سيستمر هذا الوضع الشائك!».

كانت قد نزلت درجتين ثم توقفت والتفتت إلى ترنيم وأضافت بصوتٍ بارد أجوف وفي عينيها نظرة غريبة: «هم وغيرهم».

تراجع رأس ترنيم إلى الخلف قليلًا من كلمات عوالي الغامضة، فماذا تقصد بهم وغيرهم؟ أتراها تقصد «علي»؟! هل ترى أن وجودها خطر عليه؟ هل لاحظتْ عليه اهتمامًا أو بداية افتتان لم يملك أن يمنعه رغم كرهه لها؟ ارتفع حاجباها قليلًا وقد شردت تمامًا في الأفكار المجنونة التي تلاعبت بها في لحظة واحدة، لكنها عادت وانتبهت إلى خروج عوالي من باب البيت، فلحقت بها مسرعة.

نادتها قبل أن تصل إلى السيارة: «سيدة عوالي».

توقفت عوالي للحظة قبل أن تستدير إليها بملامحها الجامدة وعينيها الحادتين دون رد، فاقتربت منها ترنيم راكضة ووقفت أمامها لتدس يدها في جيب بنطالها.

وتقول: «كنت أنوي المرور بكِ اليوم، فهناك ما أردت قوله، لذا سأقوله الآن ولن أؤخرك كثيرًا، أنا كما تعلمين لم أُوفَّق في الحصول على عمل حتى الآن،

لكن تبقى لدي القليل من المال من آخر راتب تقاضيتُه فهلا تقبلتِه مني مقابل بقائي هنا والأكل يوميًا؟».

أخرجت من جيب البنطال مبلغًا مطويًا مدته لعوالي التي نظرت إليه للحظات صامتة، ثم رفعت عينيها إلى عينَي ترنيم وكانت عيناها تحملان تعبيرًا أقرب إلى الازدراء، ودون كلمة أو تنازل استدارت وتابعت طريقها متجاهلة ترنيم تمامًا. فغرت ترنيم فمها غير مصدِّقة مدى غرور وصلف تلك المرأة وقسوتها، إنها حتى لم تحاول أن تجبر خاطرها ولو بكلمة، يا له من إحسان بالمن والأذى!

تحركت عيناها قليلًا فاصطدمتا بعينين أخريين شديدتي السواد تحدقان إليها من خلف مقود السيارة، عينَي «علي»، انقبضت أصابعها على الفور ورمشت بعينيها لكنها لم تقدر على إبعادهما عن عينيه المتفرّستين فيها وهو جالس في السيارة ينتظر عوالي التي وصلت إليه في تلك اللحظة، وجلست على المقعد المجاور له قبل أن يتحرك بالسيارة مبعِدًا عينيه عن ترنيم بإهمال، وكأنما ما كان ينظر إليها منذ لحظات.

****

«تمر الأيام والضيفة الثقيلة تدق لنفسها أوتادًا عوضًا عن الرحيل».

جيد أن لديها مرآة على الأقل، حيث تطالعها صورة لنفسها تشاركها كل انفعالاتها، تغضب مع غضبها، تحزن حين تحزن، وتبكي كلما بكت، لقد كوَّنت رفقة من الشبح والوِحدة وصورتها في المرآة. لكن هذه المرة كان انفعال صورتها مختلفًا، فلم يكن بالغاضب أو الباكي أو حتى الحزين، لقد كان انفعالًا بالترقُّب والبريق.

تخللت خصلات شعرها الطويل بأصابعها ثم عدَّلت من فستانها ووقفت محاولة تنظيم أنفاسها المتسارعة، كانت تبدو جميلة كما عزمت، وكانت قد نسيتْ هذا الشعور منذ فترة طويلة.

خرجت ترنيم من شقتها ونظرت إلى أسفل بحذر، ثم بدَّلت وجهتها وصعدت السلم على أطراف أصابعها درجة درجة، حتى وصلت إلى باب السطح المغلق، لم تره منذ أيام، لكنها باتت تعرف متى يغادر ومتى يعود، هناك صلة واستشعار يصلها به عبر سقفها وأرضه.

أخذت لحظة إضافية تعدِّل فيها شعرها مجددًا وتنظِّم أنفاسها، ثم دقت الباب بقبضتها مرة، واثنتين، ثم ثلاثًا، شعرت بإحباط بالغ خشية ألا يفتح لها، وكادت أن تيأس مع مرور الثواني، لكن الباب انفتح فجأة وأطل أمامها بهيئته المخيفة الضخمة. شعرت ترنيم وكأن كل الكلمات التي أعدَّتها قد طارت من ذهنها للتو، لكن نظرة الخطر في عينيه ما إن رآها أمامه صاعدة إلى عرينه مجددًا أجبرتها على رفع كفيها باستسلام، وكأنه يصوِّب إليها سلاحًا.

قالت بصوتٍ خفيض ناعم: «طرقتُ الباب هذه المرة، أي إنها زيارة ودية من ضيف يرجو حسن الضيافة».

ابتسمت وأبقت عينيها بالقوة على عينيه، لكن قلبها كان على حافة التوقف من سرعة نبضاته هلعًا، كانت مرتعبة منه حد الموت. كان على وشك دفعها لتقع من فوق السلم، هذا ما رأته في عينيه الأشبه بخنجرين مصوَّبين إليها.

غابت الابتسامة عن شفتيها المرتجفتين، فهمست بجدية وصراحة: «أتيت طالبة الهدنة، أعلم أنني لم أحسن استغلال إحسانكم، لكنني...».

لم تجد الفرصة لتتم كلماتها، فقد تراجع إلى الخلف ثم صفق باب السطح في منتصف كلامها، وبقوة جعلتها تنتفض فاغرة فمها وقد غادرتها المقدرة على الكلام.

مرت بضع لحظات من الصمت وهي لا تزال واقفة مشدوهة محدقة إلى الباب المغلق.

ثم همست أخيرًا: «يا لك من حقير!».

****



الفصل الثالث

«لا شيء كريه المذاق كمذاق إحساس الإنسان بنفسه منبوذًا وغير مرغوب في وجوده بين أناس يتمنون رحيله في كل لحظة، لكنه لا يستطيع الرحيل، يبغضهم ويبغضونه ومع ذلك لا يزال باقيًا».

اعتادت كل يوم النزول إلى الحديقة المهجورة لتنظيفها، كانت تتوقع أن يمنعها أصحاب البيت، لكنهم لم يفعلوا ولم تتعجب كثيرًا، فعلى الأرجح كان يمتِّعهم رؤيتها تنظف المكان متمرغة في التراب الرمادي المملوء بالحشرات، لكن متعتها كانت أكبر وهي ترعى هذا المكان كالجنين تزوِّده بكل ما يحتاج إليه.

أما أكبر متع الدنيا بالنسبة إليها فقد كانت لحظة ابتسم لها القدر خلالها، وكأنها لحظة اقتُطعَت من عمر قاسٍ شديد الألم فأضحكتها، كانت تلك اللحظة حين خرج ذات صباح متجهًا إلى سيارته كالعادة بخطواته القوية مقررًا تجاهلها ككل صباح بعد أن يرميها بنظرة كره واضحة، لكنه لم ينتبه لكونها قد بلَّلت التربة منذ دقائق فتحولت إلى وحلٍ طري، وفي اللحظة نفسها التي كان يرميها بنظرته النارية داست قدمه في البركة الموحلة وكاد أن يتزحلق واقعًا، لولا أن تماسك في اللحظة الأخيرة مصدوم الملامح، ولم تكن الصدمة

من نصيبه وحده، فقد كانت شاهدة على ما حدث، فنظرت بعينين واسعتين إلى حذائه الغالي وطرفَي بنطاله وقد تلطخوا بالوحل الطري بشكلٍ مرعب.

التقت أعينهما، عيناه غاضبتان قادرتان على أن تصرعاها في لحظة، وعيناها واسعتان.

تماسكت وتمكنت من الهمس بحذر وبصوتٍ شديد الخفوت: «رويتُ التربة لتوي، كان عليك أن تكون أكثر انتباهًا».

استطاعت رؤية فكيه ينقبضان والنيران في عينيه تستعر أكثر، فازداد خوفها.

لكنها كررت بصوت متعثر: «كان عليك أن تنتبه».

فتح فمه وتوقعت أن يصرخ أو يلعنها مرارًا، لكنه عاد وأغلقه وكأنه يحارب نفسه، ثم استدار مندفعًا عائدًا إلى البيت، وما إن دخل حتى سمحت لنفسها بأن تتنفس أخيرًا بعد أن كانت قد أوقفت تنفسها خوفًا منه، ثم سرعان ما انفجرت ضاحكة بقوة واستمرت في الضحك بجنون حتى دمعت عيناها وانسابت الدموع فوق وجنتيها غير قادرة على إيقاف نفسها، لكن ما إن استدارت حتى توقف ضحكها فجأة حين رأته لا يزال واقفًا محدقًا إليها بلا أي تعبير! وإن كان غضبه قد أخافها منذ قليل، فتلك الملامح والنظرات الميتة الآن ترعِبها عشرات الأضعاف أكثر، فهاتان العينان الخاليتان من أي شعور، قادر صاحبهما على ارتكاب أي شيء.

بعد فترة خرجت عوالي وهو يلحق بها بعد أن بدّل ملابسه، فتجاوزها يريد الوصول إلى السيارة بينما تمهلت عوالي مضيّقة عينيها تراقب ما تفعله ترنيم دون تعقيب.

فبادرتها الفتاة قائلة بسرعة: «انتبهي من الوحل يا سيدة عوالي، فقد تزحلق به السيد «علي» منذ قليل ولطّخ ملابسه».

كان على وشك الوصول إلى السيارة حين سمع تحذيرها البسيط الودي، فتوقف للحظات قبل أن يستدير إليها ببطء، فالتقت أعينهما من جديد.

حينها رفعت له كفها وابتسمت ابتسامة باردة قائلة: «أعتذر مرة أخرى».

لم تكن قد اعتذرت مرة أولى كي يتقبل اعتذارها مرة أخرى، تصلب فكه حتى إنها تكاد أن تجزم بقدرتها على رؤية أثر الجرح الممتد عبر فكه يشتد وكأنه خيط قاسٍ يسحب ملامحه.

نقلت عوالي عينيها بينهما ثم تكلمت قائلة بجفاء متجاهلة التحذير: «هيا اصعدي خلال غيابنا».

عليها الاعتراف أن في أوامر عوالي القاسية جانبًا من الصواب، فطوال الوقت الذي كانت تنظِّف الأرض فيه كان الأولاد يخرجون ويبدؤون في إغاظتها والضحك عاليًا من بعيد، وأحيانًا التفوه بالألفاظ البذيئة، وكانت تتجاهلهم بتعمد، لذا لا أحد يعلم كيف يمكن أن يكون تصرفهم في غياب عوالي والشخص المفضل لديها والوحيد القادر على ردعهم، «علي».

نفضت يديها المتسختين وأوشكت على تنفيذ الأمر بطاعة مثالية.

إلا أن عوالي تابعت قائلة بصوت هادئ: «عليكِ التوقف عن اللعب بالوحل يا ترنيم».

نظرت إليها ترنيم متفاجئة، فقد كانت المرة الأولى التي تنطق فيها باسمها في اعترافٍ بأنها إنسان، له اسم وروح، ومع ذلك فهدوء نبرتها كان أكثر تسلطًا من قسوته.

****

«فلما مروا بحياتنا اقتطعوا من النفسِ أملًا، ثم رحلوا تاركين الأثر».

لقد تغاضوا عن تنظيفها للحديقة الترابية ولعبها بالوحل كما فسروه، لكن على ما يبدو أنهم لا يقبلون بأكثر من ذلك، فذات نهار خرجت من البيت وحين عادت كان معها بضع شتلات تحملها، كانت متحمسة والبسمة تعلو فمها، فبدت وكأنها قد عقدت هدنة مع الحياة أيضًا، حتى وإن كانت أكيدة بناءً

على خبرتها السابقة مع الحياة أن تلك الهدنة لن تدوم طويلًا، لكن على الأقل فلتتمتع بها ملقية بكل همومها خلف ظهرها.

انكبت ترنيم على حوض بجوار البيت تعبث خلال الأيام السابقة في تجهيزه، والآن بدأت بغرس النبتات الجديدة.

كانت سعيدة للغاية حتى سمعت صوته من خلفها: «من منحكِ الإذن لتزرعي في أرض ليست بأرضك؟».

تسمرت أصابعها كما تسمر جسدها كاملًا، فلم تكن قد شعرت بوجوده واقترابه من شدة استغراقها في سعادتها البسيطة، وتطلب منها التماسك بضع لحظات قبل أن تلتفت لترفع إليه وجهها. في وقوفه خلفها وهي جاثية أرضًا بدا لها في ضخامة البيت، بدا كجدارٍ يوشك أن ينهار فوقها في أي لحظة.

تصلبت أصابعها في التربة الرطبة لكنها قالت بهدوء وشجاعة: «رفضت السيدة عوالي أن تأخذ المبلغ المتبقي لديَّ، فقررت شراء شيء به لهذا البيت، ولم أجد أفضل من شيء له روح وعطر».

رفعت عينيها إلى عينيه لكنها لم تستطع تبيُّن نظراته، فقد كانت الشمس من خلفه تزيده قتامة حد السواد.

أضافت ببرود: «أردت ترك أثر تتذكرونني به بعد رحيلي».

أبعدت وجهها عنه تمنحه من التجاهل ما تتلاقاه نفسه، وحضَّرت نفسها لسماع رد قاسٍ منه، وبخاصة أن وقوفه قد طال خلفها دون حركة، لكن الرد الذي وصلها صدمها.

قال ببساطة: «اطمئني، أنتِ لا تُنسَين».

اتسعت عيناها تحاول استيعاب ما سمعته لتوها، والتفتت لتنظر إليه لكنها لم تر سوى ظهره بعد أن تحرك مبتعدًا عنها، حلَّقت حدقتاها الشاردتان منه لتنظرا إلى ما تفعله، وقد تباطأت أصابعها بعكسِ دقات قلبها، أتراها توهمت ما سمعته؟

****

السؤال الذي طاف بذهنها حصلت على جواب قاسٍ له بعد أيام قليلة، بعد أن بدأت أجنّتها الخضراء في الازدهار على استحياء، خرجت من البيت ذات نهارٍ تهفو لأن ترى فيها تطورًا، لكن ما رأته كان صفعة، كل ما زرعته اقتُلِع وقُطِّع ورُمي بجوار الحوض الذي تُرك الآن خاليًا كقبرٍ نُبِش وانتُهكتْ حرمته!

لم تصدق ما رأته، كما لم تصدق إلى أي حدٍّ آلمها! استدارت على عقبيها ثم عادت إلى البيت بخطوات سريعة تكاد أن تجري على درجات السلم، الطابق الأول، ثم الثاني، وتابعت حتى وصلت إلى السطح، فدفعت بابه ودخلت تنظر حولها لاهثة، وأوشكت أن تدق باب الغرفة بغضب لولا أن سبقها هو ورأته يخرج منها بكامل أناقته. توقف ما إن رآها، لكنها لم تمنحه الفرصة كي يغضب، فقد كان غضبها أكبر، جعلها تقترب منه صارخة بقهر.

قالت: «كيف لك أن تفعل شيئًا كهذا؟».

ضاقت عيناه بعض الشيء فهتفت بقوة أكبر: «يا له من تصرف طفولي! لكنه يخبر عن مدى اعتلالك. هل تعلم كم كلّفتني تلك النباتات التي اقتلعتَها بكل سوداوية نفس؟ لقد اعتنيتُ بها ورويتُها أيامًا! كانت هدية وكانت روحًا ولم تكن لك أيٌّ منهما».

تقدم إليها ببطء فتراجعت لاهثة وعيناها تلمعان بالكره المرير.

قالت من بين شفتيها المرتجفتين: «أمثالك يستحقون الأذى، يستحقون الألم كي يتوقفوا عن سُقيا غيرهم به».

- ترنيم!

انتفضت على صوت الصيحة الغاضبة التي أوقفتها، فالتفتت لترى عوالي واقفة خلفها بملامح أكثر عنفًا من أي مرةٍ رأتها فيها سابقًا.

قالت ترنيم بصوتٍ ضعيف: «مجددًا ستأخذين صفّه قبل أن تسمعي مني، لقد اقتلع النباتات التي رعيتُها أيامًا وكانت هدية أردت تركها لكِ».

صوتها الناعم كان حقيقيًا صادقًا، والألم فيه موجِع للقلب، لكن عوالي في تلك اللحظة لم تكن لديها أي رغبة في لمس هذا.

كان غضبها عنيفًا جعلها تهدر بقسوة: «ومن قال إنني أريد منكِ هدايا؟ إن كنت لا أتقبل وجودك نفسه فهل أتقبل هداياكِ؟!».

كسرُ الخاطر أشبه بكسرِ قطعة نفيسة من الخزف، حتى وإن جمعوا أجزاءها وألصقوها بالذهب فستظل القطع ظاهرة، جميلة في نظر من يراها، لكنها تبقى إلى الأبد قطعة مكسورة.

غريب أمرها! كيف تزداد هشاشتها مع الأيام فيؤلمها رفض امرأة غريبة بينما تتقبل هذا العدواني الشرس؟!

أطرقت ترنيم بوجهها الشاحب واستدارت عنهما، ثم سارت متثاقلة القدمين.

وفي خروجها من السطح همست لعوالي بفتور: «آسفة».

****

جلست أرضًا على ركبتيها غير مبالية باتساخ بنطالها رغم قلة ما تملكه من ملابس في هذه الحياة، ممسكة بالنباتات المقتلَعة تتفحص حجم الضرر، لربما أمكنها إنقاذ القليل، لكن المتوحش لم يكتفِ باقتلاعها، بل مزقها شر تمزيق بعد أن اقتلعها.

تشوشت الرؤية أمام عينيها بتجمُّع الدموع السخيفة فيهما، ثم لم تقدر على ضبط نفسها أكثر فبكت وبكت...

ظلت جالسة على الأرض الموحلة تبكي بصوتٍ خفيض حتى آن أوان خروجهما من البيت، سمعت صوت خطواتهما وهما يتجاوزان جلوسها البائس على الأرض ودموعها المثيرة للشفقة، لم تكن تريد أن تبدو بمثل هذا القدر من البؤس أمامهما، لكن طاقتها كانت تذوي ببطء مع مرور الأيام، لذا يمكنها أن تكون قوية شرسة في يومٍ آخر، أما في تلك اللحظة فقط فاكتفت بأن تغمض عينيها حاجبة رؤيتهما عنها وتابعت بكاءها بصمت.

لم تحظَ منهما بأي كلمة مواسية أو تعاطف، لكنها لم ترَ كذلك النظرة الطويلة التي رمقها بها بينما كانت نظرة عوالي مختصرة متجهمة، وكأنها ترفض إظهار اللين.

لم تفتح ترنيم عينيها حتى سمعت صوت انطلاق السيارة وخروجهما من البيت، حينها فقط فتحتهما ناظرة إلى أجنتها الخضراء المغتالة، ثم رفعت يدها لتمسح الدموع عن وجهها.

سمعت صوتًا يقول من خلفها: «أنتِ حقًّا فتاة غريبة! من يسمعك وأنتِ تصرخين في السيد «علي» لا تخشين غضبه، لا يصدق أنك تجلسين باكية على القليل من الأشجار الصغيرة عديمة القيمة!».

حفظت صوته ولم تكن في حاجة إلى أن تستدير كي تعرف أنه الفتى ذو الساق المبتورة.

لذا همست بصوتٍ فاتر أجوف دون أن تنظر إليه: «تلك الأشجار الصغيرة تحيي الأرض الميتة كما تحيي قلب من يعتني بها، لا يُفترض بك أن تصفها بعديمة القيمة، كما لا يُفترض بك أن تكلمني، فأنا منبوذة وقد تعرِّض نفسك للطرد بالكلام معي».

على العكس سمعت صوت خطوات قدمه والعكاز تقترب منها، ثم انحنى ليجلس بجوارها وعبثت يده بالنباتات المغدورة.

ثم قال على مضض: «شعرنا أننا نحن المنبوذون لا أنتِ».

التفت وجهها لتنظر إليه بلا تعبير، ثم ردت متنهدة: «ماذا تقصد؟».

ظل وجهه مطرِقًا ثم رفع كتفه مجيبًا: «لا يُسمح لنا بالخروج إلى الشارع إلا أن أردنا خسارة السقف والطعام، لا يُسمح لنا إلا بلعب الكرة في هذه الأرض الجرداء، لكن منذ أن بدأتِ باحتلالها أمرنا السيد «علي» بعدم الخروج إليها في وجودك، كما لا يُسمح لنا باللعب بعد عودة السيدة عوالي، أي إنك احتللتِ الأرض الخربة كما سرقتِ الوقت الخاص بنا».

اتسعت عينا ترنيم قليلًا لكن ملامح وجهها ظلت باهتة جامدة وسألت ببطء: «هل أنتم من اقتلعتم أشجاري؟!».

ظل الصبي صامتًا بتعبير قانط، فسقطت كتفاها تطالعه بصمت طال حتى قطعته بتنهيدة متأوهة.

****

أن تخلد إلى النوم بعمق فهي معجزة لا تتمناها تمامًا، فبمجرد سفرها إلى عالم اللاوعي تكون قد دخلت إلى العالم المظلم من كوابيس لا ترحم بطلها الرئيسي، هو الشبح ذاته، أحيانًا يلاحقها فتحاول الفرار منه، وأحيانًا أخرى تلاحقه بين الممرات المعتمة.

هذه الليلة كان الكابوس مختلفًا، فقد التفَّت ذراعاه حولها وضمها بشدة حتى شعرت بأضلاعها تتكسر وروحها تزهق ببطء مع توقف تنفسها، فأخذت تصرخ وتصرخ، تصارع بجنونٍ كي تتحرر وتنجو بحياتها، لكنه لا يسمح لها، انفتحت عيناها فجأة على أقصى اتساعهما، فرأت سقف الغرفة فوقها لكنها لم تكن قادرة على الحراك أو الصراخ، تلك اللحظات المرعبة التي تلي استيقاظها من كابوس مرعب مصابة بالشلل عاجزة تمامًا.

لا يزال الظلام حالكًا ولا ترى سوى ظلال آتية من النافذة، نعم لقد استيقظت، لكن... سمعت صوت أقدام في الشقة التي تنام فيها! أتراها تتوهم؟ تهلوس؟ أحيانًا يحدث لها هذا فترافقها الأوهام للحظات بعد استيقاظها حتى تسترد وعيها كاملًا وتتخلص من هذا الشلل اللحظي. لكنها مستيقظة، والخطوات تقترب! اتسعت عيناها أكثر وأكثر، فهناك من هو على وشك دخول غرفتها حالًا، وبالفعل دخل أحدهم، تسارعت أنفاسها بجنون وحاولت الحركة والصراخ، ثم توقفت ما إن أبصرت هوية المقتحم، فلم يكن الشبح أو وهمًا من أوهامها، لقد كان «علي»! يقف عند باب غرفتها محدقًا إليها بملامح طمسها الظلام، ثم اقترب أكثر وفي تلك اللحظة استعادت قدرتها على الحركة، فلم تشعر بنفسها إلا وهي تدس يدها أسفل الوسادة لتطال سكينًا تخبئها هناك، ثم رفعتها صارخة بكل قوتها يدفعها الذعر قبل حتى أن تحط قدماها على الأرض، لكنها لم تجد الفرصة كي تنزلها لتقفز من مكانها، فقد انقضَّ عليها

ممسكًا بساعديها يمنعها من الحركة، فتصارعت صارخة لكن قبضته اشتدت على معصمها حتى أسقطت السكين.

ثم هدر بصوتٍ جَهْوَرِي غاضب: «توقفي عن هذا!».

وبالفعل توقفت، لكن ليس خضوعًا لأمره وصرخته المرعبة، بل لأنها غابت عن الوعي من شدة خوفها.

****

رمشت بعينيها تفتحهما بضعف، فحدقت إلى السقف من جديد، لكنه لم يكن سقف الغرفة التي نامت فيها خلال الأيام السابقة، كان سقفًا له نقوش محددة وزخارف جانبية.

انتفضت ترنيم جالسة ناظرة حولها، لتُفاجأ بنفسها مستلقية على سرير واسع ليس بالسرير الضيق الذي تتذكر أنها استلقت عليه آخر مرة. آخر مرة! اتسعت عيناها وقد تذكرت على الفور كل ما حدث، كان في غرفتها وأمسك بها، أوشك على قتلها! أنزلت قدميها وقفزت واقفة تدور حول نفسها في غرفة نوم واسعة تحتوي على أثاث ضخم كامل، من خزنة ملابس وطاولة زينة وبساط سميك وكرسي وثير، قطع تدل على أن الغرفة قديمة كما أنها ليست مهجورة.

دارت مرة أخرى شاهقة حين أحست بأنها ليست وحيدة، وبالفعل ما إن استدارت حتى رأت عوالي واقفة عند الباب.

فبادرتها قائلة بهدوء: «ها قد استيقظتِ مجددًا، ترى كم مرة سيُغشى عليكِ في هذا البيت!».

وضعت ترنيم يدها على قلبها الخافق، ثم رفعتها تبعِد خصلات الشعر المشعث عن وجهها الشاحب كالأموات، دون أن تبعِد عينيها الجاحظتين عن عوالي التي دخلت الغرفة لتضع هاتفها فوق طاولة الزينة.

وسألت: «هل تأكلين كل ما أرسله لكِ من طعام فعلًا؟ أم أنكِ تعطين معظمه للأولاد؟ ربما يفسر هذا إغماءاتك المتكررة ونحولك الشديد».

لم ترد ترنيم، وتحركت حدقتاها مع حركة عوالي التي استدارت لتواجهها.

ثم تابعت: «لماذا لا تجيبين؟ أما زلتِ تشعرين بالوهن؟».

للحظات شعرت وأن كل هذا ما هو إلا حلم لا ينتهي، لا شيء منه حقيقي. تحركت كفاها تتلمسان جانبيها ببطء وكأنها تتأكد مجددًا أنها واعية وجسدها من لحم يمكن الإحساس به.

وبعد فترة صمتٍ ازدردت لعابها وهمست بصوتٍ كقرع ناقوسٍ أجوف: «كان في الشقة، دخل غرفتي».

مالت عوالي وسألتها دون أثر للدهشة: «من تقصدين؟».

كانت أعصابها قد بدأت تهدّد بأن تخذلها مجددًا.

هتفت بقوة قبل أن تستطيع منع نفسها: «تعرفين من أقصد، «علي»».

ظلت عوالي صامتة تدقق النظر بصلابة في عينَي ترنيم.

هتفت الفتاة مجددًا تلوِّح بكفها: «لم أكن أحلم ولم أكن أتوهم، أقسم لكِ، لقد اقتحم الشقة و...».

صمتت وهي ترى عوالي تهز رأسها نفيًا، لكن قبل أن تتابع بعنفٍ مؤكِّدة كلامها، قاطعتها عوالي بهدوء.

قالت: «لم يقتحم الشقة، بل فتح الباب بالمفتاح».

نظرت ترنيم إليها ذاهلة، شاعرة بقلبها يسقط بين قدميها من شدة الخوف، لا تصدق الهدوء الذي تتكلم به تلك المرأة.

همست بغباء: «لكن كيف؟!».

أجابتها عوالي غير عابئة بصدمتها: «يمتلك «علي» مفتاح هذه الشقة، فالبيت له كما سبق وأخبرتُك».

هزت ترنيم رأسها بعدم تصديق ثم هتفت غاضبة: «لا يهمني بيت مَن هذا، لقد دخل الشقة، ودخل الغرفة التي كنت أنام فيها، لقد تهجم عليَّ!».

تحركت عوالي مبتعدة عنها قائلة بنبرة ذات مغزى: «ما فهمتُه أنكِ أنتِ من حاولتِ التهجم عليه بسكينٍ كنتِ تخبئينها تحت وسادتك».

هتفت ترنيم مرتجفة بانفعالٍ بالغ: «وكنت محقة في إخفاء السكين، إنه مجرم عدواني كان ينوي بي السوء، عليكِ طرده من البيت، كيف لكِ أن تأمني وجود شخص مثله في بيتك؟».

استدارت عوالي إليها وقد ارتسمت الصلابة والجفاء على ملامحها وفي عينيها.

ثم كررت بنبرة أشد: «أنا آمن لـ «علي» أكثر من نفسي، أخبرتك أن البيت بيته ومن الطبيعي أن يكون لديه مفتاح للشقة الخالية فيه».

هتفت ترنيم مصدومة: «الشقة لم تكن خالية، أنا كنت فيها ومع ذلك دخلها ودخل غرفتي وتهجم عليَّ بينما لا تهتمين لذلك!».

شعرت بالدوار من شدة الانفعال والغضب والخوف، فرفعت أصابعها إلى جبهتها مغمِضة عينيها كي تمنع نفسها من رؤية دوران الأرض السريع من تحت قدميها، لكنها انتفضت فجأة ما إن أحست بيدين قويتين لكن مترفقتين تمسكان بمرفقها وظهرها.

ثم سمعت عوالي تقول مستاءة: «أنتِ تهلكين نفسك بما تفعلينه، استلقي على السرير وارتاحي».

كانت أكثر وهنًا من أن تقاوِم، فتركتها تسحبها ببطء حتى أجلستها على حافة السرير.

لكن ترنيم رفعت وجهها الشاحب سائلة قبل أن تستلقي: «أين أنا؟».

زمّت عوالي شفتيها قائلة بنفاد صبر: «أين يمكن أن تكوني إلا في شقتي؟!».

نظرت ترنيم حولها بعينين قلقتين زائغتين فدفعتها عوالي ببطء وحزم حتى استقلت مجددًا شاعرة بالضعف، استقامت عوالي ووقفت تنظر إليها بعدم رضا.

ثم قالت بصرامة: «أنت بحاجة إلى طبيب، فحالتك لا تبشّر بالخير مطلقًا».

هزت ترنيم رأسها بوهن فوق الوسادة وهمست بأسى: «لست مريضة، لقد فُزعت فحسب».

قالت عوالي بجفاء معقّبة: «قصدتُ طبيبًا نفسيًا، كنت أشك حول حاجتك إليه منذ فترة، أما الآن فتأكدتُ».

ارتفع حاجبا ترنيم وهي تردد متشنجة باستياء: «هل أبدو لكِ مجنونة؟!».

أجابتها عوالي بقوة دون تهاون: «أنت تعانين الهلاوس والأوهام يا فتاة! ترين أشباحًا وتصرخين فجأة ثم تنهارين من التعب والانفعال كل مرة».

كان صوت تنفسها المنفعل مسموعًا وهي تحدق إلى عينَي عوالي مستمعة لاتهاماتها الباطلة.

ثم قالت بضراوة من بين أسنانها: «وهل كنت أتوهم وجوده في غرفتي وتهجمه كذلك؟!».

تحولت شفتا عوالي إلى خط مشتد كباقي خطوط ملامحها وأجابتها بقسوة: «لا أعلم ما كنتِ تتوهمين وجوده هذه المرة، لكنني أعلم بكل تأكيد أنه لم يكن «علي»، فقد نزل على صوت صراخك المتواصل وطرق الباب فلم تفتحي، لذا استخدم مفتاحه ودخل فإذا بكِ تحاولين ضربه بسكين كانت تحت وسادتك!».

امتقع وجه ترنيم على الفور محدقة إلى عينَي عوالي الغاضبتين، ثم سألتها بتردد: «هل صرختُ؟».

التوت شفتا عوالي القاسيتان مجيبة: «ظلمنا الأولاد واعتقدنا أن واحدًا منهم تسلل إلى شقتك، كنتُ في طريقي إليكِ أنا أيضًا، لكن «علي» سبقني، وكان هذا جزاءه».

انعقد حاجبا ترنيم بشدة وأسبلت جفنيها تتلاعب بأصابعها المتشنجة كملامحها.

تنهدت عوالي قائلة بخشونة: «ارتاحي الآن قليلًا، فقد تحول وجهك إلى بياض الوسادة تحت رأسك».

كانت على وشك الخروج من الغرفة إلا أن ترنيم استوقفتها بصوتٍ مختنق متعثر: «أعرف أنكِ تقدّسين خصوصيتك ولا تفضّلين استقبال الأغراب، فما بالك باستلقاء غريبة متطفلة مثلي في سريرك! من الأفضل أن أصعد إلى الشقة الخالية».

ضاقت عينا عوالي وهما تتحركان فوق ملامح الفتاة التي بان عليها الخوف من الصعود إلى الشقة بوضوح بالغ.

تمهلت في الرد ثم قالت أخيرًا بنبرتها المتسلطة: «نعم لا أفضّل هذا، لكن ليس بيدي خيار على ما يبدو، إذ من الأفضل بقاؤك هنا بعض الوقت حتى تستردي لونك وأعصابك».

نظرت إليها ترنيم بدهشة بالغة، فلم تتوقع هذا من تلك السيدة قط، لكنها لم تقدر على الرفض، فقد كانت فريسة لخوف يستبد بها، لذا أخفضت رأسها بخضوع دون رد شاعرة بالحرج من الدعوة غير المرحبة.

تابعت عوالي قائلة بجفاء: «ففي النهاية شئنا أم أبينا لقد فرضتِ نفسك مسؤولية على عاتقنا في هذا البيت، ومأساة كإيذائك لنفسك في بيتي إثر نوبة عصبية تنتابك لن تكون من دواعي سروري».

****

هرولت عزيزة خلف عوالي قاطعة شقتها الواسعة وهي تقول غير مصدقة منفعلة: «أيُعقل يا سيدة عوالي؟ تعترف الفتاة بنفسها أن الجن يتلبَّسها وتأتين بها إلى هنا؟ إلى شقتك وفي سريرك؟ أتريدين أن يتلبَّسنا جميعًا ويسكن دارك؟».

زمّت عوالي شفتيها وقد علا نفاد الصبر ملامحها الصلبة، فلم تجب وهي تتجه إلى الباب كي تفتحه، وحين فعلت لم يكن طارقه سوى «علي»، ناظرًا إليها بملامح قد قُدّت من حجر وعينين قاتمتين.

لم تجد عوالي الفرصة لتكلمه، فقد سبقتها عزيزة هاتفة تخاطبه بهلع: «كلّمها أنت يا سيد «علي»، أقنعها أن ما تفعله خطأ كبير، فتلك الفتاة يتلبَّسها جن سمح لها برؤيته ولا أفظع من هذا، لقد وصفته بالحرف، بعين واحدة وفم مفتوح! لقد انتفض جسدي وتوقف شعر رأسي، وجود تلك الفتاة هنا خطر علينا كلنا».

حدقت عينا عوالي إلى عينَي «علي» المتجهمتين المظلمتين، وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر لا يعلّقان بالموافقة أو حتى بالرفض.

وحين طال الصمت أمرتها عوالي بصرامة: «اذهبي وأعِدي الغرفة الأخرى للضيفة يا عزيزة وتوقفي عن الثرثرة، أوجعتِ رأسي».

نظرت عزيزة إلى «علي» تتوسل إليه بعينيها أن يتصرف، ثم تراجعت مبتعدة تغمغم بكلمات غاضبة خائفة غير مفهومة، تضرب كفًّا على كف.

أمسكت عوالي بحافة الباب مدققة النظر في عينَي «علي» للحظات طويلة.

ثم قالت أخيرًا بإيجاز: «تقول الفتاة إنك تهجمت عليها وكان غرضك السوء».

اتسعت عيناه واستعرت النار فيهما في لحظة واحدة، فبدت ملامحه مخيفة وكأنه بالفعل قادر على ارتكاب أشد الفظائع، ففتح فمه ليتكلم لكن مرآها جعله يتوقف قبل أن ينطق بكلمة واحدة، فقد خرجت من بعيد عند أول الممر، مستندة بكفها إلى الجدار، في رداء نومها الثقيل الفضفاض، الذي يكاد يبتلع قوامها النحيل كنحول كاحليها وقدميها الحافيتين الظاهرتين، فوضى شعرها جعلته أشبه بغصونٍ متشابكة وأفرع شجرة صغيرة تحارب عاصفة عاتية تهدد باقتلاعها من الجذور، وعلى الرغم من المسافة التي تفصلهما، فإن تكاثُف النقاط فوق أنفها ووجنتيها بدا واضحًا لعينيه متناقضًا مع شحوب وجهها، ازدحام ذهبي يضيق بشدة ثم تتسع مساحاته وكأن وجهها فضاء يتسع له.

تحرك حلقه ببطء بينما تحركت حدقتا عوالي جانبًا دون أن تستدير، وكأنها أدركت سبب توقفه عن الرد، فالسبب موجود خلفها، تعقدت ملامحه أكثر وبدت النار في عينيه تتوهج بينما كانت الغريبة المتطفلة تبادله النظرة بأشد منها رغم ضعفها البادي.

تكلم «علي» أخيرًا قائلًا بصوتٍ خفيض لا يشبه ذلك الحريق المندلع بعينيه ودون أن يرفعهما عن ترنيم: «فلنستثنِ السرقة لأنها معدومة، كما أنها نحيفة كعودٍ يابس ومخبولة تصرخ كالمجانين، ولا شيء مثير بها للدرجة

التي تحث المرء على ارتكاب جريمة لأجلها، لذا لا أرى غرض سوء من ورائها إلا بيع أعضائها».

اتسعت عينا ترنيم بشدة وتراجعت إلى الخلف، حتى إن أظافرها خدشت الجدار بذعر مما سمعته للتو، كانت تلك أطول عبارة سمعتها منه حتى الآن، فهو لا ينطق إلا بكلمة أو كلمتين على الأكثر، إنه شيطان من لحم ودم.

حرك عينيه يبعدهما بتعالٍ عن نظرة الذعر في عينيها بعد أن رماها بنظرة ازدراء أخيرة.

ثم نظر إلى عوالي قائلًا باقتضاب: «سأصعد إلى غرفتي، لكن كوني حذرة، لا تأمني لها».

فغرت ترنيم فمها غير مصدقة أنه يتكلم عنها وأمامها بهذا الشكل البشع، ورأته يستدير مبتعدًا لكنه توقف خطوة ثم عاد واستدار ناظرًا إليها مباشرة.

قال: «عليكِ ترك مفتاحك في الباب كي لا أتمكن من فتحه بمفتاحي المرة المقبلة».

ابتعد بعد أن رمى كلماته الختامية، فأغلقت عوالي الباب بهدوء خلفه، وحينها فقط جرت إليها ترنيم وأمسكت بمعصمها بيدٍ وبالأخرى أشارت إلى الباب.

هتفت: «هل سمعتِ؟! كل كلامه عبارة عن تهديداتٍ مبطنة! هذا الشخص خطير جدًا، صدقيني، عليكِ ألا تأمني له بمفردك هنا».

أخفضت عوالي عينيها الصارمتين إلى كف ترنيم القابضة على معصمها، فأبعدتها الفتاة على الفور.

نظرت إليها عوالي مجددًا وقالت ببطء: «يا لكِ من فتاة وقحة! تقتحمين حياتنا وترسين أثقالك ثم تبدئين بالإيقاع كي تفوزي في النهاية!».

هتفت ترنيم تهز رأسها نفيًا: «لا! هذه ليست الحقيقة، إنه شخص مخيف وقصدت تحذيرك منه. من يكون هو بالنسبة إليك على كل حال؟».

نظرت إليها عوالي بجفاء ثم قالت آمرة: «عودي إلى الاستلقاء على سريري حتى تنتهي عزيزة من تحضير الغرفة الأخرى لك، ونصيحة مني لا تختبري صبري أكثر».

****

لا تتذكر آخر مرة شاركت فيها سقفًا واحدًا مع إنسان، لقد كانت أمها التي أمضت لياليها الأخيرة في المشفى قبيل وفاتها منذ سنوات، لقد نسيت كيف تكون الحياة مع شخص آخر، يتكلم، يتنفس، يسأل عنها بين الحين والآخر حتى وإن كان سؤاله مقتضبًا جافًا ودون مودة حقيقية.

ثلاثة أيام مرت وهي لا تزال في شقة عوالي تلتزم بالغرفة الصغيرة التي أُعدت لها، وتتنعم بالدفء في مكان مسكون، عكس الشقة الخالية التي أصابت عظامها بالبرد وزادت قلبها وحشة وغربة. لثلاثة أيامٍ كاملة لم ترَ الشبح المخيف، وكأن الأماكن المسكونة تخيفه وتطرده. لثلاثة أيامٍ تمكنت من النوم مطمئنة لوجود أحدهم معها في البيت، فنامت ملء جفنيها كل ليلة حتى الصباح كطفلٍ لا يحمل للدنيا همًا أو خوفًا.

استدارت ترنيم على صوت طرقة، ثم دخلت عزيزة حاملة صينية طعامها دون ابتسامة أو كلمة طيبة، لكن كعادتها كلما دخلت عندها كانت تقرأ المعوِّذات بصوت خفيض، وتكاد ترنيم تجزم أن المرأة ترتعش فعليًا.

انتظرت حتى وضعتها على الطاولة ثم سألتها بسرعة قبل أن تخرج: «هل تتناول السيدة عوالي طعامها؟».

حدجتها عزيزة بنظرة قاتمة وسألتها بخشونة: «نعم، لكن ما سبب سؤالك؟».

رفعت ترنيم كتفها وقالت بخفوتٍ وعفوية: «ربما بإمكاني الخروج والجلوس معها كي نتشارك الأكل معًا عوضًا عن جلوس كلٍّ منا وحيدة».

على الفور ازداد تجهم عزيزة وشددت قائلة: «التزمي بمكانك هنا يا فتاة وكوني شاكرة لاستقبالها لكِ، فلا تتجاوزي حد الضيافة. السيدة عوالي تحب وحدتها وتكره التطفل. هل فهمتِ؟».

لم تنتظر منها ردًا، بل رمقتها بنظرةٍ رافضة ثم خرجت مغلِقة الباب خلفها بقوة.

****

فتحت عوالي فمها لتأكل، إلا أن الملعقة توقفت في الهواء ما إن أبصرت ترنيم خارجة من غرفتها، مقبلة عليها وفي يدها صينية طعامها، وضعتها على المائدة العتيقة والمزخرفة الضخمة بجوار عوالي الناظرة إليها بصدمة وعبوس، بينما الابتسامة الجميلة على شفتَي ترنيم تعطيها بعض الحياة.

تكلمت ترنيم قائلة ببساطة: «فكرتُ أنه من العيب بقائي في غرفتي بينما تأكلين هنا وحدك. هل خرجت عزيزة؟».

ردت عوالي بخشونة: «عزيزة تتناول الطعام مع زوجها عوض، أما أنا فلا أحب مشاركة أحد. ما هو الصعب في فهم رغبتي في الحفاظ على خصوصيتي؟!».

جلست ترنيم بحذر قائلة: «أنا لا أمسُّ خصوصيتك، أنا فقط أشاركك الطعام، فهذه فرصة نادرة الحدوث، أنا وحيدة منذ زمن وأنتِ كذلك، فلمَ لا نتشارك وقت الطعام؟».

زفرت عوالي تاركة الملعقة من يدها تهز رأسها باستياء، لكن ترنيم كانت تنظر إلى النافذة الخشبية الضخمة المقابلة التي على ما يبدو أنها مغلقة منذ زمن طويل، فنهضت من مكانها واتجهت إليها ثم شرعت بفتحها.

هتفت عوالي بحنق: «ماذا تفعلين؟! أنا لا أفتح هذه النافذة أبدًا!».

أجابتها ترنيم وهي تدفع خشب النافذة إلى الخارج بصعوبة: «استنتجتُ هذا، ولا أعلم لماذا، فأظنها ستملأ مكان الطعام بأشعة الشمس والهواء، انظري».

كانت غرفة الطعام بالمائدة العتيقة المزخرفة تبدو كمكانٍ مهجورٍ كئيب لا يضيئه سوى مصباح أصفر شاحب، لكن بمجرد أن فتحت ترنيم النافذة دخل شعاع شمس العصر واضحًا، وكأنه سهم نافذ اخترق المكان فأضفى عليه سحرًا، وكأن تلك الغرفة قد تحولت إلى جزء من زمن قديمٍ خلاب، حيث لمعت الزخارف وحددت الظلال، كما هبت نسمة لطيفة حاملة رائحة شجرة عجوز باقية قائمة في مكانها منذ زمن.

التفتت ترنيم متأملة المكان بابتسامة راضية وسألت عوالي: «إذن ما رأيك؟».

لكن ابتسامتها ترددت حين أبصرت الشرود في عينَي عوالي وكآبة خطوط وجهها قبل أن تعقِّب بصوت مبهم: «لم نفتح هذه النافذة منذ وفاة زوجي، رحمه الله».

أسبلت ترنيم جفنيها قليلًا وقد مس قلبها ذلك التحول الطفيف الذي طرأ على السيدة جافة المشاعر والتعامل فغيَّرها كليًا، وكأنها تحولت إلى امرأة غيرها، اقتربت منها على مهلٍ وعادت إلى الجلوس على الكرسي المجاور لها تاركة النافذة مفتوحة.

ثم قالت بصوتٍ خفيض: «نظن أننا بدفن الذكريات مع من فارقونا سنتجنب الحزن، لكن على العكس، فإن إحياءها يبقيهم أحياء نراهم بجوار نافذة كتلك أو على واحد من هذه الكراسي، حتى إننا قد نضحك لذكرى مزحة قديمة شهدت عليها جدران تلك الغرفة».

ازداد تعمق الخطوط حول فمها اليابس مخفِضة جفنيها، وقد أمسكت بالملعقة تحرك حبات الأرز على مهل، وقد بدت وكأنها حلقت لزمان بعيد، لذا لم تحاول ترنيم اختراق سفرها، وبدأت بالأكل صامتة تختلس النظر إليها بين الحين والآخر.

غريبة تلك المرأة التي تبدو جافة لكن بمجرد أن فتحت نافذة للذكرى تاهت عيناها محدقتين عبرها، تغمض عينيها أحيانًا وكأنها تستمتع بالنسيم البارد المتسلل محمَّلًا برائحة الشجرة المجاورة لها.

حين أفاقت عوالي من شرودها بعد فترة نظرت إلى ترنيم عابسة، ففوجئت بها تأكل بنهم وكأنها في بيتها وعلى مائدتها الخاصة. عادت لتزفر بضيقٍ تهز رأسها يأسًا وغضبًا.

رفعت ترنيم عينيها سائلة باهتمام: «هل تحتاجين إلى شيء أحضره لكِ؟».

زمّت عوالي شفتيها وقالت دون لفٍّ أو دوران: «أحتاج إلى خلوتي والهدوء، وهو ما افتقدتُه منذ وقوعك على بابنا».

ابتلعت ترنيم ما في فمها بصعوبة وكأنها تبتلع مسامير من حديد، لكنها امتنعت عن الرد.

أضافت عوالي: «أرى أنكِ أصبحتِ أفضل حالًا، تأكلين بشهية وتنامين نومًا هادئًا، كما أنكِ لم تصرخي لثلاثة أيامٍ كاملة، وهذا يُعد إنجازًا».

رمشت ترنيم بعينيها القلقتين وهمست مضطرة تخفضهما: «نعم، أنا أفضل حالًا بالفعل لأنني لست وحيدة للمرة الأولى منذ فترة طويلة».

صمتت للحظة ثم رفعت عينيها إلى عينَي عوالي، وهمست تسألها بخوف: «هل سترسلينني إلى الشقة العلوية الخالية؟».

حدقتا الفتاة كانتا تهتزان بخوف كما ترتجف شفتاها.

سألتها عوالي سؤالًا مباشرًا: «ممَّ تخافين؟ من وحدتك في الشقة الخالية؟ أم لأنها الأقرب إلى «علي»؟».

أجفلت ترنيم وتراجع وجهها، فلم تكن تتوقع سؤالًا كهذا، لكنها استجمعت قواها وهمست مضطربة على الرغم من معرفتها أن تلك المرأة لا تقبل كلمة سوء ضده: «لن أنكر أنه شخص مخيف وغير سوي في تصرفاته، وكلما ابتعدتُ عنه كان هذا أكثر أمانًا لي».

شبكت عوالي أصابع كفيها وقالت بنبرة مشتدة: «ما أراه أنكِ أنتِ من تحاولين الاحتكاك به دائمًا».

هتفت ترنيم بعصبية بالغة: «هذا قول ظالم بعد أن دخل غرفتي ليلًا!».

أجابتها عوالي دون أن يرف لها جفن: «سبقتِه وصعدتِ إلى غرفته قبلًا».

توترت كل ذرة في كيانها وهتفت متلعثمة: «صعدت إلى السطح، هناك فرق شاسع».

رمقتها عوالي بنظرة شك واضحة، إلا أنها أشارت بذقنها آمرة: «أكملي طعامك كي ننتهي من تلك الجلسة المزعجة».

نظرت ترنيم إلى طبقها بعدم شهية تختلس النظر إلى عوالي التي تابعت الأكل بملامح جادة صارمة.

سألت ترنيم بعد حين بصوت خفيض: «بالمناسبة، أردت سؤالك منذ فترة، كيف تمكنتِ من نقلي إلى شقتك تلك الليلة؟ لا أتذكر أنني كنت واعية لأنزل على الدرج».

تمهلت عوالي في مضغها ثم قالت ببرود: «حملكِ «علي» إلى شقتي».

سقطت الشوكة من يد ترنيم فجأة محدِثة صوت ارتطام عاليًا بالطبق حتى كادت أن تحطِّمه، فنظرت إليها عوالي لتُفاجأ بشحوب الفتاة الشديد، وكأنها على وشك الإغماء مجددًا، فاغرة فمها زائغة العينين.

سألت بصوتٍ مهتز: «كيف... كيف سمحتِ له بحملي؟!».

ارتسم الاستهجان على ملامح عوالي وهي ترد ساخرة: «من تظنينه كان قادرًا على حملك سواه؟ وبالمناسبة، هو أيضًا من حملك إلى البيت أول ليلة وقعتِ فيها أمام بابنا، أم تراكِ لم تفكري في هذا أيضًا من قبل؟».

شعرت ترنيم بدوار شديد وكأن الأرض تميد بها، فتشبثت قبضتاها بحافة الطاولة تدعم نفسها وظلت محدقة إلى الطبق، بينما كانت عوالي تراقبها بتفحص.

سألتها عوالي باهتمام: «لماذا تخافين منه إلى هذا الحد؟».

رمشت ترنيم بعينيها مرة ببطء وقد بان الوهن على ملامحها،

ردت: «في المنطقة القديمة التي كنت أسكن فيها كان يلاحقني هجَّام يخاف منه الجميع، في ليلتي الأخيرة هناك، هُجم على بيتي، لكنني تصديت له».

أخفضت عوالي عينيها قليلًا وقد لانت قسوة ملامحها بعض الشيء.

ثم عادت وقالت باقتضاب: «أنتِ تحمِّلين «علي» ذنبًا اقترفه غيره».

نظرت إليها ترنيم بعينين حمراوين لكن عوالي لم يكن لديها قدر كافٍ من المواساة، لذا نهضت من مكانها.

وقالت بصلابة: «سبق وأخبرتك أنني أثق به أكثر من ثقتي بنفسي، «علي» لن يؤذيكِ ما لم تسبقيه بالأذى».

****

في اليوم الخامس أيقنت أن لعوالي قلبًا ترفّق بخوفها، حيث لا تزال ضيفة في شقتها، لم تسارع بإرسالها إلى الأعلى حيث البرد والوحدة والأشباح و... «علي».

كان النهار مشرقًا والشمس ترسل دفئًا ساحرًا يناشد بالخروج، وعلى الرغم من كسرة قلبها بسبب اقتلاع وتمزيق أشجارها في المهد، وقرارها السابق بعدم الخروج إلى الحديقة مجددًا، فإنها اليوم لم تقدر على مقاومة التحرر، لذا انتظرت خروج عوالي بصحبة «علي» ثم خرجت إلى الحديقة تملأ رئتيها من جمال اليوم، ثم توقفت فجأة مصدومة! رمشت ترنيم بعينيها تتأكد مما تراه غير مصدقة، فالحوض الذي كان مسرحًا للجريمة قبل عدة أيامٍ، تحول الآن إلى حديقة غناء مصغَّرة بعد أن أُعيد تحضيره وزراعة أشجار أكبر من التي اقتُلعَت! اقتربت منه فاغرة فمها ثم جثت على ركبتيها ولامست الأوراق الخضراء مقرِّبة أنفها منها.

همست بابتسامة مرتجفة: «ياسمين!».

لم تكن أشجار ياسمين فحسب، بل نباتات أخرى جميلة شكلًا وعطرًا،

وضعت يدها على قلبها الخافق تتأمل جمال هذا الحوض، وكأنه قطعة ملونة حية وسط صفحة باهتة بالأبيض والأسود.

وقفت ترنيم نافضة ملابسها ثم اتجهت إلى الباب الخلفي من البيت بروح متفتحة، فطرقته بقوة وما إن فتح لها واحد من الأولاد الذي نظر إليها متجهمًا حتى بادرت سائلة بخشونة وهي تنظر بعينيها خلف كتف الصبي.

قالت: «جئت أسألكم عن سبب عدم خروجكم للعب، وبخاصة بعد اقتلاعكم لنباتاتي وتركي المكان خالصًا لكم. ألم تكن تلك هي خطتكم؟».

استمر الصبي في عبوسه، ولم يكن الأربعة الآخرون بالداخل أفضل مزاجًا، فقد كانوا جميعًا ينظرون إليها متبرمين، الوحيد الذي تنازل بالرد عليها هو صديقها الذي يتبرع دائمًا بالكلام معها، الفتى ذو الساق المبتورة.

لكنه لم يكن متسامحًا وهو يقول بجفاء: «لقد عاقبنا السيد «علي» بسبب فعلتنا ومنع اللعب في الخارج من الأساس».

ارتفع حاجبا ترنيم بدهشة شاردة في تفكيرها فيما سمعته للتو، أي إنسانٍ غريب هذا!

انتبهت إلى حركة واحد منهم فأفاقت من شرودها ونظرت إلى الطابق بنظرة سريعة، فهالتها حالة الفوضى التي يعيشون فيها، يا له من مكان حزين بائس! وبخاصة مع احتجازهم ومنعهم من المتنفَّس الوحيد لهم. لا عجب أن صخبهم قد تضاعف في الليالي جرَّاء الطاقة المكبوتة.

أخذت ترنيم نفسًا عميقًا ثم أمرتهم بحسم ورفعت صوتها الصارم: «لقد عُفي عنكم، هيا اخرجوا للعب، لكن حذارِ من تخريب نباتاتي أو اقتراف أي خطأ من جديد».

وكأنها أثارت عاصفة، إذ خرجوا منطلقين بصيحات مجنونة أشبه بطبول الحرب قديمًا، حتى إنهم ارتطموا بها، فوجدت نفسها ترتمي ذات اليمين وذات اليسار حتى وقعت أخيرًا على الجدار المجاور لها، فاستقامت واقفة تلهث معدِّلة ملابسها باستياء ناظرة إلى ابتعادهم للحظات، ثم أعادت عينيها إلى الطابق المفتوح.

لم يكن عليها الدخول، لكنها فعلت وخطت إليه بتردد ناظرة حولها، المكان يحتاج إلى التنظيف والطلاء والترتيب، الأثاث كله مكسر بشكل مخزٍ، والمصابيح مكسورة كذلك، بقايا الطعام في كل مكان حتى اشمأزت واقشعر بدنها، على الأقل التلفاز لم يُكسر بعد، وها هو ذا مفتوح وصورته جيدة.

تابعت تجولها للحظات، ثم خرجت لتراقبهم يلعبون بجنون ودون التقيد بأيٍّ من قوانين اللعبة، بل يضربون بعضهم بعضًا ويتشابكون بالأيدي، وأكثر من مرة تضطر إلى استدعاء عوض كي يفض العراك قبل أن يُصاب أحدهم.

جلست على ركبتيها تعتني بحوض النباتات الغالي والجميل، فجاء صديقها الوحيد ليجلس بجوارها، نظرت إليه ترنيم نظرة خاطفة ثم أعادت عينيها إلى ما تعمل.

وسألته بعفوية: «تكلمنا عدة مرات ولم أعرف اسمك بعد، فهل لديك واحد؟».

أجابها الصبي قائلًا: «اسمي منصور، وهذا الذي يرتدي قميصًا أزرق اسمه خطاف، أما من يجري بالكرة اسمه شرارة، والاثنان الآخران جنزير وعتلة».

مطت ترنيم شفتيها ممتعضة تهز رأسها، ثم قالت بخشونة متابعة عملها: «يا لها من ألقاب سخيفة تليق بالهجَّامة وقُطاع الطرق! لكم أكره تلك الألقاب وكم عانيت من أصحابها!».

حك الصبي مؤخرة عنقه ثم عاود من جديد مشيرًا بإصبعه: «في هذه الحالة إذن فإن أسماءهم بالترتيب هي صابر وسعد والشحات ومحروس».

هزت ترنيم رأسها وقالت: «هذا أفضل، لكن ماذا عنك؟ ألم يكن لديك لقب؟».

التوت شفتاه ثم نظر إلى ساقه المبتورة وقال ببساطة رافعًا كتفه: «لديَّ لقب، وهو السبب نفسه الذي يمنعني من مشاركتهم اللعب، لكني لا أفضِّله».

لاحقت ترنيم نظرته إلى ساقه المبتورة، ثم أعادت عينيها إلى النباتات وقالت ببساطة: «عليَّ استغلال هذا، فلتساعدني إذن».

أقبل على مساعدتها بحماس رامقًا باقي الفتية بنظرة تشف واضحة، ومن جهتهم كانوا ينظرون إليه بغيرة وحنق، فقد كانت ترنيم توليه الاهتمام وتخصه بالكلام والمزاح.

ومن بين كلامهم قال لها خلال ريّه للأشجار: «اسمك غريب، ولا أظنه يعجبني».

ردت ترنيم رافعة حاجبيها: «أقدّر صراحتك».

ثم ضحكت ضحكة صغيرة متابعة: «حين كنت طفلة كان هناك صبي في حيِّنا لا يستطيع قوله، لذا كان يلقّبني «ترالم لم»، وبعدها أصبح باقي الأطفال ينادونني باللقب نفسه حتى كبرنا».

هتف منصور ضاحكًا: «إذن فأنتِ لديك لقب مثلنا! أحب «ترالم لم» أكثر، فعلى الأقل له معنى».

نظرت إليه ترنيم فاقدة الأمل، لكنها كانت مبتسمة فلم تمانع تمامًا.

لكن خلال لحظة بهتت ابتسامتها وهمست بفتور: «والدي هو من اختار لي اسم ترنيم».

سألها منصور: «أين هو الآن؟».

غامت عيناها وغابت الابتسامة لكنها ردت بعد لحظات: «تركنا، قرر ذات يوم أنه قد اكتفى منا فخرج ولم يعُد بعدها».

اختلس النظر إليها بقنوط ثم قال: «أنت تشبهيننا فعلًا، حياتك لا تختلف كثيرًا، ولهذا تحتاجين إلى مأوى».

نظرت إليه طويلًا ثم ابتسمت ابتسامة مريرة، وأدارت وجهها تخفي رطوبة الدمع في عينيها.

جلسا بعد فترة يتابعان اللعب، فأتت عزيزة بصينية ضخمة عليها الطعام عابسة وعيناها تطلقان بالشرر، ثم توقفت أمام ترنيم ومنصور الجالسين فوق الرصيف.

قالت بغضب مهددة: «ما يحدث لن يرضي السيدة عوالي والسيد «علي» مطلقًا».

رسمت ترنيم ابتسامة متحفظة على شفتيها ونهضت من مكانها لتأخذ الصينية منها مجيبة باقتضاب: «لن يضر السيد والسيدة أن نتشارك وجبة في الهواء».

ازداد تجهم عزيزة فأضافت ترنيم بصوتٍ جميل ملطِّفة الجو بينهما: «كما أنني أنا المسؤولة، اطمئني».

****

اندفعت السيارة مقتحِمة الطريق المخصص لها داخل فناء البيت بصوت عالٍ، وما إن توقفت حتى فُتح باب السائق ليخرج منه بملامح سوداء غاضبة تتبعه السيدة الجالسة بجواره وعلى وجهها الصدمة، ولم تكن أقل غضبًا منه، فقد كان الفناء عبارة عن ساحة قتال شرِس! عاصفة ترابية مثارة حول الفتيان الخمسة متشابكين في عراكٍ مجنون، وعوض يحاول التفريق بينهم بالعصا، أما الجديد هذه المرة أن ترنيم كانت في منتصف العراك تصرخ بعنفٍ محاوِلة تخليص الواحد من الآخر!

هتفت عوالي تلوِّح بكفها: «تصرف يا «علي» بسرعة».

لم يكن في حاجة إلى انتظار الأمر منها، بل اندفع بينهم ممسكًا بواحد منهم ليلقي به بعيدًا كاد أن يسبب عاهة لزميله.

ثم صرخ بصوت جَهْوَري غاضب: «توقفوا حالًا».

كان لصوته تأثير جرس الإنذار، بحيث التفتت إليه كل الرؤوس وانخفضت حدة العراك، لكنها لم تتوقف تمامًا، وكذلك ترنيم لم تحاول التوقف عن فك العراك، فدفعها أحدهم لتسقط أرضًا فوق الأرض الترابية، فارتفع فستانها وتطاير فوق ركبتيها، حينها انطلق صفير واحد منهم.

فصرخ «علي» بصوت أشد سطوة: «اصمت، قلت توقفوا».

بدأ العراك يتوقف بالفعل بينما كانت ترنيم تحاول القيام وتغطية ساقيها حتى تمكنت من الوقوف أخيرًا، فبدت مذنبة مثلهم تستعد لتلقي عقابها.

هدر «علي» غاضبًا: «لقد سبق تحذيركم».

هتف سعد ملوحًا بكفه بنبرة متبجحة: «لقد استأثر أبو ساق مقطوعة باهتمام الفتاة بالكامل، وبدأ في التفاخر والتحدي».

رمقها «علي» بنظرة قاتلة جعلتها ترتعد، لكنه هدر مجددًا قاطعًا مبررات الفتى ناقلًا عينيه بينهم: «لا حاجة إلى المزيد من الكلام، هيا اخرجوا جميعًا من هذا البيت، لا مكان لكم هنا».

اتسعت عينا ترنيم بصدمة ناظرة حولها مرددة: «ماذا؟!».

نظر الأولاد إلى بعضهم بعضًا بملامح غاضبة وعلامات التردد والصدمة ظاهرة، لكن واحدًا منهم استدار ليغادر بالفعل، فتحررت ترنيم من صدمتها وأمسكت بقميصه بقوة تمنعه من المغادرة.

ثم هتفت: «لن يخرج أحد من هنا».

تركت الصبي وتوجهت إلى عوالي هاتفة: «أرجوكِ قولي شيئًا!».

لكن ملامح عوالي ونظرتها القاسية أخبرتاها بما لا يدع مجالًا للشك أنها لن تكون في صفها مطلقًا، لذا لم تجد ترنيم مفرًا من التحرك بسرعة.

وقفت أمام «علي» وهتفت متوسلة: «لقد كان ذنبي أنا، وإن كان يجب لأحدٍ أن يخرج فأنا من...».

لم تتخيل في أسوأ كوابيسها أن يقاطعها فجأة صارخًا في وجهها بصوتٍ همجي مجنون لدرجة أن انتفخت العروق في عنقه وأعلى جبهته حتى بدا كشيطانٍ مرعب.

قال: «اخرسي».

انتفضت وابيضَّ وجهها، كما رمشت بعينيها وكأن عاصفة اقتلعتها للتو.

ساد صمت مخيف وكأن الجميع قد تسمروا لصرخته، كان من الصعب عليها

تبيَّن إن كانت أنفاسها قد توقفت أم تضاعفت إلى الحد الذي قد تتفجر معه رئتاها، حتى إنها رفعت يدها تضغط بها صدرها الخافق.

حدقت إليه كل الأعين الواسعة، فاستدار ليندفع في خطواته متجهًا إلى البيت تاركًا الجميع، فلحقت به عوالي بعد أن رمت ترنيم بنظرة قاتمة.

ثم وجهت كلامها للأولاد آمرة بصرامة: «ادخلوا إلى طابقكم، هيا».

تحرك الفتيان يدفعون بعضهم بعضًا بعدم رضا، لكن أيًّا منهم لم يقدر على المعارضة بعد ما حدث، أما ترنيم فتنفست الصعداء وسقط رأسها مغمِضة عينيها تشعر بالرغبة في البكاء وبقوة.

****

صعدت ترنيم درجات السلم بخطواتٍ مرتجفة، متمسكة بالسور بقوة واهنة كي تدعم نفسها، أما عيناها فكانتا على باب شقة عوالي الذي تُرك مفتوحًا وكأنه على استعداد لأن يُصفق بعد خروجها محمَّلة بأغراضها!

كانت على وشك الدخول، لكن صوت تحطيم عالٍ آتٍ من السطح جعلها تتسمر مكانها رافعة وجهها إلى أعلى. كلمات مكتومة مندفعة وغير واضحة جعلتها تتجاوز شقة عوالي لتتبع مصدرها صاعدة إلى أعلى درجة درجة، كان صوت عوالي هو المتحدث بالكلمات، أما الأصوات الأخرى فكأنما كالضرب والتكسير.

اتسعت عينا ترنيم وزادت سرعة صعودها خوفًا على المرأة، ثم عادت وتمهلت على أطراف أصابعها حين تناهى إلى مسامعها بعض من كلمات عوالي وهي تقول بنبرة مهدِّئة إنما حازمة: «لمَ تفعل هذا بنفسك يا «علي»؟ لماذا تعذب نفسك؟».

أرهفت ترنيم السمع علها تحصل على ردٍّ منه، إلا أن الصمت ساد دون جواب. ربما يجدر بها الفرار من كل هذا، ربما آن أوان الرحيل من جديد. تمنت لو سمعت جوابه، لكن الصمت لم ينتهِ وبدا وكأن عوالي قد اكتفت بالوقوف بجواره تشاركه صمته، مما أخبرها عن قوة الرابط بينهما.

استدارت ترنيم ونزلت بسرعة حريصة على ألا تصدر صوتًا، ثم دخلت شقة عوالي وبعد فترة طويلة دخلت صاحبة الشقة، توقفت عوالي وهي ترى ترنيم جالسة على حافة واحد من الكراسي الوثيرة العتيقة مشبكة أصابعها فوق ركبتيها، محدقة إليها بقلق وترقُّب، لم تستطع تبيُّن شيء من ملامحها الصلبة، كما وكأنها رفعت حاجزًا أخفى عينيها.

لكنها أشارت آمرة: «أنت متسخة الملابس، قومي عن مقعدي».

نهضت ترنيم على الفور فتابعت عوالي سيرها تنوي الدخول إلى غرفتها، فهتفت ترنيم قائلة: «لم أقصد شيئًا مما حدث، لم أتخيل أن مشاركتي بعض الوقت معهم يمكن أن تتسبب في طردهم».

استدارت إليها عوالي ترمقها بنظرة جافة طويلة، ثم ردت أخيرًا بهدوء: «ما كان «علي» ليطردهم مطلقًا».

امتقعت ملامح ترنيم ثم همست بخفوت: «كان صوته جادًا، لقد... صدقتُه».

فتحت عوالي فمها ببطء مدققة النظر فيها، ثم لم تلبث أن تنهدت قائلة: «هؤلاء الأولاد لا يعرفون معنى البيت بعد، لا يقدِّرون قيمة انتمائهم إلى واحد، عليهم الخوف من خسارته والعودة إلى الشارع، فحتى الآن لا يزال الشارع بالنسبة إليهم هو البيت الذي سيرجعون إليه في نهاية المطاف».

للحظات اختلت كل الموازين داخل عقلها واضطربت قناعاتها. ابتلعت ترنيم غصة في حلقها ثم نظرت إلى باب الشقة نظرة مبهمة خائفة.

فتحت فمها تدلي ببيان رحيلها الأخير، إلا أن عوالي أمرتها: «اذهبي واغتسلي فالغبار يغطيكِ، لا تجلسي أو تستلقي على أي شيء هنا قبل أن تغتسلي وتبدلي ملابسك».

اتسعت عينا ترنيم بدهشة بالغة، ثم سألتها هامسة بعد أن أولتها المرأة ظهرها متجهة إلى غرفتها: «ألستُ مطرودة؟!».

لم تجبها عوالي، وكأنها لم تجد داعيًا لعناء الرد.

هتفت ترنيم من خلفها ولا تزال الدهشة مسيطرة عليها: «لم أشكرك على الأشجار الجديدة، لم أصدق أن تهتمي لأمر كهذا!».

توقفت عوالي للحظات، ثم قالت أخيرًا بنبرة جافة قاسية متابعة سيرها إلى غرفتها: «لم أهتم، بل كان «علي»».

وكأن ضربة قد أصابت رأسها وفتَّتت جمجمتها لمئاتِ الشظايا!

****

«ما الأذى بيننا إلا سراب ألمحه فأفر إليه ظمأى كطفلةٍ تنشده، فلا تجد منه شيئًا، لك هالة المؤذي وبداخلك طفل وحيد».

لم تكن المرة الأولى التي تراه فيها على هذا الشكل، بل إن المرة الأولى مسَّت بداخلها شيئًا انتفضت منه رافضة، رفضت هذا الشعور كليًّا واعتبرته دخيلًا غادرًا. المرة الأولى كانت قد تسللت على أطراف أصابعها صاعدة إلى السطح تنوي شكره على الأشجار والاعتذار، وكان باب السطح مواربًا بحيث مدت عينيها من الشق مترددة ويدها على قلبها، لكن ما رأته سمَّرها مكانها، على أرضِ السطح كان جالسًا بملابسه الغالية فوق بساط رث، مستندًا بظهره إلى الجدار من خلفه، يمد ساقًا والأخرى يرفعها لترتاح ذراعه فوق ركبته، جلسة عادية لشخص غريب! حيث تناقضت ملابسه ووضعه مع مكان سكنه وتهالُك البساط من تحته، لكن لم يكن هذا هو ما مسَّها، بل التعبير على وجهه، لم يسبق لها أن رأت مثله إلا ما تشعر به، وسبق وارتسم على وجهها لسنوات طويلة، محدق إلى السماء بعينين بعيدتين، فيهما الوحدة موحشة ومؤلمة، في عينيه طفل وفيهما شيخ، أما الشيطان الذي اعتادت أن تراه من خلالهما قد كان غائبًا عنهما للمرة الأولى، فمه مفتوح قليلًا، وكأن الهواء الداخل إلى رئتيه ما عاد يكفيه، والخطوط على وجهه تعمقت فسرقت من شبابه عمرًا وقتلت من أيامه أعوامًا.

في المرة الأولى نسيت نفسها في مراقبته، فانقبضت الكف المفرودة على صدرها حتى تحولت إلى مخالب نشبت لحمها، لكنها كانت في عالم آخر فلم تشعر بها. في المرة الأولى مسها شيء انتفضت له، وحين أفاقت لنفسها استدارت تجري على درجات السلم مولية الفرار، لكن ما مسها كان كالشبح الذي يسكنها، إذ لازمها من تلك المرة ولم تفارقها صورته قط، وكأن صورته على هذا الحال باتت كأسطورة النداهة تناديها كل يوم، فتتسلل وقت المغيب، الوقت الذي تنام فيه عوالي قليلًا وتذهب عزيزة إلى زوجها، تتسلل صاعدة درجات السلم بقدمين حافيتين لتصل إلى بابه وتتلصص عليه من الشق بعينين واسعتين غائمتين.

شيء ما أخبرها أن جلوسه على هذا النحو لم يكن مرة عابرة، بل كان العالم الذي يفر إليه، وكانت محقة، إذ يجلس على هذا الحال كل يوم والتعبير على وجهه يأبى أن يفارقها، فتستمر في التسلل والتلصص كل مرة وكأنها باتت مدمنة على مراقبته، باتت عادتها، ووقته الخاص بات وقتها، واليوم كانت مستندة بجانب رأسها إلى الجدار تتأمله بشرود يجمعهما الصمت الطويل.

عرفت خلال الفترة الماضية أنه رغم قوة العلاقة المجهولة التي تربطه بعوالي، فإنه يظل وحيدًا، يأكل وحيدًا، ويتكلم نادرًا وعوالي تفهمه جيدًا وتحقق له ما يرتاح له، فلا تتطفل على وحدته إلا نادرًا.

تحرك «علي» من مكانه واقفًا فجأة، فأجفلت ترنيم بخوف حتى إنها تراجعت خطوة خوفًا من أن يكون قد لاحظ وقوفها، لكن خطواته كانت متمهِّلة دون عجل وهو يتوجه إلى سور السطح، ثم وقف هناك يوليها ظهره محدقًا إلى السماء المعتمة بعد أن غاب عنها شعاع الشمس الأخير. مرت الدقائق وهي لا تزال واقفة بعيدة عنه والباب الموارب يفصل بينهما، ثم التفتت تنظر إلى الخلف بتردد، ففي مثل هذه اللحظة من كل يوم تستدير لتنزل على أطراف أصابعها بعد أن تكون قد اكتفت من مراقبته.

عليها أن تكلِّمه ذات يوم، أتراه اليوم هو اليوم الذي ستستجمع فيه شجاعتها لتقتحم عرينه؟ أخذت نفسًا عميقًا ثم طرقت على الباب تزيحه

ودخلت دون انتظار الإذن بالدخول، كل خطوة تخطوها وتقرّبها منه كانت تشعِرها بأنها تقترب من حافة الهاوية.

وقفت ترنيم أخيرًا قريبة منه ولم يبادر بالتحرك مستديرًا إليها، على الرغم من ثقتها أنه سمع خطواتها، أتراه عرف أنها هي التي تقف خلفه ولهذا لا يتنازل بالنظر إليها؟ تكلمت بصوتٍ خفيض قاطعة الصمت، لكن خفوت صوتها بدا وكأنه ملائم مع اللحن الساكن من عودة العصافير إلى أعشاشها وهمس الريح الباردة.

قالت: «ترددتُ في الصعود للكلام معك ثم تشجعتُ، فهلا سمحتَ لي؟».

لم يتحرك وكأنه لم يسمعها ولم يشعر بوجودها، فالتقطت أنفاسها وتابعت مشبكة أصابعها المرتعشة: «سأعتبر صمتك موافقة وسأقول ما أتيت لأجله على كل حال، أتيت لأعتذر عن الفوضى التي تسببتُ فيها منذ أيام، لقد حذرتْني السيدة عوالي من قبل، كما أنك سبق واتخذت إجراءات لمنع تواصل الأولاد معي، وفكرت أنه تعنُّت منك، لكنني بعد ما حدث أدركت أنك ربما كنت محقًّا».

لم تر ملامحه، ولو رأتها لما أبصرت سوى وجه من حجر وعينين سوداوين سحيقتين.

حلَّق طائر مغادِر له صوت شجي، فتبعته بعينيها وحين اختفى أعادتهما إلى الإنسان الجاف الواقف أمامها.

تابعت بصوتٍ هامس كالنسيم لا كالرياح الآن: «كما أردتُ أن أشكرك على الأشجار التي زرعتَها عوضًا عن أشجاري التي اقتُلعت».

طيَّر الهواء شعرها حول وجهها وحلت ظلال الظلام، فخافت من ظهور الأشباح من بطشه في لحظة غفلة منها، لذا تراجعت ببطء بظهرها محدقة إليه غير قادرة على إبعاد عينيها عنه.

ثم همست بخوف مفاجئ: «يجب أن أنزل الآن، شكرًا لأنك سمعتني».

هرولت بخطواتٍ خفيفة وكأنها تطير تود الهرب، حتى سمعته يتكلم أخيرًا وصوته سمَّرها مكانها، صوت هادئ تمامًا، عميق وواثق:

قال: «إن صعدتِ إلى هنا مجددًا، سأكسر ساقك».

اتسعت عيناها ذاهلة غير مصدقة أنها سمعت ما سمعته، لكنها لم تنتظر لتتأكد، بل أطلقت للريح ساقيها ولم تتوقف حتى دخلت شقة عوالي، ثم إلى الغرفة التي أُعدت لها، فأغلقت بابها وارتمت بظهرها مستندة إليه بوجهٍ فرت منه الدماء خوفًا وعينين اهتزت حدقتاهما.

ثم لم تلبث أن همست: «يا لك من حيوان!».

****

في البداية انتظرت أن ينقل خبر تلصصها عليه إلى عوالي كي تتصرف معها، كأول ليلة قبض عليها وجرَّها خلفه ليرميها بين أحضان عوالي مع كلمة مختصرة، بدا لها وكأن عمرًا قد مر على أول مرة رأت فيها غرفته فوق السطح وتلصصت من نافذتها الخشبية، وخلال هذا العمر أدركت أنه لا يلقي التهديدات إلا جزافًا، فهو لا ينفذ منها شيئًا. شيء ما أخبرها من جديد أن السبب لم يكن لأنه غير قادر على تنفيذ ما يهدد به، فهو قادر على الأكثر والأفظع، لكن يبدو وكأنه غير راغب في إبعادها. وزاد ظنها تأكيدًا بعد تهديده بكسر ساقيها إن صعدت إليه مجددًا، فها هي ذي الأيام تمر ولا يتخذ ضدها أي إجراء، ولم يخبر عوالي عنها، حتى اطمأنت وباتت تتصرف بطبيعية مستغِلة ما تمنُّ به الأيام عليها.

- فكرتُ في تحضير المزيد من أحواض الزرع لتحيط بالبيت كاملًا، أحب الياسمين بصفة خاصة، لكن أنواعًا عديدة من الأشجار سأزرعها في تلك الأحواض، فهل تفضلين أنواعًا محددة؟ بالمناسبة أيضًا، لمَ لا تكسين فناء البيت بالنجيل الأخضر عوضًا عن ذاك التراب الخانق؟

تحركت حدقتا عوالي الجامدتان إلى أعلى، ثم زفرت بصوت مكتوم وهي تبتلع اللقمة غضبًا قبل أن تنظر بطرف عينيها إلى ترنيم، التي لم تتوقف عن الثرثرة وهي تأكل بجوارها حول المائدة الضخمة، ثم حوَّلتهما إلى النافذة الضخمة المفتوحة وشرد ذهنها محلقًا عبرها.

تابعت ترنيم قائلة: «سأنظف الحديقة كلها في الغد وأحدد الأماكن التي...».

قاطعتها عوالي بغلظة محوِّلة نظرها إليها: «ألن أتمكن من الأكل في صمت كما أحب وكما اعتدت على مدار سنوات طويلة؟!».

توقفت ترنيم عن الأكل محدقة إليها بعينيها الكبيرتين، وقد تهدل فمها على الفور.

لكنها لم تلبث أن ردت رافعة حاجبها: «ربما آن الأوان ليتغير هذا».

زمّت عوالي شفتيها مديرة وجهها إلى النافذة تتخذها كمهرب نحو الخلاص.

تابعت ترنيم بعفوية: «ربما أيضًا نحدِث بعض التغيير وننزل ذات يوم لنأكل مع الأولاد فنشعِرهم بأنهم بين أهلهم».

انعقد حاجبا عوالي بشدة ملتفِتة إليها، ثم ردت بغضب: «مجددًا؟! ألم تتعلمي من غلطتك بعد؟!».

هتفت ترنيم مدافعة دون تفكير: «بلى تعلمت، حتى إنني اعتذرت للسيد «علي» ووعدته بألا أكررها مجددًا».

جمدت ملامح عوالي على الفور وازداد انعقاد حاجبيها، فرددت ببطء: «اعتذرتِ له؟! متى تكلمتِ معه؟».

أدركت ترنيم على الفور أنها قد تهورت في الكلام، لكنها لم تستطع التراجع.

قالت مرتبكة: «نعم، صعدت لأعتذر له ثم نزلت على الفور ودون تأخير، أتُراني أخطأت التصرف مجددًا؟».

أظلمت عينا عوالي بشدة وتحولت شفتاها إلى خط مستقيم لا يعرف اللين، ثم أجابت بقسوة: «طلبت منكِ ألا تقتربي من «علي»، فهو مثلي يفضل عزلته ولا يرحب بالأغراب».

أخفضت ترنيم عينيها على الفور ثم تلاعبت بملعقتها في الطبق وقالت مديرة دفة الحوار: «نعم، لاحظت أوجه الشبه بينكما، حتى إنني في بعض الأوقات ظننتكِ والدته».

الصمت الذي أعقب كلماتها جعلها تنظر إلى عوالي، فهالها التعبير القاتم الذي لاح على ملامحها، فسارعت تصحح كلامها.

قالت: «أقصد من الناحية المعنوية، لكنك أصغر من أن تكوني أمه بكل تأكيد».

لم تختفِ القسوة من عينيها، بل زادت مما جعل ترنيم تغص مبتلعة ما في فمها، فلم تكن تتخيل أن تكون عوالي واحدة من النساء اللاتي يخفن من إظهار أعمارهن وبخاصة أنها كبيرة فعلًا!

لكنها سألت منتهزة الموضوع: «ربما أخبرتِني أنتِ عن قرابتكما؟».

نظرت إلى عوالي فرأت أن الغضب لا يزال كما هو في عينيها إن لم يكن قد زاد، وكأنها تحولت في لحظة واحدة إلى غريمتها القادرة على غرس تلك السكين الممسكة بها في قلبها دون أن يرف لها جفن!

رفعت عوالي ذقنها قليلًا، ثم قالت بعد فترة بصوتٍ هادئ إنما كان قاطعًا: «يجدر بكِ أن تغادري هذا البيت يا ترنيم، ابدئي حياتك وابني لنفسك بيتًا عوضًا عن بيوت الآخرين، سواءً كانوا أحياءً أم أشباحًا».

****



انهمكت في غسل الأرض بالمطهرات ومواد التنظيف، وسارعت في العمل حتى حل عليها التعب، لكنها لم تتوقف عازمة على الانتهاء مما تفعل، كانت ممنوعة من الكلام مع الأولاد وممنوعين من الكلام معها، وكما حُذِّروا من الخروج إلى الفناء وهي فيه، فقد مُنعت من النزول في أثناء لعبهم، لكنها أكبر من أن تلتزم بتعليمات الحظر المطبَّقة عليهم، لذا انتهزت فرصة خروج عوالي و«علي» وانشغال عزيزة، فنزلت بأدوات النظافة بهمَّة ونشاط، ثم هجمت على طابق الأولاد في حملة تنظيف عنيفة خلال لعبهم في الفناء.

سمعت صوت خطوات تجري خلفها مما جعلها تستدير بسرعة، ثم هتفت بغضب: «صابر! ألا ترى أنني قد نظفت الأرض للتو؟».

توقف الصبي في منتصف بهو الطابق الخاص بهمّ مسمَّرًا رافعًا ذراعيه لا يعرف ماذا يفعل، وكأنه قد توقف فوق بحيرة جليدية قد تتكسر في أي لحظة، أما هي فقد نظرت مصعوقة من منظره المتسخ وآثار الوحل التي خلَّفتها قدماه بعد أن نظفت لتوها.

أغمضت ترنيم عينيها متأوهة وهي تضرب جبهتها بغيظ.

بدا الصبي مترددًا وهو يقول بحذر: «آسف يا سيدة».

فتحت ترنيم عينيها ببطء محدقة إليه بتدقيق، لأول مرة تسمع من أحدهم اعتذارًا وردًا مهذبًا حقيقيًا!

رفعت وجهها وقد لان الغضب على ملامحها وحل محله الحزم قائلة: «عليك أن تغسل قدميك مستقبلًا بعد اللعب وقبل الدخول إلى المكان، ولا داعي للألقاب، يمكنك مناداتي باسمي، «ترنيم»».

انعقد حاجبا الولد مفكرًا ثم لم يلبث أن هتف بشتيمة بذيئة جعلتها تهتف مصدومة غاضبة.

قالت: «إياك وإعادتها، التزم الأدب أو سأخبر السيد «علي»».

توترت للحظة بعد أن سمعت نفسها، هل فعلًا هددت الصبي المقهور بتعريضه لعنف السيد المجنون؟! هزت رأسها بقوة تنفض عنه هذا الاحتمال المؤذي.

اقتربت منه خطوتين وأضافت بهدوء: «لقد اعتذرت منذ قليل ولقّبتني بالسيدة! ما الداعي الآن للألفاظ السيئة أمام سيدة؟».

لوّح بكفه هاتفًا بشراسة: «إنه منصور، أخبرني أن أناديكِ «ترا يم يم» كي أكون أضحوكة الباقين».

ضاقت عينا ترنيم للحظات محاولة فهم ما يقول، واستغرقها الفهم بضع لحظات لحل الأحجية حتى تبسم ثغرها أخيرًا.

سألته: «هل تنطق اللام ياءً؟».

ظل الولد على عبوسه، فشعرت بقلبها يرق له، فقد كان أصغرهم سنًا وأكثرهم براءة على ما يبدو، تؤثر فيه السخرية منه على الرغم من الأهوال التي يمكن أن يكون قد تعرَّض لها في الشارع قبل إحضاره إلى هنا.

تحكمت في ضحكتها ورسمت تعبيرًا رزينًا على وجهها قائلة: «بل أنا من أخبرته أن لي لقبًا من الطفولة وهو «ترا لم لم»، لكنك تنطقها بطريقة لطيفة جدًا».

نظر إليها مقطبًا فأشارت إليه متابعة بحزم: «هيا تعال لتغسل قدميك، فلقد تعبتُ في تنظيف المكان ولن أسمح بأن يتسخ لأيام مقبلة».

لحق بها إلى الخارج حتى وصلت إلى الصنبور المخصَّص للري في الفناء، وكانت قد ثبّتت به خرطومًا، فأمسكت به.

ونادتهم جميعًا آمرة: «من الآن فصاعدًا عليكم غسل أرجلكم وأيديكم بعد اللعب في الفناء بهذا الخرطوم قبل الدخول إلى مسكنكم والاغتسال في الداخل، هيا تعالوا كلكم».

اقتربوا منها بحذر، لا تزال في أعينهم نظرات التمرد والشغب وبعض العبث، لكنهم كانوا قلقين، على الأرجح يخافون من السيد «علي»، لذا نظروا إلى بعضهم بعضًا ضاحكين بسخرية واستهزاءٍ منها، يدَّعون أنهم لا يبالون وأنها ليست سوى مادة للعبث معها، لكنها لم تغيِّر من صلابة وجهها ونظرة الشدة في عينيها ممسكة بالخرطوم منتظرة. لم تكن واثقة من أنهم سيمتثلون لأوامرها وأنها لن تنجح إلا في جعل نفسها أضحوكة بينهم، لكنها ظلت ثابتة على موقفها بصرامة حتى بدؤوا في التحرك على مضض، بترقب وتردد واحدًا تلو الآخر كي تساعدهم في غسل أرجلهم الموحلة.

****

فتحت فمها وأكلت بجوع ونهم متابِعة الاستماع إلى حكاياهم التي لا تنتهي أبدًا، لا تنكر أنهم ثرثارون جدًّا وأصواتهم عالية متداخلة بشكلٍ مزعج، لكن المحروم من الصحبة لفترة طويلة مثلها قد يجد في الصخب والثرثرة حياة جديدة.

تربع جميعهم في دائرة فوق شرشف كبير فرشته في الفناء والطعام متراص في منتصف الدائرة.

قبل أن تجلس معهم كانت صارمة وهي تقول مهدِّدة تنظر إلى أعينهم: «لنكن واضحين مع بعضنا، فلنتعامل كإخوة أفضل، أما إن أردتم أن يتكرر ما حدث في المرة الأخيرة فسوف نُطرَد جميعًا من هنا وأنا أولكم، ولا تنسوا أن عوض موجود، وهو قادر على التدخل في أي لحظة إن كنتم تنشدون العبث، لذا عليكم التعامل معي كصبي مثلكم مع الفارق أنكم ستتعاملون باحترام كذلك، وهو المفقود بينكم، أرجو أن يكون كلامي واضحًا».

هذه المرة لم تتكلم عزيزة أو تعترض، بل اكتفت بأن ترميها بنظرة سوداء متوعِّدة وهي تنزل بالطعام للأولاد المنتظرين، فعلمت ترنيم أنها ستخبر

عوالي و«شخصها المفضل»، وربما تكون قد اتصلت بهما فعلًا، لكنها لم تأبه، بل تابعت أكلها بعد تعب التنظيف تشدها قصص الأولاد.

سألتهم تجيل عينيها بينهم: «ألم يدخل أيٌّ منكم المدرسة قبل الشارع؟».

ضحك اثنان مصدِرين أصواتًا ساخرة مستهينة.

قال منصور وفمه ممتلئ بالطعام: «أنا دخلت المدرسة بضع سنوات، لكني خرجت منها بعد أن فقدتُ ساقي».

رقت عيناها له، إنما سألته بنبرة هادئة رافضة أن تظهر فيها الشفقة: «كيف...».

تركت السؤال دون أن تتمه مكتفية بنظرة إلى ساقه.

أجابها متظاهرًا باللامبالاة: «كنت أعمل بائعًا متجولًا بين القطارات، وفي مرة وقعتُ فلم تنجُ ساقي».

شعرت برجفةٍ سرت في جسدها وانتفض قلبها لوعة.

سألته بعد لحظات: «لكن لماذا تركت المدرسة بعدها؟».

ظلت ملامحه عادية وجفناه مسدلان ناظرًا إلى الطعام، لكنها رأت على ملامحه الأسى حتى وإن كان مستترًا خلف هذا الهدوء الذي أجاب به ببساطة.

قال: «حسنًا، لقد توفي والدي فتكفل عمي برعايتي، لكنه اشترط كي أتابع ذهابي إلى المدرسة أن أعمل جزءًا من اليوم، فساعدني واحد من المنطقة في الحصول على صندوق بضاعة رخيصة للتجول بها بين القطارات، واستمر الحال لفترة حتى اختلتْ قفزتي ذات مرة فدخلت ساقي تحت عجلات القطار، بعد الحادث كنت في حاجة إلى العلاج ولم أستطع الحصول على عمل، فأخرجني عمي من المدرسة، وبعد فترة هربت من بيته، فلم أعد أطيقهم».

انحنى حاجباها ألمًا وشعرت بألم حاد في صدرها.

لكنها تمكنت من سؤاله بلطف: «ماذا عن والدتك؟».

لوَّح بيده ضاحكًا دون أن ترى أثرًا للضحكة في عينيه: «تزوجت منذ زمن طويل».

لم تكن في حاجة إلى ذكاء كبير كي تدرك رفض زوج أمه له، فانخفض وجهها وتركت اللقمة من يدها.

قال صابر الجالس بجوارها: «أنا أيضًا هربت بعد «طياق» أبي وأمي وبقيت عند «خايي» فترة، ثم مات فذهبت «إبى ايميجأ»».

ساد الصمت للحظات والجميع ينظر إليه ثم انفجروا فجأة في الضحك، مما أثار غضب الصغير.

إلا أن ترنيم هتفت بصرامة: «توقفوا عن هذا، فلا شيء يدعو إلى الضحك، من يسمع ضحككم يظنكم أساتذة في حسن الكلام».

رد الشحات ضاحكًا: ««ترا يم يم» معها حق يا صابر».

ازداد الضحك فنهرتهم مجددًا، وتوقفوا عن مضايقة الصغير بالفعل، إلا أن المواضيع المضحكة لم تتوقف، حتى ارتفع صوت مزاحهم يملأ الفناء الواسع.

رأت ترنيم عوض يفتح البوابة لتدخل السيارة، مما جعلها تتوتر للحظة، فلم يكن هذا موعد عودة عوالي و«شخصها المفضل».

وهذا ما أكد ظنها حول اتصال عزيزة بهما كي تشي بها، وبالفعل لم تكن عوالي في السيارة، بل كان «علي» فحسب. إذن فقد ترك عوالي في محل تجارتها وجاء لينهي المهمة كعادته.

زمّت ترنيم شفتيها وأبت أن تسمح للشيطان بأن يرهبها، وفعلًا كانت ملامحه السوداء أشبه بالشيطان وهو يخرج من السيارة متجهًا بخطوات واسعة إلى جمعهم، ثم توقف مشرفًا عليهم من علوّ طوله الفارع ينظر إلى الدائرة التي التفُّوا فيها فوق الشرشف النظيف، وقد بدا وكأن الجميع قد اغتسل وتنظف كذلك، دارت عيناه فيهم عاقدًا حاجبيه حتى استقرتا على ترنيم أخيرًا، كانت تنتفض داخليًا وكأن عينيه سيفان مسلّطان على عنقها تنويان قطعه في أي لحظة، فأبقت وجهها بعيدًا عنه بإصرار، وعن قصد تابعت أكل اللقمة في يدها ببرود متجاهلة وجوده، متوقّعة كم المهانة التي ستلحق بها أمام الأولاد. لكن ما حدث كان غريبًا وغير مفهوم، فقد استدار

عائدًا إلى السيارة ثم استقلها وانطلق بها خارجًا من البيت وكأنه لم يأتِ ولم يتجسد أمامهم للتو.

نظر الأولاد إلى بعضهم بدهشة بالغة، وسأل منصور: «ما هذا الذي حدث؟!».

ظلت عيناها متسعتين محدقتين إلى البوابة التي أُغلقت من بعد خروجه.

أما صابر فقال: «هل سيؤذيكِ لأنكِ تكلمتِ معنا؟».

التفتت إليه ترنيم عاقدة حاجبيها ثم انحنت إليه وهمست تسأله بجدية وصلابة: «هل سبق وآذاكم بأي طريقة؟ لا تخف، يمكنك إخباري وبإمكاني أن أوقفه».

هز الصغير رأسه نفيًا ثم أجابها بعفوية: «إنه يفض العراكات فحسب».

رفعت ترنيم وجهها ببطء وأعادت نظرها إلى البوابة بعينين شاردتين، فرجل المهمات لم يقم بالمهمة التي جاء لأجلها على ما يبدو، ترى لماذا؟

****

عقدت كفيها خلف ظهرها وهي تدخل المطبخ بخطوات خفيفة كالريشة، ومع ذلك استدارت عزيزة على الفور، فعبست ملامحها كعادتها كلما رأتها، ابتسمت لها ترنيم لكن لم تجد لابتسامتها المثل من المرأة الكارهة لها على الدوام، لكن العبوس اليوم لم يوقفها.

اقتربت أكثر وسألتها بعفوية: «ماذا تفعلين؟».

مطت عزيزة شفتيها ممتعضة رامية الفتاة بنظرة سوداء، ثم ردت بخشونة: «سلامة النظر، ألعب».

كتمت ترنيم الزفير نافد الصبر ونظرت إلى الأطباق المتساوية المتراصة، التي بدأت عزيزة في توزيع الأكل عليها.

سألتها من جديد: «هل أساعدك في إنزال الأطباق إلى الأولاد؟».

نظرت إليها عزيزة حانقة وردت محتدة: «للمرة الألف ابتعدي عن الأولاد يا فتاة، والتزمي بأوامر السيدة عوالي والسيد «علي»».

التزمت ترنيم الهدوء مضطرة وأجابتها معاتبة: «ألا تتهاونين قليلًا معي بعد أن تغاضيت عن وشايتك بي منذ أيام واتصالك بالسيدة عوالي والسيد «علي»؟».

زمّت عزيزة شفتيها دون رد، لكن ما إن اقتربت ترنيم أكثر ووقفت بجوارها حتى تشنجت المرأة وقفزت هاتفة: «من بعيد، الكلام من بعيد، فلا يتلبّسني ما يتلبّسك، اللهم احفظنا».

اهتزت حدقتا ترنيم رغمًا عنها فزاغت عيناها، إلا أنها ردت: «اطمئني، فالشبح الذي يلاحقني لا يريد سواي».

كتمت عزيزة أنفاسها وأغمضت عينيها هامسة برعب: «سلام قولًا من رب رحيم».

شعرت ترنيم بالدوار فاستندت بأصابعها إلى حافة الرخام.

ثم هزت رأسها بقوة وابتسمت قائلة بصوتٍ عذب: «أود المساعدة، صدقًا، يكفي أنكِ أعددتِ الطعام، على الأقل أنزِله أنا لأوفر عليكِ نزول السلم عدة مرات».

قبل أن ترفض المرأة مجددًا سبقتها ترنيم وأضافت مشيرة إلى صينية عليها طبق ورغيف خبز: «هذا الطعام مختلف، أهو لواحد من الأولاد؟».

ألقت عزيزة نظرة خاطفة إلى حيث تشير، ثم أجابت بجفاء: «إنه طعام السيد «علي»».

ارتفع حاجبا ترنيم بدهشة بالغة محدقة إلى الطعام البسيط، وكأنه طعام زاهدٍ في متع الدنيا. من أين يحصل على قوة جسده إن كان هذا هو طعامه؟!

رمشت ترنيم بعينيها مجددًا ثم قالت بصوت خفيض بدا مرتعشًا: «سأبدأ بتنزيل الأطباق».

زفرت عزيزة مستاءة، إلا أنها كانت تفضّل أن تنزِل الأطباق عوضًا عن ملازمتها في المطبخ، لكن بعد فترة وحين استدارت وجدت الأطباق مكانها، وصينية «علي» هي الغائبة!

****

«وكأنهما تقابلا في حياة أخرى، حيث يحفظ كلٌّ منهما تفاصيل الآخر».

لم يكن بمقدورها طرق باب السطح، فدفعته بمرفقها ودخلت بحذرٍ، عيناها تمسحان المكان في لحظة واحدة خوفًا من أن يظهر لها فجأة كالوطواط. لم يكن في الخارج مما يعني أنه في غرفته، لذا تقدمتْ بضع خطوات وعيناها ثابتتان على باب الغرفة لا تحيدان عنه، ثم توقفت، وكأنها على موعدٍ مع الخطر، وها هي ذي تقف على حافة هاويته مفتوحة الذراعين، وكأنما سمع نداءها الصامت إذ فتح الباب فجأة وخرج منه، ثم توقف تمامًا وعيناه على عينيها، لم يفصل بينهما سوى بضع خطوات، لكنها شعرت وكأن أزمنة غابرة تبعدهما، وكأنهما تقابلا في حياة أخرى حيث يحفظ كلٌّ منهما تفاصيل الآخر.

تحركت عيناه القاسيتان على ملامحها بتمهُّل حتى استقرتا على عنقها حيث ازدردت لعابها بصعوبة قبل أن تبادر قائلة بصوتٍ مبهم: «قبل أن تسارع بكسر ساقي، أقول لك إن عزيزة كانت في حاجة إلى المساعدة، وحدث أنني كنت متوفرة».

لم يرد عليها، بل نفذت عيناه عبر عينيها بسطوة جعلتها ترتعد، ثم تحرك.

اتسعت عيناها قليلًا وهي تراه يتقدم، فابتعدت على الفور حتى كادت أن تسكب ما في طبقه فوق الصينية، لكنها ثبَّتت نفسها متمسِّكة بشجاعتها تحاول ألا تظهِر له سرعة تنفسها، لكنها فشلت، فقد كانت أنفاسها تتسارع باضطراد، وبخاصة أنه حين تجاوزها لم يبتعد، بل كان يدور حولها ببطء وعيناه تشملانها وكأنهما قادرتان على ابتلاعها في لحظة.

كتمت أنفاسها وهمست بصوت خرج مرتعشًا دون أن تنظر إليه، بل ثبَّتت عينيها الواسعتين على نقطة أمامها: «جئتك بطعامك».

مجددًا لم يرد عليها، بل دار حولها مرة ثانية وإنما ببطء شديد جعلها تشعر وكأنه يدور في عام وكأنها الشمس، وكأن الفصول تتعاقب بينهما، إذ تلذعها الحرارة ثم ترتجف بردًا.

تحركت حدقتاها مع تحرُّكه حتى واجهها فوقف أخيرًا، فاستقرت عيناها على عنقه حيث مستوى طولها بالنسبة إليه. إن كانت تنوي أن تخفي عنه خوفها منه فقد فشلت فشلًا ذريعًا، إذ انتابتها نوبة هلع جعلتها تنتفض لدرجة أن بدأ الطبق في الصينية يهتز مصدِرًا صوت ارتطامات متتالية انعكاسًا لارتجافها، أخفض عينيه ببطء إلى الطبق والسائل الكثيف المتموج بداخله، وكان وجهه قناعًا من اللامبالاة بالنوبة التي تفترسها، ومع ذلك كان مهتمًا في طول صمته ونظرته، رجل المتناقضات بجدارة! نظرت بعجزٍ إلى كفيها والصينية التي أخذت تهتز بدرجة مثيرة للشفقة، فأوشكت على البكاء فعليًا لعجزها عن الثبات أمام عينيه المدقِّقتين بها، وكأنه يستمتع بكل لحظة غير مبالٍ بالسائل الذي بقَّع الخبز والصينية تحت الطبق، وكأنها ممسكة بفوهة تخرج منها الحمم البركانية وهو ما يمثِّلها تمامًا.

أغمضت ترنيم عينيها بشدة وأطبقت شفتيها تحاول تنظيم أنفاسها، ثم همست بصوتٍ مرتعش تريد قطع هذا التعذيب المقصود بعد أن فشلت في رسم صورة الثقة والثبات أمامه.

قالت: «أين أضع الطعام؟».

ساد الصمت للحظات، فلم تفتح عينيها وانتظرت، حتى سمعت صوته أخيرًا، بذلك العمق القادر على اجتذاب الإنسان في دوامة مظلمة.

قال: «هنا».

فتحت عينيها مجبَرة لترى مقصده، بما أنه لم يتحلَّ بالتهذيب الكافي كي يأخذه منها بعد أن رأى الحالة التي انتابتها، فرأته يشير إلى البساط الذي يجلس عليه كل يوم، مساحته التي لا يحتلها غيره!

رمشت ترنيم بعينيها للحظة دون أن تتحرك من مكانها، ثم همست تسأله: «على الأرض؟».

لم يرد، فرفعت نظرها إليه، حينها فقط تنازل بالإيماء ببطء مدقِّقًا النظر إلى عينيها، ثم ابتعد متجهًا إلى سور السطح. أفلت من بين شفتيها زفير مرتجف بعد ابتعاده قبل أن تتحرك أخيرًا إلى البساط، ثم انحنت لتجثو على

عقبيها كي تضع الصينية أرضًا. ثوبها الطويل يرقُّ للنسيم، فيتمايل في جلستها كخصلات شعرها المتحررة من ربطته، كانت تنظر بقنوط إلى الآثار التي خلّفتها الحرب المندلعة داخل نفسها فوق الطبق والصينية، ثم التفتت بوجهها حيث يقف فهالها أن يكون واقفًا يراقبها هي.

انتفضت واقفة على الفور، تمسح كفيها المتعرقتين بفستانها ثم همست مرتبكة: «ربما من الأفضل أن أنزل الآن».

ظننت أنها قد رأت شبح ابتسامة على طرف شفتيه، إلا أن ملامحه كانت لا تزال جافة لم تلِن، فأبعدت الظن السخيف عن مخيلتها حتى رد عليها أخيرًا بلا تعبير.

قال: «ربما».

ارتفع حاجباها من تغيُّر رد فعله بعد أن هددها بكسر ساقها المرة الأخيرة! يومًا بعد يوم يتأكد لها أنه لا يريد خروجها، لكنه يكابر ويرفض الاعتراف، وكأنه قد قرأ أفكارها للتو، إذ تحرك مقتربًا منها من جديد.

قال بصوت مبهم: «عوالي تريدك خارج هذا البيت».

شلّتها الصدمة، حتى إنها لم تكن واثقة مما سمعته للتو، واستمرت في النظر إلى اقترابه حتى وقف أمامها مجددًا، لم تعرف إن كان هذا أمرًا بطردها أم دعوى لتوسلها.

شبكت أصابعها وهزت رأسها تسأله بصوتٍ أجوف خفيض: «وماذا تريد أنت؟».

ضاقت عيناه المستقرتان على عينيها، ثم أجاب: «المهم ما تريده هي».

يحتمل جوابه الكثير من المعاني، هل يعني هذا أنها السبب في تضارب قراريهما للمرة الأولى؟!

همست بحذر تضغط أصابعها أكثر: «هي قالت أيضًا إن البيت لك، وإنك صاحب القرار، فهل تأمرني بالخروج؟».

يطيل الصمت وتترقب الجواب، ألديه مشكلة في التواصل أم نزعة سادية في إرهاب مخاطبيه؟!

سألها بنبرة قاسية: «لماذا تريدين البقاء بين الأغراب؟».

تاهت عيناها وحارت جوابًا، ثم نظرت إلى عينيه السوداوين المخيفتين وردت بصوتٍ فاتر: «أنت محظوظ بهذا البيت وساكنيه، أما أنا فلا أهل لي ولا مأوى، لم تكن الحياة عادلة معي قط».

ضحك! للمرة الأولى تسمعه يضحك ضحكة خفيضة لها مذاق الصدأ لمن يسمعها، فنظرت إلى عينيه تتأكد إن كان يسخر أم يتوعد، فلاقت عيناه عينيها ثم تحركتا فوق وجنتيها، أما عيناها فلامستا الجرح الممتد فوق فكه، أتراه يطيل لحيته عمدًا ليظهر أثر الجرح كخط أبيض يقطع سواد الشعر؟ أم أنه يحاول أن يخفيه فيفشل؟

تتحرك حدقتاه فوق التكاثف المزدحم وكأنه أجمل ما فيها، فكلما تواجها تسرق وجنتاها نظر عينيه.

رفع وجهه أخيرًا قاطعًا التواصل الصامت بينهما آمرًا: «لقد أتممتِ مهمتك التي أتيتِ لأجلها، والآن انزلي».

على الرغم من أن الأمر بصرفها خرج من بين شفتيه بصلفٍ وكأنه يصرف متسولًا يطلب كسرة خبز، فإنها شعرت وكأنها تلقت الأمر بالعفو عنها، وكالمرة السابقة ابتعدت مندفعة تريد الخلاص، فخرجت من باب السطح ثم ارتمت بظهرها إلى الجدار المجاور لبابه واضعة يدها على صدرها الخافق.

مرت لحظات من الصمت شعرت خلالها بالأرض تميد بها، محدقة إلى السقف بعينين واسعتين، وكأنما كل مرة تخرج فيها من عرينه تتقاذفها المتناقضات التي تشعر بها، حين استقرت أنفاسها مالت بنفسها كي تحدق بعينيها من باب السطح تتلصص عليه من جديد، فرأته اتخذ مكانه فوق البساط مستندًا بظهره إلى الجدار، محدقًا إلى السماء، وقد أنزل قناعه لتظهر ملامح طفل وحيد في جسد رجل مخيف.

****

يبدو أنه كانت لشبحها مهمة هذه الليلة، فقد داهم أحلامها يحولها إلى كابوس مظلم، الشيء الأبيض الوحيد فيه هو بشرته البيضاء المزرقة، واقفًا وسط سواد ممتد من حوله لا نهاية له، ثم صرخ فجأة باسمها بصوتٍ مرعب كاد أن يفجِّر طبلة أذنيها، صوته الذي خرج من فمه المفتوح على أقصى اتساعه لا يُغلَق أبدًا، مما جعلها تقفز شاهقة تختنق وأخذت تجري ناظرة حولها لا تبصر شيئًا ولا تعرف أين هي، حتى رأت بابًا، ومن تحت عقبه بصيص ضوء، فجرت إليه مذعورة وفتحته فغشي عينيها ضوء شديد جعلها ترف بجفنيها شاعرة بألمٍ حاد في رأسها.

انتفضت عوالي في كرسيها مجفلة حين فُتح باب غرفتها في ساعة متأخرة من الليل دون إذن، وسرعان ما تحولت دهشتها إلى صدمة ثم غضب وهي ترى ترنيم واقفة في منتصف غرفتها بعينين واسعتين!

فتحت عوالي فمها تنوي أن تهدر غضبًا لتردع تلك الفتاة الخطيرة، لكن شيئًا ما على ملامح ترنيم أوقفها فأغلقت فمها عاقدة حاجبيها محدقة إليها بتركيز.

كانت ترنيم تنظر حولها بعينين واسعتين حائرتين وسط وجه شاحب، وحتى الآن لم تلتقِ هاتان العينان الزائغتان بعينَي عوالي وكأنها لا تراها!

خلعت عوالي النظارة عن عينيها، وازدادت أصابعها تمسكًا بالمصحف، ثم قالت بصوتٍ مشدد: «ترنيم، ترنيم».

ما إن سمعت ترنيم النداء باسمها حتى شهقت مذعورة ثم التقت عيناها أخيرًا بعينَي عوالي، فارتفع حاجباها أكثر وهي ترمش عدة مرات، وعندها نظرت حولها فاغرة فمها قبل أن يرجع وجهها بسرعة ناظرة إلى عوالي.

وهتفت: «أنا... أنا... أقسم إنني لا أعلم كيف، صدقيني لا أعرف كيف».

تنهدت عوالي تنهيدة جافة، ثم سألتْها بخشونة تقاطِع هذيانها غير المفهوم، وإن كان المعنى واضحًا للعيان: «هل رأيتِ كابوسًا مجددًا؟».

ظهرت رجفة واضحة على وجهها متذكِّرة للتو تفاصيله كاملة، ثم رفعت أصابعها إلى جبهتها المتألمة، بينما ذراعها الأخرى ملتفة حول خصرها.

همست ترنيم بعد لحظات شاعرة بغثيان شديد: «لا أعرف كيف أعتذر، لم أشعر بنفسي، صدِّقيني».

لم ترُد عوالي، بل كانت تنظر إلى الفتاة مقطبة، فتابعت ترنيم: «ربما من الأفضل أن أرجع إلى النوم في الشقة الخالية بالأعلى كي لا يتكرر ما حدث».

أرجعت عوالي رأسها إلى الخلف، وقالت بثبات: «هل رأيتِ ذاك الشبح من جديد؟ ظننتكِ قد تخلصتِ منه».

هزت ترنيم وجهها نفيًا، وردت بصوت تائه: «هو لن يتركني أبدًا».

انتبهت إلى مدى سوء موقفها، فتراجعت بظهرها إلى الخلف قائلة بتوسل: «سأخرج الآن وسأنام في الشقة الخالية، أرجوكِ سامحيني».

استدارت تنوي الخروج من باب الغرفة، لكن الظلام السائد في الشقة جعلها تتوقف متسمِّرة خائفة، فأخذت نفسًا عميقًا كي تتغلب على خوفها وتخترق الظلام بسرعة، لكن وقبل أن تتحرك سمعت صوت عوالي من خلفها.

تقول: «تعالي، نامي».

استدارت ترنيم لتفهم مقصدها، ثم ذُهلت حين رأتها تشير إلى سريرها الواسع.

نظرت الفتاة إلى السرير الذي سبق واستلقت عليه مرة، حين حملها ووضعها عليه غائبة عن إدراك كونها بين ذراعيه مجردة من أي حماية.

ازدردت لعابها وسألت عوالي بدهشة بالغة: «في سريرك؟!».

ردت عوالي بجفاء معيدة نظارتها فوق عينيها: «أبقى مستيقظة خلال هذا الوقت وحتى أذان الفجر، أظن أن حالك سيكون أفضل في وجود شخص مستيقظ بجوارك يتلو من المصحف».

لم تفهم ترنيم هذه المرأة مطلقًا، لكنها لم تكن لتضيِّع الفرصة، فهي كطفلة خائفة من الظلام تخشى النوم بمفردها، لذا تحركت بقدمين غير ثابتتين وعينين ذاهلتين واندست تحت الغطاء الثقيل الناعم، فبدت كهرَّة تنعم بالدفء للمرة الأولى. استلقت على جانبها تنظر ناحية عوالي متكورة ناعسة

تتأمل الشيب في شعرها وهي تراه للمرة الأولى بلا وشاح، بدت امرأة قوية لم يزدها العمر إلا قوة، كما بادلتها عوالي النظر.

قالت عوالي بعد لحظات: «سبق وأخبرتكِ أنكِ تحتاجين إلى علاج كي تتخلصي من تلك الكوابيس أو الهلاوس أو أيًا كان تفسيرها، الآن أكررها بثقة».

ارتجفت شفتا ترنيم بابتسامة واهية مجيبة بخفوت: «ربما أحتاج إلى شيخ يخلِّصني من الجن الذي يتلبَّسني كما تقول عزيزة».

قالت عوالي بنبرة هادئة رغم قوة نبرتها: «أنتِ فتاة متعلمة، تلبُّس هذا الجن أو الشبح أو أيًا ما كان، ما هو إلا في خيالك فقط، تسمحين به وتغذينه ليكبر».

زادت من رفع الغطاء والتشبث به كالجنين، وظلت صامتة تائهة.

تابعت عوالي تقول على مهل: «حين طالعنا بطاقة هويتك...».

تحركت حدقتا ترنيم على الفور ناظرة إلى عينَي عوالي بترقُّب.

فتابعت المرأة بعد لحظات: «عرفنا أنكِ خريجة كلية الحقوق، ومع ذلك أنتِ بلا عمل أو مأوى! هل سبق وعملتِ بالمحاماة أصلًا؟!».

شردت عينا ترنيم بعيدًا وكأن سحبًا رمادية غطتهما، فبدت كئيبة وهي ترد بعدم تركيز: «مرضت أمي بعد تخرجي، احتاجت إلى الرعاية والإنفاق قد تضاعف، لم أقدر على التفرغ لبداية العمل بالمحاماة من تحرُّك مستمر وسعي بين هذا وذاك لأتم مصالحهم، والتدريب في المكاتب مع أجر زهيد، لم يكن لديَّ الوقت كي أتردد في القبول بأعمال لا تمت لشهادتي بصلة على أمل أن تكون فترة مؤقتة، لكن الفترة المؤقتة طالت وامتدت حتى أصبحت شهادتي هي المؤقتة، وصلت إلى أنني كنت أعمل بمكانين وأحيانًا ثلاثة في اليوم الواحد، واستمرت بي الدوامة حتى رحلت أمي عن الحياة أخيرًا».

انعقد حاجبا عوالي مع كلمة ترنيم الأخيرة التي بدت حرفيًا قاسية، لكنها في الحقيقة كانت مثقَلة كما لم تسمع عوالي شيئًا مماثلًا من قبل.

نظرت ترنيم إلى عينَي عوالي وتابعت همسًا: «كانت أمي امرأة محمَّلة بالأسى والكره، سيطر عليها الحزن حتى أمرضها وأكل من جسدها كالدود، لم تستطع أن تغفر أو تسامح لأجل نفسها على الأقل، في اللحظة التي توفيتْ فيها شعرتُ أنها قد نالت الراحة أخيرًا».

ساد صمت طويل تسلل خلاله النعاس إلى زوايا عقلها المرهَق يهدد بسرقة وعيها.

لكن عوالي سألتها مجددًا ففتحت ترنيم عينيها بصعوبة: «لماذا لم تنتبهي إلى حياتك ومستقبلك بعد وفاة والدتك وتبدئي في البحث عن عملٍ بشهادتك؟».

التوت شفتا ترنيم المرتخيتان في ابتسامةٍ مريرة، وهمست مجيبة بنبرة فاترة: «ما الداعي؟ بتٌّ وحيدة لا أطلب سوى سقف وقوت يومي، لا أطلب مستقبلًا لامعًا، كما لا أريد أطفالًا ولن أتزوج أبدًا، إنها مجرد أيام أحياها».

أخفضت عوالي عينيها بصمت لم يقطعه سوى دقات الساعة الكبيرة.

ثم قالت بخفوت ملتقطة طرفًا من كلام ترنيم: «لا تريدين أطفالًا؟! عجبًا! مع أنكِ تجيدين التعامل من قلبك مع الأولاد بالأسفل وكأنكِ أم بالفطرة، تجيدين ما لا أجيده».

ابتسمت ترنيم ابتسامة لا تبتسمها إلا وهي تزرع في الحديقة أو تراقب الأولاد.

ثم قالت: «كيف تقولين هذا؟! تفعلين ما لا يفعله أحد! لقد فتحتِ بيتك لأطفال قد لا يقبل غيرك بمجرد السلام عليهم أو الكلام معهم».

انخفض جفنا عوالي أكثر وردت ببطء: «إنه مجرد عمل خير لا أكثر ولا أقل، ورثْتُه من زوجي كما ورثتُ تجارته، لا أسعى إلا إلى إطعامهم وإيوائهم حتى نجد لهم مكانًا يتولاهم من حيث العمل أو الدراسة لو كانوا أكثر حظًا، ثم يأتي غيرهم. لستُ امرأة مثالية، بل امرأة شديدة لديها أخطاء وانحياز أناني يثقل ضميرها».

همست ترنيم بصوتٍ متداعٍ بعد أن أغمضت عينيها: «هذا ليس صحيحًا، فقد سمحتِ لي بالنوم في سريرك».

رفعت عوالي جفنيها تنظر إلى ترنيم بعد جوابها الأخير، فوجدتها وقد راحت في سبات عميق بقبضة مضمومة بجوار وجهها فوق وسادتها، بدت كطفلة لا تريد سوى النوم بجوار أمها.

****

نظرت ترنيم مصدومة إلى المكان الذي سبق ونظفته، وكأن عاصفة هبت فبعثرت كل شيء رأسًا على عقب، ليست فقط الأغطية والوسائد والملابس والكراسي، بل أيضًا سلة المهملات!

شعرت بنفسها غير قادرة على التنفس من شدة الإحباط، ثم لم تلبث أن سمعت ضحكة ساخرة من خلفها قبل أن يأتيها صوت عزيزة.

تقول: «ظننتِ أننا نقصِّر في التنظيف خلف هؤلاء الوحوش، فتركناكِ تعيشين حالة التفاني والحماس قليلًا».

رمقتها ترنيم بملامح قانطة وكتفين متهدلتين، فربتت عزيزة على كتفها هازئة وتابعت: «سأترك لكِ مهمة التنظيف اليوم أيضًا لتتغلبي على الصدمة».

ابتعدت المرأة بعدها تنوي الخروج من طابق الأولاد، إلا أنها التفتت قبل خروجها آمرة بوداعة زائفة: «وبعد انتهائك لا تنسي الصعود لأخذ الأطباق والنزول بها، فقد قبلتُ مساعدتك بامتنان».

لم ترُد ترنيم ناظرة إلى أركان المكان بعينين غاضبتين، ثم لم تلبث أن خرجت من الباب بخطوات قوية مندفعة حتى توقفت ونادت بأقصى قوتها كصوتٍ عسكري صارم.

قالت: «توقفوا عن اللعب واجمعوا عندي هنا، حالًا».

استخدمت نبرة خاصة لا تستخدمها إلا في إرهاب المتنمرين والمتحرشين بها منذ زمن، نبرة ترددَ صداها في أرجاء الفناء، حتى إنهم توقفوا فزعين

فجأة، وكأن تعويذة قد صبت فوق رؤوسهم، لا يتحرك من بينهم إلا الكرة المصمَّمة من الجوارب!

نادت ترنيم بصوت أعلى تطرق الأرض بقدمها بنبرة متوحشة: «قلت هنا، حالًا».

اقتربوا منها بحذر وتوجس ناظرين إلى بعضهم بعضًا، فابتعدت عن طريقهم غاضبة الملامح.

ثم أشارت بإصبعها تجاه باب الطابق الخاص بهم وسألت بنبرة تهديد ووعيد: «ما هذا؟! ما هذا الذي أراه؟ ألم أنظِّف هذا المكان حتى كاد أن يبرق من النظافة؟».

نظر إليها الأولاد عاقدين حواجبهم بعدم فهم، وكأنها تنطق بلغة غريبة، فأغمضت عينيها للحظات تضغط أسنانها كي تسيطر على انفعالها.

ثم لم تلبث أن نظرت إليهم وقالت آمرة بصوت عالٍ: «أنتم محرومون من متابعة اللعب اليوم إلى أن تنظفوا المكان وتعيدوه كما تركتُه».

لوَّح سعد بكفه هاتفًا غاضبًا: «لن ننظف، ولا يهمنا أن يكون المكان نظيفًا».

هدرت فيه ترنيم توقِفه بصوت أجفلهم بتلك النبرة القادرة على تشكيلها بمهارة: «لستَ أنت من تقرر بناء على ما يهمك أو ما لا يهمك، أنا هنا من تأمر بما سيحدث».

تبجح سعد هاتفًا: «لماذا تأمريننا؟ أنتِ هنا مثلك مثلنا».

ارتفع حاجبها ببطء وهي تضع كفيها على خصرها، ثم قالت بنبرة باردة كالجليد: «حقًا؟! ربما لا تعرف أن السيد «علي» قد وكَّلني لأكون المسؤولة هنا، وأنتم مجبَرون على تنفيذ أوامري، ومن لا يقبل عليه التوجه بالشكوى إلى السيد «علي» شخصيًا، أو الخروج من هنا».

نطقت التهديد الأخير واضعة يدًا خفية على قلبها خوفًا من أن يتخذ أيٌّ منهم الخيار الأخير مفرًا، وبالفعل كان سعد أولهم، إذ لوَّح بكفه غير مبالٍ وهو يستدير ينوي المغادرة.

فهتفت ترنيم على الفور موجِّهة كلامها للبقية: «ومن سيلتزم فقط هو المدعو إلى مائدة عليها الكثير من أنواع الحلوى».

ساد الصمت بعد تصريحها الغريب، وكأنها تكلم أطفال كوكب وردي، حتى إن علامات التفكير والترقب قد بدت على وجوه أطفال عرفوا التدخين قبل أن يعرفوا هذا الكثير الذي تتكلم عنه من أنواع الحلوى، حتى سعد توقف ناظرًا إليها عاقدًا حاجبيه.

انتهزت الفرصة متابِعة على مهل: «هل سبق واحتفل أحدكم بذكرى يوم مولده؟ الاحتفال بقالب الكعك والشموع وخلافه؟».

أجالت نظراتها بينهم فلم تحصل على جواب، فقط أعين تنظر إليها وكأنها غبية نوعًا ما، لكن اهتمامهم كان هدفًا في حد ذاته.

لذا تابعت قائلة: «سيكون هناك حفل كبير كذكرى مولد مشترك بينكم، وسيخسر الكثير من لن يحضره، لذا أنا أرى أن تنظيفكم للطابق الذي تسكنون فيه ثمن عادل كي تحصلوا على دعوة لهذا الحفل».

ساد صمت طويل بينهم، بينما رفعت حاجبيها بعينين متسعتين لا تدري من أين خطر لها ما نطقت به للتو!

****

صعدت عوالي إلى شقتها بعد عودتها من محل تجارتها بعد يومٍ طويل، لكن قبل ذلك التفتت إلى «علي» قائلة: «من الغد سيذهب كلٌّ منا على حدة يا «علي»، لقد اتفق راضي مع سائق ليقلني كل يوم، أما أنت فستذهب بالسيارة الأخرى التي يوشك محركها على الصدأ».

تصلبت عيناه وانعقد حاجباه للحظة، ثم سأل بصوت متحفِّز: «لماذا؟!».

كانت قد استدارت إلى البيت، لكنها توقفت لتجيبه بنبرة حاسمة قاطعة: «لأنني قلت هذا».

تكلم «علي» قائلًا بقسوة يحاول جاهدًا التحكم بها أمام عوالي لكنه يفشل أحيانًا: «كان عليكِ سؤالي!».

لم تتوقف عوالي، بل تابعت صعودها ترد بصوت آمر عالٍ: «ليس عليّ أي شيء يا «علي»».

انقبض فكه وتحجرت ملامحه بغضب شديد ثم استدار، وفي استدارته ركل إطار السيارة بقوة منفعلًا، أصوات وحركة جذبت اهتمامه، فالتفت ناظرًا بتجهم ثم مشى يدور حول البيت متتبعًا صوت الأولاد، وقد تعجب من عدم وجودهم في الفناء اليوم، وعند وصوله إلى الباب الخلفي توقف فجأة وكأنه رأى لتوه أفعى سامة. كانت ترنيم جالسة على كرسي في الهواء الطلق، مسندة وجنتها إلى قبضتها تراقب ما يحدث في الداخل.

ثم هتفت فجأة آمرة بجدية: «امسح تحت الأسرّة كذلك يا محروس، لن أكرر كلامي، فليكن لديك القليل من الضمير».

هتف الولد من الداخل بحنق: «ألم تمسحي أنتِ تحتها يوم نظّفتِ؟!».

ردت ترنيم بنبرة مشتدة صارمة: «وهل قدّرتم تعبي؟ هذا مسكنكم وأنتم من عليكم تنظيفه».

في هتافها شعرت بأن هناك من يقترب منها، فالتفتت تنظر، ثم شهقت فجأة منتفضة حين رأت «علي» واقفًا أمامها وكأنه كان ثعبانًا يزحف مقتربًا دون صوت، فقفزت واقفة على الفور تبتعد عنه جاعلة الكرسي بينهما، توقف مخفِضًا عينيه إلى الكرسي، ثم تابع اقترابه حتى توقف أمام الباب ونظر عبره، كان المكان يبدو كخلية عمل، الجميع ينظّف بحالة من الفوضى.

انعقد حاجبا «علي» ثم خطا داخلًا المكان سائلًا بصوته الذي يبعث الرهبة في النفس: «ماذا تفعلون؟».

التفتوا إليه متوقفين عن العمل، ثم تبرع سعد بالجواب متذمرًا مشيرًا إلى ترنيم خلفه.

قال: «ننظّف المكان لأنها أمرتنا، تقول إنك وكّلتَها أن تكون المسؤولة وعلينا طاعة أوامرها».

اتسعت عينا «علي» لحظة واحدة ثم التفت ببطء شديد ليواجه ترنيم، كانت بيضاء كالورقة، وعيناها واسعتان تحدقان إليه بترقّب وهو يبادل تحديقها

بعينين حادتين لهما تعبير يجعل من يحاول تحديه راغبًا في البكاء بمجرد نظرةٍ منهما. تماسكت تجبر نفسها بالقوة، نظرت إليه رافعة ذقنها وواجهت إرهاب عينيه بسطوة من عينيها، وكأنهما في معركة شعواء صامتة.

تكلم أخيرًا بصوتٍ آمر هادئ كرخام أملس قاسية حوافه، ودون أن يرفع عينيه عن عينيها.

قال: «تابعوا إذن».

ثم خرج يتجاوزها دون نظرة أو كلمة إضافية، تاركها واقفة بعينين واسعتين، هل منحها السلطة للتو؟!

****

«تراقبني في الظلام كمتلهفٍ محروم، وفي النور تعاديني كطاغية»!

- وعدتِهم بماذا؟!

استدارت عوالي محدقة إلى ترنيم التي وقفت وعلامات الذنب على وجهها، مشبِّكة أصابعها مرتبكة.

ردت بصوت متعثر: «خرج الكلام من فمي من دون تفكير، وأنا معترفة بخطئي، لكنهم تعشموا بالموضوع».

انعقد حاجبا عوالي بشدة شاعرة بالغضب، ثم سألتها بخشونة: «تطلبين الإذن الآن معتمدة على مخاطبة التعاطف والشفقة بداخلي!».

عضت ترنيم على شفتها بشدة مخفِضة عينيها، ثم همست بتردد: «في الواقع... الإذن ليس كل ما جئت لأطلبه، أنا حاليًا شبه معدَمة ولا أملك ما يمكِّنني من تنفيذ ما وعدتُ به».

ساد الصمت للحظات ولم تملك الجرأة لرفع عينيها ورؤية التعبير المرتسم حتمًا في عينَي عوالي.

وبالفعل سألتها المرأة تحاول التأكد مما سمعت: «هل جئتِ تطلبين المال؟!».

سارعت ترنيم بالدفاع قائلة: «لا أطلب مالًا لنفسي، أردت فقط إسعادهم بعض الشيء، فإن تكرمتِ بطلب ما قد يفرح قلوبهم...».

تركت كلامها دون تكملة، ومن عينَي عوالي القاسيتين المستاءتين عرفت أنها تمادت كثيرًا، وبخاصة حين أجابت عوالي قائلة بسخرية: «تتبرعين من جيب غيرك! هل هناك حد لجرأتك يا فتاة؟!».

شعرت ترنيم بمدى سوء موقفها، فعضت شفتها مجددًا وهمست بضعف: «الحوار تطور بيني وبينهم، وكان هذا ما طرأ إلى ذهني ما إن رأيت سعد مستعدًا للخروج والعودة إلى الشارع، ثم سرعان ما رأيت ذاك البريق في أعينهم، حين يشتهي الطفل شيئًا، لا تزال هناك طفولة بداخلهم حتى وإن لم يدركوا هذا».

ساد الصمت مجددًا وأطرقت بوجهها شاعرة أنها تنحدر من سيئ إلى أسوأ، وانتظرت تقريعًا من عوالي لكن الصمت طال هذه المرة.

لكن وبينما هي منتظرة ضاقت عيناها بعض الشيء وعقدت حاجبيها هامسة لنفسها: «لكن ماذا لو كان أحدهم مصابًا بداء السكري؟ لم يطرأ هذا على بالي قبلًا!».

لم تتوقع أن ترد عوالي، لكنها ردت بجفاء: «هذا لأنكِ لا تفكرين قبل التهور، يخضع الأولاد لفحص وتحاليل عند مجيئهم إلى هنا كي نتأكد من صحتهم، وإن كان هناك ما هو ممنوع عنهم من الأطعمة».

نظرت إليها ترنيم بعينين غائرتين وهمست بدهشة بالغة: «حقًّا؟! لم أتصور هذا».

تراجعت عوالي في مقعدها قائلة: «لأنكِ لا تتصورين، تبنين أحكامًا فقط».

أطرقت ترنيم بوجهها بصمت، ثم أومأت واستدارت لتخرج بقدمين متخاذلتين لا تعرف كيف تنقل للأولاد خبر عدم إيفائها بوعدها لهم.

لكن صوت عوالي جاء من خلفها يوقفها آمرة: «اكتبي ما تريدين».

التفتت إليها ترنيم بسرعة غير مصدقة، لكن عوالي كانت قد تجاهلت وقوفها وتابعت النظر إلى ما تقرأ بملامح جامدة.

حينها قالت ترنيم بسرعة: «وكُرة مناسبة أيضًا».

نظرت إليها عوالي ذاهلة، فتراجعت ترنيم هاتفة بحرج: «أقصد أشكرك من كل قلبي، إنه كرم بالغ منك».

زفرت عوالي بصوت عالٍ وردت من بين أسنانها بنفاد صبر: «سُرق وتقطَّع عدد لا نهائي من الكرات هنا، أنا لا أستكثرها عليهم».

عضت ترنيم على شفتها هامسة بحذر: «الكرات من المستهلَكات إذن، نتأكد من تزويدهم بها كلما فُقدت عوضًا عن تكسيرهم للكراسي».

هزت عوالي رأسها طالبة الصبر، بينما أضافت ترنيم بسرعة قبل أن تغيِّر رأيها مشيرة خلف كتفها: «سأذهب لأكتب ما أحتاج إليه، ومجددًا شكرًا لكِ، جعل الله بيتك عامرًا».

انصرفت سريعًا تكاد أن تجري، بينما ظلت عوالي جالسة مكانها متجهمة وفي عينيها صراع لا يهدأ.

****

لا يمكنها القول إنهم قد أجادوا التنظيف، لكنها لم تهتم، فعلى كل حال إن المجزرة التي وقعت ما إن رأوا المائدة التي أعدَّتها في منتصف الطابق وعليها أنواع من الحلوى مما تسر أعينهم وتطيب لأنفسهم وهجومهم عليها وتناثر الشوكولاتة ومشتقاتها في كل مكان- جعلها لا تأسف على قصور التنظيف.

الفرحة والمرح الصاخب على وجوههم وفي أعينهم الشقية أعاداهم أطفالًا مجددًا، وهو ما أضاء بداخلها شيئًا كان قد انطفأ منذ زمن.

كان الليل قد حل، وهي المرة الأولى التي يُسمح لها أن تبقى معهم في طابقهم بعد حلول الظلام، كم كانوا سعداء بالشموع التي أُعدت لهم للمرة الأولى في حياتهم! أطفأت أنوار الطابق ووقفت بينهم تجبرهم على الغناء قبل النفخ في الشموع وإطفاء لهيبها بأصابعهم، لم يضئ الظلام السائد

سوى نور تلك الشموع الذهبية الصغيرة، وعلى نورها رفعت وجهها فجأة فواجهتها خارج باب الطابق المفتوح عينان التقطتا عينيها في لحظة خاطفة انتفض لها قلبها، كانت لحظة واحدة لمحته فيها، واقفًا في الظلام يراقبهم، ثم اختفى ما إن التقت أعينهما. شيء غريب أوجعها، شيء حاولت قتله لكنه ظل حيًّا ووجعه ينتشر، تبًّا، إنه رجل بالغ، بشع وقاسي النفس، فلماذا تشعر بالوجع لأجله إلى هذا الحد؟! يستحق أشد الوجع كل من يتوجع لأجلِ طاغية.

****

محدقًا إلى الظلام، لكن هذه المرة كان يوليها ظهره، محدقًا إلى السواد الممتد أمامه بلا نهاية ويداه في جيب بنطاله، وكأنه مجسم صلب لا حياة فيه، مجموعة من الخطوط الداكنة والظلال لهيئة غير واضحة لكنها قادرة على أن تبعث في النفس أكثر المشاعر تناقضًا. باب السطح كان مفتوحًا أمامها وهو واقف هناك في الظلام وكأنه كان في انتظارها بعد أن رأت عينيه المتلصصتين ثم اختفى بعدها.

مسّت قدماها أرض السطح تخطو ببطء، الهواء البارد بالأعلى يثير في أوصالها ارتعاشًا، فضّلت أن تجعل الريح هي المُدانة بتلك الرجفة بداخلها، وقفت خلفه وظلت صامتة، كانت موقنة أنه سمع خطواتها من خلفه ومع ذلك لم يستدر ولم يطردها بهمجية، وكان هذا هو الإقرار الثاني من جهته بجواز وجودها في عرينه.

همست قائلة بصوتٍ حاولت جعله طبيعيًا واثقًا: «أحضرت لك شيئًا».

لم يتحرك وكأنه لم يسمعها، فالتفتت تنشد من ضوء السلم الضعيف حماية وسط هذا الظلام الحالك الذي يقف فيه مالكه شامخًا مهددًا. التفت أخيرًا وإنما ببطء، فتراجعت خطوة كعادتها في حضرته معترفة بسطوته وهيمنته، نظر بلا تعبير إلى الطبق الذي تحمل بين يديها للحظات طالت أكثر من اللازم، ثم رفع عينيه أخيرًا إلى عينيها، لم تكن نظرة عينيه واضحة في الظلام وكذلك تعبير وجهه، لكنها استطاعت الشعور بكل المتناقضات تتضارب بداخلها جرّاء تلك النظرة.

حين لم يتكلم بادرت تمد له طبقًا وتقول: «شارِكنا الحلوى ما دمت لم تشأ أن تشاركنا الصحبة».

لم يتنازل بإخراج يديه من جيبيه حتى، بل ظل محدقًا إلى عينيها، ثم قال أخيرًا: «المشاركة موهبة لم تهبها لي الحياة».

همست على مهل محدقة إلى عينيه المظلمتين: «ربما عليك البدء باكتسابها كمهارة، شارك كلمة، قطعة حلوى، أو حتى ابتسامة، ثم في يوم ما ستجد نفسك قادرًا على مشاركة الحياة نفسها».

شعرت وكأنه دقق النظر في عينيها أكثر، فشعرت بالخوف من جديد وابتعدت عنه لتضع الطبق فوق السور العريض بحرص.

ثم استدارت قائلة باقتضاب مخفِضة وجهها: «عليَّ النزول الآن».

لكن وكأنما كان له سلطان غير مرئي، فإذا بمصباح السلم ينطفئ فجأة قبل أن تصل إلى بابه! توقفت ترنيم على الفور محدقة إلى المستطيل الأسود الحالك الأشبه ببوابة على عالم مرعب مجهول، ومع تحديقها الطويل أجفلها صوته العميق من خلفها.

قال: «إنه مصباح السلم، ينطفئ أحيانًا».

بجنون لم تصدقه، وكأنه المسؤول عن قصد لإرعابها، أتراه يمتلك قوى خارقة! اتسعت حدقتاها تحاولان التكيف مع الظلام علّها تبصر عبره شيئًا، لكنها لم ترَ سوى سواد، ومع شدة تركيزها خيِّل إليها أنها رأت الشبح واقفًا أمامها محدقًا إليها بعين واحدة وفم مفتوح، فانتفضت شاهقة دون صوت.

على الرغم من أنها لم تصدِر صوتًا، فإن انتفاضتها كانت واضحة له حتى في الظلام.

مما جعله يسألها ساخرًا: «ماذا؟ هل رأيتِ الشبح الذي يلاحقك؟».

تلك الكلمات التي خرجت من فمه كانت قاسية بشعة، لا تخرج إلا من بين شفتَي نذل. شعرت بفيضان غريب بداخلها لم يبشّر بالخير، وبخاصة مع تسارع دقات قلبها على نحو جنوني أدركت معه أنها سترتكب عملًا أحمق، وبالفعل وقبل أن تستطيع منع نفسها استدارت على عقبيها صارخة لتضرب

صدره بكلتا قبضتيها ضربة كانت لتوقِعه أرضًا من شدتها إن كان أقل قوة. اندفع ليمسك بقبضتيه ساعديها حتى شعرت بهما على وشكِ أن يتفتتا، حاولت التخلص منه بشراسة.

همس من بين أسنانه بغضب مكتوم أشد خطرًا من أن يسمح بتفجيره: «أنا لن أتحمل نوبات جنونك أكثر من هذا».

تلهث، تقاوم، تحارب خوفها، لكنه يهزمها مجددًا، لذا توقفت عن الحركة تمامًا، ولحسن حظها لم يغشَ عليها هذه المرة، يبدو أنها تكتسب القوة ولو بدرجات طفيفة، وهذا الاستنتاج ساهم في أن يحثها على الهدوء. ظلت واقفة للحظات بعد أن استعادت هدوءها، ولم يترك ساعديها بعد.

تكلمت أخيرًا قائلة بصوت جاف ميت مسبِلة جفنيها لتحجب عن عينيها رؤية ظلال وجهه: «لم يكن من الشهامة أن تسخر من خوف إنسان، فربما كان الأمر بالنسبة إليه مؤلمًا إلى حدٍّ لم يعد قادرًا على تحمله أكثر، حتى بدأت سيطرته في الانهيار».

صوتها كان خفيضًا أجوف كصفير الريح من حولهما وكان يراقبها، يسمعها وكأنه ينصت إليها بكل تأهب.

تابعت بعد صمت طويل: «لا أظنك جربت شيئًا كهذا قط، لأنك لو فعلتَ لما سخرتَ من خوفي بمثل هذه الدناءة».

بعد أن صمتت بلحظات شعرت بساعديها المتقاطعين المكبَّلين بقبضتيه ينخفضان ببطء حتى حررهما أخيرًا، وما إن فعل حتى استدارت بسرعة متجهة إلى الباب المطل على التجويف المظلم، بلغته فوقفت للحظةٍ ترتعش، لكنها خطت لتخرج محاوِلة بث الشجاعة في قلبها، شجاعة سرعان ما تبخرت حين سمعت وقع خطواته من خلفها ينوي اللحاق بها.

وبالفعل سمعته يقول بصوت ثقيل: «اسمحي لي بمرافقتك ما دمتِ خائفة إلى هذا الحد».

لم تكن تعرف إن كان في نبرته سخرية أم عدم تصديق لخوفها، كل ما تعرفه أنها لم ترَ منه مراعاة حقيقية.

فالتفتت إليه هاتفة بقوة: «لا أحتاج إلى من يرافقني».

كانت قد حركت قدمها لتنزل أول درجة، لكن مع التفاتها إليه خوفًا منه ومن أي تصرف قد يصدر عنه في الظلام داست على الهواء، فوجدت نفسها تفقد التوازن لتسقط فجأة على درجات السلم بعنف مؤلم، وكأنها وقعت في بئر مظلمة سحيقة!

صرخت ترنيم ألمًا مع كل درجة وقعت فوقها وارتطمت بها، حتى استقرت أخيرًا عند نهاية السلم، رفعت عينيها الدامعتين إلى أعلى حيث بدا وكأنها في قاع البئر المظلمة لترى بالأعلى باب السطح المضيء قليلًا، وفي إطاره يقف كظل أسود ضخم يطل عليها بلا تعبير أو ملامح. حاولت تحريك ساقها لكن ما إن فعلت حتى صرخت ألمًا، تعرف هذا الألم جيدًا، ألم يهدِّدها بكسر ساقها إن صعدت إلى السطح مجددًا! ها هو ذا قد نفَّذ تهديده باحترافية.

****

نظرت بعجز إلى ساقها المجبَّرة بعد عودتهم من المشفى، ثم رفعت عينيها لتواجه نظرات الغضب في عينَي عوالي الواقفة بجوار سريرها ترمقها شزرًا. أخفضت ترنيم وجهها مدركة أن وقت التحقيق قد بدأ.

وبالفعل قالت عوالي بقسوة: «ربما يجدر بكِ الآن إخباري عن السبب الذي جعلنا نجدك واقعة في الظلام أسفل السلم الموصِل إلى غرفة «علي»».

لم تقدر ترنيم على الرد، فسألتها عوالي بنبرة أشد وأكثر عنفًا: «ألم يفترض بكِ أن تكوني مع الأولاد بالأسفل؟ كيف حدث أن وجدناكِ أسفل الدرجات الموصِلة إلى السطح؟! هل صعدتِ إليه مجددًا؟».

همست ترنيم بصوتٍ مختنق بائس: «كلماتك تظهِرني رخيصة!».

هدرت فيها عوالي بغضب: «ألستِ كذلك؟!».

انتفض وجه ترنيم تنظر إليها مصدومة، فازداد تعقيد ملامح المرأة وأشاحت عنها، وكأنها ندمت على انفجارها المتسرع، ثم لم تلبث أن خرجت من الغرفة صافقة الباب خلفها بعنف.

****

«يقال إن اللعب بالنار خطر، لكن ما الحيلة إن تلاعبتْ بنا النار؟ فهل نملك إلا أن نذوي ببطء كالشموع»!

تمر الأسابيع بطيئة تتجاوز الشهر، والشهر تلا الشهر وهي لا تزال أسيرة أسوار هذا البيت، أما الأسر فكانت تتمناه، تترجى التشبث بقضبانه، وأما الآسر يتظاهر بالرغبة في رميها خارج أسوار حصنه، لكن رغبته في إبقائها هي سر بات غير قادر على ستره عنها. كم من مرة تجاوزت حدودها وتغافل! كم مرة غضب بجنون ثم استيقظت لتجد نفسها لا تزال باقية وكأن شيئًا لم يكن! ساقها المجبَّرة التي منعتهم من طردها شهرًا بعد شهر هي ذاتها التهديد الذي نفَّذه، وإنما بمقدرة فذة دون أن يرفع عليها إصبعًا واحدة، بل بجبروت جعلها تنفِّذ التهديد بنفسها!

نظرت ترنيم إلى ساقها في الجبيرة البيضاء فاقشعر بدنها رهبة، على الأقل لم تعد منبوذة، خلال الأسابيع الماضية باتت حركتها محدودة، ومع ذلك لم يمنعها أحد من النزول ومراقبة الأولاد أو الاعتناء بأشجارها، ووقت الطعام تصعد لتشارك عوالي المائدة.

في البداية وبعد غضب عوالي واتهامها المهين بقيتا صامتتين لا تتكلمان لأيام، تأكلان في صمت ثم تذهب عوالي إلى غرفتها، حتى بادرت ترنيم بالكلام بحذر، يومًا بعد يوم كلماتها عادت إلى الثرثرة، ولم تعد عوالي تهتم لإسكاتها. واقع أن عوالي لم ترجِعها إلى الشقة الخالية مسَّ قلبها الخاوي كخواء الشقة العليا الباردة بدفءٍ كان غائبًا عنها منذ سنواتٍ طويلة، تمامًا كتأثير الأولاد عليها، مع زيادة اقترابها منهم عرفت أن الشارع لم يكن لينًا على أجسادهم وأرواحهم، فمع كل يوم يمر تدرك أنهم مصابون بشدة، لا يعرفون معنى المعاملة بآدمية، لا يدركون أن لهم حقوقًا في هذا العالم، لذا يلجؤون إلى اغتصاب كل ما تطاله أيديهم، يظنهم من يراهم من بعيد وحوشًا، أما بداخل كل منهم يقبع طفل مستوحش يلازمه حتى الكِبر، يظل هذا الطفل يتمنى شيئًا لم ينله قط مهما اغتصبت يداه من حقوق، التعامل معهم مرهق،

فهم لا يتركون كلمة أو إشارة بذيئة إلا بدرت عنهم، ومع ذلك كانوا أفضل مما تخيلتْ، وكأنها مع الأيام تقترب أكثر من الطفل الموجود بداخل قلب كلٍّ منهم.

جالسة على واحد من الكراسي في طابقهم الخالي خلال لعبهم في الخارج، تصلح ملابسهم التي تتمزق باستمرار مهما جاء غيرها، فمع ساقها المجبَّرة التي تمدها أمامها، ما عادت قادرة على التنظيف، فكانت تساعد بما تقدر عليه وهي جالسة تاركة مهمة التنظيف لعزيزة، والحق يقال إن المرأة تكاد أن تفنى من تعب التنظيف خلفهم هي وامرأة أخرى تأتي كل فترة بالطلب لتساعد.

تركت باب الطابق مفتوحًا وجلست في مواجهة هواء اليوم المشرق تخيط الملابس المغسولة، رفعت رأسها فجأة على دخول أحد من الباب، عرفته قبل حتى أن ترفع رأسها وتراه، فلخطواته وقع لا تخطئه أذناها مطلقًا، مندفعة وكأنه يسابق نفسه أو يفر منها، التقت أعينهما فتوقف على الفور، لو كانت العلاقة بينهما مختلفة لسمحت لنفسها بالضحك جرّاء التعبير الذي بدا على وجهه، لقد باغته وجودها فلم يكن متحضّرًا، مجهِّزًا أسلحته في التعامل معها كعادته المتحفِّزة، تتجرأ على القول إنه ارتبك واختلجت حدقتاه ثم انعقد حاجباه محاولًا استعادة تعبير وجهه الفظ المعتاد.

خلال الأسابيع الماضية استطاعت بمراقبتها له إدراك أنه لا يتمتع بأي حياة خارج نطاق عمله بتجارة عوالي التي ورثتْها عن زوجها، لا حياة، لا أصدقاء، لا حب مخفي بين الزوايا، وحتى وجوده هنا في هذا البيت وجود مقيَّد بعزلة فرضها على نفسه وحياة زاهدة، العلاقة الوحيدة التي يمتلكها في حياته هي علاقته بعوالي، عوالي هي الوحيدة المسموح لها من قِبله بالصعود والبقاء معه بعض الوقت فوق السطح، غالبًا ما تتكلم بمفردها بصوتٍ خفيض، وأحيانًا يرد عليها باقتضاب، في كل الأحوال لم تتمكن من سماع شيء مما يتكلمان به مهما حاولت.

توقفت أصابعها عن تخييط المَزق في القميص الملقى على ركبتيها، ترمقه بحذر وترقُّب.

فاضطر إلى سؤالها بصوتٍ خفيض خشن: «تقول عوالي إن هناك ما يحتاج إلى تصليح أو استبدال».

للمرة الأولى يبادرها بكلمات طبيعية منطقية كشخصٍ آدمي.

لذا ردت بخفوت ورهبة: «أنا من بلَّغها بهذا، لقد كتبتُ قائمة بما يمكن إصلاحه وقائمة أخرى بما يجب استبداله».

ظل صامتًا متجاهلًا النظر إليها، يزداد خط وجهه الجانبي قساوة لكن مع شيء آخر مختلف، وكأن ارتباكه لم يختفِ بعد. أطرق بوجهه العابس، ثم أمام عينيها رأته يخرِج ورقة مطوية من جيبه فتحها ببطء، اتسعت عيناها محدِّقة إلى الورقة التي سلمتْها اليوم صباحًا تحديدًا لعوالي! انتبهت إلى أنها كانت تكتم أنفاسها، فسمحت لنفَس مرتجف بالخروج من بين شفتيها، وأشاحت بوجهها عنه محاوِلة التركيز على الإبرة والخيط بين أصابعها.

لا يزال واقفًا دون حركة، أتراه يقرأ الورقة؟ علمًا بأن القائمة ليست طويلة إلى هذا الحد! أم تراه ينظر إليها؟ خالجها شعور قوي يدعم الاختيار الثاني، لكنها لم تتجرأ على رفع عينيها لتتأكد.

تحرك أخيرًا مبتعدًا فتنفست الصعداء مضيِّقة عينيها تحاول التغلب على تسارع نبضها، لكن كيف وصوت خطواته يبدو مندفعًا كقطار بلا سائق فوق قضبان حديدية تتقاطع دروبها؟ يتحرك ذات اليمين وذات اليسار جامعًا قطعًا من الأثاث وبعض الأجهزة، لكن بقدر اندفاع خطواته، لم تُخِفها كخوفها من وقوفه عدة مرات، ففي كل مرة يقف فيها ينتابها الشعور أنه ما وقف إلا لينظر إليها، وكأن عينيه تحرِقانها.

شعرت به ينحني على بُعد مسافة منها، فاختلست النظر إليه بطرف عينيها لتراه جاثيًا على عقبيه يتفحص الأغراض التي جمعها، تحرك حلقها وهي تبتلع غصة مؤلمة وكأنه شعر بمراقبتها له، إذ رفع عينيه والتقط عينيها في لحظة لم تستطع تداركها، أجفلت ترنيم من نظرته السوداء الحادة، مما جعلها تخز إصبعها بالإبرة، فشهقت تسارِع بإبعاد عينيها عنه، الآن بدت حركاته وكأنها تباطأت تمامًا، الآن باتت متأكدة أنه يختلس النظر إليها كما

اختلست النظر إليه منذ قليل، حركت وجهها تجاه الباب الذي تجلس بجواره، وأغمضت عينيها محاوِلة التنفس بعد أن شعرت بالاختناق للحظة.

الصمت بينهما مخيف أكثر من كلماته المقتضبة المهدِّدة، لذا تكلمت كي تخفي خوفها.

قالت بصوتٍ خفيض رتيب: «المكان يحتاج أيضًا إلى من يساعد عزيزة في تنظيفه، فالسيدة التي تأتي كل فترة لا تفي بالعدد والمساحة. كنت مستعدة للمساعدة عن طيب خاطر لولا أن كُسرت ساقي».

شددت على الكلمة الأخيرة عن قصد وكأنها تتهمه، وبالفعل التقطت أذناه الاتهام المستتر فرفع وجهه ببطء عما يفعل، واستقرت عيناه على ساقها المجبَّرة للحظات بتعبير له قناع غريب، ثم ارتفعتا إلى عينيها.

هذه المرة واجهت نظرته بشجاعة وتابعت قائلة: «تحقق تهديدك، وبتحقيقه ها أنا ذي أبقى شهرًا بعد شهر بدلًا من إبعادي».

ضاقت عيناه ما إن سمع طيف السخرية التي لامست كلماتها، فرد بصوت خفيض: «أستطيع رميك في الشارع حالًا دونما اهتمام بساقك مثقال ذرة».

ساد الصمت الثقيل بينهما بعد أن قصفت كلماته الخفيضة سماء المكان الذي يجمعهما وحدقت الأعين إلى بعضها بعضًا طويلًا.

حتى قالت ترنيم أخيرًا ببطء دون أن تحيد بعينيها عن عينيه: «أصدق أنك تستطيع فعل أي شيء».

ينطق اللسان بشيء بينما تنطق الأعين بشيء آخر، أما الصدر فيخفي عن الجميع ما يود قوله.

أبعدت عينيها عن عينيه أخيرًا خاسرة معركة التحدي والحرب القائمة، مما أتاح له الفرصة كي يخفِض عينيه إلى وجنتيها وأعلى أنفها، يا له من تناثر غريب!

تابعت ترنيم تخييط القميص، ثم قالت تشغِل الصمت كي تنشغل عن رهبتها: «ليست المرة الأولى التي تُكسر فيها ساقي وكنت بمفردي، كُسرت بعد فترة قصيرة من وفاة أمي».

صمتت للحظات وقد شردت بعينيها متذكرة كم كانت بائسة، كان الغرض من الكلام أن تلهي نفسها، لكن ما حدث أنها تذكرت تلك الفترة العصيبة التي تلت خسارة أمها، منذ اللحظة التي رجعت فيها من دفن أمها وأغلقت الباب لتجد نفسها أصبحت وحيدة تمامًا.

همست وكأنما تذكِّر نفسها: «كسرُ ساقي أفقدني العمل، وبالتالي عشت تلك الأسابيع على ما يجود به الجيران، لم أستطع تنظيف البيت، وعشت في القذارة أيامًا دون أن أهتم».

صمتت مجددًا ثم نظرت إليه وكان يراقبها صامتًا، فتلاقت أعينهما مجددًا.

اختلجت حدقتاها وتابعت بصوتٍ ميت: «هل لديك فكرة عن مرارة اللحظة التي يخسر فيها الإنسان كل شيء فلا يعود يبالي بالحياة نفسها؟».

الصمت الذي تلا لم يقطعه سوى صوت أنفاسه، فأبعدت وجهها عنه ناظرة عبر الباب إلى الفناء الممتد، كان ممسكًا بواحد من الكراسي الخشبية يتفحصه بملامح متجهمة يرى إن كان يمكن إصلاحه، ثم نهض واقفًا فجأة وأمام عينيها المذعورتين مع صرخة صغيرة خرجت من بين شفتيها، رفع الكرسي إلى أعلى بقبضتيه، ثم بدأ ينهال به بقوة على الأرض في ضربات مفزِعة الصوت، حتى لم يتبقَّ منه سوى القطعة التي يقبض عليها بكفيه! ألقى بها بعيدًا لترتطم بالجدار، ثم وقف يلهث وعلى وجهه علامات الجنون، بينما كانت ترنيم تراقبه فاغرة الفم واضعة يدها على صدرها المنتفض، نظر حوله وكأنما لا يصدق أنه فقد سيطرته على نفسه أمامها، ثم ودون كلمة إضافية اندفع خارجًا من الباب يتجاوزها دون أن يلقي عليها نظرة، وكأنها غير موجودة ولم تشهد للتو على الحالة التي أوصلته إليها بكلامها عن الخسارة، يبدو أنها لم تكن الوحيدة التي خسرت يومًا كل شيء!

****



الفصل الخامس

«غريبان! أحفظ حياتك وتجمع تفاصيلي، ألامس جرحك وعلى وجنتي ترى مجرةً من مئات الكواكب والأقمار، لكننا غريبان!».

بقلب شتاء بارد عرفت الدفء للمرة الأولى، وما كان ينبغي لها أن تفعل بين جدران بيت غريب، ما كان لها أن تحب أهلًا ستفارقهم لا محالة، ما كان عليها أن تنبت في أرضه أزهارًا وتنشر عبر أرجائه عطرًا، شخص واحد من أهل هذا البيت كانت له العدو والغريبة، في خروجه من البيت راحة وفي بقائه انقلاب عالمها رأسًا على عقب، «علي»!

كم مرة نطقت اسمه على لسانها بينها وبين نفسها! وكأنها بتكرار الاسم ستجد المرفأ بعد ضياع طويل، لا يزال كلٌّ منهما متحفزًا ضد الآخر، لا يزال كلٌّ منهما يتلصص مسترقًا النظرات إلى الآخر.

بعد نزع الجبيرة عن قدمها بدأت في العودة إلى حياتها العادية، حياتها العادية! يا لها من عبارة مبكية زائفة! كانت ممتنة لعودتها إلى الحركة بصورة شبه طبيعية، صعودًا ونزولًا، خلال بقاء عوالي و«علي» في البيت وفي خروجهما كذلك، وإن كان نمط حياتهما قد تغير منذ فترة، فعوالي ما عادت ترافق «علي» في السيارة، أصبح كلٌّ منهما يذهب على حدة، وهو ما لاحظت ترنيم أنه أغضبه بشدة، ثم وبالتدريج بدأت عوالي في اقتناص أيام من الراحة لا تذهب فيها إلى محل تجارتها، وعلى ما يبدو أنها لم تكن عادة

لها من قبل، سمعت مرارًا جدالهما حيال الأمر، كان قلِقًا عليها يسألها إن كانت بحاجة إلى طبيب، وهي تجيبه بالنفي ساخرة، كانت امرأة قوية، والراحة بالنسبة إليها أمر مقلق لمن هو قريب منها، و«علي» أقرب الناس إليها إن لم يكن الوحيد.

سمعتْها مرة تكلمه غاضبة: «آن الأوان لتحمل الحِمل عني يا «علي»؛ كبرتُ ومن حقي الراحة».

يومها لم يرُد عليها، بل اندفع صاعدًا إلى غرفته صافقًا الباب خلفه بعنف، وكأن البيت قد ارتج له، ثم زاد ذهابه إلى العمل بمفرده وزادت أيام راحتها كاليوم.

كانت ترنيم قد عادت إلى تنظيف الطابق الخاص بالأولاد على مهل، حتى دخلت عزيزة.

قالت: «أنا ذاهبة لشراء ما ينقصنا، السيدة عوالي ترتاح في غرفتها قليلًا فلا تزعجيها».

أومأت ترنيم لها تحاول كتم ابتسامتها أمام تكشيرة عزيزة، فالمرأة اعتبرت وجودها في البيت أمرًا واقعًا وسلَّمت به، بل وحتى بالشبح الذي يلازمها ضيفًا بالإكراه.

انهمكت ترنيم في التنظيف غافلة عن الوقت، حتى نظرت إلى الساعة، ففوجئت بمرور ساعتين كاملتين فقررت الصعود لترى إن كانت عوالي تحتاج إلى شيء في غياب عزيزة، لكن مع صعودها الدرجات الأولى التقطت عيناها على الفور باب الشقة المفتوح. لم يكن من عادة عوالي ترك باب شقتها مفتوحًا قط!

تابعت ترنيم صعودها بحذر والقلق يعتريها شيئًا فشيئًا، حتى تسمرت مكانها ما إن لمحت عيناها طرف جسد عوالي ملقى أرضًا خلف الباب! صرخت ترنيم بهلع منادية باسمها تجري عليها حتى أزاحت الباب وجثت على ركبتيها بجوارها لا تتوقف عن الصراخ فيها، فأول ما تبادر إلى ذهنها ما إن رأتها مرمية على الأرض أنها مقتولة، لذا استغرقت لحظات أطول من

اللازم حتى تعي أن عينَي عوالي مفتوحتان تنظران إليها! كانت واعية لا أثر لإصابات عليها، إلا أنها لم تكن قادرة على الكلام أو الحركة.

****

غريب شعورها وهي واقفة ترتجف في المشفى منتظرة خروج أي طبيب أو ممرضة تطمئنها، عجبًا كم اختلف شعورها عن اللحظة التي علمت فيها بمفارقة أمها للحياة! فكم بلغ بها من اليأس وقتها حتى تمنت الراحة لأمها في النهاية روحًا وجسدًا، فكيف لها الآن أن تقف شاعرة بنفسها تموت في اللحظة عشرات المرات حتى يأتيها خبر يطمئنها على غريبة فتحت لها بيتها حتى وإن لم يكن بترحيب كامل!

تحركت ترنيم مرة أخرى تفرك أصابعها حتى التقت عيناها بعينَي عزيزة المتهِمتين لها دون وجه حق بعد اتصال زوجها بها لإخبارها بنقل عوالي إلى المشفى، فجاءت مهرولة، مؤكد أن عوض لم يتأخر في الاتصال بـ «علي» وإخباره أيضًا، ترى أيُّ لحظة سيظهر فيها؟

لم يكد السؤال أن ينتهي طرحُه في ذهنها حتى رأته شاخصًا أمامها من بعيد، توقفت ترنيم مكانها مصدومة والتقطتها عيناه على الفور، مرت لحظتان فحسب قبل أن يتقدم بخطواته المندفعة يسأل عزيزة بصوت قوي وإنما ظهرت فيه علامات الاضطراب بوضوح بالنسبة إلى شخص مثله.

كلمات عزيزة كانت مرتبكة متعثرة وهي تشرح ملوِّحة بيديها، وما إن أدرك أن عوالي كانت بمفردها وأنها هي من وجدتها على هذا الحال، حتى التفت رأسه إليها كالرصاصة، عيناه قبضتا على عينيها وكأنها قد ألقت بنفسها للتو أمام إعصار لا يرحم، وبالفعل ترك عزيزة ثم اندفع إليها قاطعًا المسافة بينهما في لمح البصر حتى قبضت كفاه على كتفيها فجأة.

هدر بصوت غاضب عنيف: «ماذا فعلتِ بها؟».

كانت تحدق إليه بعينين واسعتين وسط وجه شاحب كشحوب الأموات، ترتعش كورقة شجر تطير وسط عاصفة عاتية.

لكنها تمكنت من الهتاف بصوت مرتجف: «لم أفعل بها أي شيء، أقسم بالله لم أفعل شيئًا!».

لم تتركها يداه وكأنه ما عاد يشعر بنفسه، ماذا يفعل وأين يقف.

اقتربت منه عزيزة وأمسكت بمعصمه تتوسل إليه: «اهتدِ بالله يا سيد «علي» ولا تتهور، الآن يخرج الطبيب كي يطمئننا».

شعرت ترنيم بأن كتفيها على وشكِ أن تُقتلعا بواسطة كفيه عديمتَي الرحمة، وقد بدا غير واعٍ، محدقًا إلى عينيها بعينين من نار، بينما تحاول عزيزة شد معصمه ناقلة عينيها المصعوقتين بين الأعين المحدّقة إلى بعضها بعضًا على ضفتَي النار، شعرت وكأنه لن يتركها أبدًا، بل كادت أن تقسم إنه لن يتركها، لكنه فعل في النهاية وأحست بكتفيها تتحرران قبل أن يستدير عنها مبتعدًا.

أغمضت عينيها وهي تسقط بظهرها على الجدار من خلفها تحاول التقاط أنفاسها، ثم اختلست إليه نظرة فرأته واقفًا من بعيد يستند بكفه إلى الجدار، محنيًا رأسه، ملامحه شديدة التعقيد وكأنه يمر بلحظة عجز!

****

لم يكن من السهل تقبُّل أن تصاب امرأة قوية مثلها بجلطة دماغية! فجأة ودون إنذار! وقوع رب البيت أشبه بسقوط واحد من أعمدته، يظل البيت قائمًا إنما خوفٌ جديدٌ يضرب قلوب ساكني هذا البيت، وكأنهم يترقبون انهياره على الدوام، هذا الخوف لا يزول أبدًا، وعوالي هي ربة هذا البيت، وقوعها لم يكن هينًا حتى بعد عودتها إلى بيتها وسريرها، لكن شيئًا ما لن يعود إلى سابق عهده مطلقًا.

نظرت ترنيم من شق باب الغرفة إلى المرأة التي استلقت في الفراش لتوها بمساعدة عزيزة، لا يزال البأس والكبرياء يرسمان خطوط وجهها كما يطلان من عينيها.

ربتت عزيزة على كتف عوالي قائلة بحرارة: «شفاك الله يا سيدة عوالي، والله كان البيت كالقبر دون وجودك».

تحرك جانب شفتي عوالي محاوِلة التبسم لها وهي تومئ برأسها.

تابعت عزيزة محاوِلة ابتلاع الغصة في حلقها: «من الآن فصاعدًا لن أتركك أبدًا، ستجدينني عند قدميك ليلًا ونهارًا حتى تقفي على قدميكِ من جديد، لقد طمأننا الطبيب أن التحسن آتٍ بإذن الله».

أومأت لها عوالي إيماءة صغيرة ثم ربتت على كفها بيدها القادرة على الحركة، مما جعل عزيزة تغالب دموعها.

واستقامت قائلة: «سأذهب لأعد لكِ طعامك الخاص، ما إن تحتاجي إليّ ستجدينني أمامك على الفور».

إيماءة أخرى وطيف ابتسامة على جانب شفتَي عوالي كانت الرد، فابتعدت عزيزة وهي تمسح دمعة عن وجنتها، لكن ما إن رأت ترنيم واقفة عند باب الغرفة حتى سارعت بمواربة الباب.

وهمست بصرامة شديدة: «لماذا تقفين هنا؟ بعض الإحساس، فالسيدة عوالي لن تحب أن يراها أحد في مثل هذا الوضع، وبخاصة الأغراب».

رمقتها بنظرة غاضبة ثم ابتعدت، وراقبتها ترنيم حتى دخلت المطبخ، فاقتربت من شق الباب تدفعه برفق، تطل منه بعينيها حتى رأتها عوالي، ظلت ترنيم واقفة مكانها ممسكة بحافة الباب لا تجرؤ على الاقتراب.

رفعت عوالي كفها وأشارت إليها قائلة بصوت ثقيل صعب: «تعالي».

دخلت ترنيم ببطء حتى وقفت بجوار سريرها ثم همست: «هل أستطيع المساعدة بشيء؟».

تكلمت عوالي بصعوبة بعد أن تركت الوعكة التي مرت بها أثرًا في نطقها وجزء من جسدها: «لازمتِ المشفى الأيام الماضية، هذا يكفي».

يا الله! لكم تغير كلامها الذي كان يقصف مشتدًا واثقًا، فأصبحت الكلمات الآن تعافر لتخرج، كم هو غادر المرض وكم هي غالية الصحة!

أخفضت ترنيم عينيها فلاحظت أنها تحفر باطن كفها بأظافرها حتى تركت أثرًا قاتمًا.

فقالت بتردد: «حسنًا، ليس الأمر تفضلًا مني، لكن إن كان على واحدة منا أنا أو عزيزة البقاء في البيت مع الأولاد فكان يجب أن تكون هي، أنا غريبة وقد أتهم بأي شيء قد يحدث في غيابك».

ساد الصمت للحظات، ثم سألتها عوالي بصعوبة: «هل تنوين سرقة شيء من البيت؟».

نظرت إليها ترنيم بسرعة تتأكد من إن كانت تمزح أم تتهمها فعلًا، لكن وجهها الذي لا يزال يعاني أثر وعكتها لم يمنحها الجواب الأكيد.

تلعثمت ترنيم قائلة بخفوت: «يجب ألا ترهقي نفسك بالكلام، أنا فقط أردت تمني الشفاء السريع لكِ وإخبارك أنني موجودة للمساعدة».

فتحت عوالي فمها، لكن صوت جرس الباب منعها من الكلام.

تابعت ترنيم بسرعة: «سأذهب لأفتح الباب، فعزيزة في المطبخ».

سارعت تخرج من الغرفة شاعرة بدموع عجيبة تلذع طرف عينيها، ثم وقفت خلف الباب تلتقط نفسًا عميقًا قبل أن تفتحه. تسمَّرت فجأة وتراجعت خطوة مضطربة ما إن رأته متجسدًا أمامها، أيام في المشفى وهي تجلس على مقعد بعيد في رواق طويل، ترفض الكلام كما لا تقبل الخروج، مصممة على البقاء عاقدة ذراعيها مطرِقة برأسها، مستعدة لمواجهة كل من يبادر بطردها، أيام جمعتهما وكلٌّ منهما يختلس النظر إلى الآخر من بعيد، نظراته سوداء حتى بعد أن علم أنها لم تكن السبب فيما جرى لعوالي، ونظراتها كارهة لشخصه العنيف، لم يتبادلا كلمة واحدة ولم يحاول طردها، حتى تمت إجراءات خروج عوالي لتتابع علاجها في البيت.

طوال طريق طويل، تنازل بالسماح لها بركوب السيارة معهم، وكان جلوسها خلف مقعده، مما مكَّنها من النظر إليه في المرآة، لم يحاول الكلام مع عوالي طوال الطريق، وكان هذا غريبًا، كان في حال غريب وكأنه لم يستجمع نفسه بعد، خلال الأيام الماضية قام بكل شيء، كان الوحيد لعوالي،

لم يضعف ولم يتأخر ولم يغادر حتى غادر بها، لكنه لم يكن قد استجمع نفسه، فخلف تلك الملامح القاسية المتصلبة توجد عينان مضطربتان بشدة.

انتبهت من شرودها على صوته الجاف يسأل آمرًا: «أين عزيزة؟».

ازدردت ترنيم لعابها وردت بجفاء مبعدة عينيها عن عينيه: «في المطبخ».

وكأنها لم تجد ما تضيفه، فظلت واقفة تحتمي بالباب متمسكة به بقبضتيها بينما كان يراقبها.

أمرها فجأة بنبرة قاسية: «ارجعي إلى الشقة العلوية، فوجودك هنا لم يعد مناسبًا».

نظرت إليه بدهشة ثم زمّت شفتيها مشيحة عنه مدركة أن الوقت لم يكن مناسبًا للمشاحنة.

فردت بخشونة متجنبة النظر إلى عينيه: «سأخرج حين تأمرني السيدة عوالي».

استطاعت سماع صوت فحيح أنفاسه وكأنه يمنع نفسه عنها بقوة تفوق احتماله، لكن كل ما فعله أن مد لها بكيس ممتلئ بالأدوية.

قال آمرًا: «خذي».

أخذت الكيس بحذر متحاشية لمس يده، وكأنها أفعى سامة.

نظرت إلى الكيس وسألته: «هل تستطيع عزيزة تدبر العناية الكاملة بالسيدة عوالي؟».

تراجع بملامح باردة وكأنه لن يتنازل بالرد عليها لكنه فعل.

قال باقتضاب: «سأتصرف».

زمّت شفتيها وجمعت أطراف الكيس قائلة: «حتى تتصرف، أنا موجودة».

نظر إلى عينيها نظرة اخترقتهما كسهمين نافذين ثم رد بنبرة مقيتة: «أعرف أنكِ موجودة، فبعض الناس حين تفتح لهم بابًا، لا يرحلون أبدًا».

احتقن وجهها لكنها أجبرت نفسها على مواجهة عينيه بشجاعة قدر الإمكان، فرماها بنظرة سوداء ثم استدار ليصعد إلى غرفته.

تكلمت قبل أن تستطيع منع نفسها: «ألن...».

تركت سؤالها دون تكملة، فتوقف على السلم للحظة قبل أن يلتفت إليها بوجه مهدَّد.

همست ببطء تهز رأسها: «لا شيء».

ودون انتظار رد منه تراجعت وأغلقت الباب خلفها بقوة.

****

خلال الأيام التالية تأكدت عزيزة أنها ليست قادرة على إتمام كل شيء بمفردها، من تنظيف وطبخ لهذا العدد من الأشخاص، بالإضافة إلى مساعدة عوالي حتى مع وجود ممرضة لعدد محدود من الساعات يوميًا جاء بها «علي»، لذا وجدت ترنيم نفسها تلقائيًا داخل دائرة العمل دون تعمُّد منها، فبعد آخر كلام دار بينها وبين «علي» وعلى الرغم من ردها الفظ المتحدي، فإنها وبعد أن خلت بنفسها قررت الصعود إلى الشقة العلوية الخالية خوفًا من عدم تقبل امرأة قوية مثل عوالي لإظهار عجزها للمرة الأولى أمام غريبة متطفلة مثلها، وبالفعل طلبت من عوالي الصعود، لكن لدهشتها فوجئت برفض المرأة. وأمام دهشة ترنيم أردفت عوالي باقتضاب أن الشقة في هذا الجو شديدة البرودة لخلوها من كل شيء، لذا فلتبقَ بالأسفل إلا إن أرادت الرحيل والبدء بحياة جديدة. للمرة الثانية تحثها عوالي على الرحيل كخيار أفضل مستخدمة تعبير «حياة جديدة».

وهذه المرة أجابتها ترنيم مؤكِّدة: «سأرحل يا سيدة عوالي، أعدك أن أرحل وأن أبدأ حياة جديدة لعلّي أجد من يحتاج إليّ فيها».

وبعد هذا الوعد بدأت ترنيم في زيادة مساعدتها في كل مكان، حتى تحولت إلى آلة بشرية لا ترتاح إلا في نهاية اليوم بإلقاء نفسها فوق السرير كالميتة، ومن شدة تعبها لم يزرها الشبح لفترة.

لم تحاول فرض المساعدة على عوالي، لكن الظروف حتمت أن تمسك بقبضتها مرة وتشدد عليها كي تستند إليها عوالي.

فشدت ترنيم قوتها وقالت بثبات: «أنا أمسك بكِ».

ومن بعدها بدا وكأنه بات من الطبيعي أن تمسك بها وتسندها بين الحين والآخر، الغريب بالنسبة إليها كان «علي»، فرغم قوة العلاقة بينه وبين عوالي فإنه بدا وكأنه غير راغب في زيارتها! ومع ذلك لا يمر يوم إلا ويأتي بنفسه بكلّ طلباتها لكن دون الدخول أو رؤيتها، تفتح له ترنيم الباب فيبعد عينيه عنها ويسلّمها ما جاء به دون كلمة ثم يصعد في صمتٍ تام. رغم أنها تعرف من عزيزة عن إلحاحه في سؤال الأطباء باستمرار، وكأن وقوعها المفاجئ سبَّب له هوسًا.

هذا المساء دخلت ترنيم إلى غرفة عوالي لتضع كوب الشراب الساخن بجوارها فوق الطاولة، وكانت نصف مستلقية في فراشها.

سألتها ترنيم بخفوت: «هل تحتاجين إلى شيء آخر؟».

ككل مرة توقعت أن تجيبها عوالي بالنفي، إلا أنها ولدهشتها سألتها بالكلمات الثقيلة البطيئة: «هل رجع «علي»؟».

شعرت ترنيم بتعاطفٍ غريب معها فأجابت على الفور: «رجع ومر ليسأل عنكِ، لم يمر يوم إلا وسأل».

ارتفعت زاوية شفتَي عوالي في ذلك الطيف الضئيل الذي يُعد شبه ابتسامة، فتراجعت ترنيم تنوي مغادرة الغرفة.

وقبل أن تخرج تكلمت عوالي طالبة بصوت فيه من القوة رغم ثقل لسانها وتعثر كلماتها: «اصعدي وقولي له أمك تريد رؤيتك يا «علي»».

وكأن الطلب الآمر كان لطمة على وجهها، إذ انتفضت وتراجع رأسها محدقة إلى عينَي عوالي مصدومة، وأمام الصرامة التي رأتها سارعت تهز رأسها نفيًا بسرعة.

ثم همست متلعثمة: «لا أستطيع فعل هذا، أرجوكِ لا تجبريني».

أمرتها عوالي مدققة النظر في عينيها الواسعتين المضطربتين: «نفذي ما طلبت».

أطرقت ترنيم بوجهها الشاحب وعينيها الشاخصتين في خروجها من الغرفة والشقة، تصعد درجات السلم على أطراف أصابعها، وكأنها عادة قديمة باتت غير قادرة على التخلي عنها رغم أنها هذه المرة تقتحم عرينه بأمرٍ سلطاني.

دفعت الباب وخطت بقدمها التي تعافت من كسرٍ لم يمضِ عليه وقت طويل ثم توقفت، كان جالسًا في مكانه المعتاد فوق البساط، يمد ساقًا وذراعه ترتاح فوق ركبته، محدقًا إلى السماء وقد مال رأسه المستند إلى الجدار من خلفه، تلك النظرة في عينيه تعرفها جيدًا، تحفظها عن ظهر قلب.

أغمضت عينيها للحظات طويلة واضعة يدها على قلبها بالكاد تتنفس، وحين فتحتهما فوجئت بالعينين السوداوين تحدقان إليها مباشرة! لم تتحرك تاركة لأعينهما حوارًا طويلًا، حتى رأته ينهض ببطء ليقف، هذه المرة لم ينقض عليها، ولم تفر منه لترمي بنفسها فوق درجات السلم، هذه المرة وقف أمامها ينظر إليها وتنظر إليه بصمت تام، فتحت فمها لتتكلم، لكن وكأن الكلمات كان لها مذاق الأشواك التي مزقت لسانها قبل أن تخرج من بين شفتيها.

أطرقت بوجهها غير قادرة على النظر إلى عينيه وهي تهمس بصوت أجوف: «السيدة عوالي أرسلتني، تقول... تقول أمك تريد رؤيتك يا «علي»».

أغمضت عينيها فلامست أنفاسه بشرة وجهها الباردة كالجليد تلفحها، لم تكن في حاجة إلى أن تفتح عينيها لترى تأثير كلماتها فيه، لذا استدارت مغمضة ولم تفتحهما إلا بعد أن جرت فوق السلالم جريًا تتجاوز شقة عوالي نزولًا إلى الأولاد، وهذه المرة لم تكن تفر من شره، بل من ألمه.

****

سارعت تدخل بين محروس والشحات لتفض العراك العنيف الناشب بينهما، الذي صُدمت به ما إن خرجت إلى الفناء، للحظاتٍ لم تستطع أن تصد عدوانية كلٍّ منهما.

فصرخت تنادي: «يا عم عوض، يا عم عوض».

جاء الرجل مهرولًا بعصاه ما إن رأى أنها تكاد أن تُسحق بينهما، وصرخ فيهما مهدِّدًا، لكن الأمر تطلب منه ومن ترنيم دقائق طويلة من الصد والتفريق حتى صرخت ترنيم بجنون تدفع كلًّا منهما في صدره بقبضتيها.

قالت: «توقفا، توقفا حالًا».

كانت صرختها عنيفة مدوية، مما جعل الولدين يتوقفان بأنفاس متسارعة وملامح همجية وأعين تدعو إلى العنف، فدفعتهما مرة ثانية وهي تصرخ أعلى من المرة الأولى.

قالت: «ألا تشعران بشيء مما يدور حولكما رغم الفترة التي قضيتُماها هنا تحت سقف هذا البيت؟! هذا البيت الذي فتحتْ صاحبته الباب لكما لتجدا جدرانًا تمنع عنكما برد هذا الشتاء المرعب، لتجدا طعامًا وأمانًا، والأهم أن تجدا لكما أهلًا. صاحبة هذا البيت تمر بوعكة، لكنكما لا تقدران تعبها أو معروفها، لا تريدان سوى العداء أو الفرار».

صمتت شاعرة بأنفاسها تتقطع وعيناها تذبلان كزهرتين وحيدتين، فهزت وجهها بيأس وأسى، ثم لم تلبث أن نظرت إليهما وأمرتهما بصرامة رغم الوهن في صوتها.

قالت: «هيا ادخلا مسكنكما حالًا».

دفعتهما برفق ترافقهما، والغريب أنهما سارا بجوارها صامتين وكأن الخطبة الصارخة قد أثرت فيهما ولو بالقدر اليسير.

تنهدت متفحِّصة ملابسهما، ثم قالت بجفاء: «انظرا كيف تمزقت ملابسكما من جديد».

شعرت بالتعب فجأة فجلست علَى أقرب كرسي تتمسك بظهره أمام أعين الأولاد المحدقة إليها.

اقترب منها منصور وسألها بحذر: «هل أنتِ بخير؟».

رفعت ترنيم عينيها إليه طويلًا، ثم أومأت برأسها هامسة: «بخير، كما أتمنى أن تكون السيدة عوالي بخير كذلك، تعالَ اجلس».

جلس منصور بجوارها، فالتفتت إلى محروس والشحات وسألتهما بقنوط: «إذن ما هو الأمر الخطير الذي كدتما أن تقتلا بعضكما بعضًا لأجله؟».

على الفور ازدادت ملامح الشحات عدوانية لكن أيًا منهما لم يجب.

تطوع سعد مجيبًا: «لقد خاض محروس في شرف والدة الشحات لأنه لقيط هرب من الملجأ، وقال عنها إنها...».

قاطعته ترنيم بسرعة وبوجه شاحب وقالت: «كفى، كفى، لا داعي للتفاصيل».

نظرت إلى محروس الذي بدا متحفزًا مستعدًا للعراك من جديد.

قالت شاعرة بالسقم: «لم يكن من الرجولة أن تقول هذا، مطلقًا».

استعد الولد للتبرير حيث وقف من جلسته على ركبتيه إلا أنها سبقته ناقلة عينيها بينهم.

قالت: «أعرف أنكم تأذيتم كثيرًا رغم صغر سنكم، أعرف أنكم عايشتم أمورًا انتهكت طفولتكم وليته ما حدث، لكن ليت كلمة ليت كانت العصا السحرية، لذا إن كانت الحياة قد أجبرتكم على التخلي عن طفولتكم فعلى الأقل تمسكوا برجولتكم».

صمتت للحظات تتأمل وجوههم محدقة إلى أعينهم، ثم تابعت: «لا تفرغوا غضبكم في بعضكما بعضًا، فكلٌ منكم قد نال كفايته من الأذى، والأحرى به أن يكون أول الناس فهمًا لما يؤذي أخاه».

غامت عيناها ألمًا وتعاسة شاعرة بمذاق الصدأ في فمها، فابتلعت الغصة في حلقها.

أضافت بحرارة: «لقد أعطتكم السيدة عوالي فرصة، فلا تكونوا أغبياء بتضييعها من بين أيديكم، فالفرص لا تتكرر كثيرًا، والبيوت المفتوحة لفاقدها ما أندرها».

صمتت مجددًا بملامح حزينة وسمعت عبارتها الأخيرة تتردد في ذهنها تاركة صدى مؤلمًا، «البيوت المفتوحة لفاقدها ما أندرها»!

****

لا تعلم إن كان قد استجاب لطلب عوالي أم ظل مختبئًا في عرينه المظلم.

ما إن فتحت عزيزة الباب حتى بادرتها آمرة بصرامة: «السيد «علي» موجود مع السيدة عوالي، لذا ادخلي إلى غرفتك وكفى تنطيطًا».

عادت عزيزة إلى عملها في المطبخ بعد أن أصدرت أوامرها غير القابلة للجدال، وتحركت ترنيم مرهَقة تنوي اللجوء إلى غرفتها بالفعل، سارت بضع خطوات تنوي تجاهل غرفة عوالي عن قصد، لكن بمجرد المرور بها توقفت مغمضة عينيها قابضة كفيها إلى جانبيها بشدة للحظات طويلة، ثم تراجعت وسارت على أطراف أصابعها تحاول النظر من باب الغرفة، كانت عوالي نصف مستلقية في فراشها كما تركتها، بينما كان «علي» يجلس على كرسي بجوارها مسندًا مرفقيه إلى ركبتيه مطرقًا برأسه، وكانت ملامحه غريبة وكأنه يكابد صراعًا ما بين عدم التقبل والغضب.

سمعتها ترنيم تكلِّمه بنبرة قوية لا يضعِفها ثقل لسانها: «لم أربِّك لأراك في نهاية المطاف ضعيفًا إلى الحد الذي يجعلك غير قادر على رؤيتي في مرضي».

لم يرفع «علي» رأسه، بل ظل على جلسته وازدادت خطوط ملامحه شدة.

قال أخيرًا بنبرة خاوية مضطربة: «لا يمكنكِ أن تقعي، لا يمكنك، ولا أستطيع تقبُّل هذا».

ارتفع حاجبا ترنيم غير مصدقة ألم فقدانه للمنطق والجلَد، إنه يبدو كطفل ضائع في انتظار ظهور ألوان ثوب أمه بين الزحام!

ردت عوالي بغلظة: «بل ستتقبل، كما ستتقبل احتمال تكرار ما حدث مرة واثنتين وربما ثلاثًا، وكل مرة سيضيع مني جزء أكبر حتى تأتي المرة الأخيرة وحينها ستتقبل النهاية كالرجل الذي أردتك أن تكونه».

رأته ترنيم يغمض عينيه ويهز رأسه دون أن يرفعها، ثم سمعته يهمس من بين أسنانه: «توقفي أرجوكِ، فقط توقفي».

لم تستطع ترنيم تحمل المزيد على الرغم من رغبتها في سماعه، لذا طارت على أطراف أصابعها لترتمي فوق فراشها دافنة وجهها في الوسادة

علَّها تكتم الدموع، ليتها تتوقف عن البكاء إلى الأبد، لكن ليت كلمة ليت كانت العصا السحرية!

****

ظنتها نائمة فدخلت على مهل، وبمجرد دخولها الغرفة فتحت عوالي عينيها لترى ترنيم واقفة أمامها.

همست ترنيم بلطف: «لا أريد إزعاجك، لكنه موعد الدواء».

سألتها عوالي ببطء: «هل غادرت عزيزة؟».

أومأت ترنيم برأسها ومدت إليها يدها بالدواء، ثم أسندت ظهرها برفق حتى ابتلعته قبل أن تعاود استلقاءها مجددًا، وفي التفاتها وقع بصرها على الكرسي الذي ما زال بجوار الفراش خاليًا، لكن وكأن صورة مَن كان جالسًا عليه تأبى مفارقة ذهنها.

رمشت بعينيها علَّها تبعِد الصورة عنها، ثم التفتت إلى عوالي هامسة بابتسامة صغيرة: «يمكنك النوم الآن بلا إزعاج وحتى الصباح».

أوشكت على الخروج لكن الكلمات الثقيلة خرجت من بين شفتَي عوالي: «اجلسي قليلًا».

صُدمت ترنيم من طلب عوالي المفاجئ، وبخاصة مع إشارة من يدها إلى الكرسي نفسه الذي كان «علي» يحتله منذ ساعات.

همست ترنيم بحذر: «الوقت تأخر، ألا تشعرين بالنعاس؟».

لم ترد عوالي إلا بالإشارة نفسها إلى الكرسي، فجلست عليه ترنيم ببطء شديد شاعرة بالغرابة من احتلالها لمكانه نفسه، شعور غريب وكأنه الدفء وكأنه الصقيع، بالطبع، أليس هذا مكان رجل المتناقضات!

تأملت ملامح عوالي الصلبة والتي بدا عليها التعب للمرة الأولى منذ أن رأتها.

سألتها بقلق: «هل تحتاجين إلى طبيب؟ أهناك ما يوجعك؟».

تنهدت عوالي ثم قالت بصوت خفيض: «لا أحتاج إلى طبيب، أحتاج إلى بعض الرفقة فحسب».

اتسعت عينا ترنيم قليلًا، فقد كانت هذه الكلمات هي آخر ما توقعت سماعه من عوالي، لكنها أومأت برأسها.

وهمست: «لن أتأخر عن رد جميل بقائك مستيقظة بجواري ليلةَ داهمني كابوس، فنمت في فراشك وتدثرت بغطائك».

تحرك وجه عوالي فوق الوسادة لتنظر إلى ترنيم، ثم سألتها: «هل أنتِ ممن يحفظون الجميل يا ترنيم؟».

ارتبكت الفتاة للحظات ثم هزت رأسها مجيبة بعدم ثقة: «أتعشم أن أكون ممن يحفظون الجميل، لا أظنني رأيت جميلًا من أحد قبلك كي أستطيع الحكم على نفسي».

أومأت عوالي برأسها وقالت مؤكِّدة: «هذا سبب أدعى كي تحفظي الجميل».

ظلت ترنيم صامتة للحظات تتأمل وجه عوالي المرتاح، وقد أغمضت عينيها فلم تتمالك نفسها.

سألتها بخفوت: «أرسلتِنِي اليوم إلى «علي» وقلتِ أمك تريد رؤيتك!».

لم يكن كلامها كصيغة السؤال، لكن كلمة واحدة منه هي التي طالبت بالفهم، ففتحت عوالي عينيها محدقة إلى السقف.

ثم قالت بصعوبة وكأنها تقص لنفسها قصة قديمة: «لم أكن أرغب في متابعة ما اعتاده زوجي بعد وفاته، شعرت بنفسي غير قادرة على الاستمرار في فتح هذا البيت للأولاد ممن لا مأوى لهم، كانت تلك فكرته وعمله الطيب في الدنيا، وربما لأننا لم نُرزَق بالذرية فقد كان في مراقبتهم يدخلون بحال ويخرجون بحال آخر إلى مكان آمن- السلوان لقلبي، الذي سلَّم بفكرة توديع الأمومة، لذا ساعدته وبات دعم عمله الطيب هو كل غايتي في حياته حتى توفاه الله، من بعده شعرت وكأن بابًا قد أُغلق في قلبي، فأغلقت الطابق السفلي وأصبح صامتًا خاويًا بعد أن كان ممتلئًا بصيحات الأولاد وصخبهم، كان قرارًا لا رجعة فيه، حتى رأيت «علي»».

صمتت وعلى فمها طيف ابتسامة، وكأنها تتذكر اللحظة الأولى بينما تسمعها ترنيم بشفتين مفتوحتين قليلًا وعينين مشدوهتين.

تابعت عوالي: «جاءني واحد من الشباب المتطوعين في البحث عن مأوى للأولاد بطفل أُصيب في عراك عنيف في الشارع بينه وبين مجرمين أكبر منه سنًّا، ظنًّا منه أن السكن بالأسفل لا يزال مفتوحًا، وكان الولد الذي يرافقه في العاشرة من عمره، خرج لتوه من المشفى، لا يزال جرحه حيًّا حديث التقطيب يقطع فكه بعنف يشلُّ القلب، وجهه شاحب وجسده هزيل يترنح باستسلام، وكأنه ما عاد راغبًا في إكمال هذه الحياة».

لامست عوالي فكها بإصبعيها تمررهما عليه قائلة بشرود: «أصابوه بسيف مما يتعاركون به حتى كادوا أن يفصلوا رأسه، لولا أن كان لعمره بقية فحفظه الله».

عاد الصمت من جديد، فأخفت ترنيم ارتعاشة شفتيها بأصابعها، بينما تشوشت الرؤية أمام عينيها بفعل غلالة الدموع التي غطّتهما.

سمعت عوالي تتابع وجانب ثغرها يتبسم: «منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها عرفت أنه باقٍ في هذا البيت، وأنه ليس كباقي الأولاد ممن سبقوه ومن سيأتون من بعده، حتى أحرف اسمه المشتقة من حروف اسمي أحسست بها إشارة، وفي ملامحه الجميلة رغم شحوبها الختم الموثق للدرب الذي سنسير فيه معًا، حتى يستوي رجلًا يسندني في عجزي وفي مرضي».

انسابت الدموع من مقلتيها على الوجنتين وإلى الأصابع، وبات تنفسها كنحيبٍ مختنق.

نظرت إليها عوالي طويلًا، ثم قالت: «أتعلمين؟ أشعر وكأنكِ جزء منه، وأنتِ جالسة في هذا الكرسي أرى الشبه بينكما».

اتسعت عينا ترنيم المبللتان بصدمة ما إن سمعت عبارة عوالي الأخيرة.

همست متعثرة في كلماتها المتدافعة: «لا يوجد أي شبه بيننا، بل هو على النقيض، وإن خيروني فلن أختاره لأتشبه به».

تبسمت شفتا عوالي مجددًا، لكنها كانت قد أغمضت عينيها وردت: «لا يختار الإنسان شيئًا وُجِدَ قبل أن يعيه. اذهبي الآن، فما عاد لساني الثقيل يسعفني أكثر».

نهضت ترنيم من الكرسي قفزًا، وكأنها جالسة على جمر النار، ثم سارعت بالخروج من الغرفة، لكن قبل أن تطفئ الضوء ألقت نظرة طويلة على وجه عوالي شاعرة وكأن هذه المرأة قد نقشت على ملامحها للتو وجهًا لن تتخلص منه أبدًا، وكلما ستنظر في المرآة بعد هذه اللحظة لن ترى سوى ملامحه، ملامح «علي».

****

لم تكن الشمس قد علت بعد، فبدت السماء رمادية شاحبة كئيبة وإنما لها سحر حزين وكأنما هي مسرح للذكريات الخائنة وأحلام الماضي الخائبة. لم يكن قد خرج من غرفته بعد، لكن وقْع القدمين الذي التقطته أذناه فوق أرض السطح خارجها أدركته حواسه كافة دفعة واحدة، وعرف لمن يكون قبل أن يفتح بابه، فوجدها من لها ذلك الوقع المتلصص الحذر.

برقت عيناه كالشهب وهو يلمحها واقفة عند السور تطل منه، تضم جسدها بذراعيها بشدة وكأن البرد الذي تشعر به نابع من داخلها وليس بسبب الريح التي أخذت تطيِّر شعرها وتبعثره من حولها، وكان دورها لتسمع وقع قدميه من خلفها وهو يقترب منها ببطء حتى وقف خلفها تمامًا. كيف يمكن لخطوات إنسان أن تشبه خطوات حيوان مفترس يستعد للانقضاض على فريسته في أي لحظة! كيف يمكن لمخلوق وحيد أن يكون مخيفًا على هذا النحو!

إن كان الصمت المرة السابقة جوازًا منه بوجودها في عرينه، فالصمت الآن وكأنهما اتفقا أخيرًا على عقدِ هدنة ليرتاحا قليلًا فحسب.

جاءها صوته يقول بنبرة خفيضة: «المرة السابقة جئتِني بالحلوى، ترى بأي شيء أتيت اليوم؟».

أغمضت عينيها تضم نفسها بذراعيها أكثر ثم همست: «أتيت ببعض الرفقة فحسب».

استدارت إليه تتراجع حتى استندت بخصرها إلى سور السطح محدقة إلى ملامحه الجافة وعينيه القادرتين على ابتلاعها، في هذا النور الشاحب بدت ملامحه أكثر هشاشة واحتياجًا، تحركت عيناه على كلِّ ذرة من وجهها، عينيها، جبهتها الواسعة، شفتيها المفتوحتين قليلًا وكأن من عادتهما أن تطلبا المزيد من القدرة على التنفس، ثم استقرتا أخيرًا على وجنتيها حيث التناثر المزدحم الرائع.

قال أخيرًا بوجوم: «جئتِ نهارًا وجئتِ في المغيب، وها أنتِ ذي تأتين في الشروق، لا أظن أن الرفقة تبرير ذكي الآن».

أطرقت بوجهها تتخفى من عينيه، ثم ابتسمت، فلاحقتا شفتيها حتى همست: «معك حق، لم يكن تبريرًا ذكيًا، جئت لحاجتي إلى استنشاق أكبر قدر من الهواء البارد يمكن لصدري أن يمتلئ به، وبما أن باب البيت مغلق لا يفتح في مثل هذه الساعة، فلا أقدر على الخروج إلى الفناء، لذا لم يكن أمامي سوى السطح».

لم يرد عليها، فرفعت عينيها إلى عينيه وكأنهما قطعتان من الرخام الأسود يحجب خفايا نفسه خلفهما.

تابعت: «لأن غرفتك فوق السطح تحتكر المكان الأكثر تميزًا لنفسك، وتمنع غيرك من الصعود إلى هنا، وهذا ليس إنصافًا».

تتحرك عيناه مجددًا فتتهرب عيناها منهما بحذرٍ.

قال أخيرًا: «أنتِ كالمُحتل، تطرقين بابًا ثم تمدين في الأرض جذورًا وتسنين لمالكيها قانونًا».

نظرت إلى عينيه فتلقفتا عينيها، عجبًا لحرب تخوضها الأعين واللسان أبكم! فليته قادر على الصراخ كصراخ النظرات، لكان القلب حطَّ القليل من أوجاعه.

همست بصوت أشبه بالصدى الآتي من بعيد: «يمكنني تفهُّم ما تشعر به».

لم يرف له جفن، ولم تتحرك حدقتاه لتحررا عينيها مجيبًا: «هل يمكنك حقًا؟».

أومأت برأسها ببطء وردت بخفوت: «الخوف من خسارة الشخص الوحيد المتبقي لك، الذي لم تتخيل احتمال خسارته قبل أن يصبح هذا ممكنًا بالفعل».

وكأن الظلال الداكنة تغشى عينيه في لحظة، ثم يحترق فيهما شهاب اللحظة التالية مباشرة، حتى لا يدري الناظر إليه حقيقة مشاعره مطلقًا.

تابعت ترنيم هامسة بوهن: «والأصعب أنك غير قادر على ملازمته كل لحظة ليلًا ونهارًا، تاركًا المهمة للأغراب. يصعب عليّ تخيُّل علاقتك بعوالي كعلاقة أم بابنها! لا أظنها ضمتك إلى صدرها يومًا، كما لا أظنك أفضيت لها بكل أسرارك».

تحولت عيناه إلى غلافين من الجليد تناسب برودتهما الجو المحيط بهما، إلا أنه حين رد عليها كان صوته فاترًا.

قال: «كان لكلٌّ منا سقف لم يستطع تقديمه للآخر، لا تقدِر أن تظهر حبها أكثر، ولا أحب أن يطرق أحد باب منطقة محظورة داخل نفسي، لهذا كانت علاقتنا مثالية، أكمل كلٌّ منا الآخر، فكنت الابن الذي تاقت له وكانت الأم التي أحتاج إليها».

أطرقت بوجهها الشاحب ثم استدارت توليه ظهرها تضم نفسها أكثر.

همست بعد لحظات بصوت مرير: «بخلاف ما تظنه، فأنت أكثر حظًا من غيرك».

سمعت صوته من خلفها يسأل: «كيف لكِ أن تكوني أكيدة؟».

أومأت برأسها تحدق إلى السماء الرمادية الممتدة أمامها، وهمست: «أعلم».

ساد الصمت بينهما طويلًا بعد كلمتها المختصرة الحزينة، ولم يحاول أيٌّ منهما قطعه، وكأنهما كانا أكثر وجعًا من محاولة الكلام.

حتى قال بخفوت: «لم يشاركني أحد هذا الوقت من قبل، أشعر بالغرابة وكأنكِ خيال لا حقيقة، منذ اللحظة التي دخلتِ فيها البيت انقلبت كل الموازين واختل الواقع، وكأنكِ شبح كالذي يسكنك».

استدارت إليه على مهل ورفعت عينيها إلى عينيه، ثم همست: «ربما لهذا السبب يأبى أن يحررني».

تحركت عيناه على وجنتيها من جديد، بينما جالت عيناها بطول الجرح القاطع لفكه.

قال بقسوة وكأنها لامست هذا الجرح: «ألم يعلّمك أحد أنه من قلة التهذيب إطالة التحديق إلى جرح أو عيب في الجسد؟».

كلماته جعلتها ترفع عينيها إلى عينيه على الفور، لكنهما لم تكونا في انتظار نظرتها هذه المرة، بل كعادتهما تسرحان فوق وجنتيها.

فسألته بحذر: «و... ألم يعلّمك أحد أن تنظر إلى عينَي من تكلّمه وتتوقف عن النظر إلى النمش فوق وجنتيه كي لا تحرجه؟».

جوابها الصريح أجفله، فتراجع وجهه ناظرًا إلى عينيها على الفور، وكم شعرت بالسعادة لإرباكه على هذا النحو، حتى إنه ظل صامتًا لا يجد ردًا ليفحمها به.

قالت متابعة بنبرة أقرب للمزاح: «الأولاد يقولون إن وجهي مبقّع. أحيانًا يكونون شديدي القسوة».

لم يرد على الفور، ثم فتح فمه أخيرًا للحظة قبل أن يقول ببطء وتردد: «أحيانًا يكونون شديدي الغباء كذلك».

اتسعت عيناها مصدومة من ردّه، ثم انخفض وجهها على الفور محتقنًا، فأبعدت شعرها بأصابع متوترة خلف أذنها.

قالت لتخفي اضطرابها: «بمناسبة الأولاد، لمَ لا تحاول الاختلاط بهم أكثر؟».

ظل صامتًا للحظات، فتجرأت على النظر إليه مجددًا لتراه وقد شرد بعيدًا وعادت ملامحه إلى سابق عهدها كقناع قاتم.

ثم أجابها: «لا أفضّل الاقتراب أكثر من اللازم، فهذا يعيد إليّ ذكريات أفضّل نسيانها».

عادت عيناها للتحرك فوق الجرح مرافِقة في رحلتها كلماته الخفيضة القاسية، ثم انتبهت إلى نفسها.

قالت متلعثمة: «لقد سرقنا الكلام فأنسانا الوقت، يجب أن أنزل الآن قبل استيقاظ السيدة عوالي».

تجاوزته مسرعة، فدار معها قائلًا بنبرة خفيضة لا تكاد تُسمع، وكأنه يكلِّم نفسه متمنيًا: «ابقي قليلًا».

تسمرت مكانها غير مصدِّقة صوته، فقد كان صوت من تهفو نفسه لشيء لم يتذوقه من قبل، لكنها تظاهرت بأنها لم تسمعه وأسرعت تكاد أن تجري هاربة منه، بينما ظل واقفًا مكانه يلاحق فرارها بعينيه كتمثال نُحت بدقة.

****

راقبت عوالي عزيزة وهي تضع الطعام أمامها فوق المائدة بعد أن استعادت قدرتها على الحركة بمساعدة عصا تلازم يدها.

تراجعت عزيزة مبتسمة وقالت: «عسى ألا يحرمنا الله من حركتك في بيتك التي أعادت إليه الحياة من جديد يا سيدة عوالي»

نظرت عوالي إلى طعامها فوق المائدة، ثم سألت عزيزة بلسانٍ لا يزال ثقيلًا: «أين ترنيم؟».

أجابتها عزيزة مشيحة بكفيها براحة: «تأكل مع الأولاد بالأسفل منذ أيام ولم أمنعها، إذ يبدو أنها شعرت أخيرًا بتطفُّلها».

ظلت عوالي صامتة محدقة إلى الطعام، ثم نظرت إلى النافذة الضخمة التي أُغلقت من جديد وضوء المصباح المضاء نهارًا.

لاحظت عزيزة نظرتها وقالت: «لقد أغلقتُ النافذة كما تحبين وترتاحين، وسيعود كل شيء إلى سابق عهده. هل تأمرين بشيء آخر قبل نزولي؟».

التفتت عوالي تنظر إليها طويلًا قبل أن تنظر إلى المائدة الكبيرة ذات الكراسي الخالية.

ثم قالت أخيرًا بهدوء: «نعم يا عزيزة، هناك ما أريده منكِ في نزولك».

****

هتفت فيهم ترنيم بصوت عالٍ كي يعلو على أصوات صياحهم وهي توزِّع الطعام: «توقفوا عن الصراخ وابدؤوا بالأكل قبل أن يبرد، الجو كالثلج وتحتاجون إلى أن يكون طعامكم ساخنًا».

ضرب محروس صابر على رأسه ضاحكًا، فصرخ الصغير غاضبًا مما جعل ترنيم تهتف بصرامة.

قالت: «توقف عن هذا يا محروس، والكلام لكم جميعًا، إياكم والإساءة إلى صابر، أم تظنون لأنه الأصغر فلن يجد من يدافع عنه؟».

صاح أحدهم مطيعًا ضاحكًا: «حاضر يا «ترا يم يم»».

وكرر لقبها عدة مرات حتى بدأ الجميع في التغني بها ضاربين المائدة التي أُعدَّت في منتصف طابقهم بملاعقهم.

هتفت ترنيم فيهم: «أخفِضوا أصواتكم كي لا تصل إلى السيدة عوالي فتنزعج منها».

لم تكد تتم كلماتها حتى صمت الجميع فجأة، مما جعلها تستقيم ناظرة إليهم بدهشة بالغة مهنِّئة نفسها بقوة شخصيتها التي أرغمتهم على الطاعة أخيرًا، لكن بالنظر إليهم اكتشفت أنهم لا ينظرون إليها، بل ينظرون إلى الباب المفتوح من خلفها، فالتفتت إليه ثم اتسعت عيناها وهي ترى عوالي وقد دخلت منه لتوها تستند بيدٍ إلى عصاها، بينما تمسك عزيزة بيدها الأخرى ومرفقها تسندها.

للحظات لم ينطق أيٌّ منهم، حتى تمالكت ترنيم نفسها واقتربت منها بسرعة.

قالت: «يا لها من مفاجأة سارة يا سيدة عوالي!».

وما إن وصلت إليها حتى نظرت إلى عزيزة ثم إلى عوالي.

مالت ترنيم إلى عوالي تسألها هامسة بقلق: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أومأت عوالي برأسها ثم قالت بنبرتها الواثقة رغم المرض رافعة وجهها بترفُّع: «أردت مشاركتكم».

لم تصدق ترنيم ما سمعتْه.

توجَّهت عوالي بالكلام إلى عزيزة قائلة: «أحضري لي طعامي الآن يا عزيزة».

ترددت عزيزة في ترك يد عوالي، فسارعت ترنيم تمسك بكفها.

وقالت بخفوت: «أنا أمسك بكِ».

ثم تحركت معها حتى ساعدتها في الجلوس حول المائدة مع الأولاد الذين كانوا ينظرون إلى السيدة صاحبة البيت برهبة.

تكلمت ترنيم قائلة بصرامة قاطعة الصمت والنظرات الفضولية المحدقة إلى عوالي: «هذه زيارة غالية لا تتكرر كل يوم، لذا أتعشم أن ترفعوا رأسي وتتناولوا طعامكم بتهذيب أمام السيدة عوالي».

لم يرد عليها أيٌّ منهم، ولم تزل رهبتهم حتى سألتهم عوالي بكلمات ثقيلة هادئة: «هل كل أموركم طيبة؟ هل تحتاجون إلى أي شيء؟».

ظلوا صامتين، فتدخلت ترنيم قائلة: «ربما أغطية أكثر، فالجو كل يوم يزداد برودة».

أومأت عوالي برأسها ثم ردت على مهل: «سأبلغ «علي» كي يهتم بالأمر».

تدخَّل سعد قائلًا فجأة ودون مقدمات: «كانت تكفيني الكراتين في الشتاء».

نظرت إليه ترنيم بوجوم، ولدهشتها ردت عليه عوالي بصوت هادئ لم يخلُ من الصرامة: «حسنًا، أتعشم أن تكون تلك أيامًا مضت ولن تعود».

ثم نقلت عينيها بينهم وتابعت قائلة: «لقد خاطبنا واحدة من المؤسسات وستكون على استعداد لاستقبال بعضكم قريبًا».

لم يبدُ على وجوههم السعادة أو الحماس كما توقعتْ، بل ساد الوجوم.

تدخلت ترنيم قائلة بلطف: «أظنهم قد اعتادوا بعضهم بعضًا وبدؤوا في اعتبار المكان بيتًا لهم».

هزت عوالي وجهها وردت تخاطبهم: «لكن المكان هنا لا يقدِّم الكثير لكم، عليكم التعلم حتى تجدوا أعمالًا مناسبة».

لم تنتظر منهم ردًّا، واعتبرت الموضوع منتهيًا، بينما اختلست ترنيم النظر إليها مدهوشة لتلك الخطوة، حيث نزلت عوالي بكل كبرياء وبعصاها لتشاركهم الطعام دون أن تعبأ بتغير صوتها وقدرتها على الكلام.

كانت تظنها مثل «علي» لا ترحِّب بالاقتراب أكثر، حيث إن «علي» كان هو الاستثناء الوحيد.

رمشت ترنيم بعينيها ثم قالت لعوالي بحذر محاوِلة أن تبدو كلماتها عفوية: «جميعنا هنا نأكل معًا، لم يبقَ سوى «علي». هل أصعد وأطلب منه أن يشاركنا الطعام؟».

رمقتها عوالي بنظرة حاسمة، ثم ردت منهية الحوار قبل أن يبدأ: «لا دخل لكِ بعلي، فهو يفضِّل عزلته».

كلمات عوالي كانت قاطعة، لكنها كانت غافلة، فهي لا تدري إلى أي حدٍّ تهفو نفسه للرفقة، لكنه يأبى الاعتراف حتى لنفسه.

****

أما أخبرها أنها كالمحتل، تطرق بابًا ثم تمد في الأرض جذورًا؟! كان عليه إدراك أن جذورها أنبتت فوق الأرض خضارًا وطرحت ثقة، حتى بات وجودها طبيعيًّا كأي واحد فيهم، لم تعد تلك الغريبة المتطفلة، بل أصبحت مهمة تساعد وتعمل وتسد في أوقات الحاجة دون تعب أو ملل، بل وإن غيابها يسبب عجزًا وفراغًا يصعب ملؤه.

نظرت إلى المبلغ الذي سلَّمتها إياه عوالي كي تشتري أغراضًا للأولاد وسكنهم، كتبت بها قائمة وعرضتها عليها مسبقًا، ففوجئت بعوالي تعرض أن تشتري ما كتبت بنفسها لانشغال عزيزة و«علي». وكم شعرت بالحماس للخروج والشراء حتى وإن كانت أغراضًا لا تخصها! فالشمس مشرقة اليوم ولديها الوقت للتفرج والمشي وإخلاء ذهنها من أشباحه، وأيضًا بعض الراحة

من تعب العمل المستمر في المساعدة والتنظيف. لقد نالت ثقة عوالي للدرجة التي تسمح لها بأن تعطيها المال لشراء ما يحتاج إليه الأولاد من وجهة نظرها.

ابتسمت تعدل حزام حقيبتها على كتفها وسارت تجاه البوابة بخطوات نشيطة.

أوقفها نداء من خلفها: «ترا لم لم»، «ترا لم لم»».

وقفت تزم شِفتيها، ثم التفتت تنظر إلى سعد الذي كان يسرع مهرولًا خلفها.

ما إن وصل إليها حتى بادرته قائلة: «هلّا توقفتم عن مناداتي بهذا اللقب في كل مكان؟».

سألها الولد غير مبالٍ بتذمرها: «إلى أين تذهبين؟».

عقدت ذراعيها مجيبة: «ولو أنني لست مضطرة إلى إعطائك جوابًا، لكنني ذاهبة إلى التسوق».

قفز الولد مترجيًا: «لآتي معكِ إذن كي أساعدك على الأقل».

أرجعت ترنيم رأسها إلى الخلف هاتفة برفض تام: «ما تطلبه مستحيل، انسَ الأمر».

لم يأبه الولد لرفضها، بل أخذ يتوسل إليها بحرارة مست قلبها: «أرجوكِ، نحن لا نخرج أبدًا، وأعدك ألا أتسبب لكِ في أي مشكلة».

كتمت تنهيدة تأثّر وردت بنبرة متفهّمة: «حسنًا معك حق، أعدك أن أنقل شكواك إلى السيدة عوالي كي تنظّم لكم خروجًا يرفّه عنكم، لكن الآن لا يمكنني أخذك، فحتى لو قبلت السيدة عوالي فسيلح باقي الأولاد للخروج اليوم أيضًا، لذا لا يمكنني أخذك اليوم».

ضم قبضتيه هاتفًا همسًا: «أرجوكِ، لا داعي لإخبارهم أو إخبار السيدة عوالي، مؤكد أنكِ لن تتأخري، فلنتسلل معًا وسوف نعود قبل أن يلاحظ أحد غيابي، كلٌ منهم مشغول في الداخل».

ضحكت ترنيم رغمًا عنها تهز رأسها نفيًا، وقالت بلطف: «ما تطلبه مستحيل يا سعد، لكن أعدك أن...».

قاطعها قائلًا بحدة: «إذن لن أبقى هنا دقيقة أخرى».

رفعت ترنيم حاجبها تسأله بحذر: «هل تهدِّدني؟!».

رد الولد بعصبية: «أنا لا أريد أن أكون محتجَزًا هنا بعد الآن».

أجابته متنهدة بتعب: «أنت لست محتجَزًا، ولا أي واحد منكم، لكن السيدة عوالي تخشى عليكم من إغراء الشارع وأصحاب السوء فيه».

توسل إليها بعينين بنيتين طفوليتين وقال مترجيًا: «خذيني معكِ اليوم أرجوكِ، أرجوكِ».

نظرت إليه ترنيم بعجز، وبدا لها أن رفض توسله في تلك اللحظة لهو أصعب شيء قد تفعله. أما أسوأ ما قد تفعله هو ما حدث فعلًا خلال الدقائق التالية، فقد ذهبت لتفقُّد عوض، وما إن بدأ في الصلاة حتى أشارت لسعد كي يخرج معها متسللًا.

على الرغم من شعورها بمدى كرهها للدناءة التي خدعت بها الرجل، فإن نيتها كانت طيبة، فقد كان لديها حديث طويل مع سعد بالذات.

سارا جنبًا إلى جنب على مهل، وتابعت حوارًا من بعد خروجهما من البيت: «هل رأيت بنفسك أنكم لستم محتجَزين حقيقة وأنكم إن أردتم الخروج لفعلتم؟».

أجابها سعد عابسًا يركل حصوات الطريق بعدوانية: «لكن إن فعلنا فسيكون غير مسموح لنا بالدخول مجددًا».

أجابته ترنيم بعقلانية تحاول أن تقنعه عوضًا عن إجباره بسور أو حارس: «بالطبع عليهم فعل هذا، هل يمكنك أن تتخيل المرض الموجود في الشارع وكم السوء والفظائع؟! لكن لمَ التخيل وقد عايشت كل هذا فعلًا؟ بينما السيدة عوالي تمنحك الفرصة لتلقي بكل ما فات خلف ظهرك، وعليك أن تكون شاكرًا وتحمد الله أنك نلت هذه الفرصة قبل المرض أو الإدمان أو حتى القتل والإصابة».

ظل سعد صامتًا مطرقًا بوجهه، فشعرت أنها لامست حدود وعيه بكلامها، لذا فضَّلت ألا تزيد أكثر تاركة له الفرصة للتفكير في كلامها، وتابعت السير بجواره صامتة تتمتع بالجو الدافئ نوعًا ما راجية أن يتمتع به هو أيضًا ويشعر بالحرية التي يفتقدها.

وبينما كانا يسيران في طريق خلا من المارة، شعرت فجأة ودون مقدمات بحقيبتها تُشد بالقوة من كتفها، حدث كل شيء خلال لحظة واحدة، ففي لحظة أدركت بصدمة أن سعد هو من كان يشد حقيبتها، وفي اللحظة نفسها تمسكت بالحقيبة تلقائيًا، فزاد تمسكها من قوته، وكأنه تحول فجأة إلى رجل يفوقها حجمًا وضخامة وعدوانية بشكل مرعب.

صرخت فيه ترنيم: «توقف يا سعد، لا تفعل هذا».

لكنه لم يتوقف، وحين أدرك أنها لن تتخلى عن حقيبتها باستماتة، رفع قبضته ولكم عينها بكل قوته. ترنحت ترنيم من شدة اللكمة وشعرت بألم عنيف انتشر في لحظة من عينها المصابة إلى رأسها بالكامل، فوقعت تستند بظهرها إلى السيارة الواقفة على جانب الطريق، وحينها فقط تمكن من شد الحقيبة بعد أن ارتخت يدها عنها، وفي لمح البصر طار واختفى وكأنه لم يكن معها قبل لحظات قليلة.

****

لم تتوقف عن البكاء لحظة واحدة على طول طريق عودتها إلى البيت، حتى إنها أحيانًا كانت تفقد المزيد من سيطرتها ويعلو صوت شهقاتها بالبكاء. دخلت من بوابة البيت باكية ولم تتوقف أمام الدهشة البالغة في نظرات عوض وتابعت تقدمها، صعدت إلى الطابق الأول لكنها تجاوزت شقة عوالي، ثم إلى الطابق الثاني وأيضًا تجاوزت الشقة الخالية، ولم تتوقف إلا بعد أن وقفت أمام باب غرفته فوق السطح، فطرقته عالمة بوجوده في الداخل بعد أن رأت السيارة.

مرت لحظات قليلة ثم فتح الباب ليراها واقفة أمامه بشكل مروع، عين حمراء باكية، أما الأخرى فكانت مريعة وقد انتفخت حتى أطبق جفنها وازرقّ لونه والمحيط الدائري من حوله.

لم يتغير أي شيء في ملامحه وهو يحدق إليها وإن كانت عيناه قد اتسعتا قليلًا، قليلًا جدًّا فحسب، حتى بدا وكأن لا رد فعل لديه.

لكنها لم تنتظر رد فعله، فقد بادرت باكية بشهقة مكتومة: «أخذتُ سعد معي للتسوق دون علم أحد، فسرق حقيبتي وهرب».

الآن بدا رد فعلٍ عليه، إذ اتسعت عيناه بشكل واضح، كما تصلبت شفتاه في خط يدل على أن الآتي غير سار، لكنها مجددًا لم تعبأ بما سيكون عقابها على يديه.

بكت قائلة باختناق: «أرجوك ابحث عنه، وبعدها سأتقبل أي شيء تنزِله بي، فبسببي ضاع طفل وربما إلى الأبد، كانت لديه فرصة وحياة، أنا أعدته إلى الشارع من جديد، قد يموت أو يمرض أو يُنتهك، وسأكون أنا المذنبة، فكيف سأتعايش مع هذا؟».

تحول بكاؤها إلى نحيب بائس، بينما ظل واقفًا يراقبها بملامح جامدة حتى كادت أن تنهار أمامه، فزفر بصوت مكتوم قبل أن يدخل إلى غرفته تاركًا الباب مفتوحًا. لم تستطع تبيُّن ما يفعله بينما هي مطرقة تبكي، لكنها كانت تسمع وقع قدميه بوضوح، حتى رأتهما أمام بصرها المنخفض فتجرأت على رفع عينيها إليه.

رمقها بنظرة صلبة، ثم أشار بيده آمرًا بصوت خفيض: «اجلسي».

تحركت عيناها مع إشارة يده، فرأته يشير إلى البساط الذي يجلس عليه دومًا.

نظرت إليه قائلة بتوسل: «أنا لا أريد الجلوس، أريد فقط معرفة إن كان بإمكاننا فعل شيء لنجده. هل يمكننا وضع إعلان أو شيء من هذا القبيل على صفحات مواقع التواصل؟ هذه الطريقة منتشرة وفعالة جدًّا الآن، وربما إن...».

قاطع هذيانها غير المترابط آمرًا مجددًا بنبرة أكثر تسلطًا: «قلت اجلسي».

صوته الذي لم يرتفع ألجمها وأخافها، فوجدت نفسها تنحني أرضًا أمامه حتى جلست على ركبتيها فوق البساط مخفِضة عينيها الباكيتين، لكنها انتفضت ما إن رأته يجثو أمامها، ثم شعرت بشيء بارد يوضع على عينها المصابة جعلها تشهق متألمة، ثم أدركت أنه وضع منشفة ممتلئة بقطع الثلج وظل ممسكًا بها برفق، للحظات عجز لسانها عن النطق، كما عجزت عن الحركة للقفز والفرار منه بأقصى سرعتها، كانت تتنفس بسرعة محاوِلة استيعاب ما يحدث، وبخاصة أنها وبعين واحدة سليمة لم ترَ على ملامحه أي انفعال، وكأنما يتعامل مع آلة متعطلة!

حاولت ترنيم النطق مرة ثم الثانية، وفي الثالثة همست برهبة: «أستطيع فعل هذا بمفردي».

على الرغم من قولها الحذِر، فإن كفيها ظلتا على ارتخائهما فوق ركبتيها وكأنهما كفا دمية من قماش، كما أنه لم يعلِّق على تلك المعلومة بالغة الأهمية.

قال بصوتٍ خفيض يابس: «يبدو أنكِ مشيتِ مسافة طويلة».

حاولت أن تستجمع قواها وهمست بقنوط: «لم يكن لديَّ المال لأستقل أي وسيلة مواصلات؛ لقد خطف الحقيبة بما في داخلها».

وفي الحقيقة لم تشعر بالمسافة إلا بعد وصولها، فقد شغلها البكاء عن الشعور بالإرهاق الذي بدأ في الظهور الآن ما إن نبَّهها، فأدركت مدى وهن ساقيها والألم الحارق في قدميها، بخلاف الصداع الذي كاد أن يفتك برأسها.

أغمضت ترنيم عينها السليمة على الدموع التي لا تزال تنهمر منها فوق وجنة، بينما قطرات الماء البارد على الوجنة الأخرى.

همست بضعف بعد أن توقف نحيبها: «لقد ضاع الولد بسببي، لقد عاد إلى الشارع بين الملايين ولن نجده أبدًا».

تكلم بصوت جاف خالٍ من المشاعر أو التعاطف: «كان عليكِ التفكير في هذا قبل كسركِ لقوانين البيت».

ارتعشت شفتاها فلم تقدر على فتح عينها، وهمست بأسى: «لم أستطع تخييب رجائه، فلم يبدُ لي أكبر من مجرد طفل يريد ما يريده باقي الأطفال، لا أستطيع رد رجاء طفل مطلقًا، يتمزق قلبي إن حاولتُ، فعلى آمالهم يعلّقون قلوبهم، ومع كل أمل يُخذَل تسقط قلوبهم وتتضرر، ثم تُعلّق على آمالٍ جديدة حتى يأتي اليوم الذي تموت فيه كل الآمال، وتبقى قلوبهم خاوية هشة من كثرة تصدعاتها».

ارتخت المنشفة الباردة عن عينها، فنظرت بعينها الأخرى إليه لتجده يحدق إليها بعينين غريبتين، وكأنه كان يستمع إلى كل كلمة نطقت بها، وكأنه كان يعيش كل كلمة كما عاشتها، يتأملها وكأنما يتأمل شيئًا لم يره من قبل، بل وكأنما يدور في فلكه. كما لم ترفع يدها لتأخذ منه المنشفة، وكأنها عطشى لهذا النوع من الاهتمام الذي لم تحظَ به منذ عمر أقرب إلى عمرها إلا قليلًا. ذلك الضغط الخفيف على عينها لم تشعر به يداوي كدمتها، بل يربت على جفاء السنين.

قفزت واقفة فجأة بكل قوتها، فوقعت يده الممسكة بالمنشفة وهو مكانه متجهم مضطرب.

قالت تتلعثم: «هل هناك أمل؟ أقصد هل نضع إعلانًا أو...».

لم تقدر على متابعة الكلام، فصمتت تشبك أصابعها بقوة كادت أن تكسرها، بينما أشاح بوجهه الذي ازداد تجهمًا، ففتحت فمها تريد التوسل مجددًا، لكن ارتباكًا خائنًا شلّها، فاستدارت لتبتعد، وما إن خرجت من السطح حتى نظر إلى المنشفة في يده ثم ألقى بها يهز رأسه غاضبًا مصدومًا من نفسه.

****

كانت مستعدة للعقاب، وحتى النبذ من جديد أو الطرد بعد أن علمت عوالي بما حدث، وبخاصة مع النظرة القاسية التي تلقتها منها، لكن بخروج «علي» بسيارته نزلت ترنيم إلى الفناء تنتظر عودته ليخبرها عن الخطوة التي

قام بها في سبيل البحث عن سعد، مؤجِّلة الحساب إلى أن يرتاح ضميرها وقلبها أولًا.

مرت ساعات حتى حل الليل وساد الظلام، ولم تتوقف دموعها تمامًا متخيلة نوع المخاطر التي عاد إليها سعد، وإن نجا منها الليلة فهل ينجو غدًا؟

انتبهت من شرودها اليائس على صوت دخول السيارة، فتأهبت حواسها بلهفة كي تسأله عما فعل، لكن اللهفة تحولت إلى فرحة عارمة ذاهلة حين أبصرت الرأس الصغير في المقعد الأمامي بجوار مقعد «علي».

لم تصدق ترنيم أنه عثر عليه، لم تتخيل في أقصى أمنياتها أن يجده اليوم وألا تمر الليلة إلا وسعد آمن تحت سقف هذا البيت، حتى كادت أن تبكي مجددًا لكن من الراحة هذه المرة.

اقتربت منهما مهرولة لكنها لاحظت ملامح التمرد والعصيان على وجه الفتى، وبالفعل خرج «علي» من السيارة ليدور حول مقدمتها، ثم فتح الباب المجاور لسعد، ودون كلام انحنى ليسحبه ثم حمله من خصره ليلقي به فوق كتفه، وأمام عينيها المتسعتين اتجه به إلى مدخل الطابق الخاص بهم والولد يقاوم ويصرخ شاتمًا متوعدًا، وسرعان ما ألقى به في غرفة من غرف الطابق ثم أغلقها بالمفتاح وخرج.

تحركت عيناها مع «علي» في عودته إلى السيارة، حيث رأته ينحني داخلها ليحضر شيئًا ما قبل أن يستقيم متجهًا إليها بملامحه الجافة وعينيه القاتمتين.

قالت متلعثمة بتردد: «هل ستحتجزه حقًّا؟ هل يمكن أن...».

لم تجد الفرصة لتتم كلامها حين ألقى إليها بحقيبتها، فأجفلت ترنيم بشدة وهي ترتطم بصدرها لتمسك بها بكفيها في اللحظة الأخيرة قبل أن تقع أرضًا، ثم تجاوزها ودخل البيت دون أن يوجِّه لها كلمة، وكأنه لا يعرفها وكأنه لم يداوِ كدمة عينها.

****

لم ينبذوها ولم يطردوها، لكنها بالتأكيد عوملت بجفاء وصرامة لأيام، فقد كانت معاقَبة جرَّاء فعلتها مثلها مثل سعد، الذي لم تزد فترة احتجازه في الغرفة عن الساعتين، لكن ما إن خرج حتى أُصدرت له قوانين صارمة تضمن عدم هروبه مجددًا.

على الرغم من تلك المعاملة الجافة، فإن راحتها برجوع الولد كانت أعظم، وكان امتنانها لا يُضاهى، لذا أعطت كل طاقتها خلال الأيام التالية للأولاد، وعلى الرغم من أنها كانت تعامل سعد بطريقة طبيعية عادية، فإنه استشعر منها التحفظ الهادئ بخلاف باقي الأولاد، مما جعله يتلوى على جمر الغيرة والاستياء.

كانت تخشى هروبه مجددًا، لذا كانت عيناها عليه دومًا دون أن ينتبه، متظاهِرة بالتحفظ في التعامل، تتعمد أن تحث الأولاد على مشاركتها في تغيير شكل المكان، بينما يبقى سعد متمردًا رافضًا المشاركة ومن جهتها لم تجبره ولم تطلب، حتى جاء ذات يوم يجر قدميه متأملًا ما يقومون به، ثم بدأ يمسك بالأشياء ويساعد متبرِّم الملامح، وفي اليوم التالي لانت ملامحه واندمج صارخًا بحماقة مع البقية يتدافعون ويلعبون في أثناء عملهم تراقبهم مبتسمة، تشعر للمرة الأولى منذ وقت طويل أنها لا تزال مسجَّلة على قيد هذه الحياة.

أما «علي» فنادرًا ما كان يخاطبها بكلمة خلال هذه الأيام، وكأنه ندم على البادرة الغريبة بالنسبة إليهما معًا فوق السطح، لكن كان لديها الثقة واليقين أنه لن يطول الوقت حتى تصدر عنه بادرة أخرى، فالأمر بدا لها وكأنه يحدث دون إرادة منه مخالفًا شخصه وطبيعته، لذا لم يكن عليها سوى الانتظار.

لكن لم يكن عليها الانتظار طويلًا. كانت قد تأكدت من نوم عوالي تطمئن عليها كعادتها، وبينما هي في طريق عودتها إلى غرفتها أوقفها صوت طرقات على باب الشقة شق الصمت، وظلام آخر ساعات الليل مع تكات الساعة الكبيرة جعلاها تكتم شهقة خوف لتحدق إلى الباب بعينين متسعتين.

أتراها عزيزة قد عادت من غرفة عوض لسبب ما؟ لكن ليس من المعتاد أن تعود في مثل هذه الساعة المتأخرة!

صوت الطرقات أجفلها من جديد، فتحركت على أطراف أصابعها ببطء شديد وقلبها ينتفض خوفًا، حتى وقفت خلف الباب مرهفة السمع.

سألت بصوت مرتجف: «من؟».

لحظات مهيبة مرت قبل أن يأتيها الصوت العميق المألوف دون الحاجة إلى التعريف عن نفسه.

قال: «إنه أنا».

رفعت يدها إلى صدرها الخافق تحاول تهدئته وقد اتسعت حدقتاها في الظلام الحالك، لا يفصل بينهما سوى الباب، لكنها شعرت وكأنه قادر على اختراقه كالشبح إن لم تفتحه.

فتحت ترنيم الباب بأصابع مرتجفة ثم كتمت أنفاسها ناظرة إليه في ظلام السلم، بملامحه المظلمة وعينيه المدققتين فيها بهذه الحدة المستكشِفة.

لم تتكلم، بل استندت إلى الباب المتشبثة به ليدعمها أمام نظراته.

سمعت صوته يسألها بجفاء مع نكهة أخرى غامضة: «هل تريدين التكفير عن ذنبك؟».

****

ضرب من الجنون الصعود خلفه في هذا الظلام والصمت والدخول معه إلى الشقة الخالية، لكن بمجرد دخولها شعرت بالوهن في قلبها ما إن رأت أول ما وقعت عليه عيناها، طفل صغير لم يتجاوز الثانية من عمره واقف في منتصف البهو متدثر بغطاء ثقيل! سارعت ترنيم إليه تمسك بكفيه ووجنتيه، وهالها مدى برودة أوصاله، فأحكمت الغطاء من حوله بشدة.

قال «علي» خلفها: «كان يرافق امرأة متسولة لأكثر من عام، ولعدم شبهه بها حاول بعض الشباب سؤالها عنه والتضييق عليها، فهربت منهم وتركته

في أول زقاق، نُقل بعدها إلى المشفى لإصابته بالتهاب رئوي وبقي فيها فترة طويلة للعلاج على أمل أن يتعرف عليه أحد، لكن لم يحدث حتى الآن».

تأوهت ترنيم بصوت خافت تلامس وجنتَي الصغير بكفيها برفق شديد، وقد كان يحدق إليها بعينين ملوّنتين فاتحتين.

تابع «علي»: «لقد بلل نفسه في طريقنا إلى هنا، كما أنه جائع».

التفتت ترنيم تنظر إليه واقفًا واضعًا كفيه في جيبَي بنطاله يتكلم بهدوء، وكأنما يتكلم عن قط أو جرو صغير.

أضاف باقتضاب: «لا يمكن تركه مع الأولاد بالأسفل لصغر سنه، كما لا يمكنه البقاء مع عوالي في شقتها، فهو يصرخ باكيًا كل عشر دقائق».

وكأنما تصريحه الأخير تعويذة، إذ بدأ الطفل في البكاء وبسرعة البرق تحول بكاؤه إلى صراخ عالٍ أجفلها، لكنها تماسكت وضمته إلى صدرها بقوة تحاول تهدئته.

ثم التفتت إلى «علي» سائلة: «هل يمكنني الحصول على غطاء إضافي وملابس ثقيلة له؟ فأنا أريد أن أحمِّمه، لكن مؤكد أن رئتيه ضعيفتان بعد خروجه من المرض لتوه».

أشار بذقنه إلى حقيبة صغيرة على الأرض وأجاب: «هذه مجموعة من الملابس له سلّموها لي مع الولد في المشفى».

أومأت برأسها ثم قالت محاوِلة التركيز وهي تهدهد الطفل المتشنج: «إذن سأحمِّمه بأقصى سرعة ثم سأنزل إلى شقة السيدة عوالي لأعد له طعامًا يناسبه، وسأتركه معك وقتها لذا لا تبتعد».

نظر إليها صامتًا بلا تعبير فعقّبت بحذر: «أو بإمكانك استدعاء عزيزة».

ظنته سيفعل بالطبع، لكن لدهشتها أجابها باختصار: «سأحضر لكِ الغطاء ثم سأكون في غرفتي إلى أن تنتهي».

استدار وكان على وشك الخروج من الباب المفتوح، إلا أنها نادته متغلبة على دهشتها: «هل لديك مدفأة في غرفتك؟».

التفت إليها مجيبًا: «لا».

وأول ما خرج على لسانها بحدة ودون تفكير كان: «لماذا؟! فغرفتك ليست منيعة أمام الريح الباردة. هل تحب تعذيب نفسك؟!».

النظرة التي رماها بها والتي استقرت على عينيها كادت أن ترديها قتيلة، فأدركت أنها تكلمت مندفعة بكل غباء.

قالت بسرعة مشيحة بعينيها عن عينيه: «رأيت مدفأة صغيرة لدى السيدة عوالي لا تستخدمها، سأحضرها بعد تحميمه».

لم تستدر إليه بعد كلامها الخفيض، ولم تهدأ حتى سمعت صوت خطواته تبتعد حتى خرج من الشقة.

****

«ملامسة آلام الغير تغطي آلام النفس فتحجبها إلى حين، وأحيانًا تمحوها بعد حين»!

رافق الوجع حركاتها في تحضير الطعام الساخن اللَّيِّن سهل الهضم، لكنها أجبرت نفسها على التماسك حتى صعدت عائدة إلى الشقة الخالية، ثم وقفت ساكنة تمامًا بعد أن دخلتها كالمرة الأولى منذ ساعة أو أكثر، فهذه المرة كان المنظر مختلفًا ولم تعد الشقة خالية! ضوء ذهبي خفيض ومدفأة كهربائية بجوار الكرسي الوحيد، الذي جلس عليه «علي» وعلى ركبتيه الطفل الصغير بعد أن تحمَّم وارتدى الملابس الثقيلة. يجلس بين أحضانه، يلفه بالغطاء الثقيل والطفل يبادله النظر بحذر كمخلوق متوجس خائف لا إنسان يستكشف.

كان الطفل مفتقدًا للآدمية، وربما لم يعرفها مطلقًا، كما كان «علي» ينظر إليه بعينين مظلمتين وملامح جامدة مفتقدًا العاطفة، وربما لم يعرفها من قبل.

شعرت ترنيم بالغصة تكبر وتتوحش حتى كادت أن تشطر حلقها، لكن رفعت ذقنها واقتربت منهما على مهل، فرفع عينيه إليها على الفور وتلاقت نظراتهما للحظات.

همست بصوت أجوف: «يمكنني أخذه منك الآن، كما يمكنك الصعود إلى غرفتك، فسأبيت معه هنا».

رد عليها بصوت جامد خفيض: «أطعميه هكذا ما دام صمتَ لفترة، فلربما عاد إلى الصراخ إن نقلناه من ذراع إلى أخرى».

صدمها جوابه، لكنها لم ترُد أو تعترض، بل جثت على ركبتيها أرضًا بجوارهما ثم بدأت تطعم الصغير برفق وحذر. في البداية بدأ جسده في التشنج رافضًا، ثم بدأ في تقبُّل الطعام بالتدريج، فابتسمت له ترنيم بصعوبة كي يطمئن لها كما اطمأن لعلي على ما يبدو، كم هو حذر كمخلوق صغير ضئيل!

ازدردت ترنيم لعابها وهمست بخشونة دون أن ترفع عينيها: «رأيت العديد من علامات الحروق على جسده بينما كنت أحمِّمه...».

لم تستطع إتمام كلامها، لكنه رد هامسًا بلا تعبير: «على الأرجح أن المرأة التي كانت تتسول به هي المسؤولة عن تلك الحروق لتجبره على طاعتها، ولكي يزيد الصراخ أمام المارة فيؤكد قصتها الكاذبة حول رعاية ابنها اليتيم المريض».

ارتجف ذقنها بشدة وهي تحاول منع نفسها من البكاء.

أمرها بلا مشاعر هامسًا: «لا تبكي كي لا يخاف ويصرخ مجددًا».

أطبقت شفتيها بشدة حتى عضت عليهما كي لا تبكي، متسائلة كيف له القدرة على أن يظل بهذا القدر من انعدام العاطفة فلا يتأثر وكأنه ليس بشرًا.

سألها بعد لحظات من صمتها: «هل استيقظت عوالي على صوت الصراخ؟».

أومأت برأسها ثم همست: «أخبرتُها بما حدث بكلمات موجزة، لكنها تنتظر الشرح منك صباحًا، كما طلبت مني إنزاله إلى شقتها، لكنني أظن أن صراخه سيستمر، وهذا لن يكون مناسبًا في حالتها، ربما يطمئن ويتحسن وضعه في الغد».

كانا يهمسان كالنسيم، لكن كيف للنسيم أن يحمل كل هذا القدر من الوجع وقسوة المشاعر بينهما في آنٍ واحد؟!

حين انتهت من إطعام الصغير نهض «علي» ببطء وحذر يحمله بين ذراعيه، بينما ظلت جاثية أرضًا، رافعة وجهها إليهما تتأملهما بعينين حزينتين، ثم نهضت واقفة فمدت يديها وأخذت الطفل منه بحرص تدعو الله ألا يعود إلى الصراخ مجددًا.

نظر «علي» إليها طويلًا، ومن خلال الظلال الملقاة على وجهه تخيلت أنها رأت في عينيه انفعالًا أعمق مما يسمح بإظهاره.

لكنه همس أخيرًا بنبرة بددت خيالها: «سأصعد إلى غرفتي، إن احتجتما إلى شيء فاطرقي بابي في أي وقت سأفتح لكِ».

حدقت إلى أثره وهو يغادر والعبارة تدوي في أذنيها كقصف النار! «إن احتجتِ إلى شيء فاطرقي بابي في أي وقت سأفتح لكِ»، لكم تمنت سماع هذه الكلمات طوال سنين شاقة موحِشة من حياتها! إنها تضعف!

****

وجود الصغير في البيت كان عذابًا لساكنيه، لأيام لم يتوقف فيها عن الصراخ إلا نادرًا، حاولت ترنيم الانفراد به بعيدًا عن عوالي قدر الإمكان كي لا يرتفع ضغطها من ألم الرأس المستمر، فكانت تقضي ساعات يومها تحمله وتمشي به ذهابًا وإيابًا وحول البيت هامسة في أذنه تعطيه من الحنان قدر ما تستطيع، علّها تقدر على محو الحروق عن جسده الصغير وذكرى البرد والقسوة من قلبه.

لم تيأس ولم تمل من محاولة مداواته ساعات وساعات، حتى أبصرت على ثغره الوردي ابتسامة ذات صباح! كانت تلك الابتسامة هي أعظم إنجازاتها في الحياة، إن لم تكن الإنجاز الوحيد.

وفي الوقت الذي كان الأولاد متضررين من صراخه وإزعاجه وبخاصة صابر أصغرهم، الذي انتابته غيرة عنيفة من استحواذ الصغير على اهتمام ترنيم، في

حين كان هو الأصغر بالنسبة إليها، ومع انشغال عزيزة في تلبية طلبات عوالي والأولاد، كان هناك من لا يعارض الوجود، ومن غيره سوى رجل التناقضات!

كهذه اللحظة التي وقفت فيها على السطح تتأملهما ممسكة بطبق الطعام الصغير، جالسًا جلسته المعتادة فوق البساط يمد ساقًا ويسند ذراعه على ركبته، مستندًا بظهره إلى جدار غرفته لكن مع فرق ضخم، لم يكن في نظرته ذاك الصراع والمرارة وهو يتطلع إلى السماء كعادته، فهو لم يكن ناظرًا إلى السماء، بل كان يراقب الصغير الذي يمشي متعثرًا ليقع مرة ثم يعاود النهوض، حين جاء الصغير بالكاد كان يستطيع الوقوف لشدة ضعفه، لكن مع مروز الأيام تحسنت صحته وبات لا يتوقف عن الوقوف والوقوع مرة بعد مرة.

ملامح «علي» كانت على عهدها، جافة صلبة، ومن لا يعرفه لا يرى شيئًا فيه مختلفًا، أما هي فشيء آخر، فهي تحفظ كل لمحة من ملامحه ونظرة عينيه، وإن لاح على سطحها طيف اللين فلن يلمحه غيرها.

تكلمت ترنيم قائلة بصوت خفيض: «لقد حان موعد أكل أنس».

أنس هو الاسم الذي اختاروه للصغير الذي لا اسم له حتى الآن، لقد شارك الجميع في استفتاء أجرته للاختيار بين عدد من الأسماء، إلا «علي».

التفت ناظرًا إليها ما إن سمعها، وسرعان ما توترت ملامحه بشكلٍ غير ملحوظ بينما اختلجت حدقتاه ولم يرُد، لكنها لم تكن منتظرة ردًا منه، بل اقتربت على مهل حتى وصلت إلى البساط الذي يجلس عليه، فانحنت وجلست فوقه، فنظر إليها «علي» بعينين حادتين متفاجئًا من تصرفها، وقد تصلبت كل عضلاته بتوتر واضح.

التفتت إليه وسألته بلطف: «هل يضايقك جلوسي؟».

انعقد حاجباه وفتح فمه فترقبت جوابًا حادًا مهينًا، إلا أنه عاد وأغلقه دون رد، مما جعلها تشيح بوجهها ترتسم على شفتيها ابتسامة لها حلاوة الشهد ادعت أنها لأنس، مشيرة إلى الطبق كي يقترب ويأكل.

مع كل ملعقة تضعها في فم أنس كانت تشعر أكثر بدفء عينيه المتجولتين فوق خطوط وجهها لتتمهلا على النقاط المتزاحمة وتستقرا

هناك. تريد الفرار كغزال بري يحاول النجاة بحياته من حيوان مفترس يقبع خلف الأغصان ينتظر الفرصة المناسبة لينقض عليه، لكنها تماسكت مشجِّعة نفسها والتفتت إليه على حين غرة تبادر بسؤاله عن شيء ما، فضبطت نظرته قبل أن يسارع بإبعاد عينيه متجهمًا بشدة.

هذه المرة كانت ابتسامتها له وليست لأنس، لكنه لم يرَها. هبت الريح لتطير خصلات من شعرها فوق عينيها، فأبعدتها بأصابعها وأغمضت عينيها رافعة وجهها تتبسم للهواء، مما منحه الفرصة لينظر إليها مشدوهًا للحظات، قبل أن يرمي أنس بنفسه فوق ركبتيها لتتلقفه ضاحكة، وقد تسبب في سكب جزء كبير من الطعام على ملابسها، لكنها لم تهتم، بل علت ضحكتها وهي تميل به إلى الأمام سعيدة بانتصارها.

تقاطعت خطوط وجهه وكأن جمال مراقبتها معقد حد الألم! لا تتوقف عن الكلام مع أنس على الرغم من أنه لا يرد ولا يستجيب إلا بالسكون إلى حضنها والراحة هناك.

وفي لحظة صمتت فيها سمعته يقول لها بصوت أجش خفيض: «لكِ ضحكة تشعِر الإنسان أنه ما كان حيًا قبل سماعها».

انتفض رأسها وهي تلتفت ناظرة إليه بصدمة مما سمعت للتو، وهذه المرة لم يتظاهر بأنه لم يقل، ولم تدَّعي أنها لم تسمع. كان ينظر إليها مقطبًا جاد الملامح متصلب الشفتين، وكانت تبادله النظرة بالخوف والذهول وكل ذرة من كيانها ترتعش، حتى إنها زادت من ضم أنس إلى صدرها تنشد الحماية حتى بدأ الصغير يشعر بالخوف من شدة ضغطها، لقد نطق حجر الصوان واعترف!

هزت ترنيم رأسها على غير هدى دون أن تزيح عينيها عن عينيه بعجز، وبعجز كان جوابها هامسًا مقطوع الأنفاس.

قالت: «ألديك فكرة كم من الأعوام مرت ولم تزر الضحكة مُحيَاي!».

****



الفصل السادس

«أخطر المحتلين أنتِ، تتسللين تحت الجلد وفي النفس تُرْسين دعائِمك».

«أتعجب ممن يطلقون عليها قبلات الشمس، فحين أنظر إلى وجنتيكِ لا أرى للشمس أثرًا، بل مجرة تتزاحم فيها مئات الكواكب والأقمار المتناثرة».

تشبثت بسور السطح حتى حفرت أظافرها في طلائه دون أن تشعر مشدوهة تأسرها الكلمات، فصوته الجاد أقرب إلى صوت المتكلم مع ذاته متناسيًا وقوفها أمامه، وكأنه فضح للتو سرًّا ما كان ينبغي له أن يُفشى!

رفعت ترنيم أصابعها تلامس بها أعلى وجنتها دون وعي.

ثم قالت بصوت أجش مرتبك: «لم يسبق لأحد أن قال لي كلامًا مماثلًا!».

تجولت عيناه المتجهمتان داخل حدود المجرة، التي كانت حدودها الفضاء، ثم تلاقت أعينهما، لا تجمعهما ابتسامة، بل استكشاف غريب للشعور الأغرب الذي يكاد أن يطيح بهما من فوق تلك الحافة.

تحرك حلقها وهي تزدرد لعابها بصعوبة.

ثم لم تلبث أن قالت مرتبكة تنظر حولها: «يجب أن أنزل حالًا».

حاولت تجاوزه لكن برعب رأته يعترض طريقها فجأة! اتسعت عيناها رافعة وجهها إليه.

همست مترجية بصوت مختنق: «أرجوك يا «علي»، أنت تخيفني بما تفعل».

أجابها بعنف من لم يعد قادرًا على كتم انفعاله أكثر: «إن كنتِ تخافين فعلًا ما كنتِ لتأتي إليَّ بقدميكِ كل مرة. ألم تلاحظي اختفاء أشباحك؟ هل تعرفين السبب؟».

تحرك حلقها مرة أخرى وبصعوبة أكبر فهزت رأسها نفيًا ليجيبها بثقة: «لأنني موجود الآن».

اهتزت حدقتاها السابحتان في بحيرتَي عينيه وتلمست شفتاها الهواء فبللتهما بلسانها قبل أن تنفض رأسها بقوة.

قالت: «صعودي إلى هنا كان خطأ كبيرًا».

اقترب منها أكثر وهمس يسألها برفق: «أي مرة تقصدين؟ هل تدركين أنكِ ما عدتِ تفوّتين يومًا إلا وطرقتِ بابي حتى بعد نفاد كل حججك؟».

نظرت إليه هاتفة بعجز خائفة: «لم تكن حججًا».

قاطعها بصوت خفيض هادئ مائلًا بوجهه إليها وكأنه سيخبرها سرًّا بينهما لا يود للريح أن تسمعه.

قال: «كاذبة».

أغمضت عينيها بشدة شاعرة بقلبها يكاد أن يخترق أضلعها يقفز من صدرها بهلع، فهالها مقدار قلة حيلتها في الرد عليه.

لم تستطع سوى الأنين متوسلة: «أرجوك!».

لم تجرؤ على فتح عينيها حتى شعرت به يبتعد، وما إن فعلت حتى تمكنت من التقاط أنفاسها تنظر إليه وقد أولاها ظهره ناظرًا إلى السماء الممتدة أمامه، فلم تستطع تبيُّن ملامحه وإن كانت أكيدة أنه يحاول التغلب على ضعفه أمامها.

وقد تأكد ظنها حين قال بصوت أجش: «يمكنك النزول».

استغلت فرصة الفرار فسارعت تتجه إلى باب السطح كما تفر الغزلان، لكن في منتصفه ترددت ووقفت للحظة ثم استدارت إليه.

سألته بصوت حنون: «ألن تغيّر رأيك يومًا فتنزل لتتناول طعامك معنا؟».

للحظات لم يتحرك وشكّت في أن يتنازل بالرد عليها، لكنه استدار إليها أخيرًا وكعادة عينيه النافذتين تخللتا كيانها للحظاتٍ طويلة.

ثم أجاب: «ما دمتِ تصعدين لي بطعامي فلديّ كل ما أريد».

نظرت ترنيم على الفور إلى صينية طعامه فوق البساط، التي حملتها له منذ ما يقرب من نصف الساعة ولم تُمس بعد، وقد بردت محتوياتها في هذا الجو البارد، وكأن بتصريحه الهادئ أثبت اتهامه لها بالبحث عن أي حجة للصعود!

شحب وجهها بشدة ثم احتقن وتلون، وحين نظرت إلى عينيه أدركت أنه قد قرأ كل أفكارها، وعلى الرغم من أنه لا يبتسم، لكن في عينيه رأت لون الضحكة الظافرة، فابتعدت تجري تفر منه لتفصل بينهما الطوابق، ككل مرة تجري فيها على درجات السلم وشعرها يطير من خلفها، بينما هو واقف أعلاه يراقب فرارها يعدُها صامتًا أنه سيكون في انتظارها.

****

- لا جديد بخصوص إعلان العثور على الصغير؟

كانت تطعم أنس تهمس له بأغنية لطيفة كي يأكل، حتى سمعت عوالي، فنظرت إليها وكم تفاجأت بالراحة الخبيثة التي لامست قلبها ما إن سمعت التصريح المختصر. لم تتخيل أن ترتبط بالطفل الصغير خلال تلك الفترة القصيرة بالقدر الذي يجعلها تشعر بالراحة لبقائه معها المزيد من الوقت!

وعلى الرغم من أنه كان مصدر عناء لكل ساكني البيت ولها بالأخص، فإن على ما يبدو أن هذا الارتباط لا تشعر به وحدها، فها هي ذي تطعمه على

مائدة عوالي الضخمة المزخرفة بعد أن كان واحدًا من قوانين هذا البيت هو خصوصية شقة عوالي التي لا يدخلها غريب مطلقًا!

أنس يجلس فوق المائدة يتقبل منها الطعام متحركًا بين الحين والآخر، وعوالي تجلس في مقعدها مستندة بيد إلى عصاها وباليد الأخرى تمسك بهاتفها تتفحص صفحة الأطفال المفقودة، التي تتواصل باستمرار مع من تطوع لرعاية واستضافة أيٍّ من الأطفال التائهين، أومن تعرضوا للخطف وعُثر عليهم لحين التعرف عليهم من ذويهم كما يأمل الجميع.

نعم الجميع هنا يأمل أن تقر عين الأم التي ضاع منها ابنها أنس، التي من المؤكد أنها تبحث عنه كالمجنونة منذ عام وربما أكثر، لكن القلب لا يقدر على منع الراحة من التسلل إليه حين يبقى ساكنه أمام العين.

ردت ترنيم بخفوت: «فلنأمل خيرًا، لديَّ ثقة أنه سيعود إلى والديه مهما بدا الأمر يحتاج إلى معجزة».

رفعت عوالي عينيها عن الهاتف وتأملتهما طويلًا، ثم علَّقت: «يبدو أنكِ أحببتِ هذا الطفل أكثر من اللازم».

نظرت إليها ترنيم للحظة وسألت: «هل ينبغي أن يكون للحب حد لا ينبغي تخطيه؟».

أجابتها عوالي مؤكِّدة: «بالطبع يوجد، حين يكون الناس مراحل في حياة بعضهم، وأنتِ لستِ باقية هنا إلى ما لا نهاية».

امتقع وجه ترنيم على الفور محاوِلة تحليل كلمات عوالي، فلقد علَّقت على رحيلها هي، وكان الأصح أن تعلِّق على رحيل أنس قبلها! فظلت صامتة لا تجد ردًا، بينما لم تنتظر منها عوالي واحدًا، بل ارتشفت من قدحها الساخن مرجِعة رأسها شاردة بنظراتها غير المقروءة من النافذة المفتوحة.

تابعت ترنيم إطعام أنس وقد فقدت ابتسامتها وساد الغم ملامحها.

سألتها بعد فترة بخفوت: «لديَّ سؤال لطالما أردت أن أطرحه عليكِ، لماذا تستقبلين الذكور فقط وليس البنات؟».

نظرت إليها عوالي نظرة حادة وسألت بغلظة: «أهو نوع من التنظير أو التقريع؟ لم أنس بعد اليوم الذي صعدتِ فيه إلى شقتي تصرخين وتتهمينني بالتحيز للذكور!».

هتفت ترنيم: «لم أقصد ما فهمتِه، أقسم لك، وذاك اليوم لم أكن في كامل وعيي، أرجوكِ سامحيني وانسي السؤال».

أطعمت أنس مجددًا وهذه المرة كانت ملامحها مضطربة حزينة، ولم تنتبه لتأمل عوالي لها.

ثم ردت بجفاء مبعِدة عينيها بترفُّع: «لا أملك الإمكانات الكافية التي تؤهلني لرعاية الأولاد والبنات معًا والفصل بينهما وأيضًا مراقبتهم، فالأمر أخطر من تحقيقه فعليًا، منذ البداية كنا نستقبل الأولاد في حياة زوجي، وبعد وفاته دخل «علي» إلى الصورة فحُدِّد الاختيار تلقائيًا».

أنهت كلامها مغلِقة الموضوع بينما تأملتها ترنيم شاردة، ثم عقَّبت بخفوت: «دخل «علي» إلى الصورة فحُدِّد الاختيار تلقائيًا، وجود «علي» هو الأساس».

انعقد حاجبا عوالي وأجابت بصراحة تتحداها: «نعم، وجود «علي» هو الأساس، فهل لديكِ مانع؟».

هزت ترنيم رأسها نفيًا وردت على الفور: «ما أردت قوله إنه كان محظوظًا رغم صعوبة ظروفه».

تراجع وجه عوالي تحدق إلى الفتاة بتدقيق ثم سألتها: «أتظنين هذا؟ عليكِ ألا تلقي أحكامًا إلا بعد اختبار ما عايشه غيرك فعليًا».

أطرقت ترنيم بوجهها مغمِضة عينيها، فتابعت عوالي بنبرة أكثر صلابة: «بالنسبة إليَّ أراكِ أكثر حظًّا منه، فعلى الأقل كبرتِ مع أمك وفي بيتك».

نظرت إليها ترنيم وابتسمت تجيبها بمرارة: «ماذا عن عدم إلقاء أحكام إلا بعد اختبار ما عايشه الغير؟!».

رمشت بعينيها ثم رفعت شعرها بأصابع عصبية وتابعت: «لكن حين نتكلم عني وعن «علي»، يكون تفكيري مشغولًا بالبنات في الشارع، كيف يُنقَذن؟».

أجابتها عوالي برتابة: «كما وُجِدَ هذا البيت، هناك أيضًا بيوت ودور لاستقبال البنات ورعايتهن، لكن العدد أكبر من طاقة كل هذه الأماكن، حيث يُقدَّر بالآلاف حاليًا».

كانت ترنيم تستمع لكلمات عوالي العملية الجافة وهي ممسكة بيد أنس الصغيرة، وكأنها لا شعوريًا تطمئن لوجوده تحت سطح آمن.

سألت ترنيم عوالي بصوت خفيض: «أيمكنك تخيُّل ما قد تتعرض له فتاة تعيش في الشارع؟».

نظرت إليها عوالي وردت قاطعة: «كل شيء، إدمان واغتصاب وأمراض، وعلى الأخص مرض نقص المناعة، وحين نتكلم عن الشارع فلا فرق فيه بين صبي وفتاة، الجميع معرَّضون لكل شيء».

غامت عينا ترنيم فأسبلت جفنيها وانحنى خطا شفتيها بأسى وهمست: «نعم صحيح، الجميع معرَّضون لكل شيء».

أفاقت من شرودها على صوت جرس الباب، فنهضت لتحمل أنس بين ذراعيها قائلة: «سأفتح الباب».

وحين فعلت لم يكن الواقف خلفه سواه، التقت نظراتهما فاضطربت دقات قلبها، بينما بدا لها ثابتًا جامدًا بلا تعبير على وجهه أو في عينيه، ولولا تجول هاتين العينين بين ملامحها وشعرها وذراعيها الممسكتين بأنس تضمانه إلى حضنها، لظنت أنها واقفة أمام غريب، وليس من همس لها قائلًا: «ما دمتِ تصعدين لي بطعامي فلديَّ كل ما أريد».

ابتسمت له ابتسامة تشع بالشقاوة والعذوبة في آنٍ واحد.

لكن ابتسامتها لم تلقَ سوى الجفاء وهو يقول بتحفظ: «أريد رؤية عوالي».

اختفت ابتسامتها على الفور أمام خشونته، وحدقت إليه بعينين واسعتين.

لكن صوت عوالي نادى من الداخل: «ادخل يا «علي» تعال».

ابتعدت ترنيم عن الباب مفسِحة له الطريق كي يمر، فدخل دون أن يلقي إليها بسؤال مختصر عن حالها أو حتى بنظرة اهتمام.

ربتت عوالي بكفها على سطح المائدة تدعوه إلى الجلوس على الكرسي المجاور لها، الذي كانت تحتله ترنيم قبل دقيقة.

قالت له عوالي بكلمات ثقيلة: «اتصل الحاج عثمان لتوريد البضاعة، فأكدتُ عليه أنك المسؤول من الآن فصاعدًا».

أظلمت عيناه وهز رأسه بإشارة واهية، وأمام عينيها رأت ترنيم الإنكار على وجهه، وبخاصة حين قال بصوتٍ خفيض خشن: «توقفي عن التصرف بهذا الشكل، ألا تشعرين حقًّا بالتحسن كما أراه عليكِ؟ يمكنك العودة إلى العمل كما أمكنكِ القيام من الفراش».

تراجعت عوالي في مقعدها متنهدة تتأمل العنف المكبوت خلف عينيه.

ردت: «نعم أستطيع العودة إلى تجارتي بحالتي تلك، أستطيع الضغط على نفسي، فهل هذا ما تريده؟ ترى متى تحق لي الراحة إن لم أحصل على بعض منها الآن؟!».

ازداد انعقاد حاجبيه بينما اهتزت ساقه بعصبية، فاقتربت ترنيم منهما ومالت على الطاولة لتأخذ طبق أنس من أمامهما.

وهمست: «عذرًا».

عيناه السوداوان نظرتا إليها، ربما لم تتمكن بعينيها أن تمحو تلك العصبية عن ملامحه والعنف عن عينيه، لكنها بالتأكيد تستحوذ على انتباهه أينما مرت. اضطرب فكه وتعلقت عيناها بالجرح الممتد للحظات قبل أن تبتعد معدلة من وضع أنس بين ذراعيها، وفي لحظة خاطفة التفتت فضبطته ينظر إليها في ذهابها قبل أن يشيح بوجهه الغاضب بسرعة.

****

- أين أنتِ؟!

كانت صاعدة على درجات السلم حين سمعت السؤال الغاضب، وإن كان بصوتٍ خفيض أقرب إلى الهمس، لكن نبرة الغضب فيه جعلته مدويًا، حتى إنها انتفضت مجفلة. رفعت ترنيم وجهها تنظر بعينين واسعتين إلى «علي» في نزوله يفصل بينهما باب شقة عوالي المغلق، ملامحه لم تكن أكثر لينًا من صوته، بل كانت متوترة، أما عيناه فكانتا كفوهتَي حمم ثائرة، كان قد توقف للحظة واحدة ما إن أبصرها في صعودها، ثم اندفع نازلًا إليها كل درجتين معًا، مما جعلها ترتعد خوفًا وهي تراه في اندفاعه الغاضب تجاهها، فالتصقت بالجدار حتى وصل إليها فتوقف على الدرجة التي تعلو تلك التي تقف عليها، مما جعله يبدو كمارد مخيف.

ارتفع حاجباها مترقبة، وبخاصة مع نظرته المنفعلة المدققة فيها.

ثم لم يلبث أن همس من بين أسنانه: «سألتك سؤالًا!».

رمشت بعينيها مرة ثم نظرت حولها وأجابت بتردد: «على السلم!».

مال بذقنه مهددًا ثم سألها مجددًا مشددًا على كل حرف: «أين كنتِ؟».

أشارت بيدها هامسة: «عند الأولاد في الطابق الأرضي».

لم تكن مستعدة للصيحة واللكمة على الجدار بجوارها.

قال: «توقفي عن هذا».

اتسعت عيناها أكثر وشحب وجهها، أما هو فنظر تجاه باب شقة عوالي بعصبية مدركًا علو صوته من الصدى الذي تردد في تجويف السلم.

أعاد عينيه إليها وهمس محتدًا: «لم تصعدي إلى السطح منذ يومين، وعزيزة هي من تصعد بالطعام. لماذا؟».

تعمدت النظر إليه بدهشة وردت بحذر: «هذا ما كان عليه الحال دائمًا قبل دخولي هذا البيت».

وكأنها أشعلت وهجًا أهوج في عينيه لم يلبث أن انطفأ بلمح البصر، لتتحول النظرة فيهما إلى دوامتين تكاد كلٌّ منهما أن تبتلعها لتختفي فيهما إلى الأبد، ثم مال إليها مسندًا كفه على الجدار بجوار وجهها.

سأل بصوت حاولَ أن يكتم فيه الانفعال: «ألم يتغير شيء؟!».

اختلجت حدقتاها في ارتفاع وجهها إليه تكاد أن تلتصق بالجدار من خلفها وهمست: «هل تغير شيء؟!».

التوت ملامحه بتجهم وأجاب مشدِّدًا على كل حرف خرج من بين شفتيه: «تغير كل شيء».

غاص قلبها بين أضلاعها، فهزت وجهها غير قادرة على الرد، بينما تراجع عنها وسألها بصوتٍ خشن محاولًا التغلب على ضعف نفسه.

قال: «لا يمكننا استراق الكلمات على السلم بهذا الشكل. أين هو هاتفك؟».

رمشت بعينيها وهمست مسلوبة الإرادة: «توقفتُ عن شحنه بالرصيد بعد أن نفدت كل نقودي، فلا أحد لديَّ قد يتصل بي أو أتصل به، ولم يعد له أي استخدام عندي».

تصلب فكه وهو يرد قاطعًا: «الآن أصبح له استخدام، سأشحنه لأراسلك».

أرادت أن ترفض، لكن باب شقة عوالي انفتح فجأة وخرجت منه عزيزة على حين غفلة، ثم توقفت ما إن رأتهما.

سألت عزيزة بحذر وهي تنقل عينيها بينهما: «هل تأمر بشيء يا سيد «علي»؟».

أشاحت ترنيم بوجهها المحتقن بينما تراجع هو قائلًا بصوت تحول فجأة إلى النبرة الفظة الخالية من أي تعبير: «لا، شكرًا، كنت خارجًا لتوي».

ثم اندفع نازلًا ليخرج من باب البيت، بينما بقيت عزيزة واقفة ترمق ترنيم بنظرات غير مريحة.

لم تلبث أن مطت شفتيها معقبة: «عجبًا! حتى السيد «علي»؟!».

برقت عينا ترنيم وتلاعبت ابتسامة فوق شفتيها، واستدارت لتكمل صعودها إلى شقة عوالي، فلم يكن لديها الرغبة في تقبل مناوشات عزيزة، فلكيانها مناوشاته الخاصة.

****

- هل تحبين أنس أكثر لأنه ابن ناس؟

كانت منهمكة في تدليل الصغير تضحك له وتؤرجحه بين ذراعيها، حتى سمعت ذلك السؤال الغاضب، فالتفتت بسرعة ناظرة إلى صابر الذي كان يجلس بجوارها فوق الرصيف المحيط ببناية البيت عند أشجار الياسمين.

لم تلبث أن ضحكت سائلة باستنكار: «ماذا تقصد بأنه ابن ناس؟».

أشار إليها مجيبًا والغيرة تكاد أن تقفز من عينيه تتناقض مع طرافة ولطف حرف اللام الذي ينطقه ياءً: «أن شكله جميل ولونه أبيض كما يبدو أبناء الناس النظيفون».

ارتفع حاجبا ترنيم تأثرًا بما سمعت، وطال بها الصمت وهي تتأمله مدركة أنها لم تعطِ غيرته الانتباه الكافي.

قالت بخفوت: «جميعكم أبناء أناس، منهم من قدّر تلك النعمة لكنه رحل سريعًا عن عالمنا، ومنهم من لم يفعل، لم يرحل عن الحياة لكن رحل عن حياة أبنائه بمحض إرادته، كما أن النظافة لا تُقاس باللون مطلقًا، أنس ليس أفضل منكم في أي شيء، الفرق الوحيد أنه لم يختَر الشارع هربًا، إنما نظن أنه اختُطف عنوة من والديه، كان مريضًا ومصابًا ومرتعبًا، لهذا أوليته اهتمامًا أكبر فحسب».

ظلت ملامح صابر كئيبة متمردة، فسألته بلطف: «هل تعرف أن الغيرة تعني الحب؟ هل تحبني يا صابر؟».

لم تلِن ملامحه مع دعابتها، وأجاب بعد فترة دون أن يرفع عينيه عن الأرض الترابية: «لا أريد الابتعاد عنكِ، أخشى أن يبعدني السيد «علي» أو السيدة عوالي حين يجدان دارًا مناسبة، لا أريد الذهاب، أريد البقاء هنا معكِ».

اتسعت عينا ترنيم قليلًا وشعرت بقبضةٍ تطبق على قلبها تكاد أن تسحقه مع ذكرى كلمات عوالي التي رنت في أذنها على الفور، «الناس مراحل في حياة بعضهم، وأنتِ لستِ باقية هنا إلى ما لا نهاية».

كيف لم تحسب حسابًا لتعُلق الأولاد أو بعض منهم بها؟ ربما لأن أحدًا لم يتعلق بها في حياتها قبل دخولها هذا البيت! ترى كيف سيكون شعوره حين ترحل عنه دون إبداء أي أسباب كما رحل والداها؟ هل سيسأل نفسه كل ليلة إن كان قد ارتكب خطأً ولهذا رحلت؟ أم أنها لم تأبه به منذ البداية؟

ابتلعت ترنيم الغصة في حلقها وهي تحاول التبسم له بمرارة، ثم حررت ذراعًا من حول أنس لتحيط بها كتفَي صابر.

قالت بصوت خفيض حنون: «يمكننا أن نبقى على تواصل حتى وإن فرّقتنا الأماكن».

هز رأسه بقوة هاتفًا يتوسل وحرف اللام ينطقه ياء، لكن ما عاد يجلب الابتسامة، بل الرغبة في البكاء: «لا، لا أريد، أريد البقاء معكِ، أنا لا أرتكب أي خطأ كي لا يخرجوني من هنا، ولكي أبقى معك».

أغمضت ترنيم عينيها تحاول التغلب على هذا التأنيب الذي نهش روحها بمخالبه، ثم لم تلبث أن نظرت إليه مبتسمة تغالب دموعها.

قالت ممازحة: «ما دمتَ تحبني إلى هذا الحد لماذا توقفت عن مناداتي بلقب التدليل الذي يا ليتني ما أطلعتكم عليه؟ أنت الوحيد الذي تناديني باسمي».

أجاب عابسًا مشيرًا إلى الأولاد وهم يلعبون بالكرة: «يتعمدون السخرية مني أمامك كل مرة».

لمعت عيناها ببريق الحزم والوعيد، ثم لم تلبث أن نهضت واقفة تحمل أنس بين ذراعيها، ونادت بصرامة كي ينتبهوا إليها، وبالفعل توقفوا عن اللعب بنفاد صبر، إلا أنها لم تأبه.

قالت بصوت عالٍ جاد: «قانون جديد سيكون عليكم الالتزام به في هذا البيت، بدءًا من اليوم سيناديني الجميع باسم «ترا يم يم»، لا ترنيم ولا «ترالم لم»، ومن سيناديني بأي اسم آخر فسأتجاهله تمامًا وكأنه لم يتكلم، هل كلامي مفهوم؟».

نظروا إليها بغباء وكأنهم لا يفهمون سبب المقاطعة، فكررت بحدة: «وأنا أعني ما أقول».

ضربوا كفًا على كف استغرابًا من قوانينها التافهة التي تسنها فجأة وتقوم لتنادي بها بكل جدية، لكنهم آثروا الانصياع ليعودوا إلى اللعب، بينما عادت ترنيم إلى الجلوس على الرصيف حاملة أنس، بجوارها صابر ومنصور الذي كان مهتمًا برعاية الأشجار الصغيرة وكأنه وجد فيها ما هو أجمل من اللعب بالكرة، لكن فجأة انطلقت الكرة كالقذيفة بركلة من الشحات، فمرت من فوق رؤوس ترنيم والأولاد الثلاثة لتكسر نافذة كبيرة من نوافذ شقة عوالي!

شهقت ترنيم بصدمة وهي تنهض بسرعة لترى ما حدث، وساد صمت ثقيل حل على وجوه الأولاد المذنبين، ولم تمر سوى لحظة واحدة حتى ظهرت عزيزة من الزجاج المكسور.

هتفت بغضب متوعدة: «كسرتم النافذة أيها الوحوش! والله لن تمر هذه المرة مرور الكرام، انتظروا فقط حتى يعود السيد «علي»».

دخلت بعد أن ألقت بتهديدها فنظرت ترنيم إليهم بوجوم وقلق، وبادلوها النظر رافعين حواجبهم، وإن كان هناك توقيت يفوز بجائزة التوقيت الأسوأ فستكون اللحظة التي عاد فيها «علي» داخلًا بسيارته وهم لا يزالون واقفين، وكلٌّ منهم يلقي اللوم على الآخر.

كتمت ترنيم أنفاسها وهي ترى السيارة تتوقف بالقرب منهم، ثم خرج «علي» وبنظرة واحدة إلى ملامحه القاتمة علمت بأنه لمح النافذة المكسورة.

وقف «علي» صامتًا محدقًا إليهم واحدًا تلو الآخر، حتى استقرت عيناه أخيرًا على ترنيم، ارتبكت مشددة ذراعيها حول أنس حين طالتها نظرته

السوداء، فهي المرة الأولى التي يتواجهان فيها بعد حوارهما على السلم، وكان هذا منذ ثلاثة أيام لم تزر خلالها عرينه كما أمرها وكأنه يملكها.

تورد وجهها واضطربت نظراتها، فأخفضت عينيها أمام تحديقه المتوعد.

سمعته يسأل آمرًا: «من منكم كسر النافذة؟».

ساد الصمت بينهم ولم يجِب أحد، فتطلعت إليهم وآلمها خوفهم، مما أكد لها رغبتهم في البقاء في البيت ما داموا يخشون عواقب ارتكاب خطأ بسيط كهذا.

شعرت ترنيم بالغضب من نبرته الخفيضة المهدِّدة والقادرة على إثارة الرعب في قلوب مجموعة من المساكين الصغار، لم يكن من حقه أن يخيفهم إلى هذا الحد، ذلك المستأسد في مواجهة من هم أضعف منه.

لذا رفعت وجهها وردت: «أنا كسرتها».

نظروا إليها جميعًا بدهشة، أما هو فقد حدق إليها بلا تعبير سوى الحدة في نظرته، ثم انخفضت عيناه إلى أنس الذي تحمله منذ دخوله البيت.

ثم سألها: «كيف كسرتِها؟».

أجابته ببداهة: «كيف سأكسرها سوى بركلةِ كرة غير محسوبة؟!».

ضاقت عيناه وسألها ببطء: «ركلتِ الكرة وأنتِ تحملين طفلًا فكسرتِ نافذة؟!».

نظرت إليه بتحدٍّ وأجابت متعالية: «نعم، ومستعدة لتحمل العواقب».

طال الحوار الصامت بين أعينهما، لكنه لم يكن حوارًا هادئًا، بل كانا كاشئين على خط النار.

تكلم «علي» أخيرًا قائلًا: «الحقي بي».

ودون انتظار جواب منها استدار متجهًا إلى البيت بينما بقيت واقفة بعينين متسعتين وقلب خافق مدركة أنها قد ألقت الكرة في ملعبه للتو.

****

كيف لرجل أن يبدو خطيرًا في كل شيء حتى في وقوفه على سطح بيت قديم ممسكًا بكرة بين كفيه؟!

التفت إليها ببطء وهو يحرك الكرة بين كفيه بحركة بطيئة لا تكاد أن تكون ملحوظة.

قال بصوت خفيض لم يخدعها بسلامه: «أكره الكاذبين».

عقدت ذراعيها ونظرت إليه دون جواب لا تحيد بعينيها عن عينيه، ثم قالت بهدوء: «أرى أنك أخذت الكرة من عزيزة، فهل ستمزقها كالجار العدواني كاره الأطفال والموجود في كل شارع؟».

ضاقت عيناه وقال متجاهلًا سؤالها وكأنها لم تتكلم: «لكني أكره المراوغين أكثر».

اهتزت حدقتاها للحظة فتابع سائلًا: «هل تتلاعبين بي؟».

سرت قشعريرة باردة على طول عمودها الفقري كقطرة عرق فوق جسد بارد مدركة مقصده، لكنها تعمدت الإصرار على عدم الفهم.

قالت ببرود زائف: «لا أفهم قصدك، لقد اعترفتُ أنني كسرت النافذة وعلى استعداد لتقبل العقاب الذي تراه، فهل ستطردني؟».

دقق النظر فيها ثم سار ببطء وتمهَّل بجوار سور السطح محدقًا إلى الأرض والكرة تتحرك بين كفيه بشرود. عيناها تراقبانه بحذر وترقُّب وقد بدأت شجاعتها في التسلل بعيدًا.

لم يلبث أن وقف ونظر إليها قائلًا بهدوء: «أتدرين ما هو عقابك؟».

للحظات ظلت صامتة ثم همست تجيبه: «لست واحدة من الأولاد لترهبني، أستطيع الخروج من هنا متى شئت».

ظنت أنه ابتسم، لكن ملامحه باقية على صلابتها.

قال: «وهذا هو عقابك».

أعصابها على وشك الانهيار، فسألته بتوتر: «ماذا تقصد؟».

رفع ذقنه وأجابها قائلًا بثبات: «سأطردك من هنا، لكن لن يُنفَّذ قراري إلا إذا صدقتِ عليه بنفسك».

كلماته مرت على مخها فلم تستوعب منها شيئًا، فهزت رأسها بعصبية هامسة: «أي هراء هذا؟! لا أفهم ما تقول».

التوت شفتاه مجيبًا: «عقابك هو الاعتراف أمامي برفضه أو الموافقة عليه».

ألقى بالكرة من بين كفيه فوقعت أرضًا وراقبت ترنيم نطاتها على الأرض ببطء حتى اقتربت منها ووقفت ببطء.

ساد الصمت طويلًا حتى ارتعشت شفتاها وهي تقول بنبرة خشنة مختنقة وقد ظهر تعبير كاره في عينيها: «أنت تذلني وكنت أظن أننا...».

صمتت غير قادرة على متابعة كلماتها، فرفع حاجبيه وسألها ببطء واهتمام: «أننا ماذا؟».

ازدردت لعابها ولمست عنقها بأصابعها مشيحة بعينيها عن مرمى عينيه، ثم تابعت بخفوت: «أننا ربما نكون قد بدأنا صداقة».

الصمت الذي تلا كلماتها الواهية جعلها تفك ذراعيها وتشبك أصابعها بتوتر.

سمعته يرد بصوت خفيض يكتم انفعالًا أرعبها: «الأصدقاء لا يتسللون لرؤية بعضهم بعضًا خلسة».

فر الدم من وجنتيها وحثت نفسها على الفرار، لكن اقترابه منها ببطء جعلها تشعر وكأن ساقيها رخوتان عاجزتان عن حملها.

توقف أمامها ثم تابع: «الأصدقاء ليسوا مضطرين إلى السرقة من الزمن علّه يغفل عنهما أو يتغافل».

شعرت بالدوار وكأن السطح الذي يقفان فوقه قد تحول إلى أرض دوارة بسرعة أخفت من أمامها كل الصور ولم يبقَ سوى عينيه.

استجمعت كل قواها وردت بقساوة: «من الجيد إذن أنني أوقفت السرقة ما دام هذا هو رأيك، كان عليَّ الاقتناع أنك شخص انطوائي لن يفهم طبيعة العلاقات بين الناس وبعضهم».

قاطعها قائلًا بقوة: «نعم أنا شخص انطوائي لا يفهم إلا ما يريد فهمه، فهل ستصدقين على العقاب أم ستبقين؟».

رفعت إليه عينين زائغتين وهمست بضعف: «لا مكان لديَّ لأذهب إليه».

قاطعها مجددًا بحدة جعلت الأرض تميد من تحت قدميها: «سأوجد لكِ المكان والعمل إن كانت تلك حجتك، وكنت أظن أن جعبتكِ قد خلت من الحجج».

أغمضت ترنيم عينيها تشعر وكأنها مكشوفة أمامه بعد أن جردها من كلِّ دروعها، فاستدارت علّها تستطيع الفرار كمحارب جبان، إلا أنه كان أسرع منها.

دار حولها ليعترض طريقها آمرًا: «هذه المرة لن تهربي قبل أن تعطيني الجواب، هل سترحلين أم تبقين... معي؟».

نظرت عينيها إلى عينيه مصدومة من الكلمة الأخيرة وكأنه قد كشف لها كل أوراقه، لا، بل كشف خبايا قلبه الذي ضعف وأقر باستسلامه لها.

حلّق طائر تسمعه على الدوام فرفعت عيناها إليه في السماء للحظات حتى اختفى.

باختفائه همست: «سأبقى، معك».

****

- عانت أمي كثيرًا لتتمكن من الوصول بي إلى بر الأمان، ذُلتْ وشقَتْ ومدت يدها للقريب والغريب، تعبت بي حتى حصلت على شهادتي الجامعية، ثم مرضت على الفور فتعبتُ أنا بها حتى رحلت عن الحياة، وبعدها ما عاد لمستقبلي أهمية. حياتنا كانت سلسلة متلاحقة من الشقاء الذي لم يسفِر عن شيء في النهاية، فلا هي عاشت ولا أنا وجدت للأمانِ برًّا.

ضحكتْ لكن الدموع المحتجَزة فوق حدقتيها كذّبت الضحكة. تأمل عينيها الناظرتين إلى السماء وهي جالسة بجواره فوق البساط وساقاها تحتها، أما شعرها فتركته طليقا سارحًا فوق كتفها، شفتاها تتبسمان، وإنما تضغطهما بشدة لا تسمح لهما بالارتجاف، فإن سمحت لانفجرت باكية.

انحدرت نظراته على فكها ليرى زاويته تنقبض أكثر من مرة، فيا له من صراع عنيف الذي تمر به في تلك اللحظة قبل أن تلتفت إليه فالتقت نظراتهما.

أخذت ترنيم نفسًا عميقًا وهزت رأسها، ثم قالت: «كلما صعدتُ إلى هنا تستدرجني في الكلام، بينما أنت صامت لا تتكلم أبدًا».

ليت عينيه تتوقفان عن المرور فوق كل ذرة من وجهها، وبخاصة الذرات الذهبية المتناثرة فوق وجنتيها، أقمار المجرة كما سمَّاها، وكأنه طبيب يدرس حالة خاصة، أو فنان يقيِّم قطعته الثمينة الجديدة مبهورًا.

فتح فمه دون ابتسامة تخفِّف من صلابته أو يلين لها جرحه.

قال بصوت خفيض: «أريد سماعك فحسب، يمكنني الجلوس بجوارك أسمعكِ لأيام وليالٍ فلا أكتفي».

تحرك حلقها وهمست مخفِضة وجهها: «أنت تبالغ، أشعر بنفسي كئيبة مملة كما أنا دائمًا».

يتهامسان وكأنهما يخافان تبدد الجو المهيب من حولهما، اختلست النظر إليه بطرفِ عينيها.

قال ببطء كمن لم يعتد الكلام من قبل: «لم يسبق أن فتحتُ أبوابي لأحد وسمحت له بالدخول سواكِ، وحتى الآن لا أعرف السبب، أحيانًا أظن السبب جرأتك في اقتحام حياة الغير تاركة آثارًا لكِ في كل زواياها يصعب محوها، وأحيانًا أقول إنك تلامسين في النفْس أشد جروحها، وكأنكِ تدركين تمامًا مكانها، ثم أرجع وأقول ربما كان السبب مجرد صوتك، فلم يسبق لي أن سمعت صوتًا قادرًا على أن يحملني إلى الأفق ويعود بي في لمح البصر! وربما كانت ملامحك!».

اختنق صوتها وهي تهمس بصعوبة: «ملامحي؟ ماذا عنها؟!».

ها قد عادت عيناه للتحرُّك فوق ملامحها من جديد.

رد شاردًا فيها: «لم يسبق لي أن اعتبرت جمال الشكل شيئًا له أي أهمية حتى رأيتكِ!».

اتسعت عيناها وهمست: «لستُ جميلة أبدًا!».

وكأنها بعبارتها قد شدت انتباهه فعاد من تأمُّل ملامحها الشارد إلى عينيها.

سألها: «ألم يخبرك أحد من قبل عن مدى جمالك؟!».

كانت مشدوهة تسمعه كالمسحورة، تهز رأسها نفيًا ببطء.

لم تلبث أن قالت بعفوية: «أقصد نعم، كان هناك ذخيرة».

عقد حاجبيه بعدم فهم مكررًا: «ذخيرة!».

أرادت أن تقطع لسانها، فأي غباءٍ جعلها تنطق باسم ذاك القذر في تلك اللحظة بالذات؟

ومع صمتها تكلم مجددًا بنبرة بدت غريبة شديدة التوتر: «هل أستنتج من صمتك أن ذخيرة هذا عبارة عن رجل؟!».

زفرت نفَسًا مرتجفًا مبعِدة وجهها عنه، وردت بجفاء مصحِّحة: «ذكر».

على الرغم من أنها لم تكن ناظرة إليه، فإنها شعرت بتغيُّر الجو على الفور، فكأنما اشتعل التوتر بينهما حيث بدا غاضبًا بلا وجه حق، وهو ما زاد من غضبها وقد بدا هذا على ملامحها بوضوح مصمِّمة على الصمت.

لكنه لم يسمح فسألها بخشونة وأوتار صوته تتشابك: «هل كان هناك أحد بحياتك سابقًا؟».

تحولت عيناها إلى قطعتين من الجليد القاسي وهي تحدق إلى السماء ضاغطة شفتيها الجافتين.

هتف فجأة: «سألتك سؤالًا، ألم تسمعي؟».

انتفض رأسها لتحدق إليه بشراسة، وردت بعنف: «سمعتك وتجاهلت الرد عليه علَّك تدرك أنك لا تملك الحق في طرح سؤال كهذا، لكن أتعلم؟ سأجيبك رغم هذا. ذخيرة كان هجَّامًا على الشقق والبيوت، مجرمًا وله سوابق بعدد شعر رأسه، ولسوء حظي امتلكني في ذهنه المريض وأصر على التنفيذ عالِمًا بأن لا أحد لديَّ قادر على صده، سنوات وأنا أحاول النجاة بنفسي من نياته، حتى هجم على بيتي في ليلتي الأخيرة فيه، وحيث إنني معدَمة، يمكنك استبعاد هدف السطو كدافع، وتخيل الباقي».

كانت تهتف غاضبة تهاجمه بكلماتها كمخالب طير جارح، مما زاد من توتر ملامحه وانفعاله، وحين انتهت حاولت القيام بسرعة، لكنه مد ذراعه أمامها يمنعها.

قال بصوت أجش: «لا، لن تبتعدي الآن، لن أسمح لكِ».

نظرت إليه بنظرات نارية مهدِّدة، فأضاف مضطربًا: «أنا مخطئ».

كانت تلهث من فرط انفعالها، وكان يُفترض بها أن تدفع ذراعه بقوة وتخرج من هذا السطح اللعين، إلا أنها أرادت الصراخ في عينيه.

وعوضًا عن الصراخ قالت من بين أسنانها بمرارة: «حياتي لم تكن سهلة مطلقًا».

رد بقساوة: «أعرف، أعرف».

أبعدت وجهها عنه محاوِلة بجهد السيطرة على قطرتَي الدمع الحارتين في عينيها تمنع انحدارهما.

ساد الصمت بينهما لفترة، ثم قال أخيرًا: «أتذكر ليلة صراخك الهستيري بتهديدك لي على السلم، أتذكر كلماتك العنيفة وأنت تصرخين بمقاومتك لهجّام وشبح، فلن أعجزك أنا وأجعلك تخرين على ركبتيك رعبًا، الآن فقط عرفتُ ما كنتِ تشعرين به وقتها، وربما كانت صدمة متأخرة».

لم يتوقع أن يسمع صوت ضحكة ساخرة مريرة أقرب إلى الهمس خرجت من بين شفتيها.

ثم همست بنبرة ميتة: «حياتي كلها كانت عبارة عن صدمات متأخرة».

سألها بصوت غريب متشنج: «هل... هل نجحتِ في صده؟».

نظرت إليه بدهشة، لكن عينيه الغاضبتين أصرتا على السؤال، فزفرت مجيبة بحدة: «بما أني ما زلت على قيد الحياة فهذا يعني أنني نجحت، فإما النجاة بشرف وإما الموت به، لن أسمح بخيار ثالث».

ارتاحت ملامحه قليلًا رغم الغضب المرتسم على وجهه، وعاد الصمت بينهما من جديد، لكنها لم تكن قادرة على النظر إليه.

قال بخشونة: «أرأيتِ؟ هذا ما يحدث حين أتكلم».

أغمضت عينيها مطبِقة شفتيها الجافتين للحظات، ثم أجبرت نفسها على النظر إليه بوجه باهت.

قالت بجفاء: «هذا ما يحدث حين أكون أنا الموضوع الأول والأخير والوحيد، حينها لن تسمع سوى كل ما هو كئيب».

أجابها ببطء: «ما ذنبي إن كنتِ الموضوع الأول والأخير والوحيد فعلًا؟».

نظرته إليها كانت مختلفة عن سابق نظراته كلها، نظرة ليست كالدوامة قادرة على ابتلاعها، بل كدفء غطاء ثقيل التف من حولها وهي واقفة في مهب الريح. رمشت بعينيها قاطعة هذا التواصل المخيف ناظرة إلى صينية الطعام بينهما.

همست بقنوط: «لقد برد الطعام مجددًا. أكلما جئتك بالطعام تركته حتى يبرد؟!».

جوابه الخفيض زاد شعور الدفء من حولها: «ربما لأنني جائع منذ زمان لسماع من يشاركني، شاركيني الطعام المرة القادمة ولن يبرد أبدًا».

****

«يرن في صوتكَ صدى لكلماتي وفي عينيكَ أرى انعكاسي!».

الآن ما عادت قادرة على أن تفوِّت يومًا دون أن تختلس منه الدقائق لتشاركه حكاية أو وجبة أو تشاركه حتى الصمت. أحيانًا لا يملك سوى الرغبة في البقاء في صمت تام، رغبة لا إرادية منه على الرغم من ارتباطه بصوتها، لكن فترات صمته كانت وكأنها قانون مفروض عليه لا يقدر على كسره، فكانت تجلس بجواره فوق البساط يتطلعان إلى السماء دون كلام.

مرة من تلك المرات همس لها في قيامها: «لم أعرف من قبل من يجيد المشاركة مثلك».

كلماته تلك رافقتها أيامًا تلت دون أن تغيب عن ذهنها، في الحقيقة إنها كانت كمن يرقص على الحبل كي تتمكن من اختلاس تلك الدقائق لأجله، فكانت تأكل مع عوالي ثلاث لقمات وتدّعي الشبع لتدخر لقمتين تشاركه بهما. كانت تحرص على أن ينال أنس قيلولة في الوقت نفسه الذي تذهب فيه عزيزة إلى غرفة زوجها عوض، فتظن عوالي أنها نزلت إلى الأولاد، ويظن الأولاد أنها عند عوالي، بينما هي بالأعلى جالسة مع «علي».

حتى هو يختلس تلك الدقائق بصعوبة بالغة وكأنه ينتزعها عنوة من يومه فبعد وعكة عوالي وقرارها أن تترك له مسؤولية تجارتها كاملة، أصبح يقضي

معظم اليوم في الخارج، فترة النهار وفترة المساء، لكنه يحرص على العودة إلى البيت بينهما وقت المغيب.

ذات مرة نصحته عوالي أن يتناول طعامه بين الفترتين في محل عمله، وكانت تقف خلفها، فتلاقت أعينهما للحظةٍ قبل أن يجيب عوالي باقتضاب.

قال: «هذا الفاصل بمنزلة التقاطِ أنفاسي، لا أستطيع الاستغناء عنه».

شعرت لحظتها بالدماء تكاد أن تتفجر من وجنتيها، وبدت لها الكلمات شديدة الوضوح، مفهومة المعنى، حتى إن عوالي قد تستدير إليها في أي لحظة، فغاص قلبها، لكن لحسن الحظ لم تسمع عوالي في صوته ما سمعته هي، كما لم ترَ انعكاس صورتها في عينيه كما ترى نفسها كل يوم.

اليوم تأخرت عليه عالمة أنه أوشك على الخروج من البيت مجددًا، فقد طال انشغالها بأنس ثم حل مشكلة بين محروس وسعد، وفي النهاية طلبت منها عزيزة تنظيف المطبخ بما أن لديها وقت فراغ!

دفعت ترنيم باب السطح ودخلت بعد أن أنهت جميع مشاغلها، ثم توقفت محدقة إليه، جلوسه نفسه المعتاد، إلا أنه لم يكن مستندًا إلى الجدار من خلفه، بل كان مائلًا إلى الأمام محدقًا إلى الأرض، ملامحه متجهمة، أما عيناه فتغلب عليهما الوحدة، كما أن طعامه بجواره بارد لم يُمس.

اقتربت منه بحذر لا تكاد أن تمس الأرض بقدميها، حتى جلست على ركبتيها بجواره ببطء دون أن ترفع عينيها عنه، ومذاق الصدأ نفسه يمرُّر حلقها ككل مرة تراه فيها أشبه بطفل وحيد في انتظارها!

لم ينظر إليها بلهفة كما اعتادت منه، بل ظل متجهمًا.

قالت برقة: «أعرف أنك غاضب مني، لكن هذه المرة لم يكن الأمر بيدي».

لم يجبها كما لم يلتفت إليها، فسألته بوداعة: «ألن تسامحني؟».

هذه المرة تنازل بالنظر إليها، إلا أنها كانت نظرة جفاء غير مسامِحة.

ثم سأل بخشونة: «ترى من منهم أخَّرك؟ الصغير أم الأصغر أم الأكبر سنًّا؟».

عقدت حاجبيها محاوِلة استنتاج أيٍّ منهم يقصد، ثم لم تلبث أن وصل إليها شيء آخر تمامًا جعلها تتأمله متفحِّصة للحظات.

مالت بوجهها إليه وسألته بدهشة: «هل تغار من الأولاد؟!».

نظر إليها حانقًا، فاتسعت عيناها مما جعله يقول بعصبية: «ألا يكفيهم اليوم كاملًا، فتسرقين لهم مما تمنين عليَّ به من دقائق؟!».

تاهت عيناها في تأمله حتى غابت الابتسامة الممازحة عن شفتيها، وحل محلها تعبير شارد استمر واستمر، فهزت رأسها وابتسمت من جديد، تمد يدها إلى طبقه وبقطع الخضراوات الطازجة شكَّلت وجهًا مبتسمًا فوق رغيف الخبز.

نظر «علي» إلى الوجه في الطبق مقطبًا قبل أن يرفع عينيه إليها سائلًا بجفاء: «أبتشكيلِ وجه في الطبق تظنين أنكِ ساويتِ بيني وبين الأولاد؟».

تعمقت ابتسامتها وقالت بصوت خفيض: «أنت عندي مثلهم فعلًا».

فاجأها الاضطراب الذي ارتسم على ملامحه وأكسبه لمحة من عدم ثقة بالنفس، وكأنها تذكّره بالماضي.

عقَّب متوترًا: «لستُ واثقًا إن كان كلامك مدحًا أم إهانة».

طالت نظرتها إليه ثم أسبلت جفنيها تأخذ قطعة من الخضراوات بأصابعها وردت: «إن كنت عرفتني ولو قليلًا لعرفت الجواب».

نظرت إلى عينيه وتابعت بعد لحظة بخفوت: «أنت عندي مثلهم، في حاجة إلى الحنان والابتسامة».

توتر فكه وبدا جرحه أكثر بروزًا، فرفعت قطعة الخضراوات إلى شفتيها تمسها بهما برفق قبل أن تمدها إليه.

وهمست: «منذ سنواتٍ طويلة توقفت عن عدها، كنت كلما رفضتُ طعامًا، تُقبِّل أمي قطعة منه وتعطيها لي، والغريب أن مذاقه يتغير فعلًا فتشتهيه نفسي. ترى هل ورثتُ منها القبلة السحرية؟».

نظر «علي» إلى القطعة في يدها بعينين قاتمتين ثم التقطها ورفعها إلى فمه. الأعين لا تحيد عن بعضها بعضًا وكأن للسحرِ عدوى بينهما.

همس أخيرًا بصوت أجش: «أيًا كانت التعويذة التي ألقيتِها، فقد أفلحت».

****



الفصل السابع

«على ضفتَي النار وُجِدْنا، وما كان للأعين أن تتلاقى!».

في اللحظة التي فتحت فيها باب شقة عوالي تنوي الخروج، صدمها سماع صوته الهادر تضرب ذبذباته جدران السلم، ويتعالى طوفان أمواجه من السطح نزولًا لها مما سمَّرها مكانها للحظة، فخطت خارج الباب لتمسك بسور السلم رافعة رأسها إلى الأعلى، فوصلها صوته أعلى وأكثر غضبًا.

قال: «ماذا تقصدين بأنك لا تعرفين؟!».

ضاقت عيناها وهي تصعد درجة بعد درجة محاوِلة سماع المزيد الذي أفقده أعصابه إلى هذا الحد، فكان صراخه عبارة عن كلماتٍ متقطعة لم تستطع ربطها لفهم ما حدث. كانت في منتصف السلم إليه تسللًا، لا تزال ممسكة بالسور بحذر، فبدا صوت صراخه أكثر وضوحًا، وهذه المرة تمكنت من سماع كلامه مترابطًا.

كان يصرخ بجنون: «كيف هَربَتْ؟ كيف أغفلتِ عنها فتَمَكنتْ من الهرب؟!».

اتسعت عينا ترنيم بصدمة توقفت لها أنفاسها، كما أوشكت دقات قلبها على التوقف، فصعدت درجة أخرى علَّها تسمع أكثر، وبالفعل وصلتها كلماته واضحة كقصف مدينة مسالمة.

يقول: «كان عليكِ إغلاق ألف باب من حولها ولو اقتضى الأمر أن تقيديها».

انتفضت ترنيم تتراجع إلى الخلف متعثرة فوق درجتين، حتى ارتطم ظهرها بالجدار من خلفها رافعة كفها لتكتم به شهقة رعب، بينما يدها الأخرى تضغط صدرها الخافق.

سمعته مرة أخرى يهدر بقوة: «كيف تمكنتْ من الهرب بعد ثماني سنوات كاملة؟ يفترض أن تكون قد استسلمت وتقبلت وضعها!».

فغرت ترنيم فمها تزيد من ضغط صدرها بكفها خوفًا، تشعر وكأن الدماء قد فرت من جسدها إلى آخر قطرة، فالصوت الصارخ بالأعلى والكلمات لا يصدران إلا عن مجرم مجنون. استدارت بسرعة ثم جرت على درجات السلم عائدة إلى شقة عوالي، فدخلت وكأنها تحاول النجاة بحياتها، ففرت إلى الغرفة المجهَّزة لها وأغلقت بابها مستندة بظهرها إليه، تشعر بتقطع أنفاسها والخوف بداخلها لا يتوقف عن التزايد، حدقت بعينيها الواسعتين إلى الغرفة الدافئة التي ضمتها فترة طويلة بكل ركن منها، ثم لم تلبث أن استقامت بسرعة تنفض غبار الضعف عن حواسها، فلم يكن لديها الكثير من الوقت كي تتمكن من الفرار، وخلال دقائق معدودة كانت قد حشرت ملابسها القليلة وأغراضها في حقيبتها ثم خرجت مسرعة.

توقفت ترنيم للحظات تنظر إلى باب غرفة عوالي المغلق، ثم أسرعت مغلِقة قلبها فاتحة باب الفرار وخرجت منه، وقفت على الفور مكانها كالصنم محدقة إلى عينين سوداوين اصطدمتا بعينيها ما إن خطت خارج الشقة، صمت مخيف لفّهما وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر، ترنيم ترمقه محاوِلة ألا تظهِر له شيئًا من الرعب الشرس بداخلها، بينما انحدرت نظرات «علي» على طول ذراعها حتى استقرت فوق حقيبة ملابسها، وحينها فقط اضطربت ملامحه، وكأن عاصفة مرت بها فبعثرت جمودها. انعقد حاجباه وطال به النظر إلى الحقيبة.

سألها أخيرًا بصوت غريب خفيض: «ما هذا الذي تحملينه؟!».

أنفاسها باتت مسموعة الآن، وكأن صداها يطوف من حولهما كصوت صراخه منذ قليل، لكنها جمعت كل ذرة قوة وشجاعة متبقية لديها.

ردت بنبرة حاولت أن تبدو طبيعية: «بعض... بعض الملابس القديمة لـ...».

قاطعها بصوت كحدِّ السيف: «إنها الحقيبة التي دخلتِ بها هذا البيت أول مرة».

لم يكن كلامه سؤالًا، بل إقرارًا باترًا.

قالت متلعثمة تشعر بأوصالها ترتجف بشدة: «نعم، نعم استخدمت الحقيبة لكي...».

هذه المرة لم يقاطعها بالكلمات، بل فوجئت بقبضة كالحديد تسحب ذراع الحقيبة من فوق كتفها بقوة جعلتها تطير إليه، وكأن وزنها لا يزيد على وزن الريشة، حتى إنها اضطرت إلى التمسك بذراعه كي لا تقع على صدره، لكنه لم يسندها ولم يهتم بصرختها المحتجَّة، بل وأمام عينيها الذاهلتين أمسك الحقيبة بقبضة وبالقبضة الأخرى فتح سحابها دون وجه حق!

هتفت ترنيم غاضبة مذعورة تحاول أخذ الحقيبة منه: «هل جننت؟! لا يحق لك فعل هذا!».

لكن «علي» تجاهلها وكأنها غير موجودة، وأمسك بثوبها البارز فقبض على قماشه بشدة وأخرج طرفه من الحقيبة محدقًا إليها بعينين سوداوين كبئرين عمقهما لا نهاية له.

سألها بصوت مهدَّد غير مصدق: «هل كنتِ تنوين الرحيل؟!».

امتقع وجهها بشدة وشعرت بالدوار، لكنها تماسكت وشدت حقيبتها من بين يديه غاضبة تغلِق سحابها بعنفٍ، حتى خُلِع قفله وما عاد صالحًا فشتمت عاجزة. راقبتها عيناه في حركاتها الخرقاء حتى توقفت أخيرًا لاهثة وقبضتها تضم طرفَي الحقيبة.

ساد الصمت بينهما وهي مشيحة بوجهها الشاحب وعينيها الزائغتين عنه، بينما يحاول هو فهم المشهد المفاجئ أمامه.

سألها أخيرًا: «ما الذي حدث؟».

رمشت بعينيها وردت دون النظر إليه: «لم يحدث شيء، ما كان وجودي هنا إلا مؤقتًا، وقد حان أوان الرحيل».

سألها بصوت مضطرب في غضبه، مضطرب في حذره: «فجأة ودون علم أحد كالهاربين؟ أهكذا يكون رد الجميل؟».

بللت شفتيها الجافتين وردت بخوف بعد لحظات: «لا أقدر على كلمات الوداع، هكذا أفضل».

لم يرد عليها، فظنت ممتنة أنه سيخلي سبيلها أخيرًا، فحاولت تجاوزه والمرور لتنزل، إلا أنه اعترض طريقها مما جعلها تقف خائفة بعينين واسعتين، حاولت مرة واثنتين وثلاثًا، لكنه كان يتحرك بإصرار يسد عليها كل سبيل للفرار، حتى شعرت أنها على وشك الإغماء! إنها محتجَزة! بقاؤها هنا كان دون إرادتها ودون أن تدرك هذا إلا الآن! هذا الرجل قادر على ارتكاب جريمة إن اقتضى الأمر.

مسحتِ جبهتها الباردة بكفها وأمرت: «ابتعد عن طريقي رجاءً».

لكنه لم يمتثل لأمرها، بل ظل واقفًا أمامها كحائط صد، مما زاد شكوكها.

قالت بعصبية: «قررتُ التصديق على العقاب، أتذكر؟ كن عند كلمتك رجاءً».

تحركت عيناه من عينيها الخائفتين المصمِّمتين على الهرب من نظراته إلى شفتيها المرتعشتين، ثم التناقض الذي زاد بين لون مجرة الأقمار وبياض الفضاء حولها، كانت تبدو كظبي يريد الفرار من صياده منتظرًا اللحظة المناسبة ليختفي بسرعة البرق.

تكلم أخيرًا قائلًا بصوت خفيض صلب: «ماذا عن الصغير أنس الذي سيستيقظ باحثًا عنكِ؟ هل فكرتِ فيه؟».

ازدردت غصة مؤلمة في حلقها كما انقبضت أصابعها فوق الحقيبة بشدة.

تابع بلا رحمة: «ماذا عن صابر؟ لمَ أوهمتِه أنه مهم عندك ما دمتِ ناوية على الفرار دون كلمة وداعٍ واحدة؟ ومنصور الذي وجد من يكون بجواره في عجزه عن اللعب مع الباقين؟».

نظرت إليه ترنيم مصدومة مما سمعته، تلك الكلمات الخفيضة التي طعنت قلبها كالخناجر واحدًا تلو الآخر فأثارت عاصفة الدموع بعينيها، هل حقًا خرجت من بين شفتيه هو؟! إنها المرة الأولى التي ينطق فيها بأسمائهم، ويتحدث عن كل واحد منهم كإنسان يحزن ويفرح، لا مجرد طفل يحتاج إلى لقمة ومأوى!

انحدرت دموعها على وجنتيها، فتشوشت صورته أمام حدقتيها المبللتين.

انخفض صوته أكثر: «هل فكرتِ فيَّ؟».

تراجعت ترنيم إلى الخلف متعثرة، حتى اضطرت إلى التمسك بحافة الباب المفتوح كي لا تسقط ناظرة إلى عينيه بإعياء.

همست: «أنت؟ أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني!».

تقدم إليها حتى لم يعد هناك مجال لتهرب منه، وهمس بعنف: «كاذبة، يحفظ كلٌّ منا تفاصيل الآخر أكثر مما يحفظ حروف اسمه، كيف لكِ أن تديري لي ظهرك الآن وكأنني لم أكن لكِ شيئًا يُذكر؟ بينما كنتِ لي الحياة المسروقة من الزمن! فهل تتوقعين مني السماح لكِ بسلب هذه الحياة مني والوقوف مكتوف الذراعين؟».

أمام نظرة الوحشة في عينيه أسبلت عينيها المرتبكتين ووقعت بكتفها على سطح الباب، وكأن ساقيها ما عادتا قادرتين على حملها أكثر. تذكرت كلماته التي لا تفارق ذهنها من الأساس، «أنتِ كالمحتل، تطرقين بابًا ثم تمدين في الأرضِ جذورًا وتسنين لمالكيها قانونًا»، يبدو أن جذورها أكثر عمقًا مما قدرت، وأن رحيلها عن هذه الأرض بات رهن إشارةِ سيدها.

****

تمايلت في مقعدها تؤرجح أنس النائم بين أحضانها تغني له هامسة بذهن غائب، وعلى الرغم من أنه راح في سبات عميق منذ مدة، فإنها لم تحس بنومه، فكل ما شعرت به هو الحاجة إلى حضنه الدافئ، بينما كان عقلها في مكان آخر شديد البرودة والقسوة، حيث الخوف هو حاكمه.

- تعالي معي.

رفعت وجهها مجفلة ما إن سمعت الأمر الحازم الذي جاء من باب طابق الأولاد حيث تجلس، فرأته واقفًا أمامها بملامحه المثيرة للرهبة تمامًا كنظرات عينيه المحدقتين إليها على هذا النحو.

ازدردت ترنيم لعابها ونظرت إليه بدهشة ثم إلى ساعة الحائط متعجبة من رجوعه قبل موعده بساعات.

سألته: «ما الذي أتى بك في هذا الوقت من النهار؟!».

تدفق القلق في نفسها من صمته، فسألته مجددًا بخوف: «هل السيدة عوالي بخير؟ لقد تركتُها مع عزيزة بالأعلى وكانت بخير».

فتح فمه للحظة ثم عاد وأغلقه ناظرًا إلى الصغير النائم للحظاتٍ.

كرر مجددًا: «سأنتظرك في الخارج».

استدار وخرج تاركًا ترنيم خلفه في حالة من الفزع، مما جعلها تنهض مسرعة، تعدل وضع أنس بين ذراعيها وتحكم الغطاء من حوله قبل أن تخرج من باب الطابق الأرضي إلى فناء البيت، وهناك وجدت «علي» في انتظارها واقفًا بجوار السيارة.

هرولت إليه وسألته بصوتٍ متعثر: «أهي عوالي؟ سأصعد إليها حالًا».

أوشكت أن تستدير لتدخل البيت، إلا أن صوته أوقفها وهو يقول: «هاتي الطفل ريثما تجهزين له حقيبته، ستأتين معنا».

توقفت ترنيم عن الحركة محدقة إليه، وقد اشتدت أصابعها على جسد أنس الصغير تلقائيًّا، منذ أن جاء «علي» بأنس إلى هذا البيت اعتاد أن يأخذه في أوقات محددة إلى المشفى ليُفحَص بعد خروجه من المرض الأخير، لكنه كان يأخذ أنس بمفرده، لم ترافقه من قبل، كما لم يسبق أن طلب حقيبة ملابسه!

همست ترنيم بصوت مبحوح: «هل تواصَل أحد بخصوص الإعلان؟».

تأملت عيناه نظرة الضياع في عينيها، ثم أجاب: «اتصل بي واحد من المسؤولين عن الصفحة منذ قليل، لقد تعرف والدان على صورته ويريدان رؤيته على الفور، سنقابلهما في المشفى الذي استلمته منه».

تبسمت شفتاها، لكن نظرة الضياع لم تختفِ من عينيها، فرمشت بهما وحركت وجهها لا تعلم إن كانت تريد الضحك أم البكاء.

كل ما استطاعت قوله هو: «لكن ربما كانا مخطئين، لا يمكن التأكد من مجرد صورة، فهل من الضروري تحضير حقيبة ملابسه؟».

- في كل الأحوال لن يقضي ليلته معنا، والأيام القادمة أيضًا، لخضوعه لتحليل كما فهمت.

أومأت برأسها تنظر حولها بغير هدى، لا تزال ذراعاها متمسكتين بأنس، وكأنها لا تنوي تركه رغم موافقتها، حتى إنها لم تتحرك خطوة لتنفيذ ما أمر به، كما لم تغفل عيناه عن مراقبتها حتى مد كفيه لها في النهاية كي يأخذه منها، فنظرت ترنيم إلى يديه الداعيتين بقنوط قبل أن تتجه عيناها إلى ملامح أنس، زاويتا شفتيها تتحركان بالتناوب ما بين ارتفاع الابتسامة وانخفاض الحزن، ودون كلمة أعطته الطفل وسارعت تدير وجهها لتفر من عينيه المتفحصتين قبل أن تغلبها دموعها أمامه.

****

منذ اللحظة الأولى... منذ اللحظة الأولى التي أبصرت فيها رجلًا وزوجته واقفين في غرفة بالمشفى يمسك كلٌ منهما بيد الآخر، كلٌ منهما غير قادر على إيقاف رجفة الآخر، ولهفة أعينهما تسبقهما وصولًا إلى الباب الذي دخلت منه للتو حاملة أنس، أدركت أنه سيفارق حضنها فعلًا.

منذ اللحظة الأولى التي رأت فيها أن ملامحه مرتسمة في ملامح كلٍّ منهما، أدركت أنهما والداه.

منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها صوت تأوه النحيب المختنِق الذي خرج من بين شفتَي المرأة ما إن أبصرت عيناها عينَي أنس، أدركت أنها تعرفتْ عليه، فقد رأته في عينيها قبل أن تنطق.

منذ اللحظة الأولى التي اندفعت فيها المرأة دون مقدمات ودون كلمات لتأخذ أنس من بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها بقوة شاهقة ببكاء عنيف، أدركت ترنيم بما لا يدع مجالًا للشك أنه ابنها.

تراجعت ترنيم بخطوات بطيئة حتى وقفت بجوار «علي»، كتفها ملاصقة لمرفقه، فرمقها بطرف عينيه ولم يتحرك، وكأنه يخشى أن تقع إن لم يسندها.

بكاء الزوجين كان عاليًا مما جعل ترنيم ترتجف، ورجفتها انتقلت عبر مرفقها إلى جسد «علي» وهما يراقبان أنس الذي كاد أن ينصهر بين أحضانهما.

«حمزة»، كان اسمه حمزة، وقد آن الأوان ليحلق اسم أنس بعيدًا مودِّعًا تلك الأيام التي جمعته بهم بين جدران البيت. كلمات متداخلة كثيرة تزاحمت في الغرفة وشوَّشت عقلها الواهن، فما سمعت منها سوى تأكيد الأم أنه ابنها وأنها قادرة على تمييزه من بين ألف طفل ولو كبر ألف عام، لكن نظرًا إلى أنه أُخِذ منها وعمره لم يتجاوز العام، فكان إجراء التحليل ضرورة، لذا اضطرت إلى الموافقة لكنها كانت موافقة شكلية لم تنقِص من فرحتها شيئًا، فبالنسبة إليها لقد عاد ابنها إليها وقُضي رجاء الليالي الحالكة.

همست ترنيم بصوت كالحلم: «كنت أظن أن زمن المعجزات قد ولَّى حتى شهدنا على واحدة للتو!».

رد «علي»: «نعم، قُدِّرَ لنا أن نتشارك حتى هذا».

نظرت إليه من بين الدموع التي غطت حدقتيها فتأملتها عيناه، وكأنه لا يشبع من نقش كل نظرة ودمعة منها في نفسه، يسجل كل همسة وتنهيدة كلحن ليعيده في وحدته مرة بعد مرة.

قال بصوت أجش خفيض: «علينا الانصراف قبل أن ينتبه لكِ فيتشبث بكِ من جديد».

ثقلت عيناها، لكن شفتيها رفضتا التخلي عن الابتسامة مهما بلغ شعورها بالخسارة، فأومأت برأسها وألقت نظرة أخيرة على أنس، ثم استدارت بسرعة تنوي الفرار، لكن وقبل خروجها سمعت صوته يقول من بين الأصوات المتداخلة: «يم يم، يم يم».

التقت نظرات كلٍّ من «علي» وترنيم، فقد سمع نداء الصغير كما سمعته، وفغرت فمها ضاحكة باكية، ومع يدها التي غطت فمها المرتعش كانت المرة الأولى التي يسمح فيها للابتسامة أن تطوف فوق شفتيه.

لم تتمكن ترنيم من الرحيل إلا بعد نوم أنس بين أحضانها، ثم سلّمته برفق إلى أمه التي ابتسمت لها ابتسامة ممتنة تخبرها بأنها تقدّر ما فعلت وما قدّمت، وأيضًا ما تشعر به في تلك اللحظة دون الحاجة إلى أي كلمات، أما ترنيم فقد كانت في حاجة إلى أن توصيها.

همست: «يمكنك الاتصال بي في أي وقت إن افتقدني يومًا، فأنا أخشى أن يظنني قد خذلته برحيلي عنه».

****

جلوسها بجواره في سيارته وحدهما للمرة الأولى له وقع مهيب لم تنتبه له قبل هذه اللحظة! فبعد مغادرتهما للمشفى غرقت في افتقادها للصغير الذي لم تتخيل أن يكون شعورًا سريعًا ثقيلًا على هذا النحو.

لم ينطق أيٌّ منهما طوال الطريق الذي طال، وطال، حتى بدأت تنتبه، تستفيق، تصلبت في جلستها، أصابعها تجعد قماش ثوبها فوق ركبتيها، بينما عيناها تتحركان ما بين النافذة المجاورة لها وبين وجهه وعينيه الثابتتين على الطريق، نظرته مخيفة كخطوط وجهه، ومن ينظر إليه يستطيع بسهولة معرفة أن هذا الرجل الجالس بجوارها يمكن له أن يكون عديم الرحمة إن أراد.

تحرك حلقها محاولِة الكلام بصعوبة.

قالت بصوت خفيض مضطرب: «لا أظنه الطريق إلى البيت».

حاولت ألا تبدو خائفة أمامه، لكن النظرة التي رماها بها بلا مبالاة قبل أن يعود إلى النظر إلى الطريق وكلماته التالية أرعبتاها.

قال: «صدق ظنك».

كتمت أنفاسها الهوجاء وجاهدت كي تتغلب على صدمتها.

قالت بثبات زائف: «هلا عدنا إلى البيت رجاءً؟».

تمهل في الرد ثم سألها بجمود: «أخائفة مني؟».

نعم تخافه، كيف لا؟ كيف لها أن تخبره بأن للطفل الوحيد وجهًا آخر وصوتًا مختلفًا؟ أتراه يدرك أن الطفل بداخله يمكن له أن ينقلب شيطانًا بين ليلة وضحاها؟!

بللت شفتيها الجافتين وحاولت من جديد: «لست خائفة، لكن أريد العودة، ولا أظنك تجبرني على ما لا أريد».

تبسمت شفتاه إن كان هذا الالتواء الساخر يُعد ابتسامة.

قال هادئًا: «هذه المرة خذلك الظن».

اتسعت عيناها وازداد انقباض أصابعها على قماش ثوبها.

سألته بحذر مرتعشة: «ما الذي تنوي فعله؟».

رماها بنظرة أخرى وقال بجفاء: «لا تخافي إلى هذا الحد، فلا نية لديَّ سوى الكلام معك».

- ليس لديَّ ما أقوله.

- أما أنا فلديَّ.

أمام نبرته الجافة المهدِّدة التزمت الصمت ممتقعة الوجه محدقة أمامها بعينين واسعتين وحدقتين مهتزتين، لا تحاول التفكير فيما قد يحدث لها.

مرت الدقائق بطيئة رغم سرعة السيارة التي بدا وكأنها تنهب الأرض، حتى انعطف بها أخيرًا متوقفًا في مكان خالٍ على مد البصر، كلٌّ منهما جالس مكانه، محدق أمامه بلا كلمات، يداها على ركبتيها ويده على المقود والصمت الذي جمعهما لم يكن شبيهًا بذاك الذي شاركته فيه مرات عدة

بسكون هادئ فوق السطح، الصمت الآن له وقع ثقيل على النفس، يضطرب له النبض وتختل معه الأنفاس.

قال أخيرًا مبددًا تلك الفقاعة المحيطة بهما: «أتقرين بأنني تركتك الأيام السابقة ولم أحاول اختراق الحاجز المفاجئ الذي رفعتِه بيننا؟».

نعم تقر له بذلك، فمنذ المواجهة التي دارت بينهما لحظة ضبطه لها وهي على وشكِ الفرار، وعلى الرغم من رضوخها وبقائها متراجعة عن قرارها المتسرع، فإنه لم يحاول فتح الموضوع معها لأيام، ولا أي موضوع آخر، حتى إنها توقفت عن الصعود إلى السطح ولم يحاول فرض نفسه عليها بسؤالها عن السبب لأيام، لكن على ما يبدو أن صبره قد نفد، وها هو ذا يحتجزها لتقر بالاعتراف الذي يطلبه.

هزت ترنيم رأسها بالإيجاب دون كلام، فأومأ برأسه ثم علّق آمرًا: «جيد، وهذا هو أقصى ما استطعت منحك، والآن ستخبرينني بسبب تغيرك لأيام ورغبتك في الهرب».

في هذا المكان الخالي وهما معًا بمفردهما، إن صرخت فلن يسمعها أحد، نظرت حولها فلم تعثر على إنسان يمكنها الاستغاثة به، فأخفضت وجهها.

هتف فيها غاضبًا وقد فقد السيطرة على أعصابه: «ما الذي غيّرك فجأة؟».

قفزت في مقعدها ناظرة إليه بهلع وقد أفزعتها صيحته المفاجئة، حتى إنها وضعت يدها على مقبض الباب تلقائيًا تنوي الهرب، إلا أنه كان موصَدًا ولا يمكنها فتحه. تحركت عيناه إلى يدها على مقبض الباب ثم ارتفعتا إلى عينيها الشبيهتين بعينَي ظبي خائف، أما عيناه فكانتا غاضبتين وإنما فيهما من الخذلان ما جعل أصابعها تتراخى تدريجيًا عن مقبض الباب دون أن تحيد بنظرها عنه.

قالت أخيرًا بكلمات مبهمة: «حتى أنت تغيرت خلال الأيام الماضية، ما زلت الشخص الانطوائي المنعزل نفسه، لكن هناك شيئًا آخر أراه في عينيك ولا ذنب لي به».

توتر فكه وانقبض، لكنها لم تستطع تفسير النظرة في عينيه هذه المرة، ومرت لحظات دون ردٍّ منه.

حتى تنازل أخيرًا قائلًا: «أنتِ محقة، فلا ذنب لكِ فيما يثقِل نفسي، على العكس مني، فمن الواضح أنني أذنبتُ بشيء لا أعرفه فأصدرتِ حكمك بحقي».

أتراه سيخبرها عن الاتصال؟!

هزت ترنيم وجهها ببطء ثم همست تشبك أصابعها في حضنها: «ربما إن أخبرتني بما يثقل نفسك تكون قد أزلت واحدًا من الحواجز بيننا».

ها هو ذلك التوهج الغاضب في عينيه مجددًا، ظهر بلمح البصر قبل أن يذوي سريعًا فلا يتبقى له أي أثر.

قال: «ليس كل شيء يقال».

صوته الذي نطق بتلك الكلمات جعلها تهمس: «جرِّبني، فربما كنت الشخص المناسب والوحيد لذلك».

نظر إلى عينيها طويلًا بينما انقبضت أصابعه حول المقود بشدة ابيضت معها مفاصله.

قال أخيرًا بصوت خفيض خشن: «أضعت شيئًا».

شعور بالسقم اجتاحها وهي تردد بعده: «شيء! لا بد وأنه شيء بالغ الأهمية ما دمت ضعت بضياعه إلى هذا الحد!».

أرجع رأسه إلى الخلف مستندًا إلى ظهر مقعده، ثم قال من بين شفتيه: «ربما كان ضياعي لكونه في حوزتي منذ البداية».

- في هذه الحالة عليك أن تُسَر بضياعه.

التفت برأسه ناظرًا إليها وسأل: «هذا ما ظننته، لكن ما حدث أنه لم يغمض لي جفن منذ ضياعه».

أسبلت جفنيها وهمست: «كيف أساعدك وأنت تتكلم بالألغاز؟ ولماذا أتيت بي إلى هنا؟».

لم يجبها على الفور، ودون أن ترفع عينيها عرفت أنه لا يمل من تأمل ملامحها.

قال بجدية: «أتيت بكِ إلى هنا لأخبرك بشيء أظنه».

نظرت إليه بقنوط وهمست وكأنما تخاطب طفلًا: «أتيت بي إلى هنا خصيصى لمجرد أن تسمِعني واحدًا من ظنونك؟».

أومأ برأسه ببطء ثم انعقد حاجباه وبدا وكأنه يحاول البحث عن حل لمعضلة زادت ضياعه ضياعًا.

أخيرًا قال عابسًا: «أظن أنني أحبك».

هل يمكن سماع صوت شيء في النفْس تكسّر؟ لأن هذا هو بالضبط ما دوى في أذنيها ما إن اخترقت كلماته وعيها وتركتها محدقة إليه فاغرة فمها، أما هناك في عينيه فكان انعكاس صورتها واضحًا كوهج الشمس.

****

«الحب، ذلك الشعور المتسلّل كالمرض، لا تعرف له سببًا بعد أن كنت قد توخيت سبل الوقاية كافة. مُقدّر لا فرار منه، وإن فررت من الحبيب ذاته، سيلازمك المرض به لآخر بقاع الأرض، فأينما حططت الرحال سترى عينيه في مقلتي أول مارٍّ بك».

طالت فترة الغداء وتجمع الأولاد كما طال بقاء عوالي، غريب أنهم بدؤوا في لفت انتباه السيدة الصارمة الممسكة بالعصا، ومع ذلك لم تفقد شيئًا من هيبتها، فبتكرار نزولها لتشاركهم الطعام بدأ كلٌّ منهم في الشعور بضرورة أن يكون الأفضل في نظرها لكونها الشخص الأهم مكانة في هذا البيت.

كانت عوالي تسمع المتكلم منهم رافعة ذقنها، وبنظرة جادة تجعله يشعر بالأهمية فيسهب في كلامه، يومًا بعد يوم تتكرر زيارتها وتزيد قدرتهم على الكلام بطريقة مهذبة، في البداية كانوا مجبَرين عليها، أما الآن فلا سبيل للكلام معها إلا بالأدب.

نظرت ترنيم إلى ساعة الحائط وهي ترص أطباق طعام الغداء مع الأولاد، فاليوم أطالوا اللعب ودهان قِطع من أثاث طابقهم، ولم يشغلهم الأكل حتى بدأ الجوع يلح عليهم في موعد عودة «علي» نفسه.

رآته ترنيم بطرف عينيها في خروجه من السيارة ودخوله البيت، وكعادته يتجاهلها أمام الجميع في حين تكون له قِبلة النظر في وحدتهما.

أفاقت من شرودها على صوت وصول رسالة إلى هاتفها، عرفت صاحبها قبل قراءتها، فهو المرسل الوحيد لا غيره، أخرجت هاتفها من جيبها مستغلة كلام واحد من الأولاد مع عوالي وقرأت الرسالة.

«لماذا تأخرتِ؟ اصعدي حالًا».

يمكنها سماع صوته الآمر في الحروف المرئية بتسلط غاضب، بينما يخفي خلف تسلطه تشبثًا بها كطفل ضائع يبحث عن أمه. أدارت ظهرها وكتبت له الرد بسرعة، تختلس النظر بين الحرف والآخر إلى الأولاد وعوالي.

«لن يمكنني الصعود اليوم، فعوالي موجودة والأولاد لم يبدؤوا بتناول طعامهم بعد».

وصلت إليه رسالتها وفي المقابل لم تتلقَ أي رد منه، وتستطيع تخيل مقدار الغضب الذي اجتاحه.

شردت عينا ترنيم في عودتها إلى توزيع الأطباق، منذ اللحظة التي اعترف لها فيها بحبه، أو بظنه كما قال، تغير كل شيء بينهما.

وقتها لم تستطع الرد وظلت محدقة إليه طويلًا حتى قال مضطربًا: «يجدر بكِ قول أي شيء الآن».

لكنها لم تنطق، بل أخفضت وجهها والتزمت الصمت، فانطلق بالسيارة كالمجنون حتى ظنت أنهما لن يعودا إلى البيت أحياء، ظنت بعدها أن علاقتهما قد انتهت لا محالة، لكنها لم تنتهِ، بل تعقدت وزادت تعسفًا منه ومراوغة منها، تحول إلى شخص لا يُطاق، وبخاصة من بعد الاتصال الذي سمعته منذ فترة، فضياع هذا «الشيء» من بين يديه جعله هائمًا محاولًا البحث عنه في كل مكان بلا جدوى.

لم يكن الوقت الأمثل كي يعترف بحبه لها، وبكل تأكيد صمتها زاد الأمور سوءًا وضاعف من تخبطه.

وضعت عزيزة طعام عوالي أمامها، فسألتها عوالي: «هل صعدتِ بطعام «علي» يا عزيزة؟».

نظرت ترنيم إليهما على الفور، بينما أجابتها عزيزة: «صعدت بها لتوي».

غادرت عزيزة متجهة إلى غرفة زوجها عوض لتشاركه الطعام، بينما بدأ الأولاد في الأكل دون التوقف عن الكلام، ظلت ترنيم شاردة تتلاعب بالملعقة في طبقها بلا شهية حقيقية، حتى لفت انتباهها دخول شخص ما من باب الطابق المفتوح، صدمة رؤيته لم تكن بسبب نزوله فحسب، بل كانت بسبب الصينية بين يديه، التي تحتوي على طبقه المتواضع ورغيف الخبز ولم يُمس أي شيء منها بعد!

ساد الصمت فجأة ما إن لاحظ الجميع وجوده، حتى إن عوالي نظرت إليه متفاجئة ولم تقدر على الكلام، كان كعادته عابسًا، صلب الملامح بلا تعبير، لكن شيئًا في عينيه أشبه بالارتباك وعدم الثقة جعله أشبه بواحد من الأولاد في اليوم الأول له في البيت! ذلك الوجع الذي بات مرتبطًا باسمه قبض على قلبها، فراقبت عيناها عينيه المتطلعتين في المقاعد بحثًا، وعلى الرغم من أنه لم ينظر إليها وكأنها غير موجودة، وعلى الرغم من وفرة الأماكن حول المائدة، فإنه تقدم مقطِّب الجبين واحتل الكرسي المجاور لها ليجلس.

انعقد حاجبا عوالي بشدة وهي تنقل عينيها بينهما، بينما احتقن وجه ترنيم وشعرت بالرغبة في الهرب من نظراتها والخروج من المكان جريًا لو كان هذا قادرًا على محو تصرفه المتهور. يبدو أنه قرر إظهار تملكه للعلن معلنًا الحرب على مراوغتها الصامتة.

عاد الأولاد إلى الكلام بعد أن زالت دهشتهم بسبب وجود «علي» بينهم للمرة الأولى، بينما اكتفت عوالي بالصمت وإبعاد عينيها غير الراضيتين عنهما.

أبقت ترنيم وجهها منخفضًا شاعرة بكيانها ينتفض وهو جالس بجوارها، كطفلين مذنبين، واحد منهما يسيطر على الآخر والثاني لا يملك سوى الرضوخ. اختلست النظر إليه فتلاقت أعينهما وطال النظر متناسين الجميع من حولهما، شعرا في تلك اللحظة وكأنهما وحيدان في عالم يعج بالبشر، لا يسمع الواحد منهما سوى أنفاس الآخر ولا يرى إلا عينيه، «لم يكن ينبغي لكل هذا أن يحدث»، ولم تدرك أنها همست بالعبارة على شفتيها، فالتقطت أذناه همسها الضعيف اليائس.

أجابها بخفوت: «لكنه حدث، رغمًا عنّا حدث، وما علينا سوى لوم أنفسنا».

أومأت برأسها ببطء وأغمضت عينيها هامسة: «ما كان لأعيننا أن تتلاقى».

****

تلك الليلة أعطت ترنيم الدواء لعوالي وساعدتها لتستلقي فوق وسادتها.

وقالت بخفوت متمنية الهرب بسرعة تكاد أن تجري إلى الباب حيث الخلاص: «تصبحين على خير».

أوشكت على الخروج وكان الخلاص وشيكًا، حتى أوقفها صوت عوالي: «ماذا تريدين من «علي»؟».

تسمرت مكانها دون حركة للحظات قبل أن تتمكن من الاستدارة ومواجهة عينَي عوالي الصارمتين.

لم تلبث أن أجابت بخفوت: «يحبني».

اتسعت عينا عوالي وكأنها لم تكن مستعدة للجواب المباشر، لكنها تمكنت من التحكم في انفعالاتها سريعًا، وبقدرة مثيرة للإعجاب.

سألتها بجفاء: «ماذا عنكِ؟ هل تحبينه؟».

هل أحبَّته؟! سؤال لم تجرؤ على طرحه على نفسها، سؤال لا تريد طرحه خوفًا من الجواب.

ردت: «لم أعطِه جوابًا، لأنني لا أملك واحدًا بعد».

ظلل السواد عينَي عوالي بسماعها لرد ترنيم، وحين أوشكت الفتاة على المغادرة قالت عوالي بصوت هادئ: «ابتعدي عن «علي» يا ترنيم، لا هو لكِ ولا أنتِ له، «علي» سيؤلمك».

حادت عينا ترنيم الفاترتان عن عوالي للحظات، ثم قالت أخيرًا بثبات: «أعرف جيدًا أن «علي» هو أهم شخص لكِ يا سيدة عوالي، «علي» دائمًا وأبدًا قبل أي أحد وفوق أي اعتبار، وربما ما كان عليه أن يكون، فرغم انعزاله فإنه كبر على مبدأ أنه لا يخطئ، يُحَاكِم ولا يُحَاكَم، لذا كان من الأسهل تحذيري أنا عوضًا عن منعه هو من إيلام غيره، لكن فات أوان هذا الكلام، وعلى كلٍّ انصحيه بالتخلي عن حبه لي، وإن عمل بنصيحتك فأعدك ألا يكون لي سوى التنحي».

****

«كيف أنجو بنفسي من بين شقَّي الرحى؟ فلا أنا قادر على التحرر ولا أُسْحَق للنهاية فينتهي الألم»!

في يوم من الأيام همست له: «ألن تغير رأيك يومًا فتنزل لتشاركنا الطعام؟». بدا وكأنه قد مضى على همستها له أعوام طويلة لم تيأس خلالها من تلبيته لدعوتها، وحين لبَّاها أدركت أنها ما كانت واثقة قط.

عقدت ترنيم ذراعيها تستند بكتفها إلى إطار باب البيت تتأمله في جلوسه في الفناء على الرصيف محدقًا إلى الأرض، والصراع في عينيه له صوت يسمعه قلبها، يبدو حاله قد ساء كثيرًا خلال الأيام الماضية، ومن شدة سوئه بدا وكأنه ما عاد يحتمل الوحدة أكثر، حتى إنه ومنذ أن شاركهم الطعام أول مرة لم يتوقف عن النزول كلما وجِد في البيت لمراقبة الأولاد من كثب بملامحه الجامدة وعينيه الضائعتين، لم يتوقف عن البحث منذ تلقيه للاتصال الذي سمعتْه، وبالطبع لم يسفر بحثه عن شيء كما ترى على وجهه وفي عينيه.

تحركت ترنيم من مكانها واقتربت منه بخطوات متمهلة دون أن ترفع عينيها عنه، حتى وصلت إليه فانحنت وجلست بجواره كما كانت تفعل بالأعلى،

لم تتكلم، بل شاركته الصمت كما اعتادت في أوقاته التي تضطرب خلالها نفسه وتتصارع معه. رفع «علي» عينيه إليها ما إن جلست بجواره، وهالتها النظرة الظاهرة فيهما، فإن كان هناك ما هو أقسى من الصراع فستكون تلك النظرة في عينيه. لم يتكلم أيٌّ منهما للحظات، بل اكتفيا بالنظر إلى بعضهما بعضًا، صوت ضحك واحد من الأولاد جعله يسلخ عينيه عن عينيها ليتأمله بشرود دون أن يبتسم، أما ترنيم فابتسمت لصوت الضحكة المقهقهة الصاخبة.

تكلم «علي» قائلًا بصوت خفيض: «كيف يحرر الرجل نفسه من بين شقّي الرحى؟».

نظرت إليه على الفور ثم همست: «هل هذا ما تشعر به؟».

انحنى حاجباه تعبًا غلب على الصراع في عينيه، وأجابها مختنقًا: «لا أقدر على التحرر، ولا أُسْحَق للنهاية فينتهي الألم».

انعقد حاجباها بألم من هول الصورة التي رسمها، فانعقد لسانها بينما تابع يميل بوجهه محدقًا إلى الأولاد.

قال: «ثقل أكبر مما أستطيع حمله، ولا أقدر على رميه، لم أختره بل فُرِضَ عليَّ فرضًا، فلماذا لا أجد الراحة بضياعه؟».

تحرك حلقها بصعوبة وهمست بصوت مختنق: «الشيء الذي أضعته مجددًا؟».

نظر إليها طويلًا ثم سألها: «شهدنا معجزة معًا، أتظنينها تتكرر؟».

أخذت نفسًا عميقًا ثم رفعت كتفها هامسة: «لمَ لا؟».

ساد الصمت بينهما لفترة ثم بدا وكأنه اتخذ قراره، فتراجع في جلسته وأخرج هاتفه من جيبه.

قال بصوت استعاد صلابته وخلوه من أي مشاعر إنسانية: «أريد نشر إعلان كالذي نشرناه لأنس».

نظرت إليه متفاجئة وسألته بحذر: «هل عثرت على طفل آخر؟».

توترت ملامحه وسادها الغضب وهو يقول: «بل أضعت أحدًا».

ارتفع حاجباها ببطء وازدردت لعابها منتظرة أن يفضي لها أخيرًا.

تابع: «أريد نشر إعلان عن فتاة مفقودة، لكن ليس في الصفحة نفسها، لا أريد أن يتواصل معي أحد إلا من يراها فقط».

فتح ملف الصور في هاتفه ثم ناوله لها، ارتجفت أصابع ترنيم وهي تمسك بالهاتف لتنظر إلى صورة فتاة أكبر بقليل من مراهِقة، شاحبة الوجه، وفي عينيها خوف لا يمكن إنكاره رغم بلادة تعابير وجهها! رق قلب ترنيم لها وعُصِرَ ألمًا، حتى إن شفتيها تأوهتا بصمت لمدى هشاشتها البادية في الصورة والقسوة التي ربما تكون قد تعرضت لها.

حاولت الكلام شاعرة بالدوار ثم تمكنت من سؤاله أخيرًا: «من هذه؟ ماذا تكون بالنسبة إليك؟».

لم يرد عليها، فنظرت إليه ووجدت القناع الحجري قد ارتفع إلى وجهه فعزل مشاعره عنها.

ردت على نفسها بنفسها بنبرة مشتدة: «الآن عرفت لماذا لا تريد نشر الإعلان في صفحة المفقودين، كي لا تضطر إلى إخبار المسؤولين عن الصفحة عن طبيعة علاقتك بهذه الفتاة، لكن ماذا عني؟! تعطيني صورة لفتاة شابة مفقودة ولا تمنحني التفسير، ويُفترض بي أن أقبل! لا أستطيع المشاركة في إعادتها إليك قبل أن أعرف صلتك بها».

نظر إليها نظرة سوداء ثم أشاح بوجهه واستعاد هاتفه منها ينتزعه بقسوة.

كررت بغضب: «ألن تخبرني؟ لماذا لا تتكلم؟ لماذا تطلب مني المساعدة في البحث عنها إذن إن كنت لا تثق بي؟».

ظل صامتًا وكأنه سرطان سارع بالاختباء في رمال رطبة رغم قساوة قشرته، فتنهدت ناظرة إلى الأولاد في لعبهم.

سألته أخيرًا باقتضاب يائس: «هل لديها اسم على الأقل؟».

- أمنية.

- أمنية فقط؟ أليس لها اسم والد أو عائلة؟

أغمض عينيه وتحولت شفتاه إلى خط رفيع صلب، فأدركت أنها قد مسَّت وترًا لم يكن ينبغي لها أن تعزف عليه، فنغمته شاذة ولحنه مميت.

تنهدت ترنيم وقالت مستسلمة: «سأتولى أنا الإعلان، سأجدها وستكون آمنة وبخير».

أظلمت عيناه بشدة ورد يائسًا: «فتاة مثلها كيف لها أن تنجو وحدها؟».

- كما نجوتُ أنا، لقد واجهتُ هجَّامًا وهزمته، هل تذكر؟

نظر إلى عينيها بصمت فبادلته النظر، ولم تدرِ أن يدها كانت تضغط قلبها بشدة.

ازداد ضغطها حين رد قائلًا: «هزيمتك له كانت فوزًا لي بظهورك على بابي، لولا انتصارك عليه لما رأيتكِ ولا عرفتكِ، ولا أحببتكِ».

غامت عيناها شاعرة بالضربات تتدافع تحت راحة يدها حين انخفض صوته في الكلمة الأخيرة، وكأنها التخدير الذي يحتاج إليه.

سألها بصوت أجش: «ألم يئن الأوان لأحصل على الجواب الذي أتمناه؟».

مالت بوجهها تهزه وكأنما تسأله العون مع العذاب الذي بدا في عينيها.

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال بخشونة: «سأنتظر، لقد انتظرتك طويلًا حتى أتيتِ، ولن أملَّ من انتظار سماعها».

هذه المرة لم تكن عيناه تتجولان على وجهها، بل كانت عيناها تتشربان كل لمحة منه، صراع عينيه وجرحه العميق، وتلك الطفولة المريرة المختبئة في أعمق زوايا نفسه.

قطرة سقطت على وجهها فظننتها دمعة من عينها لفرط الألم الذي تشعر به، لكن قطرة ثانية وثالثة ورابعة جعلتها ترفع وجهها إلى السماء الرمادية القاتمة.

لم تلبث أن همست مبتسمة ما إن تبلل وجهها: «إنها تمطر!».

رفع وجهه إلى السماء مثلها وسرعان ما تزايدت حبات المطر وتسارع نزولها.

نهضت على الفور قائلة: «لأدخِل الأولاد كي لا يتبللوا ويصابوا بالبرد».

لكن كل محاولاتها في إدخالهم إلى طابقهم باءت بالفشل، فما إن انهمرت الأمطار بغزارة كالشلال فوق رؤوسهم وتحول تراب الفناء إلى أرض موحلة، حتى بدا وكأنهم قد وجدوا ضالتهم، فتمرغوا في الطين ضاحكين يحملون منه بكفوفهم ويغطون وجوههم.

هتفت ترنيم مصدومة كي يتوقفوا مرتجفة وقد تبللت ملابسها حتى النخاع، وبينما هي تلوِّح لهم كي يدخلوا تزحلقت في الطين الطري فسقطت بالكامل في الأرض الموحلة. نظرت إلى نفسها فاردة ذراعيها ثم لم تلبث أن انفجرت ضاحكة وبخاصة مع ضحك الأولاد على منظرها، كانت عاصفة من الضحك، وكان يراقبها من بعيد في جلوسه على الرصيف الغارق ولم يدرك أن شفتيه قد تبسمتا بينما لمعت عيناه في تأملها، نهض من مكانه ببطء دون أن تحيد عيناه عنها، واقترب منها تحت الأمطار العنيفة بخطوات بطيئة غير عابئ بتبلله أيضًا، ثم مد لها كفيه كي يوقفها على قدميها، نظرت إلى كفيه بعينين مهتزتين، ثم مدت كفيها إليهما وسرعان ما شعرت بنفسها ترتفع دون جهد حتى وقفت على قدميها أمامه، حاولت سحب يديها من يديه إلا أن قبضتيه شدتا عليهما، فأبقتاهما أسيرتين مما اضطرها إلى الوقوف أمامه ساكنة وكلٌّ منهما ينظر إلى عينَي الآخر. الأمطار تنهمر من فوقهما بشدة تغسلهما بالكامل باستثناء الكفوف التي غطاها الوحل.

ضربت عزيزة على صدرها بضربات رتيبة وهي تقف عند النافذة تراقب ما يحدث في الفناء.

وقالت: «ألم أحذرك يا سيدة عوالي؟ لقد خطفت السيد «علي» وقُضي الأمر».

قالت عوالي من خلفها بنبرة يابسة لا تنم عن شيء: «تعالي وخذي بيدي يا عزيزة».

استدارت عزيزة على الفور وذهبت إليها لتمسك بكفها تساعدها حتى وصلت بها إلى النافذة، ومنها نظرت عوالي إلى الشابين الواقفين تحت الأمطار الغزيرة

ممسكين بأيدي بعضهما بعضًا، لا يشعران بشيء من حولهما إلا وجودهما معًا، يمسك كلٌّ منهما بالآخر وكأنه عثر للتو على نصف روحه الضائعة.

همست عوالي بصوت كئيب تومئ برأسها: «نعم، لقد خطفت «علي» وقُضي الأمر».

لم يتوقف انهمار المطر، كما لم يتوقف لعب الأولاد وجريهم متمرغين في الوحل صارخين بأصوات ضاحكة عالية، أما ضحكها فلم يكن عاديًا مثلهم، فقد كان ضحكًا هستيريًا مجنونًا، وهي تركل الطين بقدميها الحافيتين وقد تلونت بلون الطين، استدارت حول نفسها فاتحة ذراعيها للأمطار، وفي استدارتها رأت «علي» الذي كان يحمل صابر فوق كتفيه والأولاد يتدافعون من حوله، فتوقفت هي لاهثة، كان يضحك بصوت عالٍ اختلط مع أصوات الأولاد، ضحكة غريبة من أعماقه وكأنه لم يعرف مثلها من قبل! لم تكن ضحكة سعادة، فكلاهما أبعد ما يكونان عن السعادة، لكن ضحكهما كان يُعد نفسًا يحاول التقاطه محتضِرًا، حتى هذا تشاركاه معًا.

عرفت ترنيم أن تلك اللحظة لن تُمحى من ذاكرتها مهما حملت لها الحياة ومهما كان مصيرهما.

****

تحركت بجسدها كله بسرعة تفوق اللازم وهي تتابع دهن الجدار في طابق الأولاد بذلك اللون المتوهج الذي اختارته بنفسها، يوم أتت بعلب الدهان رافقها «علي» وظل بجوارها وهي تتفقد الألوان حتى اختارت هذا اللون الأقرب إلى لون الخوخ مدعية الاهتمام الكامل باختيار الدهان، بينما كانت حواسها بالكامل منشغلة بالواقف بجوارها واضعًا يديه في جيبَي بنطاله لا يحاول التظاهر بالاهتمام بالألوان مثلها، بل ترك لعينيه حرية النظر إليها طوال الوقت، وكأنها ألوان الطيف مجتمعة، وأي لون ستختاره ستضيف إليه من روحها فيتوهج ليشبهها تاركًا أثرًا لها فوق الجدار.

وحين اختارت اللون علَّقت قائلة بنبرة حازمة: «شكرًا على عدم مشاركتك في الاختيار، كنت نِعم العون».

كانت تحاول جاهدة التخلص من تأثير مراقبته الصامتة لها، فقالت أول ما خطر ببالها.

لم تتوقع رده حين أجابها شاردًا بجدية: «اخترتِ لون وجنتيك وما كنت لأختار أجمل منه».

أطبقت بيدها على أسطوانة الدهان تلهث أكثر وهي تزيد من سرعة عملها محاوِلة أن تخرجه من تفكيرها، لكن من تخدع ومن تُخرِج من تفكيرها إن كان قميصه يضم جسدها الهش بقماشه القوي كصاحبه! فحين رآها على وشك البدء بالعمل بملابسها وهي لا تملك الكثير، صعد إلى غرفته ثم جاءها بقميص يأمرها أن ترتديه، اعترضت على الفور رافضة بصيحة استنكار.

رد بخشونة قاطعًا: «رفضتِ أن أبتاع لكِ ثوبًا أو اثنين، لذا سترتدين القميص خلال العمل كي لا تفسِدي واحدة من قطع ملابسك التي تُعد على الأصابع».

كلامه أحرجها وأشعرها بالدونية، حتى إن لسانها انعقد، فأخذت منه القميص واستدارت مبتعدة، وما كان عليها أن تفعل هذا مطلقًا، فقميصه يلفها وكأن صاحبه هو من يضمها قسرًا إليه، تكاد أن تشم رائحة عطره تريد التسلل إلى رئتيها لتفقدها الوعي.

زادت من سرعة عملها حتى تحولت أنفاسها إلى صيحات عصبية غاضبة.

سمعت صوتًا من خلفها يقول: «يُفترض بهذا العمل أن يهدئ أعصابك لا أن يفقدكِ إياها كما أرى!».

انتفضت ترنيم تستدير على عقبيها بسرعة ما إن سمعت صوته، فرأته واقفًا عند إطار باب الطابق المفتوح، كظل أسود والشمس من خلفه، يبدو ضخمًا مخيفًا كما كانت تراه واقفًا عند باب السطح دائمًا.

رمشت بعينيها الوجلتين غير قادرة على الرد، فتحرك داخلًا المكان، مما جعلها تتوتر، لكنه لم يفعل أكثر من الوقوف بجوارها لتأمل الجدار الذي لونت معظمه باللون الدافئ، بينما دهن الأولاد الأثاث الخشبي بألوان عديدة أشبه بألوان المغيب.

كانت تنقل عينيها منه إلى الباب بقلق ثم تعاود النظر إليه مترقبة، شارد النظرة جاد الملامح، وكأنه يتأمل لوحة فنية لا مجرد جدار مصمت طُلي للتو.

نظرت ترنيم إلى الجدار بحذر محاوِلة فهم سر اهتمامه وشروده العميق لكنها فشلت.

قال بصوت خفيض بعيد: «كيف تجعلين كل مكان تمرين به يشبهك؟ وكأنكِ تمسكين بفرشاة تتبع خطواتك بلون لن يمحوه الزمن ولو طال».

تعلقت عيناها بشفتيه وهو ينطق بكل كلمة، وكأن السمع وحده لم يكفِها، بل أرادت رؤية الكلمات إن كان للكلمات صورة! هزت رأسها بقوة محاوِلة التخلص من ذلك السحر الملعون.

سألته بصوت بدا خشنًا أكثر مما قصدت: «ما رأيك في اللون فوق الجدار؟».

أبحر بعينيه عن الجدار ليرسو بهما فوق مرفأ وجنتيها حيث أطال النظر، فتلونت قِبْلَته بوهج لم تستطع التحكم به وبخاصة مع دوي قلبها المجنون، ولم تحاول حثه على قطع الصمت مجددًا.

لكنه رد أخيرًا: «ينقصه شيء».

نظرت إلى الجدار بحَيرة، فما الذي يمكن أن ينقص جدار لم يكتمل تلوينه بعد! انتظرت منه أن يتابع إلا أنه لم يفعل بالكلمات، بل نظر خلفه ثم انحنى ليمسك بفرشاة دهان سميكة مس بها الدهان الأغمق لونًا، ثم استقام وبحركة واحدة من راحة يده أرجع شعر الفرشاة إلى الخلف ثم تركه بسرعة ليتناثر اللون على الجدار كرذاذ مزدحم!

هتفت ترنيم بحدة: «ماذا فعلت؟! لقد أفسدتَ كل ما أنجزتُه!».

تبسمت شفتاه فنظرت إليه غير مصدقة حتى قال: «أحب هذا التناثر وكأنها مجرة من كواكب وأقمار».

خلال كلامه كان يتأمل وجنتيها بشغف، فهمست متوردة مصدومة: «ما أغباك!».

ضحك! حقًا ضحك لها، وهي المرة الثانية التي تسمع له صوت ضحكة تفديها كل الجدران وأطنان من الطلاء وسنون عمل بصدر رحب، فابتسمت بعجز لضحكته.

انعقد حاجباها بشدةٍ وأبعدت وجهها عنه لكنه لم يرحمها، إذ قال يخاطبها: «قميصي من حولك واللون الشبيه بلون وجنتيك يتساقط عليه يجعلك شهية كأجمل ما قد يرتشفه المرء مع بداية الصباح».

غمغمت بشيء غير مفهوم وهي ترفع يدها المرتجفة إلى جبهتها، ثم أغمضت عينيها للحظات تحاول السيطرة على اختلال تنفسها قبل أن تلتفت إليه تريد أن تنتهاه عما يقول، لكن بالنظر إليه مجددًا عجزت عن النطق وهي تتأمل عينيه الحمراوين من طول السهر والبحث أو التفكير، حتى لحيته طالت أكثر وكاد جرحه أن يختفي في كثافتها، كم اختلف عن أول مرة رأته! كان متماسكًا صلبًا كالحجر، أما الآن فالضياع يحيط به، وكلما نظرت إليه تشعر وكأنه هائم على وجهه لا يرتاح سوى دقائق على شاطئها، وما إن يتركها حتى يعود إلى دوامته من جديد.

ابتلعت ترنيم الغصة وسألته بصوت خفيض: «كم عمرها؟».

توترت نظراته على الفور قبل أن تشرد بعيدًا عائدة به إلى ضغط البحث والتفكير في الأسوأ.

سألها بصوت فاتر: «من هي؟».

تعرف أنه يعرف الجواب لكنها ومع ذلك أجابته تشيح بوجهها عنه: «أمنية».

ساد الصمت من خلفها للحظات، ثم سمعت صوته الأجوف: «عشرون».

- إنها شابة، فكيف كانت طفولتها؟

- سيئة.

أطرقت ترنيم بوجهها الحزين وهمست: «أنا أيضًا».

التفت إليها وكرر بنبرة ميتة لا حياة فيها: «وأنا أيضًا».

نظرت بعينين تسبحان في دموع، إذ ما عادت العينان قادرتين على تجفيف منبعها، تتأملان الجرح المحفور بطول فكه شاعرة بالقبضة تعتصر قلبها أكثر فتسحقه، وفي المقابل كان ينظر إليها بنهم المحروم طويلًا.

سألها أخيرًا دون أن يتغير شيء في عينيه: «إن طلبتُ منك الزواج هل توافقين؟».

وكأن هلاوسها قد اختارت تلك اللحظة بالذات لتعاود التلاعب بها! حدقت إليه أكيدة أن ما سمعته للتو ما هو إلا من وحي خيالها، وبخاصة مع عينيه الميتتين وتعبير وجهه اللامبالي، لكنه كان ينتظر منها ردًا، فهل سألها شيئًا آخر؟!

همست ترنيم تسأله بإعياء شاعرة بالدوار: «ماذا قلت؟».

- ما سمعتِه بالضبط.

رمشت بعينيها تتراجع إلى الخلف متعثرة ثم همست: «هل جُننت؟! أي زواج ونحن غريبان، لا يعرف الواحد منا عن الآخر شيئًا؟».

استدار إليها بالكامل حتى واجهها وقال بصوت أجش: «أعرف أنني أريدك بجواري كل ساعة من اليوم، أعرف أنني لا أريد اختلاس الدقائق من الزمن لأحياها معك، أعرف أن الجلوس بجوارك فوق البساط لنحدق إلى السماء صامتين هو المكان الأجمل في الوجود عندي، حتى إنني أريد أن نتشاركه في الشروق والمغيب وحتى آخر الليل وأول الصباح، أعرف أنني ما عرفت هذا الشعور مع غيرك، وأعرف أنني لن أعرفه من بعدك، فهل هناك معرفة أوثق؟».

كانت مشدوهة تتقاذفها كلماته بلا هوادة، وما إن انتهى حتى أدركت انتهاء الحلم.

هتفت ترتعد: «يمكنك نسيان هذا الجنون، فما تقوله من رابع المستحيلات».

أمسك بقماشة تستخدمها في التنظيف ليمسح بها يده الملطخة بالدهان بتمهُّل، وعلى ملامحه الهدوء وكأنها لم ترفض طلبه للتو، بينما كانت تراقبه بصدمة.

قال أخيرًا دون أن يرفع وجهه إليها: «إن فكرتِ جيدًا ستجدين أن الزواج هو السبيل الوحيد لبقائك هنا مع ما نشعر به معًا، إذ ربما ضعفنا أمام إغواء مشاعرنا فيقع المحظور».

جحظت عيناها وهتفت وكأنما قذفها بمادة كاوية أحرقتها.

قالت: «أنت تهينني!».

ألقى القماش من يده ثم استدار إليها صامتًا للحظات قال بعدها: «أنا فقط أضعك أمام مرآة الواقع، فكلانا يشعر تجاه الآخر بمشاعر لم يحسها من قبل، وفي النهاية نحن بشر والبشر خطاؤون».

عاودها الشعور بالسقم حتى إنها وضعت يدها أعلى معدتها وهمست بقساوة: «إلا أنا».

تبسمت شفتاه، لكن هذه المرة لم تكن ابتسامته من القلب، فقد بدت كالتواء قاسٍ.

وبخاصة حين قال: «كنت أتمنى أن أتمتع بثقتك بنفسك نفسها، لكني إنسان واقعي، أعرف ضعفي كبشر قد يضل وينقاد للهوى حتى نهاية مطافه المظلم».

كادت أن تتقيأ وهي تهمس: «كلامك مقيت».

نظر إلى عينيها وأضاف بصوت أجش: «كلامي لا معنى له إلا أنني ضعيف أمام هواكِ وأنا لا أريد لكِ السوء ولو بمجردِ فكرة في رأسي وأنتِ لا تحلين لي».

انقبضت أصابعها على قماش قميصه بشدة وأخفضت وجهها أمام عينيه العاصفتين بصمت تام، دون رفض أو قبول، وأمام صمتها لم يستغل تفسيره بما يتمنى، بل تراجع متجهًا إلى الباب المفتوح.

قال بهدوء: «سأنتظر».

نظرت إليه بدهشة إلا أنه كان قد خرج ببساطة، فترنحت لتمسك بأقرب كرسي كي تدعم نفسها محدقة إلى الفراغ الذي خلَّفه بخروجه.

****

- يا سيد «علي»، افتح يا سيد «علي».

نظر إلى ساعة معصمه الموضوعة فوق الطاولة المجاورة لفراشه، حيث تجاوزت عقاربها الواحدة صباحًا، مما جعله ينهض بسرعة ليفتح باب غرفته حيث تقف عزيزة وعلى ملامحها يبدو القلق.

بادرها هاتفًا وكأنما التقط عدوى القلق منها: «أمي، هل أصابها مكروه؟».

هزت عزيزة رأسها لاهثة: «السيدة عوالي بخير، لقد اطمأننتُ عليها لتوي، صعدتُ إليك بسبب من ستجلب النحس والمس لهذا البيت وسكانه».

انعقد حاجبا «علي» وسألها دون مقدمات: «ماذا عنها؟ ماذا فعلت؟!».

- خرجت لتوها من بوابة البيت، سمعنا صوت البوابة تُفتح، فخرج عوض على الفور ورأيناها تخرج وهي تكلّم نفسها أو شيئًا لا نراه، سلام قولًا من رب رحيم. ناديتها عدة مرات إلا أنها لم تجِب، وكأنها لم تسمعني. أول ما طرأ ببالي احتمال أن تكون قد آذت السيدة عوالي، وبخاصة أن مفتاح باب البناية موجود معي والآخر في غرفة السيدة، أي إنها دخلت غرفتها في نومها وأخذت المفتاح كي تخرج، لذا لم أنتظر لحظة إضافية. جريت أتعثر خوفًا لأطمئن على السيدة عوالي، والحمد لله أنها بخير ونائمة بلا قلق، لكن خروج الفتاة بهذا الشكل مريب، فإما أنها سرقت شيئًا من البيت، وإما أنها في غير وعيها يسيِّرها الجن الذي يتلبَّسها فخرجت خلفه.

خلال هتافها السريع لم يقف منتظرًا انتهاءها من الكلام، بل وضع قدميه في حذاء رياضي وأخذ هاتفه ومفاتيحه ثم خرج مندفعًا يتجاوزها.

هتفت عزيزة من خلفه: «هل نوقظ السيدة عوالي كي تتأكد إن كانت الفتاة قد سرقت شيئًا من غرفتها؟».

لكن سؤالها لم يقابله سوى الصمت بعد أن أصبح «علي» في منتصف طريقه للخروج من البيت بالفعل.

****

«فات أوان الرحيل قبل زمنٍ مضى».

كان قد أوشك على فقدان الأمل في العثور عليها في الظلام في أثناء قيادته للسيارة عبر كل الطرقات المجاورة للبيت، وإن لم يعثر عليها فقد أضاعها إلى الأبد كما سبق وأضاع أمنية من قبلها.

حرَّك عينيه العاصفتين في كل زاوية مظلمة مر بها وملامح الغضب تشوِّه وجهه حتى أبصرها! لم تكن تجري أو حتى تهرول، بل كانت تسير وكأنها تجر قدميها وأثقالًا وهمية من خلفها للدرجة التي تجعلها لا تخشى الظلام أو فظائع الساعات المتأخرة في الطرقات الضيقة، تحمل حقيبة يد صغيرة وليست حقيبة ملابسها، وكانت تبدو من ظهرها مثالًا للشخص الهارب من الحياة نفسها بعد فقدانه الأمل في كل شيء، فهل يُعقل أنها زهدت حتى الملابس نفسها وتركتها لهم؟! رأسها مائل كزهرة ذابلة، وشعرها مشعث خلف ظهرها لم تبالِ بتمشيطه، وخطواتها واهنة، أما الحقيبة فتتدلى من قبضتها تكاد أن تلامس الأرض.

أوقف السيارة بسرعة فأصدرت صريرًا عاليًا، ثم اندفع خارجًا منها ينهب الخطوات القليلة بينهما حتى لحق بها وأمسك بذراعها يديرها إليه بقوة.

هتف: «ترنيم!».

ما إن واجهته وقصفتها صيحته باسمها حتى انتفضت شاهقة برعب وهي تتراجع إلى الخلف منتزعة ذراعها منه، ثم وقفت في الظلام مرتعشة تحدق إليه بعينين واسعتين وشفتين ترتعشان، جالت عيناه على وجهها الشاحب المغرق بالدموع، واستقرت نظراته على عينيها الفزِعتين المعذَّبتين.

رفع كفيه وقال بصوت خفيض: «لا تخافي، إنه أنا «علي»».

لم تجبه، بل اتسعت عيناها أكثر وتراجعت خطوة.

ضيَّق عينيه وسألها بحذر: «هل أنتِ نائمة؟».

لا جواب ولا رد فعل منها يدل على أنها سمعته، فقط تلك النظرة المعذَّبة التي تنظر بها إليه، فاقترب منها على مهل حتى أمسك بمرفقها ومعصمها وهو يشدها برفق كي تسير معه إلى السيارة.

قال بخفوت: «أنتِ بخير، تعالي معي لأعيدك إلى البيت».

صرخت بقوة تنتزع ذراعها منه: «لا».

صرختها شقت سكون الليل، ثم شهقت باكية وهي تهمس بصوت مختنق بائس: «لا أريد العودة».

ملامحه كانت مظلمة، فلا قمر يضيء تلك الليلة، والغيوم تحجب نجومها، لكنه كان يشملها بنظراته، يسمع كل شهقة بكاء تمزِّق صدرها.

همس لها بثقة: «لن تلاحقك أي أشباح بعد هذه الليلة، أعدك بهذا».

أغمضت عينيها تبكي بصوت خفيض مكتوم، فشعرت بيديه تسحبانها لخطوات.

فجعلت تئن بأسى: «لا يمكنني العودة أرجوك».

- ماذا عن عوالي والأولاد؟ ألا يستحقون منك تفكيرًا ثانيًا ما دمتُ لا أشكِّل أي فارق معك؟!

بكت بحسرة دون رد وكأن كلماته قد أجهزت على المتبقي من أنفاسها، فلم تقدر سوى على السير متعثرة في حصوات الطريق مغمِضة عينيها، حتى شعرت به يجلِسها في السيارة قبل أن يغلق الباب المجاور لها.

بنظرات ميتة تلاحق أضواء الأعمدة المتعاقبة خلال طريق طويل لم تحاول السؤال عن نهايته، مسندة رأسها إلى الزجاج تضم ملابسها بقوة بقبضة محكمة علَّها تمنع البرد المغلِّف قلبها، هذه المرة لم تسأله عن وجهتهما، بل تركت له القيادة حتى أوقف السيارة في مكانهما البعيد نفسه، وكأنه بات مكانهما ككل شيء تشاركاه وخُتم باسميهما.

لم يلتفت إليها، بل أبقى كفيه على المقود محدقًا إلى الظلام المحيط بهما.

طال بهما الصمت حتى قطعه قائلًا: «لنتزوج».

أغمضت عينيها دون رد أو حركة وعلى ملامحها فقدان الرغبة في الحياة.

لم يقبل بهذا جوابًا فسألها: «ما الذي قد يمنعنا؟ امنحيني سببًا واحدًا يمنعنا».

لم تفتح عينيها حين همست بصوت ميت: «أنت لا تعرف شيئًا عن حياتي قبل دخولي بيتكم».

- وأنتِ كذلك لا تعرفين أشياء عن حياتي لا أرغب في ذكرها، هذا شيء آخر يجمعنا، أن كلينا غير مجبر على قول ما لا يستطيع قوله للآخر،

غيرنا لا يُتاح له مثل تلك الميزة، غيرنا مجبر تستنطقه العائلات للكلام عن ماضٍ لا علاقة لهم به إن أراد الزواج ببناتهم، أما نحن فوحيدان كتومان، ولكلٍّ منا صندوقه الأسود.

استقامت على مهل في جلوسها وأبقت وجهها منخفضًا.

همست بصوت حاولت جعله ثابتًا قدر الإمكان: «ما تقوله حلم مجنون لا يصدِّقه عاقل، يجب أن أرحل، فما كان لي أن آتي من الأساس».

قصفها برد عنيف: «لماذا أتيتِ إذن؟! لماذا اقتحمتِ عالمي وقلبتِه رأسًا على عقب ما دام الرحيل في نيتك منذ البداية؟!».

أسبلت جفنيها بينما انخفض صوته ليتابع: «لو أخبرني أحد قبل شهور أنني سأكسر عزلتي وأتناول طعامي بين الناس، بل وألتقط صورة لنا معًا والابتسامة على فمي، لظننته جاهلًا غبيًا، لو أخبرني عن سماحي لفتاة غريبة بالجلوس بجواري فوق البساط لا نتوقف عن الكلام ولا يبعدنا الصمت، لتأكدتُ من كونه مجنونًا، لو أخبرني أن حنجرتي ستتذكر صوت الضحك كيف كان، لبررتُ بأنه لم يعرف حياتي قط. أما الآن فيبدو كل شيء منطقيًا في وجودك، لكن كيف لكِ أن تكوني متحجِّرة القلب لتحرميني من كل ما سبق وأذقتِني إياه فاشتهيتُه! ليس من الضمير أن تعاملي المحروم بهذه القسوة يا ترنيم».

كلماته الأخيرة بدت متهدجة متوسلة، حتى إنها ترافقت مع شهقة بكاء منها، فانخفض وجهها تغطي فمها بيدها علَّها تمنع انهيارها وتفتُّت قلبها، لكنه مد يده ليمسك بكفها يبعدها عن فمها، وضغط عليها بين أصابعه حتى رفعت عينيها الحمراوين إلى عينيه، فلم تتبين نظراته في الظلام.

حينها سأل مضيفًا بخفوت: «ظننتك أحببتِني، فهذا ما شعرت به، أتراني خدعت نفسي؟».

تنهدت تنهيدة طويلة طال كتمانها في صدرها حتى كادت أن تخنقها.

همست معها: «أحببتك، وليتني ما فعلت».

أغمض عينيه مبتسمًا ويده تزيد الضغط على أصابعها بقوة كادت أن تتحطم معها العظام الهشة الرقيقة، لكنها لم تأبه بالألم، فقد كانت كل حواسها تتشرب ملامحه وهو يتذوق اعترافها أخيرًا.

لم يلبث أن نظر إليها وقال بصوت قاطع لا يقبل الجدل: «سنتزوج الآن».

اتسعت عيناها وهتفت بقوة ترتعد: «مستحيل!».

إلا أن نبرته كانت عنيفة وهو يقول مهاجمًا: «المستحيل هو أن أتركك الآن، فقد فات أوان الرحيل منذ زمن مضى».

غامت عيناها بعذاب صامت شاعرة بنفسها تغوص في رمال متحركة كفخ مغوٍ.

همست ترتجف: «ماذا إن حدث وعرفتَ عن أهلي ما لا يعجبك فيما بعد؟».

طال الصمت بينهما حتى سألها بترقب: «وماذا إن عرفتِ سبب عثور عوالي عليَّ في الشارع؟ أتراكِ تنفرين مني بعدها؟».

هتفت بحرارة من قلبها: «مطلقًا، مطلقًا».

شددت أصابعها حول أصابعه بقوة فجاءها الرد قاطعًا: «لن تنتهي الليلة إلا وأنتِ زوجتي».

اتسعت عيناها أكثر كمدينتين تتحقق فيهما أكثر الأحلام جنونًا.

هزت رأسها هامسة: «عوالي؟!».

- عوالي رافضة لما تراه مني تجاهك، وهي عنيدة لن ترضخ ولو اجتمع العالم لإقناعها، ومع ذلك يستحيل أن تخسرني إن تزوجنا وحدث ما حدث، فأنا لديها أهم من أي شيء آخر، لذا فإن الأمر الواقع هو السياسة الوحيدة كي تقبل بزواجنا ونكون قد وفّرنا شهورًا في محاولات فاشلة لإقناعها.

شعرت بالدوار محرّكة رأسها غير مصدقة لكل ما يجري معها، فأمامها الحلم يتحقق فاتحًا ذراعيه يدعوها لتشبِع جوع قلبها دون تأخير.

همست باضطراب: «كيف نتزوج وأنا لا وَلي لي؟ فأبي...».

صمتت للحظات قبل أن تتصلب نظراتها ثم تابعت باقتضاب وبنبرة خالية من الشعور: «مات، مات منذ سنوات».

الصمت هذه المرة جعلها تشعر بالحسرة، فها هو ذا الحلم يتبدد على صخور الواقع، مما جعلها تشعر بمرارة كالسمُّ في حلقها.

سألها: «ألا أحد لكِ؟».

هزت برأسها المطرِق ببطء وهمست: «لا أحد إطلاقًا».

قبض على أصابعها حتى نظرت إلى عينيه وتمهَّل في الرد الذي كانت تترقبه بكل جوارحها.

قال أخيرًا وعلى ثغره ابتسامة: «إذن سنوجد لكِ الولي كما يقتضي الأمر، وعد مني يا ترنيم ألا تشرق الشمس إلا وأنتِ زوجتي، وحول جسدك يلتف ثوب زفاف أبيض، فهل تصدقين وعدي أم تجعلين منه رهانًا بيننا؟».

نظرت إلى أرقام الساعة في السيارة، ثم حدقت إليه ذاهلة، فأكَّد لها بثقة وهو يتحرك بالسيارة: «ستعلمين أنني أنفِّذ ما أقول حين أعنيه فعلًا».

حاولت ابتسامة مرتجفة أن تشق تحجُّر شفتيها وهي تحدق إليه مشدوهة.

التفت إليها مبتسمًا وأضاف: «تفرين من البيت هاربة في الليل فأعيدك مع الشروق عروسي، ستكون حكاية سنحكيها لعشرين عامًا قادمة».

****

أمسك بكفها يجرها خلفه فوق درجات السلم وهي تجري خلفه لاهثة، تتبسم في ثوب أبيض يرفل حول ساقيها، الغريب أنها صدَّقت قدرته على الإيفاء بوعده، حتى الثوب! إذ تمكن من إيقاظ صاحب محل خاص بفساتين الزفاف في منطقة محلات تجارة عوالي نفسها، وقد سعدَ الرجل رغم صدمته بالخبر لمعرفته الطويلة بعوالي و«علي»، وأبدى استعداده للنزول خلال ساعة لفتح المحل كي تنتقي منه العروس فستان الزفاف الذي تريد، وخلال هذا الوقت عُقِدَ القران قبل اختيارها للفستان، كان بإمكانها اختيار أضخم الفساتين وأكثرها حشوًا وأزحمها تطريزًا، لكن فستانًا واحدًا شدها وكأنه

يناديها، بسيط للغاية وإن كان مصممًا من طبقات شفافة عديدة تتطاير فوق بعضها جعلته أشبه بالحلم الذي تحياه.

بدت جميلة كأميرة حكاية قديمة بالفستان والشعر المنسدل، وقد أسرَتها المساعدة السريعة التي حصلت عليها من زوجة صاحب المحل، وكأن كل شيء كان معدًا له مسبقًا.

نظرته إليها بعد أن رآها بالفستان وبشعرها الممشط المنسدل أوجعت قلبها بخلاف ما توقعتْ، فقد كانت نظرة أقرب إلى الحرمان منها إلى الشغف.

لكن حين اقترب منها همس في أذنها قائلًا: «الآن فقط فهمت معنى الاسم الذي يناديكِ به الأولاد».

نظرت إليه بحيرة، فهمس مبتسمًا بصوت أكثر خفوتًا: «ترا فعلًا يم يم».

لم يسبق لها يومًا أن خجلت وشعرت بنفسها حية كوردة خلابة في جمالها كتلك اللحظة التي جمعتهما في تفاهة عبارته الطفولية ونظرته البعيدة كل البعد عن البراءة، كم تمنت لو تنتهي درجات السلم سريعًا، فقد بدت ممتدة إلى ما لا نهاية، وما إن مرًا بباب شقة عوالي حتى التفت إليها رافعًا إصبعه فوق فمه المبتسم كي لا تصدِر صوتًا، فتوردت وجنتاها بشدة، إلا أنها نفَّذت ما أمر به وصعدت على أطراف أصابعها رافضة لأي شيء أن يبدِّد سحر المتبقي من الليلة، والتي يوشك ظلامها على الرحيل معلنًا عن بداية يوم جديد ستكون فيه زوجته.

قلبها المسكين لم يكن قادرًا على تحمل كل هذا القدر من السعادة التي سمحت له بأن يغتصبها من بين أمواج الحزن والمرارة المتدافعة بهما طوال حياتيهما، أمواج تضربهما ذات اليمين وذات اليسار لسنين طويلة، حتى قذفت كل موجة تحمل الواحد منهما بحملها فارتطما بقوة وتشبثا ببعضهما بعضًا، كل شيء مقدَّر ومكتوب، لقياهما كان مقدرًا، وعلى ضفافه سترتاح أخيرًا.

وقف «علي» أمام باب الشقة الخالية، فأخرج من جيبه المفتاح.

شدت على أصابعه وهمست تئن متوسلة: «ظننت أنني سأشاركك غرفتك! لنصعد إليها فلا أريد سواها».

نظر إلى عينيها بعينين تشعان ببريق ألجم الكلمات على لسانها، وضاعف من سرعة دقات قلبها.

قال بصوت أجش: «لن أسمح بهذا حتى وإن كان ما تريدين، فستكون لكِ شقة نؤثث كل يومٍ ركنًا ونحن فيها».

توهج اللون في وجنتيها، ففتح الباب، لكن عوضًا عن السماح لها بالمرور فقد انحنى لتشعر بنفسها تحلّق في الهواء فجأة، إذ رفعها بين ذراعيه، تعلقت ترنيم بعنقه تلقائيًا كاتمة أنفاسها حتى تلاقت الأعين وكادت شفتاه أن تلامس شفتيها.

همست بوهن: «علي!».

برقت عيناه وابتسم لعينيها ودخل إلى الشقة، ثم ركل الباب من خلفه فابتلعهما ظلامها، نظرت ترنيم حولها غير قادرة على رؤية أي شيء حتى ملامحه، لكنها كانت تشعر بصدره تحت كفها حيث يضخ قلبه بعنفٍ جعلها ترتعد وتتشبث به أكثر مستغيثة به من جنون مشاعره، فهل يغيثها؟

همست في أذنه: «هلا أشعلت الضوء؟ أخاف من الظلام».

لم يجِبها، وإنما شعرت بشفتيه تبحثانِ حتى مستا عنقها، فأطبقت عينيها بشدة ترتجف بين ذراعيه، يكاد قلبها أن يقفز من بين أضلاعها، فضحكت بصوت مبحوح في الوقت الذي دمعت فيه عيناها.

لخجلها حاولت أن تبعِده، إلا أنه شدد عليها هامسًا بصوت بعيد عن الابتسامة ودون أن يبعِد شفتيه عن النبض المجنون تحتهما: «لا تتحركي، ابقي قليلًا فحسب».

صوته مسَّ قلبها في رجائه، فهمست تنادي اسمه وكأنها بأنينها الخافت تخبره أنها باقية إلى آخر نفَس في عمرها.

مضت لحظات بطيئة حتى ظنت أنها لن تتحمل أكثر وأن قلبها على وشك الانفجار، حينها فقط أبعد وجهه عنها فتألمت بحسرة.

قال بصوت هادئ: «فليكن، فلنشعل الضوء، فأنا على استعداد للتضحية بعمري في سبيل النظر إلى عينيكِ في تلك اللحظة».

أرادت أن تصرخ فيه غاضبة كي لا يتبرع من عمره بهذه البساطة ولو بالكلمات، لكن قبل أن تنطق كان قد أنزلها حتى وقفت على قدميها، ثم سمعت وقع قدميه قبل أن يملأ الضوء المكان، رمشت ترنيم بعينيها تظللهما كي تعتاد الضوء المفاجئ، ثم نظرت إليه وكان يوليها ظهره لا يتحرك.

همست برهبة: «علي!».

استدار إليها وكان مبتسمًا وكأنه يهدئ الخوف الساكن في همستها باسمه، ثم اقترب منها على مهل حتى وصل إليها، ورفع يده ليضعها برفق على وجنتها، تراجعت إلى الخلف وهو يتقدم معها دون أن يحيد بعينيه عن عينيها، حتى التصق ظهرها بالجدار، فأخفض أصابعه من وجنتها إلى عنقها، فالتفت من حوله بحرص شديد وكأنه يحيط بزهرة يخشى قطفها. لامس إبهامه نبضها الذي تسارع حد الألم.

قال أخيرًا ببطء: «منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها أردت أن أسألك سؤالًا واحدًا وأنا أنظر في عينيك».

هزت رأسها هامسة تبتسم: «أي سؤال؟».

أظلمت عيناه فجأة وكأنه تحول إلى شخص آخر سائلًا: «ما هي غايتك؟».

شعرت وكأن البناية قد تمايلت بهما في تلك اللحظة، فهزت رأسها هامسة بقلق: «ماذا تقصد؟!».

الأصابع التي كانت تمس عنقها وكأنما تلامس أوراق زهرة ضغطت عليه قليلًا، وعلى الرغم من أنه لم يؤلمها فإنها شعرت وكأنه يخبرها أن عنقها بين قبضته.

اتسعت حدقتاها ذعرًا وهي تشهد التحول المرعب الذي طاله، فقد بدت ملامحه كملامح شيطان، أما عيناه فقد تبدل التوهج فيهما إلى نار طال إخمادها تحت رماد كاذب.

خرج صوته كالفحيح من بين شفتين متصلبتين مقتربًا منها أكثر حتى تقطعت أنفاسها: «ترنيم أحمد محمد أحمد، اسم عادي شائع يتكرر ملايين المرات، وهذا ما اعتمدتِ عليه بثقة تامة إن وقعتْ بطاقة هويتك بين أيدينا،

لكن غرورك وغباءك غشيا بصيرتك، فلم تستنتجي أن اسم أحمد محمد أحمد قد يمر على العالم أجمع ببساطة فلا يثير الشك في النفوس، إلا أنا، أنا الوحيد الذي ينتفض فلا يترك صاحبه يمر مرور الكرام، وحين تقع فتاة شابة أمام باب بيتي حاملة الاسم نفسه خلف اسمها، فلن أرحمها حتى يتبين لي أنها مصادفة لا تتكرر في العمر مرتين».

تحركت عضلاتُ حلقها تحت أصابعه وهمست بصوت يرتعش: ««علي»! أعطني الفرصة للكلام أرجوك».

لم يعطها ما طلبت، بل قاطعها قائلًا بصوت حاقد شرس: «حين يكون من أفسد حياتي ودمرها ودنسها حاملًا للاسم نفسه الذي لا يستحقه، حينها أتحول إلى مجنون قادر على ارتكاب جريمة».

أتراه ضغط على عنقها أكثر أم أنها تختنق طبيعيًّا من هول ذعرها؟! كل ما تعرفه أنها إن حادت برأسها فلن يتورع عن سحق عنقها دون رحمة.

غامت الرؤية أمامها بدموع الرعب، وهمست مجددًا بصوت يكاد ألا يُسمع: ««علي»، اسمعني أرجوك».

لكنه هتف بنبرة لفحت وجهها، فأطبقت عينيها أمامه بشدة فوق دموع سقطت على قبضته الممسكة بعنقها.

قال: «كيف واتتكِ الجرأة للبحث عني والوصول إلى بابي بعد كل تلك السنين؟! ماذا تريدين مني وقد تركتُ لكم الدنيا بما فيها؟».

بكت بمرارة دون أن تفتح عينيها بينما وصل إليها صوته متابعًا بلا هوادة: «ألديكِ فكرة عن مقدار القوة التي فرضتُها على نفسي كل مرة خلال الأشهر الماضية وأنا أنظر إلى عينيك أو أسمح لكِ بالجلوس إلى جواري دون أن أطبِق بيدي على عنقك لأزهق روحك ببطء؟».

صيحة بكاء خرجت من بين شفتيها، إلا أنه لم يأبه لألمها.

تابع ساخرًا باصقًا الكلمات في وجهها: «أما عن قولي إنني أحبك، كدت أتقيأ بعدها».

انفتح جفناها المتقرحان ببطء شديد ليكشفا عن عينين مصدومتين تحدقان إلى البعيد.

أضاف: «كان بإمكاني رميك في الشارع منذ الليلة الأولى، لكن المقت بداخلي والذهول من جرأتك أجبراني على السير معكِ في مسعاكِ إلى النهاية لأعرف غايتك، وحتى الآن لم أعرفها. لم أتوقع أن تصلي إلى حد الزواج! لآخر لحظة ظننتكِ ستعترفين بتلك الغاية المجهولة في تعقُّبك لي لكنك تابعتِ إلى النهاية!».

كانت كالميتة ولم تجرؤ على النظر إليه.

همس بوحشية: «ما هي خطتك؟ هل كنتِ تنوين الاستيلاء على ما أملك؟ أم ربما أنتِ ساقطة ولم تسعي إلا لتدنسي شرفي!».

كادت أن تسقط أرضًا وقد شحب وجهها حتى حاكى شحوب الأموات، إلا أنه حتى هذا لم يسمح لها به كي لا تهرب من بين يديه.

حين ظلت صامتة صرخ بها: «ماذا كانت غايتك؟!».

أسبلت جفنيها فوق الدموع المنهمرة بغزارة، إلا أن وجهها بدا ميتًا خاليًا من المشاعر وهي تجيب معترفة في النهاية.

قالت: «أردت أن... أتخلى عنك في قمة احتياجك إليّ».

ساد صمت طويل مهلِك بينهما، وحدقت إليها عينان سوداوان مخيفتان رغم كرههما، إلا أن شعورًا آخر ظهر فيهما، شعور لم تستطع تمييزه إلا أنه مسَّ قلبها فأوجعه، وكأنما هو مرض خبيث لا يرحم، في لحظة خاطفة لم يستطع تمالك نفسه، فرفع قبضته الحرة في الهواء صارخًا، لكن الغريب أنها لم تنتفض أو تجزع، بل استعدت للموت على يديه بتبلُّد مشاعر، إلا أن قبضته ظلت معلّقة في الهواء طويلًا لا تتابع وجهتها في النزول على وجهها لتسحقه.

همس أخيرًا متقززًا: «أنتِ أقذر مما تصورت، أنتِ أقذر من ساقطة».

أبعد يده عنها وكأنه خشي أن تتسخ يده بلمسها، فتراجع إلى الخلف خطوات.

سألها بصوت خفيض مخيف: «لماذا؟ أي ذنب اقترفتُه في حقك؟ أنا حتى لم أعرف بوجودك قبل أن تظهري على بابي!».

صوت نحيبها كان خفيضًا إلى الدرجة التي جعلتها أشبه بحيوان ضئيل يحتضر.

همست: «لو أعطيتني الفرصة لأدافع عن نفسي».

إلا أنه كان ينتفض مثلها، عيناه حمراوان وجبهته تتعرق بشدة من فرط انفعاله.

ثم تمكن من القول أخيرًا: «أنا قادر الآن على قتلك ودفنك في فناء هذا البيت، ولن يعرف عنكِ أحد شيئًا، فأخلِّص العالم من واحدة مثلك، فأكون قد أسديت البشرية معروفًا».

استدار متجهًا باندفاع إلى الباب، إلا أنها انتفضت وجرت خلفه لتمسك بمعصمه تمنعه ببكاء حار.

هتفت: «لا يا «علي»، انتظر أرجوك، دعني أشرح لك، لا أطلب أكثر من بضع دقائق».

لكنه دفعها بكل قوته ليرميها أرضًا، ثم همس من بين أسنانه محدقًا إليها بضراوة قبل خروجه من الشقة صافقًا الباب خلفه: «لقد فعلتِ أغبى شيء يمكن لكِ الإقدام عليه، ألقيتِ بنفسكِ في عرين شخص تمنى لنسل والدك الإبادة منذ زمن».

****



الفصل الثامن

«بعض البداياتِ تُكْتَب ومعها النهاية كنذير شؤم أهلكَ الحرث والنسل، فيا ليتها ما كُتِبَتْ وفَتَحَتْ للشر فصولًا لا تنتهي!».

منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناه عليها شعر وكأن العالم قد توقف، وأن حواسه بالكامل قد توجهت إلى تلك المخلوقة التي فاقت الحسن حسنًا، تعلقت عيناه بالفتنة، تتهادى فوق ساقين تتأمل ما حولها بتعالٍ، وكأنها تدرك جيدًا أنه لا شيء هنا يماثلها جمالًا، وكانت محقة، لم يسبق له أن رأى امرأة في جمالها وحسنها، فأجزم بينه وبين نفسه أنها ليست سوى ست الحسن والجمال التي يتغنى بها الراوي في حكايته، في مشيها المختال كفرس أصيل تحرك من مكانه كتحركها كي لا تغفل عيناه لمحة منها متعجبًا من سير النساء بجوارها فلا يلمحنها، أفلا يتحسرن من نصيب من الحسن احتكرتْه لنفسها من حسنهن جميعًا وتفضلت بالباقي للباقي منهن؟!

تلاقت أعينهما فتوقف مسحورًا أمام كحلِ حارسٍ خطتْه أصابع فنان، ليؤطّر حدقتين كالدر الأسود خشية أن تسرقهما الأعين المتلصصة.

للوهلة الأولى لم تعبأ بنظرته، وكأنها اعتادت الأعين المفتونة بحسنها حتى ملّتها، ومن اعتيادها ما عاد الارتباك يزورها. أما النظرة الثانية فقد تمهلت عيناها على عينيه المسحورتين للحظة واحدة، ثم عادت وتجاهلت وجوده.

النظرة الثالثة منها تنازلت وحدجته بنظرة تعالٍ وكأنها تسأله بعينيها من تكون لتتأمل سحري؟ وكان في تنازلها غاية مبتغاه، فاقترب منها بحذر خوفًا من أن تكون خيالًا فتتلاشى إن حاصرها، وإن كانت خيالًا فيتمنى الحياة في دنيا الأوهام عمرًا قادمًا قبل أن يستفيق منها.

- هل تطلبين شيئًا محددًا يا ست الحسن؟

استدارت إليه وفي نظرتها الرابعة قذفته بسهم قاتل أودى بقلبه، فأولته ظهرها.

تهادت سائلة ببرود: «كلمات تملُّق البائعين تلك قد تغري باقي النساء فيشترين من بضاعتك، أما أنا فلا تنقصني».

لحق بها مُدَلَّهًا، لكنه تمكن من الرد بشخصه المعروف باجتذاب كل ما هو جميل: «أولًا أنا لست بائعًا، وإنما فنان، ليس البيع حرامًا، وإنما الحرام أن تلقَّب تلك القطع بالبضاعة، فقد صنعتْها أصابع تتقن الفن وصممتْها أعين تقدِّر الجمال».

رمته بنظرة ساخرة، والدرتان السوداوان تتحركان فوق رسومه على الورق والقماش والمشغول من النحاس.

سألته: «وثانيًا؟».

- ثانيًا ما هو الذي لا ينقصك؟ قطعي الفنية أم كلمات التملق؟

السخرية الآن لامست شفتيها بابتسامة ملتوية زادتها غرورًا.

أجابت: «كلاهما».

دارت تتأمل ما رصه فوق طاولة طويلة ممتدة بينما لحق بها وكأنه منوَّم بسحرها.

قال: «أصدق أن التملق لا ينقصك، أما قطعي الفنية فأكيد أنكِ لم تقتني مثلها من قبل».

أمسكت أصابعها الطويلة بقطعة من النحاس نُقش عليها رسم بارز لوجه فتاة حسناء، بدا لون النحاس في ملامحها كالذهب الخالص، فزادها جمالًا،

لكن ست الحسن والجمال تأملتها بإهمال وكأنها تتحداه أن تفوقها صاحبة الرسم جمالًا، ولم يكن في حاجة إلى التحدي، فلقد سبق وبصم بالعشر أنه لم يرَ في جمالها من قبل جمالًا!

تعمدت التنهد مظهِرة الملل وعدم الاهتمام، ثم تركت ما بيدها وقالت: «لا شيء جديد».

ثم تحركت لتغادر منصة بيعه، لكن صوته الهامس وصل إليها وكأنما يستجديها كي تبقى.

قال: «عيناكِ نازلتا القلوب فكلُّها، إما جريحٌ أو مصاب المقتلِ».

نظرتها الأخيرة إليه كانت كالسيف قاتلة في غضبها.

تمالك نفسه وقال مسرعًا: «إنه بيت الشعر الذي أستطيع حفره كنقشٍ مزخرفٍ فوق النحاس».

زمّت شفتيها بقساوة، ثم أولته ظهرها وتهادت في ابتعادها وتركته واقفًا مشدوهًا.

همس في اختفائها: «سبحان من خلقكِ ومن الحُسن زادك».

أيام تمر وعيناه تبحثان بين الأعين الخُضر والزُّرق عن دُرتين شديدتَي السواد، وكأنها كانت ست الحسن والجمال وهربت من الحكاية ثم اختفت وتركته، لا يعلم لماذا يريد أن يراها مجددًا، فما الذي سيجنيه سوى وِزر النظر حتى الظمأ؟ ولن يرتوي!

عليه أن يكون ممتنًّا للفتنة التي وُئدت في مهدها قبل أن ينكب في الشعور المحظور أكثر، فهو هنا لكسب الرزق لا أكثر ولا أقل، وعليه أن يراعي رزقه.

زفر بقنوط يرتّب قِطعه مجيبًا مَن يسأله مِن السائحين المتهافتين على قطعٍ أسبغ عليها من فنه وحبه للجمال، لكن وكأن هاتفًا ناداه كي يرفع عينيه في تلك اللحظة، فتلاقت نظراته بالدُّرتين السوداوين مباشرة قبل أن تشيحا عن مرمى بصره، وتهادت تتأمل بضائعه بعد تفقُّد سلسلة من المحلات المجاورة له.

ذلك الانفعال الذي جاش بصدره أخافه، ومن خشيته التزم مكانه، فلم يحاول اللحاق بها، لكن ليت عينيه ما تابعتا اختلاس النظر إلى حُسنها في سيرها، فالنار تزيد وكأنه ما رأى نساء من قبلها ولن تأتي بعدها.

تلمَّست أصابعها المعروض تتهادى في خط دون توقُّف كتهادي خطواتها، لكن ست الحسن والجمال توقفت فجأة وعلت الصدمة ملامحها محدقة إلى لوح من النحاس الأحمر نُقش فوقه خطوط ملامح امرأة نظرت إليها، فكأنما ترى انعكاسها في مرآة.

رفعت عينيها الناريتين وسألته هامسة بشراسة: «أنت يا بائع النحاس، كيف تجرؤ؟! أتراك جئت تراهن على عمرك في بلدتنا؟! من أذِن لكَ أن تنحت رسم وجهي وتعرِضه للمارة؟ اسمع أيها الغريب، لدينا أمور هنا لا تُحل إلا بالدم، وأظنك لا تدرك».

اضطرب واقترب منها على الفور ناظرًا إلى القطعة بين أصابعها.

قال: «لكن يا ست الحسن ما كانت تلك إلا صورة من وحي خيالي!».

انعقد حاجباها تنظر إليه بنظرة شك واتهام قبل أن تعيد النظر إلى القطعة بين أصابعها، أتراها أخطأت الظن؟! لكن كيف والصورة وكأنها انعكاسها؟!

سألته بحدة: «متى حفرتها إن كنت صادقًا؟!».

حك شعره بأصابعه واضطر إلى الاعتراف: «أنهيتها منذ يومين».

رمقته بنظرة سوداء استعدادًا للنزال، إلا أنه سبقها متابعًا: «لكن هل تكفي لمحة تقل عن الدقيقة كي تحفظ عيناي ملامحكِ فأنقشها فوق النحاس؟! أدَّعي أنني فنان لكني لست ساحرًا».

أظلمت نظراتها وزمَّت شفتيها المكتنزتين، فلم تقدر أن تطيل الجدال خوفًا من العابر والواقف، لذا استدارت توليه ظهرها.

لكن صوته توسَّل من خلفها سائلًا: «ما اسمك يا ست الحسن واسم عائلتك؟».

رمته بنظرة نارية مهدِّدة من فوق كتفها في التفاتها، ثم ابتعدت بخيلاء تتجاهل سؤاله، إلا أن صديقة لها اقتربت منها منادية: «لماذا تتلكئين يا فاتن؟ تأخرنا».

استسلمت لكف الشابة التي أمسكت بمعصمها تشدها معها، ومرة ثانية سرقتها شمس المغيب فاختفت، وكأنها لم تكن سوى حلم وانتهى.

أمسك بعمود المظلة المستطيلة التي تظلل منصة بيعه وهمس: «فاتن! وهل هناك اسم يليق بِستِّ الحسن والجمال كما يليق بكِ فاتن؟!».

في عودته إلى مدينته ينبغي له أن يكون مسرورًا ببيتٍ دافئ وأسرة في انتظاره، وهل يتمنى الرجل أكثر من امرأة جميلة تعمر بيته وتصون غيابه وتحمل أطفاله؟ لكن وكأنما يعود إلى سجن سجّانه امرأة جعلها الزمن زوجته بعد أن اختارتها له أمه ورحلت؟ إنسانة عادية حد الجفاء وجفاف المشاعر، حتى بات يشبهها مع مرور السنوات الصامتة التي جمعتهما، لكن أنّى له أن يشبهها وهو الذي تهفو روحه إلى العشق وتركن عيناه إلى الجمال أينما وُجد، لا، إنه لم يشبه زوجته سماح إلا في وجوده معها، يتحول إلى النسخة الذكورية منها، وهي نسخة تكاد أن تطابق الأصل فلا يختلفان كثيرًا. حياته يسودها الملل والرقص لكسب الرزق والتحايل على معيشته، لكن أجمل ما فيها ابنته، العمل الفني الجميل والوحيد لسماح، يحبها من كل قلبه ولأجلها يستمر في تلك الزيجة الباهتة الفاترة.

كان راضيًا ماضيًا في حياته الرتيبة، فما الذي جعلها تظهر في حياته؟ ست الحسن والجمال ذات الفتنة التي أفاقته على النقص الكئيب في حياته.

جالس على الأريكة اليابسة المتواضعة بجوار النافذة يعد الساعات لتنتهي أيام عودته إلى مدينته وتبدأ أيام رزقه في بلدة ست الحسن والجمال.

تثرثر زوجته عن غلاء أسعار الخضراوات وشجارها مع الجيران، فلا يسمعها، لكن عينيه تبتسمان لصغيرته التي تقترب لتجلس بجواره فوق الأريكة، فيضمها إلى صدره قاطعًا كلام أمها وكأنها ما كانت تقول شيئًا.

يقول: «تعالي أحكي لكِ حكاية الشاطر حسن وست الحسن والجمال».

وفي مرآة بعيدة عنه بآلاف الأميال تنظر امرأة فاتنة إلى انعكاسِ صورتها في المرآة، تتخلل خصلات شعرها الأسود الطويل بأصابعها، يعجبها ما

ترى، فملامحها تنطق، وجسدها الفتيُّ تطيب ثماره ثم تغيب ابتسامتها، فأيُّ خسارة بضياع جمال لا يجد من يقدِّره؟

تقترب منها أمها قائلة وهي تنظر إلى السرير الذي تراصت من فوقه المشغولات النحاسية.

تقول: «ما خطبكِ يا فاتن؟! أتظنين نفسك واحدة من السائحين كي تبتاعي تذكارات من أهل البلد؟».

فترد عليها وهي تتمايل مستديرة كغصنِ البانِ: «وهل أنا أقل منهم؟ تعرفين أنني أحب شراء كل ما تراه عيناي جميلًا».

- يا بنتي حافظي على مال زوجك وهو في غربته يشقى لجمعه، ولا تنفقيه فيما هو تافه، كما أن خروجك المستمر في غيابه لا يرضي أحدًا، وأهل زوجك أشداء لن يعجبهم هذا الحال. احمدي ربك أنهم حتى الآن لم يفرضوا عليك الحبس بين الجدران لا ترين الشمس لحين عودته، لكن إن استمررتِ في خروجك فسيكون لهم تصرف موجِع لن يعجبك حتمًا.

استدارت على عقبيها مجددًا تتأمل نفسها مجيبة بجفاء: «إن تخيلوا أنهم يملكون عليَّ سلطانًا لمجرد أنني متزوجة بابنهم فليعيدوا التفكير، أنا متعلمة اعتدت الخروج والدخول، ولن أدفن نفسي لمجرد أن زوجي مسافر».

- أليس زوجك هو من سمح لكِ بإتمام تعليمك الذي تتفاخرين به الآن؟! ردي له الجميل إذن ولا تتصرفي على نحو قد يمسه بالقيل والقال.

قست عينا فاتن وهي ترد مخاطبة صورتها في المرآة: «وإن ظننتِ أنني سأشعر تجاهه بالامتنان لمجرد أنه تنازل وسمح لي بإكمال تعليمي فأنتِ مخطئة، زوجتموني في السادسة عشرة برجلٍ لا يجمع بيني وبينه أي شيء، سرعان ما رماني كقطعة من أثاث البيت وسافر، لا أراه سوى مرة كل عام حتى بلغت السادسة والعشرين ومعي ولد في التاسعة يكاد ألا يتعرف على والده كل إجازة».

صمتت للحظات ثم همست بعنف من بين شفتيها محدقة إلى سواد عينيها: «رجل بارد لا يعرف كلمة غزل واحدة، حتى بتُّ أنتظر سماعها من الأغراب في الطرقات!».

صدمها سماع همسها لنفسها بذلك الاعتراف الذي ما توقعته قط، فلطالما كانت تتلقى كلمات الغزل من الأغراب عن بلدتهم كلما خرجت من البيت منذ أن بدأت أنوثتها في النضج أسرع مما تخيل أهلها، ولهذا سارعوا بتزويجها لأول من طرق بابهم، ولاعتيادها النظرات المحدقة إليها تعودت التجاهل، حتى إنها ما كانت لتثير مشكلة في الطريق قط، ولم تكن تهتم وكأنها لم تسمع، كان هذا منذ زمن، فمتى تولد لديها هذا الجوع لكلمات الأغراب ونظرات التقدير لحسن ملامحها؟

صمتت تتأمل وجهها وأجفلت من رؤية تغير خطوطه، وكأنها تحولت فجأة إلى عجوز متصابية قاسية، لا شابة يُفترض أنها في أجمل سنوات عمرها!

طال بها الشرود أمام المرآة فقالت أمها من خلفها بحدة: «بماذا تهمسين؟! يا بنتي زوجك مختلف عن أهله، فإن كان هو مسالمًا هادئًا لا يمانع خروجك لثقته بكِ، فأهله لا يعرفون سوى لغة السلاح، ترى ماذا سيحدث إن تحرش بكِ أحد في الطريق ووصل الخبر إلى واحد من أهل زوجك وكَبُرَ الأمر فاضطرمت النار في البلد بسببك؟».

اسودت عيناها أكثر لكن أمها تابعت بسرعة تنبهها: «كفى كلامًا، فابنك هنا، لكن فكري فيما قلته لكِ قبل قولِ يا ليت الذي جرى ما كان».

التفتت لترى ابنها الذي دخل لتوه إلى الغرفة فخرجت أمها، وبقيت هي معه تتأمله بينما كان ينظر إليها بحذر وكأنما يخشى من شيء ما.

ابتسمت له وسألته مداعبة: «أتظن أمك تشبه ست الحسن والجمال؟».

رفع كتفه ببطء وكأنه ليس متأكدًا أو مهتمًا بحكايات تحبها الفتيات، فعقدت حاجبيها دون أن تختفي ابتسامتها.

قالت: «عليك أن تحفظ تلك الحكاية كي تلقِّب زوجتك مستقبلًا بست الحسن والجمال، وتكون أنت الشاطر حسن».

اكتشافه أنها متزوجة كان الخبر الأسوأ في حياته، لم يتخيل شيئًا أكثر مرارة بعد سؤاله عنها، لقد فكر في الزواج بها بعد أن أصبح مدمنًا رؤياها، فما الذي يمنعه حتى وإن كان متزوجًا؟ وإن كان عليه أن يكون مقتدرًا فقد استعد لأن يحفر في الصخر كي يجلب لها نجوم السماء إن اقتضى الأمر. لكن احتمال أن تكون متزوجة لم يطرأ على باله مطلقًا، ولا يعلم السر، أتراه لمح منها تجاوبًا؟ لا يمكنه أن يدَّعي هذا فيظلمها ظلمًا بيِّنًا، كما أنه لم يعد هناك داعٍ للتفكير، فقد قُضي الأمر وقطع خطواته من تلك البلدة.

مرت أسابيع طويلة لم يرَها، فكره زوجته وكره نفسه وكره الحياة التي لم يعد لها معنى بخلوِّها من أي جمال، حتى ضعفَ، ضعفَ فسحبه شيطانه إليها من جديد لا يبتغي سوى نظرة، فقط نظرة تعينه على تحمل شقاء الحياة الجافة ومرارتها.

بغيابه لم تعد تشعر بنفسها أنثى، فالمسحور قد غاب واختفى، تملَّكها جفاف المشاعر فترة طويلة لا تجد من يشبِع ظمأ بداخلها، وكلما اتصل بها زوجها كرهته أكثر.

أيامها متشابهة لا حياة فيها، ولا متعة سوى المشي في الأسواق دون رغبة في شراء أي شيء إلا نفسها، علَّها تعثر عليها، حتى جاء اليوم بعد طول غياب ورأته قد عاد وفرش بضاعته من جديد.

النظرات بينهما كسيوف اللهفة، والهوى يتلاعب بمقدرة كلٍّ منهما يسوقهما إلى الحافة دون أن يدركا، لم يتكلما في اليوم الأول والثاني والثالث، يدَّعي أنه جاء لكسب رزقه، وتدَّعي تصديق دوافعه، ففي النهاية لم يقدِم أيٌّ منهما على شيء يدينه أمام ضميره.

إن كانت النظرات محرمة فغيرهم ينغمسون في الحرام إلى نهاية المطاف، كانت تلك هي الحجة والمبرر والمخدر لتسكين وخز الضمير أمام شهواته، لكن مع مرور الأيام لم تعد النظرات كافية، بل على العكس، باتت موجعة مُجَوِّعة أكثر من عدمها، باتت كنار تحرق ولا تقتل، فيظل الإنسان يتلظى معذَّبًا.

استمرار مجيئها أكد له أن السحر بينهما متبادل، وهذه الفكرة زادت من احتراقه، فأي قوة جبارة عليه أن يفرِضها على نفسه كي يمنعها عن المرأة التي يتمناها وهو يعرف أنها تتمناه كذلك سرًّا؟

لقد عرف أن زوجها يسافر عامًا كاملًا ويعود إليها أيامًا قلائل، فهل من العدل أن تُهجر امرأة مثلها؟ ربما من العدل أن يحرِّرها أحد كي لا تُفتَن فتضل الطريق، ومن هنا فتح لنفسه مدخلًا وأعطاها مع القطعة التي اشترتها ورقة مخفية، وترقَّب أيامًا بعدها برعب يتوقع في أي لحظة أن يهجم عليه أهل زوجها بعد أن تشي به، لكن شيئًا لم يحدث، وهذا أكَّد له أنها تشاركه الحرمان وأن عليه مساعدتها.

ارتجفت أصابعها وهي تمسك بورقة كُتبت عليها كلمتان فقط، «هلّا تكلمنا؟»، سؤال لا معنى له، وهي التي تقف أمامه معظم الأيام تفاصل في السعر وتسأل عن أي جديد، سؤال لا معنى له، وربما كان فيه معنى الأيام الماضية كلها.

اهتزت حدقتاها وشعرت برعب لم تشعر به من قبل، فحتى اللحظة الأخيرة قبل استسلامها لتلك الورقة كانت تقنع نفسها بأنها لم ترتكب خطأ، لكن الورقة في يدها كانت تسخر منها، فها هو دليل الإدانة بين أصابعها، لكن الأفظع أن الخوف بداخلها لم يمنع لذة غريبة انتابتها وهي تتلقى رسالة من الرجل الذي ينظر إليها وكأن لا نساء غيرها على سطح الأرض.

لم ترد على رسالته الأولى، ثم الثانية والثالثة، لكن في الرسالة الرابعة اضطرت إلى الرد عليه كي يتوقف، فكتبت له رسالة لفَّتها بالورقة النقدية وهي تبتاع قطعة جديدة من طاولته. «توقف عما تفعله فأنا امرأة متزوجة».

وكأن كلماتها كانت المدخل الذي احتاج إليه كي يبرِّر لها موقفه، ويقسم لها إنه لا يريد أن يمسها بأي سوء.

أيام تلي الأيام والرسائل تتبادل ثم تُحرَق على الفور، مخلِّفة النار والرماد بداخل كلٍّ منهما، الرسائل التي بدأت كسؤال والرد عليه تحذير تحولت إلى كلمات وحكايا عن صعوبة ما يقاسيه كلاهما في حياته، حياتهما القاسية

كانت تغرِّد بالسعادة كلما وصلت إليهما رسالة جديدة والجواب، لكن الرسائل ما عادت تكفي، فقد اعترف لها في الأخيرة قائلًا: «والله ما عرفتُ الحب إلا حين أبصرتك يا فاتن، فكيف أدرك قلبي منذ النظرة الأولى أن حسن ملامحك لم يكن وحده مفتاح التعويذة؟ بل هو مجرد غلاف للروح التي عثرتْ عليها روحي في هذه الحياة المزدحمة. أتدركين مقدار صدفة لقيانا؟ فكرتُ كثيرًا وكلما فكرتُ حصلتُ على سؤالٍ واحد فيه الجواب، هل يُعقل أن تلقي لنا الحياة بهذه الصدفة عبثًا؟! لا والله، منذ اللحظة الأولى أدرك قلبي أنني مقدّر لكِ وأنتِ مقدّرة لي».

كلماته كانت الحبل الذي تمسكت به واختارت تصديقه، فقد صادف الهوى في نفسها، وبين ليلة وضحاها تحولت الرسائل إلى لقاءات مختصرة، لكن خوفه عليها من أهل زوجها جعله يقترح أن يعثر لهما على مخبأ ليكون وكر اجتماعهما، وعاهدها ألا يمسّها مطلقًا، وصدّقته، فكانت تتسلل إليه متشحة بالسواد من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، صدّقته لكن الخوف من الخالق والخلق كان يشل سعادتها.

همست له مرتجفة: «ما أفعله لم تفعله غيري من نساء هذه البلدة، أنا وأنت ألقينا بأنفسنا من حافة لا رجوع إليها».

أجابها متعهدًا مخلصًا: «في لقياكِ سعادتي، وفيها شقائي بسبب كرهي لاضطرارك إلى الإقدام على شيء ضد عرفك وأخلاقك، لكن يا فاتن يعلم الله أنني لا أريد الحرام، وأن هجرَ زوجك لكِ هو الحرام بعينه، أعدك أن أحررك منه وتكوني لي في الحلال، وليغفر الله لنا هذه اللقاءات».

وعدُه كان المخدر الذي تحقن ضميرها به كل مرة كي تسكّن وجعه، كان المخدر الذي يغذي إدمان لقياه، كانت له العشق والحسن، وكان لها الإحساس بأنها الفتنة التي لا مثيل لها، والمشاعر التي تهدهد بغزل لم تسمعه في عمرها كله، لقد لبى لها احتياجات لم تكن تعرف بوجودها قبل أن تعرفه، لكن أنى للعاشقين أن ينعما بعشقهما وللعشق شهوة لا تُلبى؟ محرمة على الجسد بعد أن حلّلها القلب للقلب!

لم يعد يكتفي منها ولا تكتفي منه، فكان يحثها على طلب الطلاق باستمرار ودون هوادة، حتى رضخت وتشجعت لتفاتح والدها في رغبتها في

الحصول على الطلاق، يومها انتظرها في وكرهما كالمجنون متلهفًا للجواب الذي يتمناه أكثر مما تمنى أي شيء آخر في دنياه، لكن مع دخولها لم يتبيَّن ملامحها، فما إن فكت الوشاح عن وجهها حتى صدمته الكدمات اللعينة التي شوهت جمالها، كانت تنظر إليه بانكسار غريب.

همست بصوت ميت: «المرة القادمة سأدفن حية إن أتيتُ على ذكرِ كلمة الطلاق مجددًا».

حينها نقض عهده لها، فضمها إلى صدره وأراحت وجنتها الزرقاء عند تجويف عنقه، تأوَّه لألمها، وبكت تتشبث به فأغرق كدماتها بالقبلات الحانية، والتي تقبَّلتها كأجمل ما تحمله الحياة لها، قبلات تحولت من الحنان في لمح البصر إلى أخرى مسعورة جائعة لا يمكن إيقافها، والتأوهات المواسية باتت كشهقات شهوةٍ وكأن عود الثقاب قد ألقي في براميل النفط، لتتوهج حدود الفضاء بحريق لن يخمد مطلقًا.

كم بكت سقوطها تلك الليلة كمدينة سلَّمتْ حصونها واستسلمت لعار الهزيمة! ليلة ظنت أنها لن تنجو خلالها من عقاب خالقها، وأن الشمس لن تشرق عليها إلا وهي ميتة في فراشها لتلقى حسابها، لكن طبع الإنسان هو استسهال الحرام، الذي كان في بدايته مرعبًا يتحول مع الاعتياد إلى مسلَّم به، ويموت الضمير بالتدريج.

سقطا معًا فيما لم يتخيلا سابقًا أن يسقطا فيه ولو بعد ألف عام، وعاشا العلاقة المحرمة حتى النهاية، وكلما تعاهدا على التوقف نقضا العهد أسرع مما توقعا.

***

«بداية النهاية سوادُ عفنٍ نشع في الجسد والنفْسِ حتى النخاع».

لم تصدق أنها أُجبرت على التخلي عن موعدها مع الحبيب لأجل مرافقة أخت زوجها إلى الوحدة الصحية، وكأن زواجها ينقصه فوق الهجر والملل ملل!

تنهدت قائلة بنفاد صبر: «لا أعلم سر إجبارِكِ لي على مرافقتك».

نظرت إليها أخت زوجها وقالت بحيرة: «لم أجد من ترافقني، ثم ألم تخضعي لتحاليل فحصٍ معي المرة السابقة ويُفترض أن تستلمي النتائج الخاصة بكِ؟».

نظرت إليها فاتن وهمست بحنق: «حتى تلك التحاليل أجبرتِني عليها وأنا لا أشكو من شيء».

مطت الشابة شفتيها قائلة وهي تضع يدًا على يد: «هل هذا جزائي لأنني اتبعتُ تعليمات منشورات الوحدة واصطحبتك معي كي نطمئن على نفسَينا؟ ما بالك أصبحتِ عصبية ومنطوية؟ أهي حالة تجاه الجميع أم ضدنا نحن أهل زوجك فقط؟».

التزمت فاتن الصمت كي لا تكشف عن نفسها المزيد.

تابعت أخت زوجها تميل إليها: «عامة أنا أعرف سر عصبيتك وضيقك مؤخرًا».

التفتت إليها فاتن بوجه شاحب وقد فرَّت منه كل ألوانه، فلم تفطن الشابة إلى تغيرها.

تابعت مبتسمة: «اطمئني، سيرتاح بالك قريبًا، فأخي سيرسل لكِ كي تسافري إليه أنتِ وابنه فتستقران معه أخيرًا».

شحوبها تحول إلى صدمة وسألت محتدة: «من قال هذا؟!».

تعجبت أخت زوجها من غضبها عوضًا عن الفرح، فقالت بخفوت: «أظن أن والدك اتصل بأخي ونبَّهه إلى ضرورة سفرك إليه، فاستجاب واقتنع».

حدقت فاتن أمامها بعينين ناريتين تقدحان حقدًا وغضبًا، لكن لسانها عاجز عن الرد والصراخ رفضًا لتحريكها من يد إلى أخرى دونما اعتبار لرأيها.

خرجت الطبيبة في تلك اللحظة من الغرفة الصغيرة، وهي طبيبة غريبة عن البلدة لا تعرف أهلها حق المعرفة، وفي خروجها رأت الشابتين جالستين بين مجموعة من نساء البلدة المنتظرات لأدوارهن، فابتسمت لفاتن وأخت زوجها.

وبادرتهما قائلة: «مبروك يا ست فاتن كان معي نتائج تحليلك، أنتِ حامل، أما عن باقي التحاليل...».

لم تسمع فاتن المتبقي من كلامها، فصوت طنين حاد ضرب أذنيها وزاغت عيناها وكأن روحها تصعد بصعوبة، بينما اتسعت عينا أخت زوجها وحركت رأسها ببطء شديد مخيف من الطبيبة لتحدق إلى فاتن، التي جلست كصنم لا يفقه شيئًا قبل أن تخفض عينيها بالبطء نفسه إلى بطنها الضامر.

قالت بصوت مرعب في خفوته: «ما الذي تقولين يا دكتورة؟! مؤكد اختلطت تحاليلها مع تحاليل شخص آخر».

نقَّلت الطبيبة عينيها بينهما بقلق، ثم قالت على مهل شاعرة بالخطورة والتسرع في نطقها: «يمكننا إعادة تحليل الدم».

لكن ما لم يتوقعه أحد من الموجودين أن تقفز فاتن من مكانها دون تفكير لتفر جريًا هاربة بحياتها. منظرها وهي تجري أمامه أرعبه، فترك ما أمامه من بضاعته ولحق بها متلفتًا حوله حتى قابلها في واحدٍ من الأزقة، كانت زرقاء البشرة، عيناها مرعبتا المنظر في هلعهما، ترتعش وكأن الشياطين كانت تلاحقها.

هتفت فاتن ضاربة بكفيها على وجنتيها دون رحمة: «فُضِحْنا، فُضِحْنا، سيعثرون علينا ولن يتركونا أحياء أبدًا».

شحوبها انتقل منها إليه، فمادت الأرض من تحت قدميه.

أمسك بكتفيها وهتف محاولًا التماسك: «اهدئي، اهدئي وأخبريني بما حدث».

وبكلمات متعثرة شاهقة أخبرته، فنظر إلى بطنها ذاهلًا.

هتف غاضبًا يشدد قبضتيه على ذراعيها: «وهربتِ أمام الجميع لتثبتي الاتهام على نفسك؟!».

- ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير هذا والطبيبة تقترح تحليلًا آخر؟!

- كان بإمكانك التصرف إن هدأتِ وفكرتِ قليلًا، كالاختلاء بالطبيبة مثلًا وترجِّيها بأي حجة.

- وهل كان هذا وضعًا يسمح لي بالتفكير أو الهدوء؟! لم أفكر سوى في النجاة بحياتي قبل فوات الأوان، يجب أن نهرب حالًا قبل أن يصل أهل زوجي إلينا.

رفع كفيه إلى جبهته وهتف: «إن اختفيت فجأة فسيعرفون أنني الفاعل، أنني أنا من دنس شرفهم».

نظرت فاتن إليه ذاهلة ترتعش ثم أمسكت بقميصه بكلتا قبضتيها هاتفة: «ماذا تقصد بكلامك؟! هل تنوي التخلي عني الآن؟!».

أمسك بقبضتيها هاتفًا بانفعال متداعٍ: «أنا لن أتخلى عنكِ ولو قدمتُ لهم حياتي فداءً لحياتك، لكن هروبنا معًا في اللحظة نفسها سيمكّنهم من الوصول إلى بيتي حيث زوجتي وابنتي، ربما من الأفضل أن أهرّبك أنتِ أولًا ثم...».

قاطعته هاتفة من بين أسنانها بشراسة لا تحرّر قميصه من قبضتيها: «والله لن يحدث، قدمي على قدمك، منذ هذه اللحظة ربط بيننا رابط لن ينفصم أبدًا، فكما خسرتُ «علي» ابني ستخسر ابنتك «ترنيم»، أما الجنين في رحمي فلن أجهِضه ليربطني بك أكثر فلا تفر وتتركني وحيدة خاسرةً شرفي وأهلي وابني».

****

«عليٌّ وترنيم».

جلست على الأرض الباردة الخالية. مستندة بظهرها إلى الجدار، رافعة ركبتيها تحيطهما بذراعيها وتضمهما إلى صدرها، بفستان زفافها، زفاف لم يكتمل لأنه لم يبدأ من الأساس! كذبة، كل شيء كان كذبة مريرة كبيرة انتهت بجلوسها في المكان نفسه كأول مرة دخلت فيها هذا البيت.

جفت الدموع على وجنتيها تاركةً خطوطًا سوداء من أثر كحلٍ كانت قد تزينت به ليلة أمس، فبدت كرمادِ حريقٍ خلّفته الأمطار على جدران بيت هلك،

نظرتها الميتة لم تتحرك من فوق باب الشقة المغلق علّه يفتحه عائدًا إليها قائلًا إنه مستعد لسماع تبريرها.

تسلل شعاع الشمس من نافذة الشقة معلنًا بداية يوم جديد ونهاية الكذبة، ونهاية القصة، تحركت حدقتاها بلهفة رغم وهن أطرافها ما إن سمعت صوت المفتاح ليفتح الباب بعدها، فتعلقت عيناها بشق الباب تتمنى رؤيته يدخل، لكن طرف العباءة السوداء ظهر ثم العصا، دخلت عوالي من الباب ببطء متكئة إلى عصاها، وأبقت ترنيم عينيها الفارغتين على طرف عباءتها دون أن ترفعهما.

مرت لحظات طويلة ثقيلة ثم تكلمت عوالي قائلة بجفاء: «إذن فقد تزوجتما دون علمي ووقع ما وقع!».

أخفضت ترنيم جفنيها المتقرحين فوق العينين الحمراوين الخاليتين من المشاعر ولم تجب.

تابعت عوالي: «علمتُ أن إصرار «علي» على إبقائك في هذا البيت رغم معرفته من تكونين حقيقةً ستنتهي بنهاية مأسوية للجميع».

رفعت ترنيم عينيها الضائعتين إلى عينَي عوالي الصارمتين ونظرة الاتهام فيهما تقتل، إن كان لا يزال في جسدها المتراخي روح من الأساس.

همست ترنيم: «هل كنتِ على علم أنتِ أيضًا؟».

زمّت عوالي شفتيها ترمقها بنظرة نقمة حقيقية وردت بقساوة: ««علي» لا يخفي عني شيئًا أبدًا، كنت أنا من داوى طفولته التي دمرها اثنان عديما الأخلاق والمسؤولية، انساقا خلف هيامٍ نجس ودمرا الجميع دون رحمة أو تفكير، كنت أنا من حاول طوال تلك السنين امتصاص سواد تلك الكارثة، كامتصاص سم الأفعى لبصقه بعيدًا، حتى ظهرتِ أنتِ فجأة من العدم!».

أغمضت ترنيم عينيها بأسى تشدد من ضم ركبتيها إلى صدرها بقوة، فتنهدت عوالي تهز وجهها بأسى.

قالت وكأنما تخاطب نفسها: «لم أصدق «علي» حين أخبرني أنكِ ابنة ذلك الرجل بعد أن تفحصنا بطاقة هويتك، وحاولت إقناعه أنه مجرد تشابه أسماء،

حتى تأكد بنفسه لمجرد أن يثبت لي أنه على حق، وقد كان محقًا، أنت ابنة ذاك الرجل فعلًا».

صمتت للحظات بينما زادت ترنيم من ضغط جفنيها تمنع نفسها من البكاء.

تابعت عوالي بقسوة: «كرهتك منذ اللحظة الأولى، كرهت تلك التي قطعت السنوات آتية من الماضي إلى عتبة باب «علي» عاقدة النية على نخر جرحه القديم».

رفعت ترنيم كفيها تغطي بهما وجهها تكتم نحيبها المختنق.

ضربت عوالي بالعصا على الأرض وسألتها بحيرة: «لماذا؟! ما سبب فتحك لقصة قديمة مضى عليها عشرون عامًا؟ وما هو ذنب «علي»؟».

مسحت ترنيم وجهها بكفيها ثم تراجع رأسها إلى الخلف مستندة به إلى الجدار، تحدق إلى السقف دون جوابٍ.

سألتها ترنيم بصوت أجوف: «لماذا لم تطرديني من بيتك ما دمتِ عرفتِ من أكون؟».

أخذت عوالي نفسًا عميقًا مثقلًا وأجابتها بخشونة: «أردت طردك، بل وحاولت مرارًا خوفًا من أن يتهور ابني في لحظة غضب ويؤذيكِ فيضر نفسه، حاولت إقناعه أنكِ لا تستحقين أن يضر نفسه بسببك، لكنه كان مصممًا على معرفة نيتك وسبب ظهورك بعد كل هذه السنوات».

ضغطت عوالي شفتيها وهمست من بينهما: «ومع ذلك كان على وشك الاقتناع حتى اقتحمتِ شقتي صارخة في وجهي باتهامات وقحة لنبقيكِ بالقوة، وكان الاتصال مفتوحًا بيني وبينه، يومها أقسم إنه لن يتركك إلا بعد أن يعرف غايتك، فمن الواضح أنكِ رسمتِ خطة ولم تكوني على استعداد للتراجع عنها، وبخاصة مع مراقبته لكِ في خروجك للبحث عن مأوى أو عمل، ليكتشف أنكِ تضيعين الوقت في الخارج ثم تعودين مدَّعية فشلك في العثور على أيٍّ منهما».

تنهدت تنهيدة مثقلة ثم فتحت كفها قائلة بجفاء: «استمتُّ للبقاء فأبقاكِ، ومن يلومه؟! حتى أنا وجدت أنكِ تستحقين عواقب خداعك، بل وتسعين إليها سعيًا!».

صمتت قليلًا تراقب العروس الجالسة أرضًا كأكثر الصورِ حزنًا، بفستانها الأبيض الذي بدا تصميمه حزينًا وكأن طبقاته تتهدل مشابهة الخطوط السوداء فوق وجنتيها.

سألت عوالي أخيرًا: «ألن تخبريني عن خطتك الآن وعن سبب ظهورك لعلي؟».

فتحت ترنيم عينيها الحمراوين المحدقتين إلى السقف وهمست بصوت كهمس الأشباح: «لن أتكلم إلا مع «علي»».

- لا أظنه مستعدًّا لسماعكِ، ولا أظنه سيكون أبدًا.

- سأنتظر.

راقبتها عوالي بنظرة طويلة ثم أخفضت جفنيها وهي تستدير لتغادر بخطوات بطيئة متثاقلة.

بينما تقول: «ستنتظرين طويلًا يا ترنيم، لكنك معتادة الانتظار على كلِّ حال، فلقد انتظرتِ عشرين عامًا كي تحمِّلي «علي» ذنبًا اقترفه غيره».

أغلقت عوالي الباب خلفها تاركة ترنيم محدقة إلى شعاع الشمس المار أمام عينيها.

همست ترنيم تومئ برأسها مؤكدة: «سأنتظر، ولو لعشرين عامًا قادمة، سأنتظر وسيسمعني».

****

يظنون أنهم يعاقبونها بتركها منبوذة في شقة خالية، تجلس أرضًا تراقب الباب ليلًا ونهارًا في انتظاره، يظنون أنها ستُجرح بدخول عزيزة من باب الشقة حاملة الطعام لها لتضعه على الأرض أمامها، وكأنها حيوان ضال تترك له بقايا أكل من باب الرحمة، ثم ترميها بنظرة جافة وتغادر.

يظنون أن بقاءها على هذا الحال لأيام لهو أشد العقاب بالنسبة إليها، لا يدركون أنهم لو قطعوا من جسدها اللحم وأطعموها إياه قسرًا، فلن يماثل الألم ألمها كل ليلة وهي تستمع إلى حركاته المجنونة وصوت ضرباته وتكسيره فوق سقفها.

كانت أصوات شخص تحامل على نفسه طويلًا في التظاهر وكتمان عنف مشاعره، ثم انفجر فجأة، كان هذا هو الألم الحقيقي لها الذي كان عليها تحمله كل ليلة دون أن تملك القدرة على الصعود إليه لتمتص سم الأفعى كما فعلت عوالي في طفولته، لكنها هي الأفعى الآن، هي من بثَّته السم ثم جلست أرضًا تسمعه وهو يتلوى من الوجع.

كانت تبكي مع صرخاته الغاضبة بين الحين والآخر، ومرات تقوم من مكانها عازمة على الصعود إليه ولو كلفها ذلك حياتها، لكنها تعود وترتمي مكانها، لا جبنًا، وإنما خوفًا عليه من زيادة انفعاله إن رآها.

لن تدَّعي أنها لم تنم خلال تلك الأيام، بل على العكس، كان عقلها ينتهز الفرص كي يغفو فيراه في الحلم، كلما نامت ترى باب الشقة يُفتح ليدخل منه ناظرًا إليها بعينين معاتبتين فيسألها بخفوت: «هل ندمتِ؟». تهز رأسها وتهمس مجيبة كأنين متوسل: «أشد الندم». فيبتسم لها وتشعر بقلبها يخفق بشدة حد الألم، لكنها تستيقظ بعدها لتجد أنها لا تزال وحيدة منتظرة وعيناها على الباب، فتتأوه بحسرة.

رفعت أصابعها تمسح جبهتها بضعف وهي تنظر إلى الباب، ثم لم تلبث أن انتفضت ما إن سمعت صوت طرقات ضعيفة على الباب من الخارج!

اتسعت عيناها وهمست بلهفة: «علي».

ثم قفزت واقفة وجرت إلى الباب تفتحه، لكن سرعان ما هوت كل أحلامها أرضًا وهي ترى صابر الصغير واقفًا أمامها وعلى وجهه ملامح السعادة واللهفة لرؤيتها كما كانت تتلهف لرؤية «علي».

نظرت ترنيم خلفه إلى السلم الخالي ثم أعادت عينيها إليه وسألته: «صابر! كيف دخلت من الباب الأمامي؟ هل طلبتَ الإذن من السيدة عوالي؟».

هز الصغير رأسه نفيًا ورد قائلًا ببساطة وبلكنته ذات حرف اللام الناقص: «تسللت لأراكِ».

ارتفع حاجباها وزارت البسمة شفتيها للمرة الأولى منذ أيام، فأمسكت بمعصمه تدخِله إلى الشقة.

بادرته قائلة بلطف: «سررتُ برؤيتك يا صابر، لكن عليك الالتزام بقوانين السيدة عوالي واحترام خصوصيتها».

- لكنني اشتقت إليكِ، لماذا توقفتِ عن النزول إلينا؟ هل أنتِ مريضة؟

أبعدت ترنيم خصلة من شعرها خلف أذنها، ثم حاولت الكلام بصوت لطيف: «نعم، كنت متعَبة قليلًا ولهذا لم أستطع النزول».

هتف الولد مبتسمًا بانتصار: «قلت لهم إنكِ لا بد وأن تكوني مريضة لهذا لم تأتي، فكانوا يقولون إنكِ مللتِ مني ومنهم».

حدقت إلى عينيه للحظات طويلة ثم قالت أخيرًا ببطء وصدق: «شكرًا يا صابر لأنك تعرفني وتثق بي، وأعتذر لأنكم رجعتم إلى الأكلِ بمفردكم».

لمعت عيناه بالسعادة لثنائها وعلّق قائلًا: «تنزل السيدة عوالي لتشاركنا الطعام كل يوم».

اتسعت عينا ترنيم قائلة بدهشة: «كل يوم؟! هذا شيء رائع!».

ساد الصمت للحظات، ثم سألته بحذر ونبرتها الخفيضة تتداعى متكسرة: «أهي فقط من تشارككم الطعام؟ ألا يشارككم «علي»... أقصد السيد «علي»؟».

- لقد توقف السيد «علي» عن مشاركتنا الطعام منذ اليوم الذي توقفتِ فيه أنتِ أيضًا.

أطرقت برأسها غائمة العينين وقد انقبض صدرها.

سألها صابر: «هل ستأتين؟».

نظرت بيأس إلى نظرة الأمل في عينيه المعبِّرتين وضغطت أصابعها بشدة، فلم تستطع خذلانه، يكفيها كم الخذلان الذي تسببت فيه حتى الآن.

****

دخلت ترنيم بخطوات بطيئة من باب الطابق الأرضي ممسكة بكف صابر تتلمس منها الشجاعة، لكن سرعان ما فقدتها حين رأت عوالي جالسة حول المائدة مع باقي الأولاد، وعزيزة واقفة بجوارها توزع الطعام.

لم تكن عوالي قد انتبهت لوقوفها حتى هتف صابر بسعادة: «جئتكم بها».

رفع الأولاد رؤوسهم وسرعان ما تهللت وجوههم بالفرحة وهتفوا باسمها، وكأنها أصبحت فردًا من عائلة تشكّلت مع الأيام، لا مجرد أفراد تحت سقف مأوى وبين جدرانه المصمتة.

حاولت ترنيم التبسم لهم، لكنها لم تقدر ولم تطاوعها شفتاها، فأخفضت رأسها تتقدم بخطوات متعثرة وجلست وكأنها تجلس على أشواك مسننة، مدركة نظرات عوالي القاسية ونظرات عزيزة المتربصة بها.

مطت عزيزة شفتيها وغمغمت بصوت مسموع: «فعلًا كما قال المثل، مات من اختشى!».

امتقع وجه ترنيم حتى بدت مريضة ولم تتجرأ على الرد أو رفع رأسها.

سألت عوالي بنبرة جافة: «هل صعدتِ إلى علي بطعامه يا عزيزة؟».

أجابتها عزيزة تطمئنها رامية ترنيم بنظرة حادة متحدية: «حصل يا سيدة عوالي، اطمئني، لا أنسى السيد «علي» أبدًا».

شردت عيناها وهي تتنفس بصوت عالٍ، ثم لم تلبث أن وضعت كفيها على سطح المائدة ونهضت واقفة بحركة قوية رافعة ذقنها، وقد بان في عينيها الإصرار والتصميم قبل أن تندفع مغادرة المكان.

حادت عينا عوالي خلف ترنيم في خروجها، بينما قالت عزيزة مخاطبة عوالي: «صحيح، تمسكَنت حتى تمكّنت، قادرة تلك التي خرجت في منتصف الليل باكية تدّعي المس فعاد بها السيد «علي» وهي ترتدي فستان زفاف وفي عصمته أصبحت، لكن الحمد لله، يبدو أن السيد «علي» كشفها بسرعة كما تزوجها بسرعة، وسرعان ما سيخرجِها من هنا».

قصف صوت عوالي رغم ثقل كلماتها توقف تلك المهزلة: «كفى، هل نسيتِ نفسك يا عزيزة؟!».

ارتبكت عزيزة بشدة بينما هتف منصور سائلًا بدهشة بالغة: «هل تزوجت «ترا لم لم» السيد «علي»؟!».

اتسعت أعين الأولاد كلهم متوقفين عن الأكل، بينما رمقت عوالي عزيزة بنظرة نارية غاضبة ثم زفرت بضيق لا تعلم متى ستكون النهاية وبأي كلمات ستُكتب.

****

لم يكن خروجها هروبًا، بل اندفاعًا إليه، حاولت خداعه فخدعها، لكن ما ذنب الأولاد كي يدخلوا دائرة خداعه؟ لقد تعلقوا به وأوهمهم أنه أصبح مهتمًا بهم، فانبهروا بقدرتهم على جذب انتباهه أخيرًا، والآن ينبذهم وكأنهم ما عادوا يساوون شيئًا بالنسبة إليه!

جرت على درجات السلم ممسكة بالسور متجاوزة شقة عوالي، ثم الشقة الخالية، وتابعت اندفاعها حتى وصلت إلى باب السطح الموارب، فنظرت من الشق المفتوح أولًا وهناك أبصرته، جالسًا جلسته المعتادة فوق البساط، وبجواره على الأرض صينية طعام لم يمسها.

فغرت ترنيم فمها قليلًا وغامت عيناها وهي تراه للمرة الأولى بعد غيابِ أيامٍ، يجلس أرضًا يستند بظهره إلى الجدار من خلفه محدقًا إلى السماء.

شعرت بوجع حاد في صدرها ما إن أبصرت ملامح وجهه التي نحتها الحزن ورسم الأسى خطوطها، عاد طفلها إلى وحدته وقد زاد الحزن ملامحه عمرًا، عاد إلى مكانه منهزمًا لا ظافرًا، لقد آذته بشدة وحرّكت ماء بركة قاعها موحل، ظلت ساكنة لسنوات طويلة، لقد كسرتْه.

راقبته يغمض عينيه وقد انعقد حاجباه وكأنه يتألم لفكرة طافت بنفسه للتو، فتراجعت مستندة بظهرها إلى الجدار من خلفها مطبِقة عينيها، ويدها تضغط صدرها تبكي بصمت لا تجرؤ على إصدار صوت، مالت بوجهها جانبًا وكأنها تترجاه أن يسمع نداءها الصامت، ألم يسبق وتشاركا الصمت مرارًا؟

فهل تراه أتقن فك شفرة الصمت بينهما؟ أم كانت كذبة أيضًا؟

فتحت عينيها ببطء وألقت عليه نظرة أخيرة قبل أن توشك على الفرار من صورة حزنه التي أدمت قلبها، أوشكت، لكن أوقفها إمساكه لقطعة من طعامه نظر إليها للحظة واحدة ثم رفعها إلى شفتيه وقبّلها مغمِضًا عينيه، وهناك على شفتيه بقيت.

جفت دموعها على الفور وهي تتأمله فاغرة فمها، تدعم نفسها بوضع يدها على الجدار كي لا تسقط، تحاول استيعاب تفسير حركته.

همست بينما ترتجف زاويتا شفتيها: «علي».

****

لم يفهم في البداية، فسنوات عمره التي لم تتجاوز العشر بعد لم تمكّنه من فهم سبب الطوفان الذي أغرق بيته وحياته فجأة، إذ عاد إلى بيته من المدرسة ذات يوم ففوجئ بهذا الجمع من أعمامه متجمعين وعلى وجههم نار ودمار، اتجهت الأنظار إليه بمجرد دخوله، ومن أعينهم أدرك أنه سيسمع الخبر الأسوأ في حياته، فهل هو والده؟ هل مات في سفره؟

جال بعينيه السوداوين بين الوجوه والأعين الشاخصة إليه، وكأنه متهَم بجريمة لا يعلمها.

سأل دون مقدمات: «أين أمي؟!».

وكأنه ألقى بشعلة في كومة من القش والحطب، إذ اشتعلت النار أكثر وعلا الطوفان مهدِّدًا بإغراقه. ومن صمتهم لم يحاول السؤال مرة ثانية.

جرى عبر البيت مناديًا: «أمي، أين أنتِ».

لكن قبضة كالحديد أمسكت بذراعه وشدته إلى الخلف كي يستدير ويواجه عينَي عمه الأكبر، توقف لاهثًا وهو ينظر إلى تلك النار المشتعلة في عينيه، التي لم يسبق له أن رأى مثلها، لم تكن نيران حزن قط، فلو مات والداه معًا لما تمكن فراقهما من إشعال نار مماثلة مطلقًا، إنها نار خطر ستهلِك بيته وحياته.

على الرغم من صغر سنه أدرك هذا من النظر إلى عينَي عمه، وبالفعل لحقت الكلمات بتلك النار.

سأله العم حافرًا أصابعه في ذراعه أكثر حتى شعر بلحمه يكاد أن يتمزق: «هل أنت رجل أم غير ذلك؟».

حدق إلى عينَي عمه بعينين واسعتين ولم يجِب، فقد كان الانقلاب من حوله أكبر من قدرته على إعطاء الرد الذي ستتحدد عليه العواقب.

هدر عمه بصوت عالٍ رج جدران بيته، فتزلزلت الأرض من تحت قدميه.

قال: «انطق، هل أنت رجل أم لا؟».

هتف مجيبًا بعنف حتى احمر وجهه وانتفخت عروقه بشدة: «أنا رجل».

أومأ عمه دون أن يحيد بعينيه الناريتين عن عينَي الصبي، ثم قال: «إذن فلتنسَ أمك، أمك من اليوم في عداد الأموات، ودمها مهدور، فهل تفهم السبب أم أنطقه لك؟».

هز الصبي رأسه بقوة وهتف دون تفكير: «لا، لن تقتلوا أمي، لن أسمح لكم».

الصفعة التي هوت على وجهه بقوة لم تصدمه كصدمة سماع الحكم على أمه.

تلاها صوت عمه يهدر مجددًا بصوتٍ مرعب: «كن رجلًا وافهم معنى كلمة الشرف».

هز رأسه نفيًا مجددًا، لكن حركة رأسه هذه المرة كانت أضعف، أما الصفعة التالية فكانت أقوى، حتى إنه ترنح إلى الخلف.

حينها نهض آخر من أعمامه وأمسك بالصبي يبعده قائلًا: «لقد فهم ويحتاج إلى الوقت ليستوعب».

ثم شده خلفه كالمجرمين وسلَّمه إلى واحدة من زوجات أعمامه، وقد أبقته في غرفة وحيدًا وكأنهم يمنحونه الفرصة كي يتفهم خطورة الموقف.

أمضى أيامًا وحيدًا في تلك الغرفة لا يدخل إليه إلا من يضع له الطعام، فيرفع عينيه متلهفًا في كل لحظة لسماع خبر الإقرار بأن أمه كانت مظلومة،

وأن الرصاص سيُطلق اعتذارًا لها ليسمعه أهل البلدة كلها، حتى دخلت له واحدة من خالاته المتزوجات ذات يوم تتغطى بالسواد، وكأنما هي في زيارة إلى سجين، أوقفتها زوجة عمه عند باب حجزه الانفرادي.

قالت لها بجفاء: «أمر عمه ألا تطيلي البقاء، فقط تطمئنين عليه ثم تخرجين على الفور، وهذا أقصى ما نستطيع تقديمه لعائلتكم».

انتظرت خالته حتى أغلق الباب خلفها، ثم جرت عليه تمسك بكتفيه هاتفة: «"علي"، هل أنت بخير؟ هل آذاك أحد؟».

قبل أن يحاول الرد رآها تضع إصبعها على فمها كي يصمت، يسمعها ولا يتكلم، ثم مدت له يدها، مكتوب على راحة كفها: «اتصلت بي أمك تريدك أن تحاول الفرار لها بعد فترة حين تستقر أمورها، هذا رقم هاتف بيتي، احفظه جيدًا لتتصل بي بعد فرارك كي أخبرك أين تجدها بالضبط. لا تخبر مخلوقًا، حتى أبي وأمي».

حفظ «علي» الرقم، ثم فركتْ كفيها بقوة تومئ له، وتمهلت قبل رحيلها ناظرة إليه نظرة أسى ومرارة طويلة، ثم وقفت واندفعت لتغادر، وما كادت أن تفعل حتى دخل عمه بعدها ممسكًا به بكفين عنيفتين يفتش كل ذرة من جسده النحيل، أملًا في العثور على ورقة من خالته تمكّنهم من الوصول إلى فاتن، بينما «علي» مستسلم ليديه تمامًا، فاتر الملامح والنظرة، وكأنه يراقب ما يحدث لشخص آخر غيره، وبعد أن تأكد عمه من أنه لا دليل لديه يوصله إلى الزانية، وقف يرمق ابنها من علوٍّ بنظرة سوداء.

قال قاطعًا له الوعد: «لا بأس، سنعثر عليها مهما طال فرارها، وسنطبع بدمها كفوفًا فوق الجدران».

بقي «علي» محتجَزًا، لكنه بات الآن مترقبًا بخوفٍ أقرب إلى اليقين خبر مقتل أمه، لكن لم يكن خبر موت أمه هو ما وصل إليه، بل موت أبيه في الغربة في حادث، حيث كان يقود كالمجنون على غير هدى ينهي إجراءات عودته ليطهّر شرفه بدم زوجته النجس.

منذ تلك اللحظة وكأن مسًا قد أصابه، فتحول إلى فتى عدواني شرس يعتدي على كل من يحاول تهدئته أو حتى السيطرة عليه بالعنف الجسدي، لم يؤثر فيه الضرب، وإنما الكلمات التي كانت تصل إلى أذنيه عن الشرف الضائع بموته، وأنه لن يرتاح في قبره إلا بقتل الزانية.

تحول إلى مجنون أصاب العديد من أبناء أعمامه، منهم الأكبر ومنهم الأصغر، حتى جاء يوم لم يعد قادرًا على التحمل أكثر، فتسلل من نافذة الغرفة التي كان محتجَزًا فيها وهرب حافي القدمين، هرب مقررًا طي صفحة أمه ونسيانها ونسيان رقم خالته إلى الأبد، هرب مستقلًا أول قطار دون تذكرة، ليأخذه إلى المجهول بلا عودة.

****

استفاق من غفوة ذكريات أشبه بقيحِ جرحٍ لا يجف ولا يشفى على صوت خطوات بطيئة فوق السطح خارج غرفته، فرفع ذراعه عن عينيه لينظر إلى الباب المغلق طويلًا بعينين قاتمتين، لهما خطوط محفورة في الزوايا لا تناسب سنوات شبابه.

تحرك لينهض من فراشه وسار تجاه الباب ممسكًا بمقبضه مرهفًا السمع مطرقًا برأسه للحظات، ثم فتحه وخرج، وهناك رآها واقفة بالقرب من السور عاقدة ذراعيها وشعرها يتطاير مع الرياح العاصفة، صورتها كالحلم، حتى لم يعد قادرًا على التمييز إن كانت حلمًا فعلًا أم كابوسًا، لكن ما هو متأكد منه أنها لم تكن يومًا حقيقة.

وقف مرجعًا رأسه إلى الخلف مالئًا رئتيه بالهواء البارد، يحفظ تلك الصورة في مخيلته إلى الأبد، منذ اللحظة التي أمسك فيها ببطاقة هويتها وقرأ الاسم المقترن باسمها، حتى أدرك أن شيطانه قد عاد وكان يظنه قد دُفِن داخل زوايا نفسه باقتدار يستحق الثناء عليه.

حملها بين ذراعيه بحرصٍ وكأنه يحمل آثامًا لم يقترفها ليكفِّر عنها كلها مجتمعة في ذلك الجسد الذي يضم روحًا خبيثة، كحية سمح لها بدخول البيت

لينتزع سمها، لكن كيف حدث أن أَمِنَ غدره فسرى في أوردته دون أن تمسه بنابيها؟

مالت ترنيم بوجهها دون أن تستدير مرهفة السمع للخطوات من خلفها، ثم أغمضت عينيها وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيها، فهناك وقف ولم يتابع تقدمه، واقف يتأملها كما تقف هي تترقب صوت أنفاسه الذي يعلو على صوت الريح نفسها، شعورها أنه يقف خلفها ساكنًا جعلها تشعر بدفء ترجّاه قلبها أن يبقيه ولا يبدده سريعًا، فلقد عاشت في الصقيع سنين طويلة، ستحفظ تلك اللحظات إلى الأبد، وستموت مرتاحة إن ألقى بها من فوق السقف بعدها.

قال: «يمكنني رميك من فوق السطح الآن، أو على درج السلم، فأيهما تفضلين؟».

فتحت عينيها على صوت كلماته الميتة الباردة من خلفها، وكأنه قرأ أفكارها للتو وأجاب رجاءها بالنفي دون تردد.

استدارت إليه ببطء تنظر إليه عبر الظلام المحيط بهما، اثنان يقفان على ضفتَي نهر أسود ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر، إنما في سواده نارٌ أشد تعذيبًا.

لم يخِفها تهديده، إنما زادها يأسًا، ومع ذلك همست: «لماذا عدت إلى عزلتك بمجرد أن كشفت ورقك لي؟ لقد تعلق بك الأولاد وانبهروا بتواصلك معهم، فقد كانوا ينظرون إليك وكأنك نجم عالٍ يتمنون حياته ومكانته، لا يعرفون مقدار وحدتك وزهدك في كل شيء».

ساد صمت مخيف بينهما ولم يجبها، وإنما بقيت هيئته الصلبة ثابتة دون حراك، وكأنه لم يتأثر بمقدار ذرة بكلامها.

أغمضت عينيها وهمست متابعة بصوت متهدج تحاول من جديد: «هلا سمعتني؟ أرجوك».

أشار بذقنه تجاه باب السطح دون أن يتحرك، وأمرها: «اخرجي من هنا ولا تعودي».

ازدردت لعابها ترتعش شاعرة بالبرد، فزادت من ضم نفسها بذراعيها، إلا أنها رفعت وجهها ونظرت إلى عينيه.

همست بإصرار: «لن أخرج إلا بعد أن تسمعني، أرجوك فرصة أخيرة، أتوسل إليك».

ضاقت عيناه، ورغم أن الظلام المحيط بهما حالك يكاد أن يبتلعهما، فإنها استطاعت رؤية الخطر في هاتين العينين.

ومرة أخرى همس من بين أسنانه ببطء شديد: «قلت اخرجي».

هزت رأسها نفيًا وقالت بصوت مختنق: «لا، لن أخرج قبل أن تسمعني».

ارتفع حاجباه مائلًا برأسه مغمغمًا: «حقًا؟! لا تقولي إنني لم أحذرك إذن».

لم تفهم مقصده، ولم تجد الفرصة لتستوعب اقترابه المندفع منها بسرعة البرق، فتراجعت شاهقة ظنًا منها أنه سينفذ تهديده لها برميها من فوق السطح، إلا أنه ما إن وصل إليها حتى شعرت بذراعه تلتف حول خصرها لترتفع قدماها عن الأرض وكأنها لا تزن شيئًا، وسار بها متجهًا إلى باب السطح حيث خرج منه بينما هي تقاومه.

هتفت بتوسل: «أرجوك يا «علي» لا تفعل هذا واسمعني».

نزوله بها على درجات السلم في ذلك الظلام أشبه بشيطان يسحبها معه إلى قاع المجهول.

زاد رعبها أضعافًا وذهولًا وهي تراه يتجاوز بها باب شقتها ثم شقة عوالي متابعًا نزوله، فزادت من مقاومتها له وهي تهتف: «ماذا تفعل يا «علي»؟! إلى أين تأخذني؟! أنزلني».

وبالفعل أنزلها أمام باب البناية، لكن لا ليحررها، وإنما ليفتحه في هذه الساعة المتأخرة، ثم أمسك بذراعها يشدها خلفه عبر الفناء وهي تترجاه أن يتوقف ويسمعها، لكنه بدا وكأنه لم يعد قادرًا على تحمل وجودها أكثر.

اتسعت عيناها وهي تراه يتجه بها إلى البوابة مندفعًا دون توقف، وحين وصلا إليها تركها مجددًا ليفتحها، فوقفت ترنيم ذاهلة لا تصدق ما تظنه،

وبالفعل صدق ظنها، فما إن فتحها حتى أمسك بذراعها من جديد ثم طردها خارجًا.

وهدر: «إياكِ والعودة إلى هذا البيت».

ثم استدار عائدًا بخطواتٍ واسعة!

هتفت خلفه بعنف: «أنا زوجتك الآن وأحمل اسمك يا «علي»، فهل ترميني خارجًا في مثل هذه الساعة؟!».

لم يجبها وكأنه لم يسمعها، بل ولم يعبأ بما قالت لتوها، ارتعدت ترنيم من البرد والخوف ناظرة حولها، وحين أعادت عينيها لاحظت خروج عوض وعزيزة من غرفتهما يراقبان ما يحدث بصدمة، فاحتقن وجهها بخزي أمامهما واستدارت لتغادر مطرِقة برأسها.

صعد «علي» درجات السلم مكفهر الملامح وعيناه تقدحان شررًا، ينتفض غير قادر على التحكم بانفعاله، لكنه توقف ما إن رأى عوالي واقفة عند باب شقتها المفتوح تنظر إليه مقطبة الجبين بغير رضا.

اضطرب أمام نظرتها، لكنه تابع صعوده دون كلمة واحدة، فراقبته عيناها إلى أعلى، وحين أوشك على أن يختفي رأته يتوقف للحظات متمسكًا بسور السلم، ثم لم يلبث أن شتم بصوت غاضب وهو يستدير نازلًا كالمجنون.

اندفاع خطواته كان يحرِّكه القلق خوفًا من اختفائها في الظلام، وكلما بدا هذا الاحتمال بالنسبة إليه ممكنًا زاد من سرعة خطواته، حتى وصل إلى البوابة يفتحها بعنف، لكن قبل أن يخرج منها سمع صوت عوض يناديه.

يقول: «انتظر يا سيد «علي»، السيدة هنا في الغرفة مع عزيزة».

استدار «علي» على الفور ليراها تخرج من باب غرفتهما مطرِقة الرأس، متجهمة الملامح، شاحبة الوجه، تضم وشاح عزيزة حول كتفيها اتقاءً للبرد القارس.

لهث زافرًا بانفعال مكبوت ثم هز رأسه آمرًا بصوت خفيض: «ادخلي».

لحقت به صامتة بعد أن ألقت بنظرة إلى عزيزة وزوجها ممتنة. ومثله رأت عوالي واقفة ترمقهما عابسة، فعادت تطرق وجهها من شدة الحرج، بينما لم يتكلم هو وتابع صعوده.

حين وصلا إلى باب شقتها التفتت إليه وهمست مجددًا: «هلا سمعتني أرجوك؟».

لكنها كانت تكلم الفراغ بعد أن زاد سرعته واختفى خارجًا من باب السطح يصفقه خلفه، كما أغلقت عوالي باب شقتها وبقيت ترنيم في المنتصف وحيدة منبوذة كارهة لنفسها.

****

لم يغفُ سوى ساعة على الأكثر، ثم استفاق ليستعد إلى الخروج متجهًا إلى العمل، وإن كان صادقًا مع نفسه فهو يسعى للفرار من البيت ووجودها فيه، لكن بمجرد أن فتح باب غرفته حتى تسمر مكانه مصدومًا، ففوق البساط كانت ترنيم مكومة كالجنين ملتفة بغطاء ثقيل وقد ازرق وجهها من شدة البرد!

تراجع خطوة ثم وقف يتأملها وكأنه يحاول التأكد من استلقائها على باب غرفته حتى الصباح. أغمض عينيه مطبِقًا شفتيه الجافتين للحظات، ثم عاد ينظر إليها بقنوط، ترى أي لعبة تحاول لعبها الآن؟ وهل هي من الغباء بحيث تتخيل أن تؤثر فيه مثل تلك التصرفات؟

بينما هو يتأملها فتحت عينيها فجأة فالتقت بعينيه، فانتفضت جالسة بسرعة بينما تراجع مجددًا، لكنه عاد وتقدم خارجًا من الغرفة متجهم الملامح مغلِقًا الباب خلفه.

قالت متوسلة بصوت مبحوح متحشرج بشدة: «هل يمكننا التكلم قليلًا أرجوك؟».

لكن وكأنها متسولة في طريق عام، تجاهلها متابعًا طريقه، فأغمضت عينيها متنهدة بأسى وهي ترجع برأسها لتستند به فوق جدار غرفته محدقة إلى السماء الزرقاء الرمادية لفترة طويلة.

نهضت أخيرًا بإعياء، وما إن تحركت حتى تأوهت شاعرة بكل جزء من جسدها متكسرًا، ثم التفتت ناظرة إلى باب غرفته للحظات طويلة، ولم

تستطع منع نفسها، ففتحت باب الغرفة غير الموصَد ودخلت بخطوات بطيئة مترددة، هي الغرفة نفسها المتواضعة ذات أثاث خشبي بسيط وأساسي، لا تضم أي وسيلة من وسائل الرفاهية.

تحركت ترنيم بداخلها شاعرة بألفة غريبة، وكأن روحه موجودة في كل ركن منها، فالغرفة تشبهه وكأنها هو إن كان مكانًا!

انحنت وجلست على حافة الفراش الصلب الذي أطل على النافذة المفتوحة على السماء مباشرة، إذن فهذه هي الصورة التي يفتح عينيه عليها، السماء، وكأنه طائر محتجَز ينتظر التحليق بعيدًا، بعيدًا عن البشر وشرِّهم.

مدت أصابعها تلامس وسادته حيث ترتاح وجنته إن كان يعرف الراحة من الأساس، فأصوات معاناته كل ليلة تصل إليها وتخبرها عن مقدار فقدانه للسلام، لكن من منهما حظي بالسلام لسنين؟

تنهدت ونهضت واقفة لتتأمل طاولة الزينة التي تضم عطوره، عطور غالية لا تتناسب مع الطاولة القديمة، ثم اتجهت إلى خزنة ملابسه وفتحتها لتحرِّك أصابعها فوق الملابس المتراصة، أيضًا كانت ملابس أنيقة تقدَّر بالكثير، لكنها كانت مجرد غلاف لا يشبهه، غلاف يناسب عمله مع عوالي والمكانة التي أعدَّتها له، أما داخل هذا الغلاف إنسان وحيد بسيط حد الزهد، وكأنه ما عاد راغبًا في أي شيء.

أغلقت الخزانة مستندة بجبهتها فوق خشبها القديم مغمِضة عينيها، ثم أخذت تضرب رأسها ببطء فوقها مرة بعد مرة تلعن نفسها.

****

لم تفهم كيف يمكن لرجل ناضج أن يضيع، كانت تظن أن الأطفال وحدهم من يضيعون لعجزهم عن إيجاد بيوتهم، لكن كيف ضاع والدها وهو الذي يحفظ عنوان بيته جيدًا؟!

كانت تراقب أمها في جلستها فوق الأريكة متربعة، تربط رأسها تكلِّم نفسها دون توقف لأيام: «أين يمكن أن يكون؟! هل انشقت الأرض وابتلعته؟!

أيام تمر ولا أحد لديه معلومة أو خبر! هل اختطفه الجان أم دهسته سيارة وفرت هاربة؟ لكن إن كان قد مات، ألم يُعثر له على جثمان؟!».

وحين تيأس من إيجاد الجواب بنفسها تنظر إليها وتبدأ في الولولة بصوت خفيض: «أين والدك يا ترنيم؟ أين اختفى؟ فلا هو عاد إلى البيت ولا هو موجود في مكان رزقه، فأين يمكن له أن يكون؟!».

ليتها كانت تمتلك الجواب كي تريح أمها من عذابها، لكنها لا تفهم حتى، كيف يضيع رجل ناضج إن لم يكن قد مات؟!

تنظر أمها من النافذة ثم تعود وتكلم نفسها ضاربة على ساقها: «أين غاب؟ أين اختفى ولماذا؟! لعل المانع خير».

كانت ترنيم تسمعها صامتة شاعرة بالحزن لحزنها وحيرتها، لكنها لم تكن تشعر بخوفها نفسه، فلقد كان لديها ثقة لا حدود لها حول عودة والدها، والدها لا يمكن له أن يبتعد عنها لفترة أطول من تلك، وفي أي لحظة ستسمع طرقاته على الباب، كانت مطمئنة تمامًا وكلها ثقة، حتى جاء اليوم الذي سمعت فيه صوت طرقات، لكنها لم تكن بقبضة والدها، فوالدها يطرق الباب بلحن تحفظه عن ظهر قلب ويجعلها تجري إلى الباب لتفتحه، أما تلك الطرقات فكانت مخيفة، وكأن جيشًا جرارًا قد انقض على شقتهم المتواضعة ينوي تسويتها بالأرض!

هذا هو ما رسمته مخيلتها الطفولية ما إن سمعت صوت الطرقات العالية على باب الشقة تكاد أن تخلعه من مكانه، في السابعة من عمرها هذا ما تخيلتْه، أن حربًا قامت وأن الجيش المعادي بدأ ببيتهم ليأخذ منهم الأسرى!

خرجت أمها من المطبخ مهرولة شاحبة الوجه والفزع مرتسم على ملامحها.

هتفت: «خيرًا اللهم اجعله خيرًا، سترك يا الله، من يطرق الباب بهذا الشكل؟!».

فتحت الباب لتجد نفسها في مواجهة أربعة رجال أشداء لهم ملامح مخيفة وأعين غاضبة لسبب غير معلوم، ومن رعبها لم تستطع أمها النطق وهي تحدق إليهم مذعورة.

سألها أحدهم بخشونة: «أين زوجك؟».

رأت أمها تحرِّك عينيها بينهم على أقصى اتساعهما، ثم تهمس متلعثمة ترتجف: «زوجي ليس هنا، غائب منذ فترة ولا نعرف عنه شيئًا».

تكلم أكبرهم آمرًا بنبرة جمَّدتها مكانها: «هل تخرجينه من مخبئه أم ندخل نحن ونأتي به قسرًا؟».

مدت أمها ذراعها على الفور لتشكِّل حاجزًا يحول دون دخولهم وهتفت بهلع: «لا أحد هنا إلا أنا وابنتي، قلت لكم إننا لم نسمع عنه خبرًا».

نظروا إلى بعضهم بعضًا بطريقة جعلتها تسألهم برهبة واضعة يدها على صدرها: «هل أنتم من الشرطة؟!».

أجابها الرجل بنبرة امتلأت بحقد وغضب لم ترَ مثلهما من قبل: «لو كنا من الشرطة لكان خيرًا له منا، زوجك ميت هو والزانية التي هرب معها، وما هي إلا مسألة وقت، لذا أنصحك ألا تساعدي في إخفائه لأننا سنصل إليه آجلًا أو عاجلًا».

فغرت أمها فمها وهي تراقب انصرافهم، ثم لم تلبث أن بدأت تضرب على وجنتيها مولولة بصوت مفزِع، حتى إن ترنيم انتفضت متراجعة إلى الخلف تراقب أمها التي خرجت إلى السلم تصرخ وتفضح كل شيء دون أن تستطيع منع نفسها، لم تترك جارًا إلا وشهَّدته على جريمة زوجها.

في سن السابعة لم تفهم ما اقترفه والدها، لكنها أدركت أن الجيش الذي طرق على الباب لم يكن آتيًا ليأخذ من أهل البيت أسرى، بل جاء ليحصد القتلى، أولهم وآخرهم هو والدها، وهنا بدأت ثقتها في رجوعه تناقش نفسها.

****

انحنى إليه واحد من العاملين في المحل الكبير ممسكًا بدفتر يريه بعض الأرقام، فأومأ له «علي» دون تركيز ناظرًا إلى الأرقام، فيراها تتداخل وتختلط.

قال بصوت خفيض شارد: «هلَّا أعطيتني بعض الوقت يا عم توفيق؟ ذهني شارد قليلًا».

ربت الرجل على كتفه ثم استقام واقفًا، لكن مع وقوفه عقد حاجبيه قائلًا بحيرة: «هذه الشابة تقف على هذا الحال منذ فترة لا تتحرك ولا تغادر، وكأنها مريضة بعلة نفسية».

رفع «علي» وجهه ليتبع نظرات توفيق، وما إن فعل حتى اتسعت عيناه وهو يراها واقفة أمام باب المحل على الجهة المقابلة من الطريق، غريبة وكأنها فعلًا مريضة بعلة نفسية، فهي تقف ورأسها مائل وكأنها على وشك السقوط، يتخبطها المارة فلا تتأثر، بل تترنح ثم تعاود الاتزان بوهن دونما اهتمام، شعرها تُرِكَ على سجيته فوضويًا حول كتفيها، وقبضتاها مضمومتان إلى جانبيها، عيناها مثبّتتان عليه وحده لا تتحركان، ضائعتان وكأنهما لا تعرفان في العالم سواه كي يدلها على طريق العودة! كانت لوحة مثالية للضياع والإلحاح في وقتٍ واحد.

شتم بصوت مكبوت غاضب، ثم اندفع قافزًا من خلف مكتبه متجهًا إليها أمام عينَي توفيق الفضوليتين بدهشة بالغة.

عبر «علي» الطريق بسرعة، وفي وصوله إليها ارتطم بها رجل من المارة، فدفعه بقوة حتى كاد أن يسقِطه أرضًا.

هدر بغضب: «انظر أمامك».

ثم أطبق كفه على ذراعها وشدها معه حيث يوقِف سيارته، ففتح باب المقعد المجاور لمقعده ودفعها إليه بخشونة، شعرت ترنيم بدوار شديد في أثناء انطلاقه بالسيارة، فأغمضت عينيها ورأسها يقع إلى الأمام ثم يعود ويرتفع بصعوبة.

مرت دقائق طويلة لم يستطع أيٌّ منهما النطق بكلمة خلالها، فقد كان هو على حافة الجنون غضبًا، أما هي فكانت على حافة اللاوعي، وحين تمكن من استعادة قدرته على الكلام ضرب المقود بقبضته فجأة.

وهدر: «ما الذي تفعلينه بالضبط؟! كيف لكِ أن تأتي إلى محل عملي؟!».

رفعت جفنيها بصعوبة ونظرت إليه هامسة: «لا بد أن تسمعني، أرجوك».

رماها بنظرة قاتلة ثم هتف من بين أسنانه: «تظنين أنكِ قادرة على التلاعب بي للمرة الثانية، أليس كذلك؟ أهو رهان بينك وبين نفسك؟!».

- وهل نجحت في التلاعب بك في المرة الأولى؟! بل كنت أتلاعب داخل مصيدة نصبتَها لي وكنت تراقب اللعبة مسرورًا.

تجمدت عيناه كبحيرتين جليديتين وأجابها بقسوة: «لم تكن اللعبة سارة لي في أي جزء منها، بل كانت مقيتة مقرفة وأنا أجبر نفسي على تحمُّلك والتظاهر بمدى احتياجي إليكِ، بينما أنا في الحقيقة أخشاكِ كوباء انتشر في البيت، كل مرة ترجيتك فيها أن تبقي قليلًا كانت عيناي تتقيآن لرؤيتك».

أغمضت عينيها وأرجعت رأسها إلى الخلف غير قادرة على تحمُّل كل هذا القدر من الكره المحمَّلة به كلماته، لكنه حصاد يديها وليس عليها إلا أن تلوم نفسها.

قالت: «أجبرت نفسك على الجلوس بجواري أيامًا عديدة فوق السطح وعلى بساطك، أمام مكان عزلتك عن الجميع، فهل يمكنك أن تجبر نفسك مرة أخيرة على سماع ما أريد قوله؟».

صرخ بها منفعلًا: «لا يحق لكِ طلب أي شيء، أنتِ لستِ خسيسة فحسب، بل أنتِ وقحة أيضًا ومتبجحة حد الغباء».

ازدردت لعابها شاعرة بالغصة في حلقها تكاد أن تشطره إلى نصفين مودية بحياتها.

رماها بنظرة أخرى وسألها محتدًا: «ثم كيف لكِ أن عرفتِ محل التجارة؟!».

أسبلت جفنيها وهي تهمس: «عرفت كل شيء عنك كما سبق وعرفت بيتك».

لم يتكلم، وبدا الصمت بينهما مخيفًا أكثر من الصراخ، ثم فجأة ودون سابق إنذار انعطف بالسيارة بقوة مما تسبب في علو نفير باقي السيارات من خلفه، لكنه لم يهتم وهو يوقف سيارته على جانب الطريق، ثم مال إليها حتى كاد أن يسحقها في المقعد في أثناء فتحه للباب المجاور لها.

عاد إلى مكانه آمرًا: «اخرجي من هنا».

حدقت إلى الباب المفتوح بجوارها بعينين زائغتين ثم التفتت إليه هامسة بترجٍّ: «علي».

لكنه أبقى عينيه على الطريق الممتد أمامه بملامح جافة لا تعرف الشفقة.

قال: «ولا تعودي».

تنهدت تزفر بنفَس مرتجف ثم خرجت من السيارة بساقين رخوتين شاعرة بالكون يدور من حولها، وكأنها في عالم ضبابي غير حقيقي، وما إن خرجت وظلت واقفة تنظر إليه باستجداء عبر الباب المفتوح، حتى صفق الباب ثم انطلق بالسيارة بكل قوته.

****

دار قاطعًا السطح بخطوات واسعة، تتباطأ ثم تتوقف ثم تتسارع مجددًا، صاحبها لا يهدأ ولا يعرف الراحة أو السلام، في اللحظة التي يتوقف يرفع كفه ليمسح بها فكه بحركة عصبية ثم يزفر متوترًا قبل أن يعاود المشي على غير هدى.

يتوقف ليراقب الشمس التي توشك على توديع النهار في المغيب، وسرعان ما سيحل الظلام، يبدو أنها قد استوعبت الرسالة أخيرًا ورحلت إلى الأبد.

وقف في منتصف المكان محدقًا إلى البعيد بعينين غائرتين، هذا أفضل، فما كانت ترنيم سوى سراب مرير واختفى، وما عليه الآن إلا أن يكون مرتاحًا وأن يطهِّر البيت من آثار وجودها الوهمي، لكن مهمته الأصعب هي تطهيره للقلوب التي تركت آثارها بها، ثم تخليص اسمه من بين براثنها قبل أن تدنسه بأي طريقة، مثله ومثلها، لا ينبغي لمثلهما أن يعقدا العلاقات مع غيرهما، فهما معطوبان، مدموغان بختم السُّمِّيةِ إلى الأبد، لكنه المُدان الأكبر، فهو من صمم على إبقائها دون علم منه بأنها ستنجح باقتدار في إرساء دعائمها في كل قلب مرتْ به، لكنها رحلت وعليه أن يرتاح، لكن أين هي أنفاسه التي وعد نفسه بالتقاطها مع انقشاع وجودها السام بجواره؟!

أغمض عينيه شاعرًا بشيء يقبض على صدره، فاختلج قلبه، تلك الاختلاجة تحولت إلى انتفاضة تمردٍ ما إن التقطت أذناه صوت البوابة الحديدية تُفتح، فمال إلى السور واضعًا كفيه عليه يطل على الفناء حيث رآها تدخل، مع رؤياها استعاد أنفاسه، ضئيلة وتبدو غائبة عما حولها في مشيها البطيء، وكأنها تجر نفسها بصعوبة، وكأن لعينيه نداءً التقطه قلبها، إذ توقفت فجأة ورفعت عينيها لتلتقط نظراتهما، ها قد عاد الحوار الصامت القديم يرغِمهما على التسليم وكأنهما المثال الحي للإرادة المسلوبة، فهل هذا الهدير الذي يسمعه هو ذاته صوت الريح التي تطيِّر شعرها من حولها؟ أم أنه هدير أنفاسه التي تفضح راحته المزيفة برحيلها؟

كان أقوى منها، فانتزع نفسَه من تلك الدوامة بقوة مستديرًا عن السور متخليًا عنها لتغرق في عمق دورانها العنيف، جرَّ نفسه كجرِّها لنفسها بالأسفل، ثم جلس أرضًا في مكانه الأثير محدقًا إلى السماء حتى حل الظلام وغابت كل الأحلام.

صوت لدى باب السطح جعله يستقيم في جلسته بسرعة مترقبًا، لكن سرعان ما صدمته رؤية عوالي تدخل معتمدة على عصاها.

انتفض واقفًا يسألها: «هل أنتِ بخير؟! ما سبب صعودك السلم وحدك؟».

توقفت للحظة ترمقه بنظرة صلبة ثم لم تلبث أن تنهدت مجيبة نفسها: «ترى متى انقضى العمر حتى بلغتُ لحظة سماعي هذه العبارة؟!».

اقترب منها ليمسك بمرفقها يساعدها، ثم قال بصوت أجش: «لا تقولي هذا».

- لمَ لا أقوله؟ فهي سُنة الحياة، تتسابق بنا الأيام ونحن نظن بغرور أنها ممتدة إلى ما لا نهاية، حتى تتباطأ خطواتنا وتثقِلنا السنون، نهرم ثم نرحل.

أغمض عينيه هامسًا بتعب وغضب: «لا تبدئي بكلام كهذا، فقدرتي على التحمل تهدَّد بالفناء».

تركها ليحضِر لها كرسيًا من غرفته، فأجلسها ثم استوى جالسًا على الأرض أمامها فابتسمت.

سألها بخفوت: «ما هو سر ابتسامتك؟».

- أتذكر جلوسك هذا أمامي كلما ارتكبتَ واحدة من مصائبك في طفولتك، كنت شديدة العزم معك لا أعرف اللين، ومع ذلك لم تخشَ الاعتراف قط.

- لأنني لم أخشَكِ قط رغم شدتك التي لا تعرف لينًا أو هوادة بالفعل.

- إذًا فلماذا تخشى الاعتراف الآن بعد أن فُقتني طولًا وحدَّ العمر من عزمي؟

اضطربت نظراته وانعقد حاجباه وهو يسأل: «بماذا أعترف؟».

أخذت نفسًا عميقًا وهي تتراجع إلى الخلف تنظر إلى عمق عينيه لا تسمح له بأن يحيد بهما عن عينيها.

قالت بجفاء: «لقد عادت».

ازداد اضطراب ملامحه لكنه أجاب بفظاظة: «لقد تركتُها في الطريق كما يتخلى الآثم عن جنينه، وعادت بلا كرامة، ستضطرني يومًا إلى اللجوء إلى الشدة الحقيقية».

نظرة عينيه المتبلِّدة أربكته، فأبعد وجهه المكفهر عن مرمى عينيها.

قالت: «خالفتَ إرادتي فأبقيتها منذ اليوم الأول، ثم خالفتَ إرادتي وتزوجتها ذات ليلة خلال نومي، والآن تسعى لطردها، لماذا؟».

انقبضت أصابعه فوق ساقه فأجاب بعصبية: «أردت معرفة خطتها، لهذا أبقيتها، أما زواجي منها فعقاب كتبتْه على نفسها بنفسها، ربما فكرتْ بحماقة أنها تستطيع الربح من ورائه».

ارتفع حاجباها قائلة ببطء: «عجبًا! لماذا لا تسمح لها بالشرح إذًا بعد كل تلك المعاناة لتعرف خطتها منذ البداية؟».

ضحك ضحكة قاسية جافة وأجابها سائلًا: «هل أنا بهذا القدر من الغباء كي أصدق كلمة تنطق بها؟!».

تأملته طويلًا ثم تنهدت قائلة: «أظن أن هذا هو تحديدًا ما تخشاه، تصديق أيٍّ كان ما بجعبتها من تبرير، فتضعف أكثر ويزداد غوص قدميك في رمالها، لهذا ترفض حتى مجرد السمع».

فتح فمه مستنكرًا لكنها قاطعته متابِعة بخفوت: «وضعتُك قبل أي أحد وفوق كل اعتبار، لكن لم أنجح في منحك ما تحتاج إليه، لم أنجح في إعطائك الثقة والقدرة على إظهار الحب، الآن بعد أن وهنتْ قوتي اكتشفتُ أنني ظلمتك أشد الظلم بشدتي وجفاء عواطفي، وحين يحين الأجل سأتركك وحيدًا، جالسًا فوق هذا البساط الذي سيكون ملاذك الخالي آخر كل نهار».

- لا تتكلمي بهذا الشكل أرجوكِ.

- لن أتكلم بأي شكل، فقد قلت ما لدي علّك تكون قد سمعت منه شيئًا، والآن تعالَ ساعدني في نزولي.

أمسك «علي» بكفها ومعصمها يساعدها حتى وصلت إلى شقتها.

قبل أن تغلق بابها قالت دون النظر إليه: «إنها مريضة».

نظر إلى الأعلى حيث الشقة الخالية إلا منها، وحين أوشك على الرد كانت عوالي قد دخلت وأغلقت الباب خلفها.

****

أضغاث أحلام راودتها طوال الليل، أصوات وكلام وقصص مختلفة، جميع أبطال حياتها تجمعوا من حولها، فتئن طالبة الرحمة علّ الألم في رأسها يتوقف عن الفتك بها، لكن كلما حاولت التكلم سعلت بصوت يستحق الرثاء، خيالات تتحرك أمام جفنيها شبه المنطبقين، لكن تعبها غلب خوفها، فإن كانت أشباحًا تود زيارتها فأهلًا بها، لأنها غير قادرة على الحركة أو حتى الشعور بالخوف.

يد قوية دافئة ارتاحت فوق جبهتها سمّرت جسدها حتى بدت كجثمان مشلول تمامًا، أتراها تهذي أم أن أشباحها بُعثت إلى الحياة؟!

وكما كانت تفعل وهي طفلة في خوفها، تكتم أنفاسها علَّ الشبح يظنها ميتة فينبذها ويرحل، لكن تلك اليد انخفضت لتستقر فوق وجنتها وبقيت هناك تحتضن وجهها، وكأن الألم قد زال والخوف قد انقشع.

أسدلت جفنيها ومالت بوجهها تستكين لدفء هذه اليد الآمنة، وأوشك وعيها على الغياب مجددًا مطمئنة النفْس، حتى شعرت بانخفاض حافة السرير بجوارها تحت ثقل شخصٍ جلس بجوارها، اقتربت أنفاسه من وجهها وعلى وجنتها الأخرى تلمّستها شفتان تمران ببطء فوق بشرتها، وكأنهما تستكشفان الإحساس بها.

أرادت النطق باسمه، إنما خافت إن نطقت به أن يتلاشى وجوده سريعًا. أرادته أن يبقى وحتى آخر العمر، لكن ليتها أدركت هذا قبل فوات الأوان.

تحركت شفتاه إلى شفتيها برفق، وكانت المرة الأولى التي تدرك فيها معنى القبلة، إن كانت تلك اللمسة المختلَسة تُعد قبلة، فهي شيء ثمين أكثر من أن يتحدد له اسم شائع.

انتفض قلبها وحواسها كافة، فهمست تحت لمساته: «علي».

لكن حدث ما خافت منه، إذ قفز من مكانه مبتعدًا عنها، وكأنما لدغه عقرب سام، فأرادت الضحك بهستيرية ثم البكاء بعنف من رد فعله.

فتحت عينيها في الظلام وعلى بعض الأضواء الخافتة المتسللة من النافذة رأت ظله من بعيد، صوت أنفاسهما كان مسموعًا في الغرفة الصامتة، وكأنها أمواج تعانق بعضها بعضًا، بينما دقات قلبيهما كانت كقرع الطبول. بدا لها وكأنه غير قادر على النطق أو تفسير سبب تصرفه، لكنها لم تكن في حاجة إلى أي تفسير، فما جمعهما عرفته قبله، أما هو فيأبى الاعتراف، ومن يلومه؟!

حاولت أن تستقيم في جلستها، لكن الألم ازداد في جميع أنحاء جسدها، وكأن عظامها مكسّرة بفعلِ مطرقةٍ ثقيلة.

همست بصوت متحشرج: «ما سبب وجودك هنا؟ أتراك جئت تطردني مجددًا في مرضي وفي الليل كي تشبع كرهك لي؟».

بدا صوتها مريعًا شديد الخشونة، حتى إنها سعلت عدة مرات خلال نطقها الضعيف، فاستدار عنها يوليها ظهره ناظرًا عبر النافذة المعتمة، لم يرد عليها، وربما كانت تلك إشارة إلى الأمل، فعلى الأقل لم يسارع بتأكيد اتهامها، وصمته يدل على أنه لا يزال تحت تأثير تقاربهما منذ لحظات كما لا تزال هي.

ازدردت لعابها لكن الحركة جعلت تورُّم حلقها يبدو كالمناشير، فسعلت مجددًا وبقوة أكبر.

غالبت ألمها وهمست: «هل يمكنك سماعي الآن؟ أرجوك!».

لكن للأسف لم تجد الفرصة كي تسمع جوابه، فقد أصابتها نوبة سعال شديدة حتى التوت على نفسها فوق حافة السرير لشدة الألم الذي شعرت به في صدرها، بدا السعال وكأنه لن يتوقف مطلقًا، وتوقعت سماع صوت خطواته تبتعد ليغادر الشقة، لكن ما لم تتوقعه هو شعورها بيده على ظهرها تضغط عليها برفق، ثم رفعها وجلس بجوارها ممسكًا بذراعيها.

في الظلام لم يرَ كلٌّ منهما سوى الظلال من الآخر، ولولا سعالها الفظيع لظنت أنه ربما يكون مستعدًا لسماعها، رفعت يدها تغطي بها فمها، واستمرت في السعال بينما تركت إحدى يديه كتفها، وارتفعت لتمس وجنتها من جديد، فأغمضت عينيها لا تتذكر متى كانت آخر مرة ارتاحت فيها يد على وجنتها بهذا الشكل.

بين جدران هذا البيت عثرت على الكثير من مفقودات حياتها، وماذا فعلت سوى بعثرتها من جديد؟

هدأ سعالها قليلًا فنظرت إليه بضعف عبر الظلام وقالت: «لم تجب عن سؤالي. ما سبب وجودك هنا؟».

ليتها كانت قادرة على تبيُّن نوع النظرة في عينيه، وبخاصة مع صمته الذي طال فمنحها الأمل.

لكن جوابه الجاف نسف كل آملها: «جئت لأرضي نفسي برؤيتك في حالٍ مزرٍ».

اتسعت عيناها في الظلام غير مصدِّقة مدى بشاعة كلماته التي زادتها مرضًا، وفتحت فمها لتهتف به كي يتوقف، لكن عوضًا عن الهتاف لا تدري كيف حدث ما حدث، لكنه حدث وتقيأت فجأة على صدره وركبتيه بصوتٍ عالٍ.

ساد الصمت مريعًا بعدها، وبخاصة مع صدمتهما، ثم لم تلبث أن هتفت مذعورة وهي تتحرر من قبضتيه لتتراجع إلى الخلف حتى آخر الفراش: «أنا آسفة لم أقصد! آسفة».

سمعت صوت هسيس أنفاسه ثم نهض بقوة خارجًا من الغرفة المظلمة شاتمًا، أما هي فأطبقت جفنيها تتأوه بيأس تغطي فمها بكفيها، وانتظرت سماع صوت باب الشقة يُصفق بعنف، لكن انتظارها طال، نظرت بحذر إلى باب الغرفة حيث الظلام حالك، ووصل إليها صوت وقع خطواته التي تكاد تضرب الأرض ضربًا، ثم أشعل ضوء الغرفة فجأة.

رمشت بعينيها من الضوء المفاجئ، وقبل أن تتضح الرؤية لديها شعرت به يعاود الجلوس بجوارها، فنظرت إليه بخوف، الملامح نفسها المتجهمة والعينان الكارهتان والجسد المتحفز، لكن كل هذا خالف المنشفة المبللة بالصابون التي ارتفعت إلى وجهها تنظفه بحركات فظة.

حدقت إليه بعينين سارحتين، ولم تحاول حتى أخذ المنشفة من بين أصابعه، ففي المرة السابقة حين وضع المنشفة بقطع الثلج على عينها كان لهدف مخادع، أما الآن فما حجته وقد انكشفت أوراقه كافة؟

انخفضت حدة حركاته وتباطأت حين تلاقت أعينهما، كان هذا خطأهما الأول ومنذ البداية، ما كان لأعينهما أن تتلاقى إن أرادا إنجاح خطتها وفخه.

همست باسمه مجددًا وكأنها ما عادت قادرة على إيقاف نفسها عن مناداته، وكأن اسمه هو طوق نجاتها الأخير، فتوقفت يده وظل ناظرًا إلى عينيها بتلك النظرة التي تحمل اتهامًا، وألمًا، وعتابًا.

أتراها تتوهم كل هذا؟ أهي غبية كي تتغافل عن الفخ الذي قادها إليه بسلاسة وأريحية فتتخيل ألمًا لا وجود له حقيقة؟

همست بعذاب تهز رأسها بأسًا: «أنا آسفة».

أبعد المنشفة عن وجهها ولم تلِن النظرة السوداء في عينيه.

أجابها: «ما الذي تعتذرين عنه بالضبط؟ فهذا ما جئتِ خصيصى لفعله، تقيؤ الماضي العطن كاملًا على صدري».

تحرك حلقها المتورم بصعوبة مؤلمة وعجزت عن نفي اتهامه.

لكنها همست تستجديه: «اسمعني...».

لكنه قام من مكانه راميًا المنشفة على حجرها بمهانة، ثم اتجه إلى حيث حقيبتها المتواضعة ففتحها وأخذ يبحث بين ملابسها، حتى أخرج قميص نوم ثقيلًا نظيفًا.

سألها ببرود دون أن يستدير إليها: «أهذا كل ما تملكينه من ملابس؟!».

كانت تراقبه وهو يتصرف ببساطة وكأنه في بيته، هو فعلًا في بيته، بل يتصرف وكأنها فعلًا... زوجته!

همست بالإيجاب وبصوت ضعيف.

استدار وقال ساخرًا: «أنت بالفعل معدَمة، يمكنني الآن فهم أسبابك في قبول الزواج بي».

تراجع وجهها المحتقن إلى الخلف وكأنه صفعها.

ألقى بالقميص إليها آمرًا: «بدِّلي ملابسك تحت الغطاء ريثما آتيكِ بآخر نظيف».

كان على وشك الخروج، فقالت بخشونة تتشبث بالقميص بقوة: «لا داعي لأن تتعب نفسك وتجبرها على مساعدة معدَمة وضيعة شريرة مثلي، يمكن لعزيزة أن تساعدني».

توقف والتفت إليها رافعًا حاجبيه ثم قال متعجبًا: «إلى أي مدى سيمتد احتلالك؟ عزيزة لا تعمل لديكِ، وبما أنني أنا من بمحض إرادته أبقاكِ هنا، فعليَّ التأكد من حماية أهل هذا البيت من أمراضك وقيئك».

ابتعد ليخرج، لكن صوتها الجاف قصف خلفه: «وهل هذا ما كنت تفعله منذ قليل في نومي؟ حماية أهل هذا البيت من أمراضي وقيئي عبر تقبيلك لي؟».

ما كان عليها قول هذا، ما كان عليها فعلًا قول هذا!

استدار إليها ببطء شديد، وفي عينيه لمحت الشر قبل أن يقترب منها بسرعة ليقبض بكفه على ذقنها رافعًا وجهها إليه، حتى شعرت برأسها يكاد أن يُقتلع من جذوره، فنظرت مذعورة إلى عينيه الغاضبتين وازدردت لعابها، فتحركت عضلات حلقها تحت كفه مما سبّب لها السعال، لكن من خوفها حاولت أن تكتمه، فخرج كشهقات مختنقة وزاد وجهها احمرارًا وعينيها اتساعًا.

تكلم «علي» قائلًا بصوت خفيض مهدِّد: «لا تحاولي استفزاز المزيد من شري، ففي النهاية أنتِ مجرد أنثى رخيصة سلمتْ أمرها لي فمكّنتني من استغلالها كيفما شئت».

تجمعت الدموع أمام عينيها ثم انسابت على وجنتيها وبللت أصابعه القابضة على ذقنها، لكنها لم تنجح في الفوز بذرة من عطفه.

أبعد ذقنها بخشونة وقال مبتعدًا: «غدًا سآخذك إلى الطبيب كي تحصلي على علاج تلتزمين به، فوجودك مريضة لن ينفعنا بشيء».

أغمضت عينيها بألم حتى سمعت صوت باب الشقة يُصفق بشدة هذه المرة وتأكد لها رحيله.

****

«فقط لو يسمح لها...!».

أيام تمر بطيئة ولم يداوِها غيره، كما لم يشقِها سواه، فقد اصطحبها إلى طبيب وجلست بجواره في سيارته تشعر بالرعاية الغالية، لكنه منعها من النطق.

مر عليها كل ليلة يتأكد من انخفاض حرارتها والتزامها بالعلاج حتى تحولت إلى أجمل ليالي عمرها وأكثرها دفئًا، لكن قسوة نظراته حولت الدفء إلى نار تلفح روحها العليلة، مع ذكرى لمسة كأجنحة الفراشات فوق وجنتها وشفتيها تؤرقها ساعات وساعات، تتقلب على جمر متوهج.

فكرت في كتابة ما تريد قوله في ورقة، أو إرسال رسالة لهاتفه، لكن حين فعلت وقرأت ما كتبت لم يصل إليها سوى تبرير فتاة مريضة سوداء النفْس، فأصابها السقم من نفسها مجددًا فمحت كل ما كتبت.

ربما لو منحها الفرصة لتتكلم فيسمع صوتها، وينظر إلى عينيها، لشعر بما شعرت به حين ضلت طريقها وتداخلت أمامها الأهداف فأخطأتها.

منذ أن شُفيتْ انقطع عن زيارتها ومنعها من رؤيته كما سبق ومنعها من الكلام، فكانت تتلصص عليه من شقِّ باب السطح في لحظات مختلِسة تشبِع بها حنين قلبها، وكلما فعلتْ اشتعلت بداخلها الغيرة على جلستهما فوق البساط متجاورين.

فقط لو يسمح لها أن تقترب منه من جديد، لتحاول محو ما تسببت فيه من ألم لا يبارح عينيه مطلقًا، فقط لو يسمح.

أغلق باب سيارته بعد عودته إلى البيت مثقَلًا وكأنه يحمل أوزار الكون فوق كتفيه، لمحة بالأعلى جعلته يرفع عينيه وهناك رآها، واقفة بثبات على السطح تبادله النظر بلا تعبير على وجهها، كانت تنتظره في مكانه الذي منعها من دخوله ناظرة إليه بتحدٍّ سافر، مما أغضبه وبشدة فنفخ رئتيه ثم تحرك بخطوات واسعة ناحية البيت ناويًا على ما لا تُحمد عقباه، ألم تطلب الحرب؟ فلتتحمل بلاءها.

دفع باب السطح وخطا إليها مندفعًا، لكنها لم تكن سوى خطوة واحدة فقط ثم توقف كالصنم بعينين ذاهلتين والصدمة تشل مشاعره قبل أوصاله، فقد كانت واقفة هناك في مكانها نفسه كما تركها وهو بالأسفل، لكن مع اختلافٍ بسيط، أنها تقف الآن فوق سور السطح محدقة إلى عينيه!

أغمض «علي» عينيه للحظة ثم فتحهما وهو يحاول التنفس بصورة طبيعية.

قال بتشنج من بين أسنانه: «انزلي، حالًا».

هزت رأسها ببطء قائلة: «ليس قبل أن تسمعني».

أغمض عينيه مجددًا وانقبض فكه ثم همس لاهثًا: «أتظنين أنكِ ستجبرينني بهذه الطريقة؟».

- نعم.

- أنتِ مخطئة، فإن وقعتِ ودُق عنقك فلن يضرني شيئًا، وحينها ستكونين أنتِ الغبية الخاسرة التي فقدتْ حياتها في محاولة يائسة للعبِ جولةٍ أخيرةٍ من مباراة الخداع، وحينها أكون قد تخلصت أنا والكون من نقطة سوداء مشوَّهة.

- حقًّا؟ لماذا إذن يرتجف صوتك وتتعرق جبهتك؟ لماذا تضطرب حدقتاك خلفي ومن حولي؟ لماذا تتقدم قدمك اليمنى على اليسرى وكأنك تستعد للاندفاع والإمساك بي بينما يمنعك عقلك خوفًا من أن تزل قدمي فتبصر فقدي بعينيك؟

- أنتِ تهذين.

- بل إنها المرة الأكثر صدقًا في كلامي معك، لماذا تزوجتني يا «علي»؟

نظر إليها متجهمًا بشدة والعروق في عنقه تنتفض، لكنه تجنب الرد للحظات طويلة، فابتسمت بضعف.

أجابت هامسة: «لقد حدث ما لم يكن ينبغي له أن يحدث لنا معًا، لقد أحببتَني كما أحببتُك، والآن لا يدري كلانا ما العمل».

اضطربت عيناه وتحرك حلقه محاوِلًا السيطرة على أعصابه.

لكنه رد بصوت هادئ جدًا: «لمَ لا تنزلين عن السور ثم نتفاهم حول هذا؟».

هزت رأسها نفيًا مجددًا وقالت بتصميم: «لن أنزل قبل أن تسمعني».

بلغ منه التوتر الحد الذي جعل انتفاضه ظاهرًا لعينيها، أما صدره فكموج البحر الهادر في صعوده وانخفاضه.

مسح «علي» جبهته ثم قال بصوت مرتجف يشير إليها بكفه: «انزلي يا ترنيم، أرجوكِ».

تبسمت شفتاها مجددًا بسمة لم تستطع منعها وهي تراه على هذا الحال وتسمع رجاءه، وكأنه اعتراف لم يقوَ على منع خروجه، وإن وقعت الآن فستموت سعيدة.

حين ظلت صامتة ترجاها مجددًا وانفعاله يتزايد غير قادرٍ على التقدم أو التراجع: «أرجوكِ انزلي، فما تفعلينه غباء بحت، بل جنون مطبق».

مالت برأسها وشعرها يتطاير من حولها مؤكدًا له أن خلفية تلك الصورة السماء فحسب ولا شيء غيرها.

قالت: «هل ستسمعني الآن أم تتحمل عبء الحياة بعد موتي وأنا متمنية لو كنت قد سمعتني مرة؟».

تحرك حلقه مجددًا ثم اضطر إلى أن يقول بغضب مكبوت يحجمه الخوف: «أسمعك، لكن انزلي أولًا».

أبصرها بتوتر تنخفض حتى استندت بكفها إلى السور وأنزلت ساقًا ثم الأخرى، لكنها لم تقف على الأرض، بل استقرت جالسة فوق السور.

قالت: «هذا أقصى تنازل أستطيع تقديمه».

ثم نظرت إليه وأشارت بإصبعها قائلة: «والآن اجلس في مكانك على البساط».

حرك عينيه تجاه البساط حيث أشارت ثم قال بصوت أجش: «حسنًا، لمَ لا نجلس معًا متجاورين كما اعتدنا؟».

مالت عيناها في ابتسامة حزينة وهزت رأسها هامسة: «لا أحبَّ لديَّ من الجلوس بجوارك يا «علي»، لكن لا أضمن أن تفي بوعدك ما إن تطمئن، فالثقة بيننا منعدمة».

أغمض عينيه وهو يشعر بنفسِه أنه هو الجالس على الحافة لا هي، إنما على حافة الجنون لا السطح.

لم يجد أمامه سوى الامتثال لأمرها، فجلس على البساط يراقبها بقلق، حينها فقط استرقت لنفسها بضع لحظات تتأمله فيها، وعلى ثغرها الابتسامة الصغيرة الحزينة.

همست بأسى تفتح كفها: «كان قد عاد».

ضاقت عيناه على ملامحها ثم سألها بجفاء رغم معرفته الجواب من عينيها: «من هو؟».

أغمضت عينيها ولوحتْ بكفها مجيبة بصوت مختنق: «أبي، كان قد عاد بعد غياب سنوات طويلة، سنوات انتظرتُه كل لحظة منها وأنا أتمنى دخوله من الباب، وحين كدت أن أيأس ظهر تمامًا كما رسمتُ لقاءنا في أحلامي، عاد قائلًا الكلمات التي تمنيتُ سماعها، «سامحيني يا ترنيم، لقد عاد والدك ولن تحملي همًا بعد الآن»، عاد وأنا في قمة احتياجي إليه كي يزيح عني هم هذه الدنيا الذي حملتُه قبل الأوان حتى شقيت به، عاد بعد اثني عشر عامًا من الغياب».

****


HTTPS://T.ME/MKTBTARAB



الفصل التاسع

«ليتنا تقابلنا في زمان آخر، في عالم آخر!».

«ليتك ما كنت أنت ولا كنت أنا، ليتنا!».

في اللحظة التي أدركتُ فيها أن أوان رحيلي من بيتي قد آن، وجدت قدميَّ تسوقانني إلى بيتهما، ذلك البيت الخاوي الذي كثرت عنه الأقاويل، وكأنه القدر يسيِّرني إليه، وما إن دخلتُه حتى شعرتُ بانقباض صدري وكأنهما فيه، أسمع أصواتهما وأشم رائحتهما في كل ركن منه، كان شعورًا فظيعًا وكأنها مقبرة ماضيها لا يزال حيًّا تبصره العين وتسمعه الأذن، غبارها يمتلئ به الصدر فيضيق أكثر، ومنذ اللحظة الأولى أدركت أن أم درويش صاحبة البيت لديها الكثير لتخبرني به، كما أيقنت أن ما سأسمعه سيحدد حياتي المقبلة ويرسم خطوطها بأدق التفاصيل، وأنني سأتقبل ما سيرسمه المستقبل باستسلام تام.

في البداية لم أحاول أن أحثها على الكلام، بل تركت لها الأيام كي تدفعها وتقرِّبها مني حتى نلت ثقتها، وربما تعاطفها، فقررتْ أن تفضي لي بما تخفيه في جعبتها منذ سنوات.

قالت لي التالي:

«عرفتُ أنهما نذير شؤم منذ اللحظة التي دخلا فيها إلى هنا، هالة سوداء أحاطت بهما انقبض لها قلبي ونفرتْ منها نفْسي، كان عليَّ إبعادهما

وتصديق إحساسي، لقد حاولا، حاولا تمثيل الدور جيدًا وقد أتقناه في البداية، زوج يحيط بكتفَي زوجته التي تحمل طفله بين أحشائها، تبدو في الأسابيع الأخيرة من حملها، لكنها لم تكن سعيدة ولم تحمل ملامحها ترقُّب وفرحة انتظار المولود الجديد. شاحبة بعينين لهما حدقتان تهتزان باستمرار بخوف، وشيء آخر جعلها تبدو كمن أفاق على واقع لم يُحسب له حسابًا.

في البداية كانت شقتهما صامتة على الدوام، لا يخرج منها صوت وكأنهما لا يسكنان فيها، كنت أتعجب أنني لا أسمع صوتًا خارجًا منها من حين إلى آخر كباقي الشقق، على الرغم من أن منورًا ضيقًا يجمع بين نافذتَي مطبخي ومطبخ شقتهما، نافذتان متقابلتان تجعلانني شاهدة على الكثير مما خرج من سيطرة حذرهما فيما بعد.

يومًا بعد يوم بدأتُ بسماع الهمسات، ثم الكلمات، وكأنها كلمات طال كبتها داخل النفْس، حتى ما عاد اللسان قادرًا على منع نفسه من النطق بها، كلمات كرهٍ لا كلمات حب، خناجر متلاحقة من الاتهامات، فقد كان كلٌّ منهما يلعن دخول الآخر إلى حياته وإفسادها، لكن ليس هذا هو ما أفزعني، بل إن الكره الأكبر كان موجَّهًا إلى الطفلة التي وُلدت وكبرت عامًا بعد عام بين أحضان رافضة لها، ناقمة عليها، حتى إن أمها كانت تتركها لي الكثير من الأوقات، وكنت أنا الوحيدة التي أذيقها بعضًا من الحنان الذي تفتقده من والديها.

عامًا بعد عام ما عادت الكلمات هامسة، وما عاد الحذر حاكمهما، فقد تغلب عليه سمُّ الكره الزعاف المنتشر بينهما.

كنت الشاهدة الوحيدة على الكثير من تلك الخناجر المتراشقة خلف نافذة مطبخي الضيقة، ولم أكن في حاجة إلى الكثير من الذكاء كي أفهم ما يدور بينهما وتخطُّه تلك الكلمات، لقد أفسد حياتها ودنَّس عِرضها، أراق شرفها وخرب بيتها، بينما كانت له الغواية بعينها، كانت الفتنة السوداء التي سحبتْه إليها فنسي بيته وزوجته كما تناسى ابنته، لقد جمعهما إثم رفض أن يحرِّرهما إلى آخر يوم من حياتهما معًا، وتلك الطفلة التي كبرت بينهما كانت ثمرة سامة كما سمعتُهما يلقِّبانها على الدوام، شيطان لم يستطيعا التخلص منه مطلقًا.

ليلة الحادثة تعالى صراخهما، مما جرَّني للوقوف خلف نافذة مطبخي المغلقة، كان سيتركها، لقد اتخذ قراره بالفرار من تلك الحياة السامة والعودة إلى ابنته، ابنته الحقيقية والتي لا يريد سواها كما سمعتُه يهتف، حتى إنه كان عندها في وقت سابق من اليوم نفسه يعدُها بعودته والاستقرار معها، وكأنه بكلامه قد أزاح لشيطانها الحجر ليخرج، فلم تقبل بأن تتحمل البقية من حياتها غير النظيفة وحدها.

على الرغم من كرهها الشديد له، فإنها رفضت أن يتحرر ويتركها وابنتها سجينتَي الإثم الذي لا يُمحى أبدًا.

استمر صراخهما لفترة ثم صمتا، وحينها ذهبتُ إلى النوم، لكن نومي لم يطل، فقد استيقظتُ كما استيقظ أهل البناية على صوت عالٍ، صوت بدا كصوت إطلاق رصاصة، قمت فزِعة وأرهفت السمع لكن لا شيء، كان الصمت يعم المكان، ظننته كابوسًا، لكن الخوف دفعني إلى الخروج من باب الشقة، فرأيت بعض السكان قد بدؤوا في الخروج كذلك بعد سماعهم الصوت، ثم خرجت فاتن من شقتها كأي واحد منا تستطلع ما حدث، لم تخطئ عيناي آثار الضربات على وجهها، التي لم تكن موجودة في النهار.

تحركت ناظرة حولها بعينين واسعتين ثم همست سائلة بصوتٍ فاتر ميت: «هل سمعتم الصوت؟! ما كان هذا؟ ظننتني أحلم!».

كل شقة سمع بعض ساكنيها الصوت والبعض الآخر نيام، ولم نحصل على جواب، لكننا تأكدنا أن الصوت لم يكن في بنايتنا، أو هكذا تخيَّلنا، فما كان أيٌّ منا لديه سلاح على حد علمنا، ثم بدأ الجميع بدخول بيوتهم واحدًا تلو الآخر، إلا أنا، بقيت أنظر إلى فاتن التي حدقت إلى عينيَّ دون أن يرف لها جفن، لم تكن المرة الأولى التي يضربها فيها، ولم أحاول مساعدتها قط.

لم أشأ التدخل، فقد كنت أعلم أن نهاية قصتهما لا بد وأن تكون عقابًا على كلٍّ منهما تحمُّله بعد أن اختار طريق السوء بمحض إرادته، لكن تلك الليلة أوشكتُ أن أسألها للمرة الأولى إن كانت تحتاج إلى مساعدة، أوشكتُ ثم عدلت عن السؤال واستدرت عائدة إلى شقتي مغلِقة بابي خلفي.

وفي الصباح التالي وأنا أقف في مطبخي سمعتُ الضجيج آتيًا من شقتهما، تنهدتُ مدركة أنهما استيقظا وعادا إلى الشجار من جديد، لكن شيئًا ما بدا لي غير مريح، فقد كانت أصواتًا مكتومة غامضة، أصواتًا جعلتني أفتح نافذة مطبخي لأطل منها على نافذة مطبخهما.

كان المطبخ خاليًا وبابه مفتوح، لم أرَ شيئًا غير عادي للحظات، وأوشكت على الابتعاد، حتى رأيته، رأيت شابًا مر أمامي عبر باب مطبخهما، ولم يكن وحيدًا، بل كان يحمل بين ذراعيه الفتاة الصغيرة، يحمل ابنتهما، يجرها جرًّا ويكمّم فمها بيده بينما تتلوى بين ذراعيه محاوِلة تخليص نفسها منه دون جدوى، ثم اختفى!

ما رأيتُه أن هناك من اختطف الفتاة! لكن لا صوت، ولا صراخ!

وضعت عباءة فوق ملابسي وهرولت خارجة من شقتي، فرأيتها أمامي، تقف هناك ساكنة، كانت فاتن واقفة عند السلم تمسك بالسور ناظرة إلى أسفل، هادئة تمامًا، كان عليَّ أن أعرف أنه لم يكن هدوءًا، بل كان موتًا.

سألتُها بشكٍّ عما رأيته من نافذة مطبخي.

نظرت إلى باب شقتها للحظة، ثم أعادت عينيها وقالت بصوت خفيض لم أنسه قط: «إنه ابني، أرجوكِ لا تخبري أحدًا عنه».

شيء ما جعل قلبي ينقبض أكثر، كان نذير الشؤم من جديد كأول مرة رأيتهما، شيء جعلني أرغب في خروجهما من بيتي بلا رجعة بعد جيرة سوداء استمرت اثنَي عشر عامًا.

شيء جعلني أقول: «لندخل شقتك، لدي شيء أقوله لكما».

قالت إنه نائم، وكانت نبرتها غريبة وكأنها نبرة استسلام تام، وكأنها عرفت أنني لا أهتم لنومه، وأن الموضوع ما عاد يتحمل انتظار استيقاظه حتى.

أمرتُها أن توقظه فلم تتكلم، سارت أمامي محنية الكتفين مطرِقة الوجه، ودخلتُ خلفها، خطوة واحدة ورأيته هناك، ممددًا أرضًا، لم يكن نائمًا، بل كان قتيلًا والدماء الجافة تغرق وجهه المفجَّر بسلاح ناري.

تملَّكني الرعب وتجمدتُ مكاني أحدق إلى ما أراه بعيني، صرخت وصرخت.

سألتها صارخة وأنا أضرب صدري بيدي: «ماذا فعلتِ يا فاتن؟!».

ولم يسبق لي أن رأيتها أكثر هدوءًا من هدوئها في تلك اللحظة وهي تهمس مجيبة بصوت أجوف محدقة إلى جثته والوجه المُشوَّه ببشاعة: «كان لا بد من نهاية لكل شيء»».

ارتجفتُ بشدة وحاكى شحوب وجهي الأموات ما إن فرغتْ أم درويش من حكايتها، رفض جسدي أن يتوقف عن الانتفاض وكأنني محمومة، اغرورقت عيناي بالدموع الحارقة التي لا تخفِّف الألم ولا تبلِّل الوجنتين.

فسألتُها برعب: «ألم تشُكي في أن يكون ابنها هو من قتل والدي بينما اعترفتْ على نفسها كي تحميه؟».

نظرت إليَّ أم درويش نظرة عرفتُ منها الجواب، فغاص قلبي المرتجف.

قالت متنهدة: «نعم شككت في الأمر، واقتنعت بشكي حد اليقين، فما كانت فاتن لتحرِّر نفسها مطلقًا، لقد فرضت نفسها ثمنًا للخطيئة على شريكها دفعه كل يوم من حياته، ودونه لا تستطيع الحياة، فهي حتى ما كانت قادرة على الذهاب إلى مكان بمفردها، كانت حبيسة البيت وسجينة نفسها، تزداد عجزًا مع الأيام. لقد ربطهما رباط سام إن حاول أيٌّ منهما فكه تكون نهايته قد حانت».

فغرتُ فمي وسألتُها بصوت عاجز مختنق: «فلماذا لم تبلِّغي الشرطة بما رأيتِه إذن؟».

تركت المرأة القهوة من يديها ثم حدقت إلى عينيَّ وأجابت: «ربما لن يروقك حكمي يا بنتي، فبداخل كلٍّ منا قاضٍ وجلاد يرى أنه القانون والعدل، إن كان على أحدٍ أن يضيِّع مستقبل الفتى ليدفع ثمن خطيئتهما، فلن يكون أنا. لقد قررت فاتن دفع ثمن خطيئتها وافتدت ابنها بنفسها، وأنا رأيت أنه العدل، ربما أكون مخطئة ويكون القاضي بداخلي جائرًا، لكنني لم أقدِر على

العكس، تأكدي أن الولد قد دفع الكثير بالفعل بسبب فعلتهما، فرأى في والدك الشيطان الذي دنس حياته».

يومها لم أفهم منطق المرأة وأنا أسمعها تدلي بحكمها، فبأي حقٍّ عيَّن نفسه القاضي فنفَّذ الحكم بإعدام والدي تاركًا أمه على الرغم من تشاركهما الخطيئة نفسها؟! بأي حق أعدم أملي الوحيد في الحياة بعد أن غفرتُ لأبي كل ما فعل؟! بأي حق اغتصب غفراني وحرمني توبته التي انتظرتُها عمري كله؟!

لم أناقش حكمها، فطويت الألم الصارخ في قلبي وكتمته أسألها بصوتٍ ميت: «لكن ماذا عن الفتاة؟! ابنتهما التي خطفها، أتراه قتلها هي أيضًا؟!».

ارتعبتُ وارتجف صوتي مع تخيلي للنهاية المأسوية لطفلة لم تكن سوى الضحية، لكن أم درويش أجابتني بما غيَّر الباقي من قراراتي كلها.

قالت متنهدة: «ظننتني لن أسمع عنها شيئًا أبدًا، ومرت السنوات حتى اتصلتْ بي منذ فترة».

اتسعت عيناي غير مصدِّقة، فأومأتْ برأسها متابعة: «اتصلت على هاتف بيتي، فقد كانت تحفظ رقمي لأنني الوحيدة التي عطفتُ عليها في صغرها، فأدركتُ أن لا بد لها وأن تحتاج إليَّ مستقبلًا وقد صدق ظني، اتصلت متمنية ألا يكون الرقم قد تغير، كانت تستغيث بي كي آتي لأخرجها من ذاك المكان الذي يحتجزونها فيه، مكان ألقاها فيه المُسمى «علي»، ابن أمها كما قالت، فلم ترضَ أن تلقِّبه بأخيها. كانت تهذي بكلمات متخبطة عن معاملتها بشدة وقسوة، وأنها لم تعد تحتمل أكثر وتحتاج إلى من يساعدها على الخروج من هناك، كما أكدتْ ظني في المكالمة نفسها وهتفت بكلمات متقطِّعة عن أن أمها لم تقتل والدها، وأقسمت إنها لن تنطق بحرف إن تحررتْ من حجزها، لكن انقطع الاتصال ولم أفهم منها المزيد، وكان هذا كل شيء، لم أعرف مكانها أو عمن تتحدث».

حين فرغتْ أم درويش من حكايتها كنت أنا أموت في اللحظة الواحدة عشرات المرات، علمتُ وقتها أنني لا بد وأن أجد تلك الطفلة الضحية لأحرِّرها

من قبضة إنسان غير عادل لا يتورع عن تنفيذ حكمه الشخصي دون أن يرف له جفن.

****

كانت قد نزلت عن السور واستندت بظهرها إليه محدقة إلى السماء بعينين ثقيلتين.

قالت: «لم أشعر بالراحة في حياتي كما شعرتُ بها لحظة رؤيتي لأبي على أول الطريق لبيتنا بعد اثنَي عشر عامًا من الغياب، عرفتُ لحظة رأيته أنني قد سامحته وغفرت له كل شيء، فيكفيني فقط أنه عاد ليخفف عني شقاء تلك السنوات الماضية، أذكر أنني لم أنطق بكلمة واحدة، كنت فقط أحدق إليه بلهفة وأنا أخشى أن يكون مجرد واحد من أحلامي بعودته في نومي ويقظتي، لذا خرجتْ من بين شفتيَّ ضحكة متحشرجة قصيرة ما إن أمسك بيدي وضغط عليها، لا أذكر الكثير مما نطق به محاوِلًا التبرير والدفاع عن نفسه، فلم أكن مهتمة حقيقةً، كنت فقط أتأمله مشدوهة متخيلة أن عناء بقائنا وحدنا أنا وأمي قد انتهى».

هزت رأسها عجزًا وتابعت بصوت لا يكاد أن يُسمَع: «كنا حرفيًا كلقمة سائغة، يتخبطنا العوز والحاجة بخلاف التصدي لكل من يظن أنني ربما أكون قد ورثتُ من والدي خطيئته في حياته».

أطرقت بوجهها مستندة بيدها إلى سور السطح تتنهد شاعرة بطعم مرير في حلقها.

تابعت بكلمات خاوية: «غادر على وعدٍ أن يعود في الغد، وسيبقى بعدها».

هزت رأسها فتمايل شعرها وكأنها تحاول طرد الذكرى فلا تستطيع.

رفعت ذقنها قائلة: «ابتعد ثم التفتَ ولوَّح لي بكفه مبتسمًا، ولم يعد بعدها قط».

أدارت عينيها لتنظر إليه وخرجت من بين شفتيها شبه ضحكة قاسية مريرة لا تناسب ما نطقت به.

قالت: «ثم جاءني اتصال رسمي كي أذهب إلى رؤيته في المشرحة، لم أفهم للوهلة الأولى، ثم بالكاد استوعبت أنه قُتل على يد زوجته وقُبض عليها وانتهى كل شيء».

زاغت نظراتها ورفعت يدها إلى واحدة من عينيها ببطء لا تكاد أن تمسها.

وهمست بصوت أجوف: «تلقى رصاصة في عينه قتلته على الفور، فمه مفتوح وكأن أحدًا لم يبالِ بمحاولة إغلاقه على الأقل، جسده أزرق اللون لا يشبه الرجل الذي استدار ولوّح لي مبتسمًا على وعد باللقاء وكله أمل في حياة جديدة. كان وكأنه مات على شكل ستظل روحه عالقة به ما حيينا، عينٌ فُجِرتْ وفم يستغيث صارخًا وروح هاربة».

أطبقت عينيها بشدة تحرك رأسها مجددًا هاتفة: «صورته لاحقتني لسنوات طويلة، كنت أراها في نومي وحتى في صحوي، حتى بدأتْ تتحول إلى مرض لا أشفى منه، الكوابيس لا ترحمني ونوبات الفزع والصراخ كل حين لا تُشفى».

عضت على شفتها المرتجفة لا تتمنى البكاء أمام عينيه الشاخصتين فيها بلا تعبير، وساد صمت ثقيل موجِع تمنت لو قطعه بأي كلمة، فصوته الوحيد القادر على أن يطمئنها، يا لها من كوميديا سوداء!

وبالفعل تكلم قائلًا بصوت جاف قاسٍ: «عرفتُ من يكون شبحك منذ اللحظة الأولى التي صرختِ فيها بوصفه في واحدة من نوبات فزعك، فهي صورة لم تبارح ذهني أنا أيضًا لسنوات».

فتحت عينيها الغائرتين الحمراوين بإنهاك معذّب تتأمله، استناده إلى الجدار من خلفه وذراعه المتراخية فوق ركبته والتعبير الميت على وجهه، أما عيناه! تقتلها النظرة إليهما، تقتلها كما لم يقتلها شيء من قبل وتجعلها تتمنى لو جثت بجواره لتضمه إلى صدرها، فقط لو يسمح.

همست قائلة ترتعد: «أظنها صورة أرضت القليل من الكره بداخلك».

ارتسمت ابتسامة قاسية مريرة لا تمتُّ للسرور بصلة وقال: «على العكس، فقد زادتني كرهًا، لم ترضني رؤيته ميتًا على هذا النحو، فقد ظللت لفترة

طويلة بعدها أتساءل كالمجنون، أهذا هو الذي هدمت البيت وضيعت الشرف لأجله وكأنه الحياة بمن فيها؟! مات في النهاية ككلب ضال لم يبكِه أحد ولم تُذرف عليه دمعة واحدة! كان مجرد رخيص باعت لأجله كل ما هو غالٍ».

امتقع وجهها بشدة، فأشاحت به عن عينيه وأظافرها تحفر في حجر السور حتى أدمت أصابعها.

همست: «انتظاري له كل تلك السنوات، اكتشفتُ مؤخرًا أنه لم يكن سوى انتظار لفكرة الخلاص من الشقاء في حياتي، لقد غاب وأنا لم أتم السابعة، أي إنه في الحقيقة لم يكن والدًا قط، لكن جاء هذا الاكتشاف بعد فوات الأوان، بعد أن حاكمتُك وأدنتُك على قتلك الأمل الذي عشتُ على انتظاره، قتلتَه ما إن عثرتَ عليه، قتلتَ الأمل الوحيد وأنا في قمة احتياجي إليه».

ضحكة جديدة أكثر قسوة تلتها كلماته السوداء: «فكان حكمك العادل أن تتخلي عني وأنا في قمة احتياجي إليكِ بعد أن تكوني لي الحياة كلها، لهذا جئتِ».

أطرقت بوجهها مغمِضة عينيها لتحجب عنهما الكره في نظراته.

ردت بثبات: «جئت أخلِّص أمنية منك، فهي مجرد ضحية عاجزة، وقد ساعدني رعب الفكرة والتعب الشديد على الوقوع أمام بابك، وقد نال مني إرهاق الشهر المنصرم، ثم استيقظتُ لأجد أنني قد نجحت في عبور حدودك، في البداية ظننت أنك ستعرفني لا محالة، لكنك أتقنت الدور ببراعة، ولهذا بدأ عقلي في رسم خطة استغلال وجودي تحت سقف بيتك لمعاقبتك بالسم نفسه الذي أسقيتني إياه، وبخاصة أنك كنت تبدي ضعفًا تجاهي».

- أنا ممثل بارع، عكسك.

همست بأملٍ وكأنها تترجاه ألا يكمل: «في البداية فقط، ثم اختلف كل شيء بداخلنا، وكأنك كنت تنتظرني وكأنني كنت مساقة إليك».

التوت شفتاه دون أن يتحرك جسده الهامد ثم قال أخيرًا: «مسكينة أنتِ، تحرِّكك الأوهام فتنساقين خلفها كالمغيَّبة».

اقتربت منه خطوة، لكن صوته أوقفها سائلًا بنبرة ساخرة: «هل ذهابك إلى شقتها بعد موتها مباشرة كان صدفة؟».

أغمضت عينيها وظلت ساكنة للحظات وقبضتاها مضمومتان إلى جانبيها بشدة.

هزت رأسها نفيًا ببطء وهمست: «بعد القبض عليها جعلتُ مهمة تقفّي أخبارها هي شغلي الشاغل، حتى أبلغني زميل دراسة أنها توفيت في السجن، بلغني الخبر في الليلة نفسها التي قررتُ فيها الرحيل من بيتي الذي ما عاد لي مكان فيه».

سمعتْ صوت نفَسِه الطويل ثم قال أخيرًا: «بعد موتها بحثتِ عمن تحمّلينه آثام الجميع فاهتديتِ إليّ».

هزت رأسها نفيًا بصعوبة تغص بدموعها.

تابع بصوت أكثر برودًا: «أنا أيضًا أبلغوني بموتها فدفنتها قبل شهر واحد من ظهورك، هل لكِ أن تتخيلي شعوري تجاهك؟ أتجرئين على تسميته حبًا؟!».

وكأنه طعنها بالخنجر نفسه الذي سبق وطعنته به.

فسألته بضعف: «لماذا تزوجتني إذن؟».

في جلسته ممددًا على الأرض ويده المرتاحة فوق ركبته، ارتفاع وجهه الجامد إليها وهي تقف أمامه متهمة تنتظر الحكم، رد ظافرًا: «لأراكِ واقفة أمامي كوقوفك الآن تطرحين هذا السؤال».

غامت صورته بدموعها فأخفضت وجهها وسارعت تخطو فوق أرض السطح بخطوات هاربة كي لا تنهار أمامه، لقد راهنت على أن يغفر لها إن سمعها وأحس بمعاناة أفقدتها توازنها لفترة طويلة، لكنها خسرت الرهان، فالمأساة أكبر والأحكام الجائرة طالت الجميع.

لكن قبل أن تخرج من الباب سألها بلا تعبير: «أين هي؟».

توقفت مكانها تحاول التماسك ثم التفتت إليه هامسة: «أمنية في مكان آمن الآن».

التفت وجهه المتحجر إليها بصمت فتابعت: «سمعتُ المكالمة التي أبلغتك بهروبها، ذلك اليوم أيقنتُ أنها ستلجأ إلى أم درويش الوحيدة التي تعرفها، فقررتُ أن مهمتي انتهت، لكنك منعتني من الرحيل».

فتحت فمها بألم ثم عادت وأغلقته وهمست بعد لحظة: «ما كان يُفترض بي أن أبقى، فلو كنت رحلت يومها لما بلغ حجم الخسائر هذا القدر المحزن».

- لو كنتِ رحلتِ يومها لحققتِ مهمتك كاملة بنجاح.

نظرت إليه بدهشة بعد أن نطق عبارته الأخيرة بصوت أقسمت إنه متكسر رغم قساوة ملامحه وشرود عينيه، وكأنه لم يفكر فيما نطق به لتوه، لكن سرعان ما عقد حاجبيه وأغمض هاتين العينين يخلّصهما من شرودهما بكل قوته.

قال بجفاء: «كنتُ على وشكِ الجنون وأنا أتخيل كل ليلة ما يمكن أن تتعرض له في الشارع بينما هي آمنة في مخبأ من تدبيرك!».

لعقت شفتيها الجافتين كالحجر مسبلة جفنيها ثم ردت: «لقد أساء معاملتها من كلفتَهم برعايتها، كانت تستغيث منذ سنوات ولهذا جئتُ ما إن عرفتُ، ظننتُ أنها هنا في مكانٍ ما».

التفت ناظرًا إليها بصمت، فهمست متابعة: «لقد أسأتَ لها، وأنا أسأتُ لك، احتجزنا أنفسنا في دائرة ذنب لم نقترفه، يحاسب كل منا الآخر عليه».

صمتت للحظة ثم تابعت واضعة يدها على صدرها: «لقد تكفلتَ بأمنية كل هذه السنوات والآن حان دوري، سأتحمل نصيبي وأحرِّرك من بين شقّي الرحى».

استدارت لتغادر مغمضة عينيها فسألها مجددًا: «لم تخبريني يا ترنيم، كيف حدث وغفرتِ لي قتلي لوالدك؟».

تنهيدة حزن خرجت من بين شفتيها ثم همست تهز رأسها بأسى: «أنا آسفة يا «علي»، حاول أن تغفر لي يومًا».

خرجت جريًا وتركته في جلسته محدقًا إلى السماء يمتلئ صدره ويرتفع ثم يزفر نفسًا بطيئًا، وكأن الصور حية أمامه.

****

رآها ثلاث مرات منذ أن انقلب كونه بخطيئة انساقت لها بخطوات عمياء سحقت في طريقها كل ما آمن به يومًا.

المرة الأولى:

في مراهقته، كان متجهمًا مشاكسًا، يحاول التحكم في انفعالاته، فمرة يفلح وعشرات يفشل، يغالب نفسه وكأنه كلما كَبُرَ عامًا، كَبُرَ بداخله استيعاب هول ما حدث فزاده عدوانية، وكلما حاول تضاعف بداخله الكبت فينفجر بعدها دون هوادة، حتى جاء يوم وشعر برغبة عنيفة تتملكه كي يواجهها، لم يكن لديه فكرة عن مصيرها وأرضها، كل ما لديه هو رقم خالته، أبى ذهنه أن يمحوه، بل حفره كنقش لا يُطمس مهما تعاقبت عليه الفصول.

اتصل بها وبمجرد أن عرفتْ من يكون تلجمتْ وتعثر صوتها مجيبة: «علي»، أهذا أنت فعلًا يا حبيبي؟! يا إلهي! مرت سنوات!».

رغم أن الود كان يسود حروف الكلمات، فإن نبرتها كانت قلقة غير مرحِّبة، لم تحاول سؤاله عن مكانه وكيف صرَّف أموره بعد هربه، لم تسأله كيف تمكن من البقاء على قيد الحياة حتى يومهم ذاك، ولم يتعجب كثيرًا، فقد استوعب جيدًا، فسألها مباشرة إن كان وصل إليها أي خبر عن فاتن خلال السنوات الماضية.

الصمت الذي تلا ذلك أخبره أنها تعرف لها سبيلًا، وفي تلك اللحظة اضطربت كل انفعالاته، فبداخله ظهر أمل خائن يدحض خيانتها، بداخله افتقاد لها يغذي هذا الأمل بداخله، وانتظر شاعرًا بكيانه يرتج.

حتى ردت خالته بخفوت: «اتصلتْ بي منذ مدة وأعطتني رقمًا في حال بحثتَ عنها، سأمليه عليك، لكن... أنا آسفة يا «علي»، لن أستطيع مساعدتك أو مساعدتها أكثر، فقد أقسم زوجي عليَّ بالطلاق إن حاولت التواصل معها مجددًا».

سماع صوت فاتن على هاتف بعد كل هذه السنوات كان كاللطمات على وجهيهما معًا، في البداية ظلت صامتة مصدومة، ثم لم تلبث أن همست باسمه مرة بعد مرة تحاول التأكد إن كان ابنها فعلًا، وبخاصة مع تغيُّر صوته إلى هذا الحد.

حينها قال بلا مشاعر: «إنه أنا، أريد أن أراكِ».

على الرغم من ثبات جسده وهو ينتظرها في طريق خالٍ، فإنه كان يشعر بنفْسه كالمحموم، ينتفض رأسه فتهذي أفكاره، وحين تأخرت تيقن بأنها جبُنت ولن تأتي، أتراها خافت من ابنها نفسه؟

ثم سمع صوتها من خلفه يناديه، للوهلة الأولى أغمض عينيه، يزدرد لعابه غير قادرٍ على الرد أو الالتفات إليها.

لكن النداء تكرر يئن حنينًا: «علي».

استدار ببطءٍ شديد محدقًا بطرفِ عينيه، امرأة مغطاة بالسواد من قمة رأسها وحتى قدميها، لا يظهر منها شيء، ومع ذلك عرفها دون الحاجة إلى سماع صوتها. اقتربت منه خطوة فتراجع وهو يراها تمد يدها.

قالت بصوت مختنق مشتاق: «إنه أنت بالفعل! كبرتَ يا «علي» وتغيرتَ، ومع ذلك استطعتُ التعرف عليك ما إن رأيتك».

مال وجهه جانبًا قليلًا دون رد.

تابعت واضعة يدها على صدرها: «مع من أنت هنا؟ من يرعاك؟».

لكم كره سؤالها! حتى إنه كرهها هي شخصيًا في تلك اللحظة.

تابعت: «كنت أعرف أنه لو نبذني العالم كله فلن تنبذني أنت يا «علي»».

- جئتُ أسألكِ سؤالًا واحدًا، هل أنتِ فعلًا الآثمة ذاتها التي قالوا عنها؟

ساد صمت طويل بعد سؤاله الأجش الذي انطلق كرصاصة طائشة نفذت إلى صدرها، وعلى الرغم من أن وجهها كان مغطى بالسواد كاملًا، فإنه استطاع رؤية الجواب من انخفاض وجهها، كان لديه الأمل، لآخر لحظة كان لديه بعض من الأمل!

رفع أصابعه يتخلل بها خصلات شعره بعنف متراجعًا إلى الخلف، وقد غارت عيناه الجاحظتان.

همست تتوسل إليه بنشيج متقطع: «دع الحساب ليوم الحساب، يوم لا فرار منه، أما اليوم أفلا تشفق على حالي حتى يحين حسابي؟».

انقبضت كفه المضمومة وهو يميل إليها هاتفًا بشراسة: «وهل أشفقتِ أنتِ على حالي؟!».

تأملته طويلًا ثم مدت يدها تريد ملامسة آثار الجرح القاطع بطول فكه هاتفة: «رباه! كيف أصبتَ بهذا الجرح؟».

إلا أنه ضرب يدها يبعدها بقوة، فكتمت شهقة إجفالٍ واستقرت يدها المنبوذة على صدرها بصمت ثقيل طويل.

سألته أخيرًا بصوت باهت: «مع من تقيم هنا؟».

أغمض عينيه وهو يرد بكره بالغ: «لقد فررتُ من الجميع ومن حياتي كلها إن استطعتُ، لا أريد أن تكون لي صلة بأيٍّ منكم».

- أخبرني على الأقل عن مكان إقامتك.

- إن حاولتِ التواصل معي فسأخبرهم عن مكانك بنفسي، أنا لديَّ أم غيرك الآن.

كان بإمكانه سماع صوت قلبها يتكسر، أم تراه صوت تمنى سماعه منذ اللحظة التي اقترفت فيها ما اقترفته؟ ومع كلماته الأخيرة ابتعد فلم توقِفه هذه المرة، لكنه شعر بها تتقفى خطواته من بعيد دون تعب.

لقد تعب هو من محاولات تضليلها ولم تتعب هي، حتى استسلمَ في النهاية وعاد إلى بيت عوالي ولم يرَها بعدها لسنوات.

المرة الثانية:

سماعه صوتها على هاتفه صدمه للمرة الثانية، لم يندهش من وصولها إلى رقمه، فمعرفة البيت الذي آواه تعني معرفة عوالي وبالتالي تجارتها، ثم كل تفاصيل الوصول إلى الشاب الذي يساندها كابن لها.

هذه المرة كان في الثانية والعشرين من عمره، شاب يعمل في التجارة مع عوالي بجانب دراسته، أوهم نفسه أنه نسيها ودفن كل ذكرى تخصها حتى وصل إليه صوتها ذات صباح، وفي صوتها الإلحاح حتى إنها صرخت تستجديه أن يأتي، بعد كل تلك السنين!

أملته عنوانًا لم يحاول تسجيله هادرًا فيها أن عليها نسيان وجوده في هذه الحياة، لكن وكأنما لم يتكلم.

قالت بالحرف الواحد: «إنها النهاية، فساعدني على كتابتها أرجوك».

ألقى بهاتفه بعيدًا ولعن مرارًا حتى بات عاجزًا عن إيقاف لعناته. لقد عانى كثيرًا حتى تمكن من بلوغ مرحلة بناء جدار عازل حول انفعاله الداخلي، ذاق الأمرّين حتى أصبح على هذا النحو الجامد بلا تعبير، ثم يأتي صوتها ناسفًا جداره العازل يحوّله إلى تراب في لمح البصر.

ما عليه إلا تجاهل رجائها، وكأنه لم يسمع لها صوتًا منذ سنوات، لكن في تلك الساعة المبكرة من اليوم وقبل أن ترخي الشمس أشعتها، استطاع بعد لحظات استيعاب أن هناك شيئًا خاطئًا، ربما ما كان عليه الذهاب، لكن هذا الهاجس المتعلّق في داخله بكلمة النهاية ساقه إليها.

ما إن دخل المكان العطن بآثامه حتى أزكمت أنفه رائحة الدم ممتزجة بالبارود، للدم رائحة لا تخطئها النفْس، حيث تدرك قبل العين أن الجسد زائل يفنى أسرع مما تخيله العبد.

حدق ذاهلًا إلى الرجل المسجى أرضًا بعين تفجّر منها دم جف على وجهه خلال الساعات المتبقية من الليل، ولم يقدر على النطق حتى دفعتْه دفعًا بيديها إلى حيث استقرت فتاة صغيرة أرضًا متقوقعة في الزاوية، تضم ركبتيها إلى صدرها، تحدق إلى الفراغ بعينين واسعتين.

قالت فاتن بنبرة ثابتة دون أن تذرف دمعة واحدة: «خذها وانصرف ولا تظهرا مجددًا».

للحظات لم يستوعب، يهز رأسه مرتجًا بداخله.

فرددت بصوت أقوى كي تخترق شباك الصدمة المحيطة وعيَه: «خذها الآن».

تحرك رأسه ناظرًا حوله على غير هدى، ثم لم يلبث أن انحنى ليسحب الفتاة، لكنها قاومت بجنون ما إن لمسها، وكأنها تحولت فجأة إلى مخلوق شرس تضرب وتركل بيديها وساقيها، فكبّلها بقوة، وما إن بدأت تصرخ حتى

كمَّم فمها بيده واندفع بها تجاه باب الشقة وهي لا تزال تقاومه، لكن وقبل خروجه نادته فاتن فاستدار إليها محاوِلًا السيطرة على الفتاة بين ذراعيه بصعوبة.

همست له تترجاه: «لا ذنب لها فلا تحمِّلها الثمن».

رمقها بنظرة سوداء جافية ثم التفت ليغادر، إلا أنها عادت وأمسكت بذراعه تديره إليها تتأمل طوله وضخامة جسده، حتى إنها لامست ذراعيه بأصابع مرتجفة، تتبع لمساتها عينان خاويتان وكأنما ترسمان مسار السنوات الماضية.

ثم لم تلبث أن دفعته آمرة: «هيا اذهبا».

لكنها ناقضت نفسها ونادته مرة أخيرة ونبرة صوتها جعلته يستدير إليها.

مالت بوجهها متوسلة وهمست تغص بالكلمات: «يوم تسمع خبر موتي إياك وأن تمنع نفسك من دفن أمك».

المرة الثالثة التي جمعتهما، كان يوم دفنها.

****

ذُهلت عوالي ما إن دخلت مسرعة من باب الطابق الأرضي يلحقها «علي» متشنج الجسد زائغ العينين، إذ رأت فتاة أصغر من مراهقة مكبَّلة اليدين والساقين تصارع صارخة بجنون لتتخلص من أسرها، صوت صراخها كان خشنًا متحشرجًا من عمق حلقها، وجحوظ عينيها محزن.

شهقت عوالي وهي تجثو على ركبتيها بجوار الفتاة لتنزع عن يديها وساقيها قصاصات القماش التي تكبلها، وما إن فعلت حتى اندفعت الفتاة مذعورة تجاه الباب تنوي الفرار، إلا أنه عاد وأمسكها وهي تتلوى بشراسة تقاومه من جديد، منظر رعبها كان مفزعًا، فلم تكن في حال سوى وهي تصرخ بهذيان وجنون، مما اضطر عوالي إلى الإمساك بها تشدها من بين ذراعَي «علي» تحاول تهدئتها دون جدوى، ولم تهدأ حتى استُدعي طبيب لها حقنها بمهدئ ونصح بضرورة دخولها المشفى.

دار «علي» قاطعًا المكان كحيوان مفترس محتجَز بين القضبان، بينما عوالي واقفة تراقبه بعينين مدركتين لما يشعر به.

توقف فاتحًا كفه مخاطبًا نفسه بصوت يرتجف: «أُعْطِيَتْ لي أنا من بين الجميع، أنا! لماذا أنا؟! لماذا تفعل بي الحياة هذا؟!».

أسبلت عوالي جفنيها لا تعرف كيف تضمه إلى صدرها أو كيف تمنحه ما ينقصه علّها تهدئه وتربت على ألمه.

فاستدار إليها قائلًا بقسوة وقد اتخذ قراره: «سأتكفل بها، فلا يمكنني رميها في الشارع، لكن لا أريد أي صلة مباشرة بيني وبينها، لا أريد أن أعرفها».

حين ظلت عوالي صامتة نظر إليها متابعًا يهز رأسه: «هذا يفوق احتمالي، لا أقدر».

ولم تفعل شيئًا يومها سوى الإيماء برأسها، فقد كان «علي» بالنسبة إليها قبل الجميع، كان ابنها الوحيد، والابن الوحيد لا شخص قبله.

****

رفعت ترنيم جبهتها عن ذراعيها المعقودتين فوق ظهر الكرسي تنظر إلى عوالي الجالسة في فراشها بتيه، وكأنها لم تعد تعرف من تكون أو من يكون هو.

تابعت عوالي قائلة بتنهد مرهق: «لم أكن لأبقيها وأنا أراه يتمزق كل يوم برؤيتها، لكن لا أنكر أنها أنانيةُ الأم التي حُرمتْ طويلًا حتى جاء من عوّضها هذا الحرمان، وتلك الأنانية أرّقت ضميري كثيرًا بعدها».

ارتجفت شفتا ترنيم وهي تسألها بقلب مثقَل: «لمن سلمتموها إذًا؟».

- لقد احتاجت في البداية إلى دخول مصحة نفسية بقيت فيها لفترة، ثم تكفلتْ بها أسرة من حيث رعايتها، لكن «علي» هو من تولى الإنفاق عليها، منذ بداية عمله معي وأنا أعامله كرجل مستقل ينال من الدخل

بقدر تعبه، وكان يفني نفسه في العمل، ربما ليتمكن من تفريغ شحنة العنف بداخله، لذا أصر على تولّيها ماديًا من ماله الخاص.

حاولتُ مساعدته إلا أنه أصر، أظن أنه كان يحاول إرضاء ضمير يؤرّقه كما أرّقني، فعلى الرغم من أنه لم يعترف بهذا يومًا، فإنني أظنه لام نفسه طويلًا لعدم قدرته على التواصل معها، فظلت وحيدة تدخل المصحة وتخرج منها باستمرار، وبين دخولها وخروجها تبقى لدى أسرة مكونة من امرأتين شقيقتين جافتَي الطباع، أعرفهما ولم أجد غيرهما ممن يستطيع تحمُّل ظروف الفتاة لقاء مقابل مادي مناسب، وأظن أنهما لم تعاملاها بترفُّق.

أغمضت ترنيم عينيها ثم نهضت من مكانها ببطء ووقفت قائلة بخواء: «كم ظلمنا بعضنا بعضًا وكأن الظلم ينقصنا!».

تراجع رأس عوالي بينما تسألها: «إذن عرفتِ أن «علي» لم يكن هو من قتل والدك».

أومأت ترنيم برأسها هامسة: «أظنني بعد خبر موت فاتن في السجن بحثت عمن يواصل دفع الثمن بعدها، والآن أدركت أنها هي من كتبت حروف النهاية برصاصة قضت على أحلامي».

ظلت عوالي صامتة للحظات ثم سألتها: «كيف تأكدتِ؟».

فتحت ترنيم كفيها بيأس مجيبة بسخرية مريرة: «مكالمة هاتفية لم تتجاوز الدقيقتين، دقيقتان عرفت منهما أنني اقترفتُ ذنبًا لا يُغتفر».

****

دقيقتان...

دقيقتان غيّرا مسار حياتها إلى الأبد، فبسبب الدقيقتين أدركت فداحة ما فعلت، وبسببهما خرجت هائمة على وجهها تاركة ضحية تنزف خلفها.

منذ هروب أمنية أدركت ترنيم أنه لا مكان لديها ولا أحد تلجأ إليه سوى أم درويش كما تأمل، وبالفعل اتصلت بها أم درويش الاتصال الأول لتخبرها أن أمنية عندها، وبقدر ما شعرت به من راحة لإتمام مهمتها بقدر ما شعرت

بالضياع، فـ «علي» أجبرها على البقاء، وإن أرادت الصدق مع نفسها فهو لم يجبرها، بل هي التي عجزت عن الرحيل، وما إن اعترفت لنفسها بهذا حتى شعرت أنها وقعت في فراغ منعدم الجاذبية فطفت بلا أرض تقف عليها.

متى تحولت مشاعرها من تلاعب إلى حقيقة؟! متى بدأت تتألم لحاله عوضًا عن حسابه على حالها؟!

كان من الواضح أنه ما بات قادرًا على الابتعاد عنها، وهذه هي اللحظة التي انتظرتها كي تتخلى عنه فيها بعد أن أصبحت أمنية معها، لكنها لم تفعل، ولم تفهم ما الذي تنتظره، حتى جاءها الاتصال الثاني من أم درويش قبيل الواحدة صباحًا، تعجبت منه وقلقت، فردت مبادِرة مسرِعة خوفًا من أن تكون أمنية قد أصابها مكروه أو هربت من جديد.

قالت: «أهي بخير؟!».

ردت عليها أم درويش قائلة بصوت خفيض: «بخير لا تقلقي، أعرف أنني أتصل بكِ في وقت متأخر، لكن أظنني لم أستطع النوم حتى أخبرك بما سمعته منها، كنت قد بدأت أتكلم معها عن ليلة الحادث حين رأيتها هادئة، وتكلمتُ عرضًا عن كون «علي» أطلق الرصاص على والدها، فنظرت إليّ بدهشة وردت أنه لم يفعل! أكدتُ عليها في السؤال عدة مرات فأجابت بالنفي كل مرة. أظننا أسأنا الظن به».

دقيقتان فحسب لا تعرف آخر ما نطقت به في نهايتهما وهي تضع الهاتف جانبًا ببطء شديد محدقة إلى الفراغ تكاد ألا تتنفس، ثم قامت من مكانها فبدلت ملابسها وأخذت حقيبة يدها الصغيرة تاركة ملابسها، ودخلت غرفة عوالي خلال نومها لتأخذ مفتاح باب البناية وخرجت، خرجت كالميتة من باب البناية ثم البوابة لا تبصر شيئًا أمامها، وكأن الظلام يسكنها لا يحيط بها، لكن إن كانت ميتة، فهل يبكي الأموات؟!

ظلت تبكي وتبكي لا تعرف كيف تتصرف الآن بعد أن وصلت إلى نهاية خطتها، ثم اكتشفت فجأة أن الجاني ما عاد متهمًا، وأنها اقترفت ما لا يمكن غفرانه، والآن ستتركه وحيدًا مهزومًا لا يعرف سببًا لخذلانها له!

استمرت تهيم على وجهها في الظلام حتى سمعت صوته من خلفها يناديها: «ترنيم».

استقرت نظراته على عينيها الفزِعتين المعذّبتين، فرفع كفيه وقال: «لا تخافي، إنه أنا «علي»».

أمسك بمرفقها ومعصمها وهو يشدها برفق كي تسير معه إلى السيارة قائلًا بخفوت: «أنتِ بخير، تعالي معي لأعيدك إلى البيت».

كما همس لها بثقة: «لن تلاحقك أي أشباح بعد هذه الليلة، أعدك بهذا».

بكت بأسى: «لا يمكنني العودة، أرجوك».

- ماذا عن عوالي والأولاد؟ ألا يستحقون منكِ تفكيرًا ثانيًا ما دمتُ لا أشكّل أي فارق معك؟!

وفي نهاية طريق طويل مظلم قاده معها قال: «لنتزوج».

دقيقتان غيّرا مسار حياتها إلى الأبد، فانساقت خلفه تتبع حلمًا تبيّن لها فيما بعد أنه ما كان سوى سراب.

****

استلقت في فراشها محدقة إلى السقف تستمع إلى أصوات تعلوها، جر الأثاث والخطوات المندفعة، لطالما كانت أصوات غير مفسّرة بعد منتصف الليل، ولأنها غير مفسّرة فالأسهل إلصاقها بالأشباح.

بالنسبة إليها لم يكن شكًا أو خيالًا مهووسًا، بل كانت أصوات أشباح الماضي بالفعل، أشباح تسيطر على صاحبها فلا يعرف راحة ولا سكينة أبدًا، أشباحه نفسها هي أشباحها، من كان ليصدق أن يكون وجوده بالأعلى، لا يفصل بينهما سوى سقف واحد، هو مصدر أمانها وتلاشي خوفها بعد أن كان مبعث رعبها؟ ليته يضرب بقبضته بابها مجددًا، ليته يكسر الباب الذي يفصله عنها وحينها لن تصرخ خوفًا منه، بل ستربت على غضبه وآلامه علّها تمحو ما تسببت فيه وتغيّر ما لا ذنب لها فيه.

شيء وقع وارتطم مصدِرًا صوتًا عاليًا جعلها تجفل، ثم أغمضت عينيها متنهدة تشاركه الوحدة بمثلها، تناصفه الوَحشة، إنها الشخص الوحيد في هذا الكون القادر على الشعور بما يقاسيه، كما أنها الشخص الأخير الذي يستحيل أن يتقبل منه مواساة أو تهوينًا للمأساة.

صوت ارتطام آخر جعلها تنهض من فراشها ببطء دون أن تبعد عينيها عن السقف، ثم تحركت في خطوات بطيئة، إنما لا تعرف توقُّفًا أو ترددًا، بقدمين حافيتين فتحت بابها وخرجت.

كانت درجات السلم كألواح من الجليد لشدة برودتها، لكنها لم تشعر بها، ولم تلقِ بالًا لمرضها الأخير، لم تشعر بشيء إلا به، فتابعت صعودها حتى وصلت إلى باب غرفته فوقفت مغمِضة عينيها ممسِكة بإطار الباب بقبضتيها، حيث كانت أصوات عنفه المكبوت أعلى وأكثر وضوحًا، وكأنما تكسر عظامها.

تحركت إحدى يديها عن الإطار لتضعها فوق سطح الباب مطرِقة بوجهها، وكأن خطواته في الداخل كدقات الساعة، تُحسب من عمرها المتناقص وهي تقف خارج بابه.

لم تتهيأ للباب الذي فُتح فجأة بقوة حيث وقف صاحبه ممسكًا به ثم تسمَّر مكانه، وكأنها آخر من توقع رؤيته، ومن إجفالها تراجعت إلى الخلف، لكنه كان أسرع منها في رد فعله، إذ قبض كفه على ذراعها يشدها إليه يمنعها من الهرب بعد وصولها إلى خط النار الفاصل بينهما.

ضاقت عيناه متنفسًا بعدم ثبات، ثم جالتا على ارتجافها بفعل برودة الرياح من حولها، ثم توقفتا على قدميها الحافيتين فوق الأرض لتعودا مجددًا إلى عينيها الواسعتين.

قال بصوت أجش خفيض: «إن كنتِ تنوين متابعة إمراض نفسك لضمان بقائك هنا فيجدر بكِ تجهيز قبر لكِ، لأنكِ لن تطيلي البقاء في كل الأحوال».

ازداد ارتجافها حتى اضطرت إلى عقد ذراعيها دون أن يحرِّر واحدة منهما، كما انكمشت أصابع قدميها فتكوَّرت تحتها، لكن برودة الجو لم تكن سبب ارتعاشها، بل نظرته إليها.

مع بقائها صامتة تحدق إليه بعجز وكأنها لا تجد التبرير أو الدفاع سألها آمرًا: «لماذا صعدتِ في مثل هذه الساعة؟».

كيف تقول له إنها جاءت لتضمه إلى صدرها وتريح وجنتها فوق جبهته، وإن كلَّفها هذا رميها عن درجات السلم؟ كيف تقص له ما تتمناه له إن كان يرى في وجودها الشيطان أمامه وفي بطاقة هويتها هوة سحيقة مظلمة لا يمكن ردمها ولو دفنها حية ألف مرة؟

تعثر صوتها وهي ترد: «جئت، جئت...».

- أتراكِ جئتِ كي تطمئني على المشوَّه المسكين الساكن فوق السطح؟

ازدردت لعابها وعيناها تلامسان الجرح في ذقنه، فكم كان محقًّا! وإن كان التشوهُ تشوهَ نفسِه ونفسِها، أما المسكين فهو بينما هي الجانية لا أحد غيرها، نعم جاءت تمنحه اطمئنانًا وتمنح نفسها.

قالت: «جئت أسألك إن كنت في حاجة إلى رفيق، فقد افتقدتُ جلوسنا معًا كما لم أفتقد شيئًا من قبل».

ظلل الشوق نظرته، لكن القسوة ظلت على شفتيه في سخرية يجيبها: «نعم، يفتقد الإنسان الكذبة أحيانًا حين تكون حقيقته كمستنقع تجمِّله الكذبة لبحيرةِ الفيروز لونها».

أخفضت عينيها كي لا تريه حجم اللطمة التي أصابتها بمهارة.

تابع ناظرًا إلى البساط: «ومع كلٍّ لا يمكنني المجازفة بصحتكِ سامحًا بجلوسنا في هذا البرد، حتى وإن افتقدته أنا أيضًا».

نظرت إليه بدهشة تتبين إن كان صادقًا فيما نطق به للتو أم أنها كذبة أخرى، لكنه شدها برفق يدخلها الغرفة مغلِقًا الباب، فانساقت خلفه كالمنوَّمة حتى أجلسها على حافة فراشه الصلب الضيق، وجلس بجوارها يلفها بغطائه الوحيد، مبقيًا ذراعه حولها ترتاح على ظهرها كي يمنحها دفئًا زادها ارتعاشًا وهي تنظر إليه لا تبعد عينيها عن محياه، الذي بدا في تلك اللحظة كوجه طفل يمسك بلعبته الأثيرة، التي لا يسمح بأن يفرِّط فيها.

عيناه فقدتا كل أثر للقسوة، وحلّ محلها شيء أشبه بنداء صامت، كما فغر فمه متنهدًا يشدِّد أصابعه حول ذراعها، حتى شعرت بنفْسها تقترب إلى صدره، فأغمضت عينيها على الدموع الحبيسة فيهما.

تكلم بين خصلات شعرها: «ما كان لكِ الخروج في جوٍّ كهذا».

لامست أصابعه وجنتها حتى حددت ذقنها ترفع وجهها برفق، فرفعت جفنيها تنظر إليه من بين دموع لم يعلّق عليها، بل أخفض وجهه يمس وجنتها بشفتيه، وكأنه يتأكد من برودة بشرتها.

همس فوقها: «أتدركين كم أعشق تلك الأقمار الذهبية المتزاحمة فوق وجنتيكِ!».

تحرك حلقها تشعر بالدوار، فبكت ضاحكة بصوت مختنق وهمست: «إن لم تكن تلك كذبة أخرى فجوابي هو نعم، أدرك هذا جيدًا وأكثر مما تتخيل».

نظر إلى عينيها وابتسم بحزن، فانحدرت دموعها على وجنتيها بصمت، حينها أحاط وجهها بكفيه وهمس باسمها، فردت باسمه تخبره بمدى خطورة ما يحدث بينهما، لكنه اختار التغافل عن سماع التحذير في همستها المختلجة، وقبّل الأقمار المتناثرة بنهم يلتقطها بشفتيه دون توقف، حتى شعرت بنفسها تتراجع حتى استقر ظهرها فوق فراشه.

اسمه الذي تكرر على شفتيها تحاول إيقافه، تغيرت نغمته إلى شوق يبادله بالجنونِ جنونًا، وفي لحظة اضطر ثغره إلى أن يصمِت همسها، فما عاد قادرًا على الصبر أكثر، والحلم المحرم متاح أمامه بفتنة تدعوه كي ينهل مما يشتهي بالقدر الذي يروي ظمأه لها، وخلال ساعاتِ الليلِ ضم جسدها له بقوة، وأحاطت عنقه بذراعيها لا يتذكران الماضي ولا فكرة لديهما عن المستقبل، لا يعرف عنها سوى أنها ترنيم، وبخلاف اسمه لا تريد معرفة المزيد.

****

فيمَ فكر كلٌّ منهما حين عرض عليها الزواج وقبلت به؟ وفيمَ فكرا حين حوّلا زواجهما إلى حقيقة على أرض الواقع ممزّقين ورقة الحكم بإيقاف التنفيذ؟

الحقيقة الوحيدة التي تعرفها أنهما لم يفكرا، لقد سمحا لنفسيهما بالانزلاق فحسب خلف مشاعر كانا محرومين منها، الحقيقة أنهما ليسا أفضل من والديهما كثيرًا، فلقد انساقا مغيَّبين إلى حافة الهوى، إنما بعقدٍ رسمي، فأين الوعد بالبقاء، وعمر آخره يتشاركانه حتى يشيب الشعر، وأطفال يمتلئ بهم البيت؟

دونما عهد إلى النهاية فما هي سوى ليلة عشق فيها الجسد فاتنه، حتى وإن لم تُنسَ ذكراها أبد الدهر، تأملتْه في نومه طويلًا حتى بدأ نور الشمس في التسلل إلى الغرفة، مسنِدة وجنتها إلى قبضتها لا تكتفي من تأمله، ترى فيه طفلها وعشقها.

مدت إصبعها تلاحق بها خط الجرح على طولِ فكه، لا تكاد تلامسه خوفًا من أن توقظه، فترى في عينيه كرهًا سيذبحها حتمًا.

همست تميل بوجهها: «ليتنا تقابلنا في زمان آخر، في عالم آخر. ليتك ما كنتَ أنت أنت، ولا كنتُ أنا».

تعين عليها مغادرته سريعًا قبل أن يفتح عينيه، فترى فيهما ما قد يدنِّس جمال الزمان الذي جمعهما خلال الليل عابرين إليه من أرضٍ واقعٍ مرير كمذاق الصديد.

في خروجها التفتت إليه تتأمله مرة أخيرة، ثم أغلقت الباب خلفها بحرص وفرت بحلمٍ سترعاه في قلبها الباقي من عمرها.

****

مرارة الانتظار والترقب قادرة على إهلاك الروح وتصفية القلب ببطء اختفت منه الرحمة، التلهف لكلمة منه بعد ما حدث كان مرعبًا بما فيه الكفاية، أما توقُّع ألا يتكلم متابعًا أيامه وكأن شيئًا لم يكن، فقد كان أكثر إفزاعًا بالنسبة إليها.

كانت من الوهن بحيث جلست على أرض البهو في الشقة الخالية، تضم ساقيها إلى صدرها تترقب بابها تناديه بصمت كي يعطف عليها بكلمة تهدئ

من روعها، حين نظرت إلى نفسها في المرآة هذا الصباح بدا وكأنها ترى أمامها امرأة غريبة تتوهج بشرتها بلون العشق، ففتاة الأمس لم تعد موجودة، ولا توجد الآن سوى تلك التي تحدق إليها بعينين شغوفتين قلِقتين تتضرعان.

طوال ساعة من الصمت التام كانت تدرك أنه لا يزال نائمًا، وما إن بدأ صوت الخطوات فوق رأسها في الوصول إلى أذنيها حتى تصلب جسدها كاملًا، بينما ارتج كيانها في انتظاره، ترى ما هو رد فعله الآن؟ هل ما حدث بينهما الآن هو السبب في وقع تلك الخطوات التي تقطع غرفته مرارًا وتكرارًا على ما يبدو؟ أتراه يلفظها أم ينزل ليلامس خوفها ويحررها؟ وقع خطواته زاد سرعة واقترابًا، إنه ينزل درجات السلم مندفعًا! ثم توقفت خطواته أمام بابها مباشرة!

فكت ترنيم ذراعيها من حول ركبتيها وأخفضتهما تنظر إلى الباب بلهفة، تناديه دون صوت، ثم لم تلبث أن نهضت لتجري على أطراف أصابعها حتى وقفت خلفه، تضع أصابعها على خشبه تكاد تلامس الواقف على الجانب الآخر لا يجرؤ على طرق الباب بينهما.

وكأنها تسمع صوت اضطراب أنفاسه رغم الحاجز السميك الفاصل بين قلبيهما.

همست تترجاه: «اطرق بابي يا «علي» أو اكسره إن أردت، فما عدت أخشى إلا اختفاءك».

تعلم أنه لم يسمعها بأذنيه، لكنها واثقة من إدراكه لوقوفها خلف الباب، فأغمضت عينيها تنتظر وتنتظر، وصور الليلة السابقة تداهم خيالها بتلاحقٍ مجنون حتى سمعت صوت خطواته يتراجع صاعدًا من حيث أتى! أطبقت جفنيها كما ضمت قبضتها فوق سطح الباب وشهقت بنفَس ممزَّق أبقى الحلم حلمًا، والواقع هو الواقع، لقد رفعت راية الاستسلام مُسَلِّمَة حصونها، فاجتاح استسلامها بهيمنة ثم انسحب، وفي انسحابه كان انهزامها.

****

صوت الصرخات التي التقطتْها أذناها كان عاليًا للدرجة التي جعلتها تخرج من منفاها فاتحة باب الشقة، وفي خروجها رأت «علي» ينزل السلم مندفعًا على صوت الصرخات ذاتها، تلاقت أعينهما، وفي اللحظة نفسها عاد صوت صراخ عزيزة تستغيث، فاستطاعت رؤية الشحوب الذي طال وجهه على الفور.

سمعته يهمس بإدراك مهيب: «أمي!».

تجاوزها جريًا فلحقت به إلى شقة عوالي تلهث خوفًا من الإدراك نفسه، شاعرة وكأن أعمدة هذا البيت تهتز من حولهما.

وقوعها هذه المرة لم يكن كالمرة السابقة، أخبرها إحساسها بهذا، وفي مراقبتها له عن بعد وهو يجلس على مقعد من مقاعد المشفى أدركت أن إحساسه أخبره الشيء نفسه.

راقبته طويلًا في جلوسه مستندًا بمرفقيه إلى ركبتيه، مشبكًا أصابعه يحدق إلى الأرض بلا أي رد فعل، بينما كان قلبها يدمي لأجله.

حتى الآن لم تجازف بالاقتراب منه خوفًا من أن يكون وجودها بقربه حملًا يفوق قدرته على تحمله في هذا الوقت العصيب، فاكتفت بملازمته، وإنما تاركة بينهما مسافة طويلة.

لكن مع طول جلوسه على هذا النحو محدقًا إلى الأرض دون أن يرفع رأسه، لم تستطع التحمل أكثر من هذا، فابتعدت عن الجدار الذي يسندها، ورفعت ذقنها قبل أن تتقدم إليه بخطواتٍ سريعة رافضة احتمال إبعاده لها.

جلست بجواره صامتة، إنما بتصميم على ألا تتركه مشبكة قبضتيها في حجرها تنتظر خبرًا من وحدة العناية المشددة أو زيارة، ما لم تتوقعه مطلقًا هو تحرُّكه ليفك تشابك أصابعه، ثم مد يده ليلتقط إحدى يديها يفكها من الأخرى لتمسك بها راحته.

نظرت ترنيم بانتفاض داخلي إلى يده الممسِكة بيدها بتشبثٍ في حجرها، طالبًا منها بصمت ألا تتخلى عنه في تلك اللحظة، حتى وإن عجز عن النطق بها.

رفعت يدها الأخرى لتغطي بها يده بقوة، كي تعطيه جوابًا طلبه بثبات لا يعرف التراجع.

غريب اقتصار الحياة على وجودهما وحدهما لهذه السيدة المستلقية في الداخل، وكأن لا أحد سواهما لها، فلو فُتح الباب لمجيء كلٌ مَن فتحتْ لهم باب بيتها على مدار السنوات، لامتلأ هذا الرواق وفاض بساكنيه لحين الاطمئنان عليها، وربما يكون منهم من طال الشيب شعر رأسه حاليًا.

حين سُمِحَ لهما بالزيارة أخيرًا، كان كلٌ منهما يشعر بداخله أنها المرة الأخيرة، لكنهما لم يجرؤا على الاعتراف. كان ينتظر الدخول إليها بفارغ الصبر، لكن حين سُمِح له ظل باقيًا لا يتحرك.

للحظات بقيت ممسكة بيده تنظر إليه بترقب، ومع طول بقائه نهضت دون أن تترك يده تشده كي يقف.

إن كانت رؤيته لها وهي تعتمد على عصاة وقد ثقُل لسانها بعض الشيء مؤلمة له من قبل، بحيث عانى حتى استطاع تقبلُها والتأقلم معها، فإن رؤيته لها الآن ممددة بالكامل وقد ظهرت آخر علامات الزمن على ملامحها الشاحبة قاتلة.

تحرّك عينيها بصعوبة، تفتحهما ثم تعاود إغلاقهما، وفي مرة مالت بهما فرأته، وحينها تحرك فمها مرتفعًا قليلًا في ابتسامة صغيرة، تلك الابتسامة أصابت شفتيه بعدوى التبسُّم بينما نحرت قلبه، فاقترب منها مغالِبًا مشاعره ليمسك بكفها المرتاحة إلى جانبها، وضغطها برفق بين أصابعه، ومضت لحظات وهو يتأمل أصابعها بين راحته، في يوم من الأيام كانت كفها قوية، حتى إنه كان يراها أشبه بكفٍ رجلٍ لا امرأة، بينما يده أصغر، الآن هزلت كفها ونفرت فيها العروق الزرقاء، فكادت أن تتلاشى في راحة يده القوية.

لم يقدر على الكلام، فأمضى دقائق زيارته لها كاملة ممسكًا بكفها يضغطها، فيشعر بأصابعها تبادله الضغط إنما بوهن شديد، وكأنما ترد على كل ما أراد قوله ولم تحن الفرصة قط.

انتظرته ترنيم في الخارج حتى خرج مبتعدًا عائدًا إلى مقعده لا ينوي المغادرة، وأوشكت على اللحاق به إلا أنها ودت رؤية عوالي ولو لدقيقة واحدة، فدخلت إليها.

كانت عوالي ممددة مغمضة، فاقتربت منها ومالت إليها تضع يدها على مرفقها برفق، ففتحت عينيها تحدق إلى السقف، ثم أدارتهما إلى عينَي ترنيم.

لم تكن ترنيم متأكدة إن كانت عوالي قد تعرفت عليها أم لا، لكنها غمغمت بشيء ما بصوت غير مسموع.

مالت إليها مقرِّبة أذنها سائلة: «ماذا؟ أنا أسمعك».

فتحت عوالي فمها بصعوبة وهمست: «جيد أنكِ فتحتِ نافذة».

أدارت ترنيم عينيها إلى عينَي المرأة، فرفعت عوالي أصابع يدها عن الفراش قليلًا مشيرة حولها.

تابعت: «افتحي المزيد من النوافذ».

انحنى حاجبا ترنيم وهي تغالب دموعها وتعض على شفتها بشدة، لكنها أومأت برأسها قاطعة الوعد.

****

جلسا متجاورين حتى الصباح.

طمأنته قائلة بهدوء تتشبث بمرفقه بكفيها: «تبدو حالتها مستقرة، حتى إنها ابتسمت لي، ولن تشرق الشمس إلا وهي عائدة معنا إلى البيت».

لم يجبها، بل ظل صامتًا جامد الملامح كما لم تترك مرفقه، وكان التفاؤل يملؤها، وبخاصة بعد الوعد الذي قطعتْه لعوالي، سيعود كل شيء إلى سابق عهده حتمًا.

ومع شروق الشمس اقتربت منهما ممرضة هامسة بصوت خفيض تدعو لعوالي بالرحمة.

كتمت ترنيم شهقتها بصدمة أشعرتها وكأنها ضُربت على رأسها للتو، فنظرت إلى «علي» الذي ظل صامتًا لا يتكلم، ولم يظهر على وجهه أي تعبير

أو حتى انفعال، لم يخدعها جموده، فخلف تلك الطبقة الجافة يمكث إنسان في عزلة على وشكِ الانهيار، هناك فقط فيه خذلان لا يجبره أي اعتذار، وهناك فقط ينتزع جزءًا من روح الإنسان ليخلُف فراغًا لن يُشْغَلَ مطلقًا، وفقده لعوالي انتزع هذا الجزء من روحه.

انهارت مرات عديدة خلال اليومين التاليين، بينما بقي هو على ثباته مظهِرًا قوة وصمودًا، لم يتكلم إلا نادرًا وباقتضاب منهيًا إجراءات دفنها كافة، ثم بقي عند قبرها فترة طويلة جدًا حتى ظنته لن يغادر أبدًا، لكنه عاد، ومنذ عودته التزم عزلته نائيًا بنفسه عن الجميع.

وقفت ترنيم في منتصف شقة عوالي تدير عينيها الحمراوين حولها بعد انصراف آخر المعزِّين من أبناء السوق، الذين كبروا فيه وهي موجودة أمامهم، بدت شقتها خاوية تمامًا، وصوت بكاء عزيزة يزيد من وحشتها وكآبتها.

جالت بعينيها مجددًا متمهِّلة عند كل ركن تسأل نفسها عما تفعله هنا بعد رحيل سيدة هذا البيت. توقفت أنظارها على النافذة الخشبية الضخمة عند مائدة الطعام، فابتسمت من بين دموعها رافعة يدها إلى شفتيها المرتجفتين، مشت إليها ببطء ثم فتحتها تدفعها بيديها على الرغم من أن الظلام كان قد ساد في الخارج والجو شديد البرودة، لكنها أرادت فتحها لتدخل الريح محمِّلة برائحة الشجر إلى المكان بعد رحيل آخر ساكنيه.

التفتت إلى عزيزة وهمست تمسح دموعها: «اتركي النافذة مفتوحة يا عزيزة، لن يحدث ضرر إن تركناها مفتوحة ليلة كاملة».

على غير العادة لم تعارضها عزيزة، بل أومأت برأسها بصمت ودموعها لا تتوقف.

خرجت ترنيم من باب الشقة بعد أن ألقت عليها نظرة أخيرة، ثم صعدت تجر قدميها جرًا فوق السلالم، لكن وهي واقفة أمام باب الشقة الخالية رفعت وجهها إلى أعلى، لا تسمع له صوتًا، حتى خطواته فقدت اندفاعها، لذا لم تدخل، بل تابعت صعودها إليه وصولًا إلى باب غرفته.

رفعت قبضتها تنوي طرق الباب، إلا أن قبضتها ظلت معلّقة في الهواء، ثم انخفضت ببطء لتجرّب حظها، وبالفعل حين أدارت المقبض انفتح لها الباب مصدِرًا صريرًا خفيضًا.

كان لا يزال بملابسه ممددًا على فراشه، يغطي عينيه بساعده، ملامح وجهه على حالها، جامدة غير معبِّرة، فدخلت وأغلقت الباب خلفها بهدوء، ثم استلقت بجواره على سريره الضيق لتضع وجنتها فوق صدره محيطة خصره بذراعها.

لم يتحرك قط، لدرجة بدأت تشك معها أنه قد راح في سبات عميق، لكن ارتفاع صدره تحت وجنتها بدد شكها، كانت أنفاسه متحشرجة، ودقات قلبه هادرة تحت أذنها، شعرت بكل ذرة في كيانه ترتج بعنف وهو يحاول كبح انفعالاته، هذا الضغط الذي يفرضه على نفسه آلمها قبل أن يكون له مؤذيًا مؤلمًا.

وضعت يدها أسفل قلبه، وكأن بحركتها تلك أفقدته آخر قدرته على السيطرة، فزاد ارتجاف جسده تحت يدها، مما جعلها ترفع عينيها إلى وجهه، ولم ترَ سوى ارتعاش ذقنه وهو يحاول إيقافها لكنه يعجز عن هذا، يخرج النفَس من بين شفتيه كحشرجة خشنة غاضبة، فيرتجف ذقنه أكثر، حينها رفعت أصابعها من قلبه إلى فكه المجروح، وسمعت صوت بكائه الخفيض تحت ساعده.

أطبقت عينيها بشدة، كما ضمته إلى صدرها بالشدة نفسها، فلم يعترض تاركًا قيد دموعه وهو يضمها إليه بعنفٍ متمسكًا بها، حتى الدموع تشاركاها والفقد تقاسماه، بعد أن تبادلا الكذبة بمثلها، ترى ما الذي سيتشاركانه تاليًا؟ الحياة أم الفراق؟

****

جاءها الجواب أسرع مما تخيلت، خرجت من باب الغرفة باحثة عنه، فرأته واقفًا بالقرب من السور، على الرغم من ثبات وقفته فإنها شعرت به متحفزًا ضد أي شيء قد يثير حفيظته في تلك اللحظة، ومع ذلك اقتربت منه على مهل حتى وقفت بجواره ووضعت يدها على كتفه.

همست: «علي».

لم يفُتها الإحساس بتصلبه إثر لمستها، فأبعدت يدها على الفور وسألته بحذر: «هل أنت بخير؟».

وكأنها قالت شيئًا مسيئًا، إذ توترت ملامحه وأظلمت.

همست تسأله قلِقة: ««علي»، هل تحتاج إلى شيء؟».

أخذ نفسًا عميقًا امتلأ به صدره واتقدت عيناه بانطباعٍ عرفتْ معه أن القادم سيكون مؤذيًا، وبالفعل رد بصوت قاسٍ كصخرٍ وقع على روحها هشَّمها.

قال: «ما أحتاج إليه هو ابتعادك، ما أريده هو اختفاء وجودك اللعين كلما طلبتُ العزلة».

نظرت إليه مباعِدة بين شفتيها بصدمة، ثم أسبلت جفنيها تشيح بوجهها عن الكره الذي عاد إلى عينيه أسرع من كل توقعاتها.

تمكنت من القول بصوت خفيض: «هذا الوقت الصعب الذي نعيشه لا يتسع لكرهك، فكلٌّ منا يحتاج إلى الآخر».

استدار إليها مندفعًا ليمسك بذراعها بأصابع موجِعة، يرد من بين أسنانه بنبرة مقيتة ضربت وجهها كالصفعات.

قال: «أحتاج إليك؟! أفيقي من وهم ما زلتِ تحاولين نسجه من حولي، فما أنتِ سوى نبتة طفيلية سامة ألقت بجذورها في أرض هذا البيت. أم تراكِ ولأنني رضيت بإغوائك الرخيص مرة ظننتِ نفسك قد نجحتِ في مسعاكِ القديم؟!».

لم تبكِ، لم تغمض عينيها الفاترتين، بل نظرت إلى عينيه طوال نطقه بتلك الكلمات الحاقدة دون رد فعل.

ما إن انتهى حتى ذكَّرته قائلة بهدوء واضعة كفها المفتوح فوق صدرها: «ودموعك على صدري ليلة أمس؟».

تصلبت ملامحه أكثر بينما اهتزت حدقتاه المستعرتان بانفعال هاجمه منذ بداية يوم حزين جديد.

لم تنتظر سماع رده، بل أجابت نفسها قائلة بخفوت: «لم تكن أي ليلة من الليلتين كذبة، ليلة انسقنا فيها وراء ما شعرنا به حقيقة، وليلة بكينا فيها حتى الصباح، لم تكن أيٌّ منهما كذبة».

تسارعت أنفاسه فعلمت أنه استيقظ راغبًا في إيلامها، وأن لا شيء قادر على إيقافه الآن، حتى وإن ترجّته، وكانت لتترجاه أن يتوقف عما يفعله لو علمت أن لرجائها سلطانًا عليه.

تراجـع وجهــه إلــى الخلــف بنظـرات مظلمة دافعًا ذراعهــا، ثم رماها بالرصاصة الأخيرة قائلًا: «لقد طالت تلك اللعبة أكثر من اللازم، أريدك خارج هذا البيت الآن».

أغمضت عينيها دون رد، فصرخ في وجهها: «ألم تسمعي؟! اخرجي من هذا البيت ولا تعودي».

رفعت جفنيها ونظرت إليه وهو في حال يُرثى له، عينان حمراوان بلون الدم، ووجه ملامحه تتصارع ما بين جنون وأسى، وصدر كموج متلاحق لا يهدأ.

أما هي فكانت باهتة الملامح، ساكنة الجسد، فاترة الصوت في ردها الخفيض: «إن خرجتُ هذه المرة فلن أعود يا «علي»».

فصرخ مجددًا: «قلت اخرجي».

وبالفعل تراجعت خطوة أمام صرخته، وساد الصمت بعدها للحظات طويلة يحدق كلٌّ منهما إلى الآخر بانفعاله الخاص، ثم لم تلبث أن استدارت مغادرة بخطوات بطيئة ثابتة لا تلائم نزيف قلبها بأي شكل من الأشكال.

راقبها تغادر دون كلام أو دفاع أو حتى توسل، راقبها تخرج من باب السطح، فاستدار على عقبيه مستندًا بكفيه فوق السور ومضى عليه وقت طويل، حتى أبصرها خارجة من البيت وحقيبة ملابسها معلّقة على كتفها.

حفرت أظافره في حجر السور بشدة يرمقها بصراع عنيف، فاستدار مجددًا كي لا يرى خروجها، لكن الرياح حملت إلى أذنيه صوت البوابة الحديدية الثقيلة وهي تغلق خلفها، فدار باحثًا عنها، لكنها كانت قد رحلت.

****

ستعود، ستعود ككلِّ مرة، وهل يتراجع مثلها؟

مرت ساعة فلم يشعر بنفسه إلا وهو يخرج من بوابة البيت بسيارته بحثًا عنها في كل مكان، هذه المرة لم يترك شارعًا حول البيت إلا وبحث فيه، فلم يجدها، هذه المرة اتصل بها مرارًا ليجد هاتفها مغلقًا، هذه المرة قالت «إن خرجتُ هذه المرة فلن أعود».

مرت ساعات وهو يقود سيارته على غير هدى، حتى أوقف سيارته على جانب الطريق ممسكًا بالمقود بأصابع مشتدة محدقًا أمامه مراقبًا السيارات المتسارعة.

ثم همس قائلًا: «ستعود، لديها مخطط عفن لن ترحل قبل تنفيذه كاملًا بلا يأس».

التقت عيناه بانعكاسهما في مرآة السيارة، فهاله التعبير المرتسم فيهما، والذي ناقض ما نطق به للتو يكذِّبه، فسارع بإبعاد عينيه عن الصورة الكاشفة عاقدًا حاجبيه بشدة، مقنِعًا أنه ما يبحث عنها إلا لأنها لا تزال زوجته، تحمل اسمه. ولأنه لا يثق بها فلن يبقيها خارجه حتى يسترد اسمه منها وتكون قد نالت ما استحقت.

انقبضت أصابعه أكثر متذكرًا عنوانها القديم في هوية بطاقتها، أيُعقل أن يذهب إلى بيت سكنه الشيطان النجس سابقًا؟! لكن ذكرى كلامها عن الهجَّام الذي ينتظر عودتها والذي سبق وهجم على شقتها وتعرَّض لها جمدت الدم في عروقه، مما جعله يحرك السيارة بأقصى سرعته متجهًا إلى هناك.

كانت منطقة شعبية فقيرة، أوقف السيارة فيها بالكاد أمام بناية قديمة متآكلة، وحين أوشك على دخولها سأله رجل عمن يريد، وقد تعجب لمنظره

الغريب عن المنطقة، فأجابه «علي» متوترًا دون أن يبعِد عينيه عن البناية يأمل لو رآها تخرج من نافذة أو واحدة من الشرفات.

قال: «ترنيم، أبحث عن ترنيم».

نظر الرجل إلى البناية بدوره ورد عاقدًا حاجبيه وقال: «الأستاذة ترنيم؟ لقد رحلت منذ شهور دون أن تترك خبرًا ولم تعُد من وقتها».

تراجع بخطوات بطيئة حتى استند بكفه إلى سقف سيارته شاعرًا بالقلق يجتاحه، أيكون قد ضيّعها إلى الأبد؟ ما هذا الشعور بالخوف الذي بدأ يشل أوصاله وهو الذي طردها بنفسه، ليس مرة أو مرتين، بل مرات ومرات!

هز رأسه متجهمًا بشدة رافضًا هذا القلق والاحتمالات المصاحبة له، ثم استقل سيارته معتصرًا ذاكرته محاوِلًا تذكر عنوان آخر أكثر بشاعة ونجسًا بالنسبة إليه، شقة الأشباح، شقة دخلها ذات مرة مجبَرًا، شقة يقطر من جدرانها الإثم وتسكنها الخطيئة، شقة أقسم أن ينسى عنوانها ويمحوه من ذاكرته إلى الأبد، لكن ها هو ذا يعود ويسترجعه علّه يسترجع معه شيئًا يخصه ضيّعه من بين يديه.

هذه المرة حين أوقف سيارته نظر من النافذة المجاورة له قبل الخروج بوجهٍ امتقع وعينين غارتا وهما تتأملان المساحة الكبيرة المسطحة الخالية! أتراه أخطأ تذكر العنوان؟

خرج متعثرًا من السيارة يكاد أن ينكب على وجهه محدقًا بعدم استيعاب إلى الفراغ، ثم نظر حوله يتأكد، متمنيًا أن يكون قد أخطأ العنوان، لكن الشارع هو نفسه، لا ينقصه سوى البناية التي حل محلها هذا المربع الخالي، اتجه إلى أقرب متجر صغير، وسأل صاحبه بصوت أجش عن امرأة تُدعى أم درويش.

أجابه الرجل: «لقد باعت البناية التي تمتلكها منذ فترة وانتقلت من هنا، وقد هُدمت البناية كما ترى وسيُبنى برج مكانها».

غامت عينا «علي» وسأله مجددًا: «أين ذهبتْ؟ أين تقطن الآن؟».

هز الرجل رأسه مجيبًا: «لا أعلم والله، لم تترك عنوانًا، لديها أولاد هاجروا منذ سنين، ربما تكون قد تعبت من العيش بمفردها وسافرت لهم».

أغمض «علي» عينيه ماسحًا جبينه البارد بكفه، فقال الرجل: «هل أنت بخير يا أستاذ؟ هل تحتاج إلى كرسي لتجلس قليلًا؟».

هز «علي» رأسه نفيًا وقال بصوت أجوف: «سأعطيك رقمي، فهلّا اتصلت بي إن عرفت مكانها الحالي؟».

ابتعد بعدها متجهًا إلى سيارته، وما إن جلس خلف المقود حتى أدرك أنه لا مكان آخر لديه ليبحث عنها فيه، لقد ضيّعها كما ضيّع أمنية قبلها، والآن مؤكد أن واحدة منهما ستقوده إلى الأخرى.

اكتشف أنه منذ اللحظة التي أخبرته فيها أن الفتاة في مكان آمن اطمأن باله، اكتشف أنه كان يثق بها دون وعي منه أو إرادة، اكتشف أنه كره نفسه أكثر منِ كرهه لها لأنه وقع في المحظورِ وأحبها، والآن فقدها كما فقد عوالي وأمنية التي بات ينطق اسمها الآن، وليس مجرد لقب الفتاة كلما أشار إليها.

تراجع رأسه إلى الخلف مستندًا به إلى ظهر مقعده، شاعرًا بالإعياء والمرارة، فالعزلة التي طالما حاصر نفسه بها بمحض إرادته فُرِضَتْ عليه الآن قسرًا، ولم تبدُ له يومًا مؤلمة كما هي في تلك اللحظة، وكأنها أسلاك شائكة من صنع يديه، أبعدت الجميع عنه وتركته ملقى على بساط قديم أمام غرفة أعلى السطح.

****

رؤيته لباب الشقة الخالية مفتوحًا وسماعه صوت خطوات بداخلها جعلاه يتوقف في منتصف السلم، شاعرًا وكأن قلبه قد عاد منتفضًا بعد أن قاد به السيارة لساعات وهو مهمل في صدره كجزء ميت، حتى الحزن ما كان قادرًا على الشعور به، مجرد خواء مؤلم.

همس مشدوهًا: «لقد عادت».

اندفع يجري صاعدًا كل درجتين معًا حتى وصل إلى بابها المفتوح فدفعه، ودخل منه هاتفًا بقوة فتردد صدى صوته في المكان الخالي يشاركه النداء: «ترنيم!».

خرجت عزيزة من الداخل مرتدية السواد، ثم قالت بخفوت: «بل أنا يا سيد «علي»، دخلت لأرى إن كانت الشقة في حاجة إلى تنظيف قبل إغلاقها».

ظل واقفًا مكانه ممسكًا بحافة الباب محاوِلًا التعامل مع الحلم المراق سريعًا فوق هذه الأرض الخالية، فتقدمت منه عزيزة تخرِج من جيبها ورقة مطوية.

وقالت بانكسار: «لقد أعطتني ترنيم هذه الورقة قبل رحيلها لأسلمها لك، لكنك انطلقت بسيارتك فلم تسمع ندائي خلفك».

أمسك بالورقة بأصابع مهتزة، فخرجت عزيزة مغلِقة الباب خلفها بعد أن ألقت عليه نظرة حزينة.

تحرك يجر قدميه ثم انحنى ليجلس أرضًا في البقعة نفسها التي كانت تجلس فيها عادة في مواجهة الباب، ثم فتح الورقة مسنِدًا رأسه إلى الخلف يقرأ المكتوب بعينين تلاحقان الكلمات.

««علي»، أخشى أن تمزِّق الورقة قبل أن تتنازل بقراءة ما أردتُ قوله، اليوم لن أقف على السور مهدِّدة، ولن ألاحقك في صحوك وفي نومك، ولن أقتحم عزلتك بعد الآن، اطمئن، فقد تخلصتَ مني إلى الأبد، لذا كتبت تلك الكلمات الأخيرة آملة أن تصل إليك. لقد دخلتُ هذا البيت وعيناي على رجل يسكن في غرفة فوق سطحه، كان هو هدفي وغايتي منذ البداية، كنت مريضة وظننت أن علاجي لن يكون إلا بكسره، فقررت الصعود إليه لأحقق غايتي لربما شُفيت مما أشقاني طوال السنوات الماضية، لكن في صعودي مررت بطوابق جمعتني فيها بآلام غيري، تُهت عن هدفي وأنا أنغمس في حياة الآخرين وآلامهم، عثرتُ خلال صعودي على شيء افتقدته من زمن طويل، في صعودي وجدت المساعدة والمشاركة، فقدت الوحدة وانخفضت حدة كرهي وبدأت مخاوفي في التلاشي، وحين وصلت إلى وجهتي أخيرًا، اكتشفت أن هدفي كان الحلقة الأضعف في كل ما مررت به من آلام غيري، وحين وصلت وقعت، وقعت في الحب وما كان لهذا أن يحدث. هل تتذكر شقَّي الرحى يا «علي»؟ كنت أنا بينهما، ما بين محاولة واهية للتمسك بخطة غبية، وبين مشاعر بدأت

تتحدى قوة كرهي وتتغلب عليها. كنت مصدومة بعدم فهمٍ أحاول النجاة بنفسي من هاتين القوتين الضاغطتين، لم أفهم لماذا أضعف أمامك حتى كرهت نفسي أكثر من كرهي لك، ثم اكتشفت فداحة خطئي، وقبل أن أستعيد توازني من تلك الضربة بادرتَني بضربة أقوى حين منحتَني الحلم وقلت «خذي يا ترنيم، تذوقي ولا تحرمي نفسك من السعادة، فكل شيء على ما يرام». ظننت أنني أستطيع النجاة بحلمي في لحظة غادرة، وقررت اختلاس الفرصة، فرصة النجاة بحبي لك، فأنا أحبك وأنت تحبني، كما تبيّن أن أيًا منا لم يظلم الآخر، فما الضرر إن طويتُ صفحة الكره والأحقاد وأبقيتُ الكتاب مفتوحًا على صفحة كُتبت فيها قصة جمعتنا بلا هوية أو عنوان؟ فقط «علي» وترنيم. ثم اكتشفتُ مدى غبائي بعد انهيار كل شيء مبدِّدًا أحلامي، ظننتك بددت حلم انتظاري لوالدي سنوات طويلة، ولسخرية القدر بددتُ أنا حلمي بيدي، وأنت كنت حلمي. حبك هو حلمي، سأحمله في قلبي حتى آخر العمر، وإن كان لم يتحقق فيكفيني الحياة على الذكريات القليلة التي جمعتنا. سأحفظها وأحرسها وأعدك ألا أبدّدها، ومع هذا أشكرك لأنك أنزلتني إلى أرض الواقع، فربما كانت القصة الخيالية لتنتهي بمأساة أخرى إن كنا قد طاوعناها وانسقنا خلفها. آخر كلماتي لك أطمئنك فيها أن أمنية ستكون في أمان معي، عِش أنت حياتك واخرج من عزلتك وانسَ الماضي، فلا خير في إحيائه، جرِّب العلاج الذي داواني، فلا أتمنى لك غيره.

ورجاء أخير، لا تنسَ الأولاد، كن لهم ما كانته عوالي لك».

طوى الورقة على صدره مغمِضًا عينيه والغصة في حلقه، لقد صفعها وأنزلها إلى أرض الواقع كما قالت، لكن من يصفعه هو؟

****

بعض البيوت حين تخلو من ساكنيها تسكنها أشباح مخيفة، تملأ صمتها عويلًا ومرارًا، أما البعض الآخر فتدفئ الذكريات أركانها من ضحكات كانت هنا ولعب هناك.

رائحة الياسمين وعطر الأشجار بعد هطول المطر، جلسة فوق البساط وتأمُّل السماء، وليلة جمعهما هواها بجنون فلامسا حدود سمائها، أنَّى له أن ينسى؟ بات فراشه كالجمر وحياته صامتة، لكن تحييها الذكرى، لو كانت عوالي هنا لأخبرها أنه ما عاد قادرًا على التحمُّل أكثر، لما أخفى عنها اعترافًا طالبته به في حياتها فَجَبُن حتى من تصديقه.

رحلت عوالي تاركة له البيت آخذة جزءًا من نفسِه لا يُرمم أبدًا، أما قلبه فسلبتْه مغوية لمعت في حياته المعتمة فجأة، ثم اختفت كشهاب خاطف، حتى بدأ يتساءل إن كانت حقيقة وقعت أم أنها كانت مجرد حلم مضطرب استيقظ منه أسرع مما تخيل!

دخل من باب الطابق الأرضي يستطلع سبب الصمت المقلِق لأولاد كان صوت صراخهم يشق عنان السماء فيما مضى، لتواجهه بدخوله وجوه واجمة بعضها مائل والبعض الآخر مستلقٍ على مائدة متراصة فوقها أطباق طعام لم يُمس.

بادرهم قائلًا بحزم: «لماذا لا تأكلون؟ تقول عزيزة إن معظم طعامكم يعود كما هو منذ أيام».

لم يحصل على جواب في الحال، إنما استقام من كان مستلقيًا ناظرين إليه جميعًا بلا حماس.

قال بصوت أقوى: «سألتُ سؤالًا».

رد منصور مطرِقًا برأسه: «ما عاد الأكل كما كان».

اقترب منهم «علي» وأمسك بملعقة يتذوق ما بطبق واحدٍ منهم بلا شهية.

ثم نظر إليهم مغمغمًا: «ماذا به؟».

أجابه منصور يميل بمرفقه فوق المائدة: «لقد رحلت السيدة «عوالي» بعد أن عوَّدتنا على نزولها لتناول الطعام معنا».

أخذ نفسًا ثقيلًا ورد ببطء وهو يتخذ كرسيًا ليجلس: «حسنًا، رحيلها لم يكن اختياريًا، فلكلٍّ منا موعد لن يخلفه».

شبك الشحات ذراعيه فوق الطاولة معقبًا بخفوت: «ربما ما كان ينبغي لها أن تعوِّدنا على وجودها إذًا».

حادت عينا «علي» مخفِضًا وجهه الصلب، وتطلبت منه القدرة على الكلام بضع لحظات.

قال: «لا أظنكم تبخلون عليها بشيء أسعدها في آخر أيامها، حتى وإن تسبب في ثقلِ افتقادكم إلى وجودها بعد وفاتها، أليس كذلك؟».

سأله صابر بلهفة سؤالًا لم يعد قادرًا على كتمانه أكثر: «متى ستعود ترنيم إذن؟».

تجمعت الأعين كلها على وجه «علي» مترقبة الجواب باللهفة نفسها.

وحين ظل صامتًا أضاف منصور: «قالت عزيزة إنها في زيارة لأقارب لها، لكن مرت أيام ولم تعد!».

تحركت عيناه القاتمتان المثقَلتان فوقهم واحدًا تلو الآخر، ثم أجاب: «ستعود، فهذا هو بيتها الوحيد».

تكلم سعد قائلًا بقنوط: «يبدو أن الجميع قد رحل، وربما علينا الرحيل نحن أيضًا».

نظر إليه «علي» للحظات ثم قال بثبات: «لكنني باقٍ، وأنتم كذلك. بدئًا من اليوم سنتشارك طعامنا معًا، فهل يناسبكم هذا؟».

أومؤوا برؤوسهم بينما تحرك صابر من مقعده واقترب من «علي» ليضع يده على كتفه.

قال بخفوت: «ألا يمكنك أن تتصل بترنيم تتعجّل رجوعها؟ أليست زوجتك؟».

لم يجبه، فلم يكن لديه جواب، فليت رباطهما كان طبيعيًّا كباقي الأزواج، ينتهي فراقهما باتصالٍ فيذهب ليحضِرها، أو تعود هي إليه جريًا وقد هزمها الشوق كما انهزم أمامه، ليتهما تقابلا في زمان آخر، ليتها ما كانت هي ولا كان هو. لكن... إن لم يكونا هما، تشاركا كل ألمٍ ونبذٍ وخزيٍ وعارٍ لينجوا بعدها عائزًا كلٌّ منهما على الآخر، يدرك تمامًا مواطن جروحها، فله مثلها

صورة طبق الأصل، أكانا حينئذ سيتشاركان الحب نفسه؟! ربما حينها تمر بجواره عابرة كأي غريب غير مدرك أنه مر لتوه بصورة وحيدة مطابقة له في هذه الحياة اختفت بسرعة بين الجموع.

****

«بعد أربعة أشهر».

وقف أمام صورتها المعلَّقة على الجدار بجوار الأولى، صورة شاركها فيها، يومَ التُقطتْ كان في قلب كلٍّ منهما كذبة ضخمة يحملها للآخر، وفي القلب نفسه ضعف خائن تجاهه، والآن وبعد اختفائها يقف أمام الصورة كالمجذوب متسائلًا كل ليلة: «أين أنتِ؟ أين تنامين؟ ماذا تأكلين؟ من لكِ سواي؟ بخير أنتِ وفي أمان كما تعهدتِ لي؟ أم خانتكِ شرور هذا العالم وسخرتْ من ادعائك؟ تُرى من تعرض لكِ ومن مسَّكِ بسوء بينما أنا أجلس هنا كالعاجز منتظرًا عودتك كمعجزة مستحيلة الحدوث؟».

زم شفتيه مخرِجًا هاتفه منفعلًا، تستعر عيناه وكل ملامح وجهه العاصف، وبحركة لم يفكر فيها، بل لم يسمح لنفسه بالتفكير كي لا يتراجع، قص الصورة نفسها المحفوظة في هاتفه لتكون صورتها فقط، ثم نشرها للعلن وكتب فوقها كلمة تدفع العالم أجمع لمشاركته في العثورِ عليها.

كلمة «مفقودة».

****



الفصل العاشر

«البداية»

ساعات لا يفارق هاتفه مترقبًا وصول أي اتصال يخبره عن مكان وجودها، أي معلومة، أي شيء، لكن لا شيء حتى الآن، ساعات تمر بطيئة كدهرٍ ينقضي من عمره، يجلس قليلًا، ثم يقوم ليدور قاطعًا السطح، ينزل درجات السلم حين يغافله الصبر ويهرب فيتوقف عن الشقة التي ضمتها بين جدرانها، فيضرب بقبضته عليها بقوة متمنيًا سماع صرختها الخائفة من الداخل.

يمر على شقة عوالي فلا يرحمه وجع الفراق الذي غيّبها، فلو كانت هنا لدخل إليها يسألها كيف يتصرف وأين يجدها.

يقف عند باب البناية مراقبًا لعب الأولاد بعينين غائمتين، وذكرى هطول الأمطار فوقهما ولعبهما بالوحل تداعب قلبه، يوم أمسك بيديها وكأنه لن يتركها أبدًا، يومها كان الوحل يغطي الروح قبل الجسد، وما كانا قادرين على التخلص منه بعد، يومها ضحك بشدة وفي عينيها رأى ضحكته وكأنها ترى معجزة تتحقق.

مال بوجهه يتأمل أشجار الياسمين التي تقف مكافِحة في انتظار عودة سيدتها، كما الجميع في انتظارها، ساعات تمر وأمله الأخير يهدِّد بالزوال، ثم سمع رنين هاتفه فجأة! تحرك ببطء أولًا ثم اندفع إليه وعيناه لا تحيدان عن

الجهاز شاعرًا بهاجس يسيطر عليه، يخبره أن هذا الاتصال عنها، إن لم يكن منها.

انقض عليه مجيبًا، لكن لا صوت على الجانب الآخر، فقط صوت أنفاس مترددة.

مما جعله يكرر منفعلًا: «من؟».

مجددًا لم يسمع ردًّا، وإن كانت وتيرة الأنفاس قد تسارعت، أتراها هي؟! ليتها هي! إنما إن أغلقت الاتصال الآن فلن يرحمها.

لذا خرج صوته أكثر قسوة: «من؟ أسمع صوت أنفاسك».

ردت: «أنا... أتصل بخصوص الخبر».

الصوت الذي وصل لم يكن صوتها، بل صوت فتاة شابة، صوت بطيء أجوف يظهر فيه التردد وعدم الأمان، وللوهلة الأولى انتابته خيبة أمل ثقيلة، لكن سرعان ما نحّاها جانبًا، فما دام الخبر عنها فلن ينتظر حتى وإن اضطر إلى أن ينتزعه انتزاعًا.

لذا هتف بلا صبر: «هل عرفتِ مكانها؟ أين هي؟ تكلمي، لماذا أنتِ صامتة؟».

لحظات تمر تهلِك أعصابه، ثم جواب كان قادرًا على أن يلقي به إلى حافة جنون الغضب.

قالت: «لا أعرف مكانها».

أغمض عينيه ضاغطًا على الهاتف بأصابع أوشكت على سحقه، لكن شيئًا ما جعله يحاول السيطرة على أعصابه، شيئًا يخص هذا الصوت تحديدًا.

لذا سأل بحذر: «هل لديكِ أي معلومات عنها؟».

- لقد رأيتها بالأمس.

وكأنها ألقمته ترياقًا سائغًا بجوابها المتردد، فأغمض عينيه للحظة وتماوجت أنفاسه بعنف قبل أن يتمكن من سؤالها بصوت خرج من بين شفتيه متهدجًا رغمًا عنه.

قال: «أين رأيتها؟ لماذا تبخلين بما لديكِ؟ انطقي».

ظلت صامتة وكأنها ارتعبت من انفعاله، وصمتها جعله يقول منهكًا وكأنه خرج لتوه من سباقٍ طويل: «إنها زوجتي».

- ربما كنت مخطئة، ربما لم تكن هي من رأيتها، فتلك التي أعرفها لم تكن مفقودة.

هذا الصوت، تلك الطريقة في الكلام، شعور سيطر عليه وجعله يقول قاطعًا دون مقدمات: «يجب أن أراكِ».

****

عرفها ما إن دخل من باب الطابق الأرضي رغم أنها كانت توليه ظهرها تتأمل صورته مع ترنيم والأولاد، عرفها رغم أنه آخر مرة رآها فيها لم تكن تزيد كثيرًا عن طفلة، أما الآن فهي شابة هشة القوام، شعرها الأسود مربوط خلف مؤخرة عنقها، تتشابك أصابع يديها بقلق مستمر، تميل برأسها لتتحقق أكثر من الصورة التي لفتت انتباهها.

وفي اللحظة التي بدا وكأنها أدركت شيئًا صدمها بادرها قائلًا بهدوء: «أتيتِ أخيرًا».

استدارت شاهقة لتجد نفسها واقفة أمامه بشحمه ولحمه، وكما تعرف عليها تعرفت عليه من الصورة قبل حتى أن تستدير، والخوف الذي شلَّ حنجرتها للحظة انفجر في التالية لصرخة قوية وهي تتراجع فتعثرت ووقعت أرضًا ناظرة إليه بعينين مذعورتين، كأن السنوات لم تمر، المكان نفسه، ونظرتها المضطربة المذعورة نفسها، لا شيء تغير سواه.

رفع كفيه قائلًا بصوت خفيض: «اهدئي، لا تخافي».

لكنها تراجعت في جلوسها تتنفس بصعوبة حتى التصقت بالجدار وهمست: «إنه أنت!».

لم يكن سؤالًا، ومع ذلك أجابها بهدوء: «نعم أنا يا أمنية».

اسمها على لسانه غريب وله مذاق مرير، لكنه بدا محتملًا الآن بعكس أول مرة، فقد كان يتجرع وجودها في الحياة وكأنها سم يمزق أحشاءه.

رمشت بعينيها غير مصدّقة تهز رأسها بيأس يثير الشفقة، ناظرة حولها تتذكر المكان الذي أُلقيت فيه منذ ثماني سنوات، ولم تبقَ فيه سوى ساعة على الأكثر.

أعادت عينيها إليه هاتفة بصوت خشن يشبه النحيب: «كيف وصلت إلى مكاني؟!».

مالت زاوية فمه في ابتسامة باهتة يجيبها بتمهل: «أنتِ من اتصلتِ بي».

اهتزت حدقتاها محاوِلة استيعاب وتذكر سبب وجودها هنا، ثم لم تلبث أن رفعت عينيها إلى الصورة المعلقة على الجدار وازداد اتساع عينيها مفكرة قبل أن تنظر إليه.

هتفت باختناق: «أكان هذا فخًا كي تصل إليّ؟!».

أخذ نفسًا عميقًا ثم اقترب منها مادًّا يده كي يساعدها في النهوض.

تراجعت هاتفة: «لا تقترب مني».

زفر رافعًا كفيه وهو يتراجع ثم قال ببطء كي تستوعب: «لم يكن فخًا، ترنيم هي زوجتي وأنا أبحث عنها فعلًا، وأنتِ الآن وسيلتي الوحيدة في الوصول إليها».

كانت تجاهد كي تفهم كلمة مما يقول ثم همست بصوت متكسر: «وماذا كانت زوجتك تريد مني؟!».

أسبل جفنيه للحظة ثم سألها: «ألم تخبرك من تكون؟ ألم تتكلما؟».

انقبضت أصابعها بشدة تشعر بنفسها محاصَرة في كابوس غير مفهوم، لا تستطيع الخروج منه.

وحين بقيت صامتة تكاد أن تبكي سألها بحذر: «أين كنتِ كل هذه المدة؟».

لم تجِب عن سؤاله سوى بصرخة قوية عالية: «لن أعود، لن أدخل مصحات مرة أخرى، ولن أعود إلى المتوحشتين مجددًا، لن يحدث ولو اضطررتُ إلى قتل نفسي».

سارع بالقول مخترقًا صراخها: «لن أجبرك على شيء، لا تخافي».

ثم وضع يده على صدره وكرر عبارة ترنيم بقوة: «لقد انتهى دوري، فأنتِ الآن ما عدتِ طفلة، بل شابة ناضجة يمكنها أن تقرِّر شكل حياتها بنفسها».

ظلت صامتة كطير صغير يرتعش تنظر إليه بشكٍّ واتهام، والدموع تتجمع في عينيها، فتراجع إلى الخلف ليمسك بكرسي وجلس عليه بحذر، مما جعلها تنظر إلى الباب المفتوح من خلفه مفكرة كيف ستفر منه.

ظل جالسًا بهدوء ينظر إليها قارئًا أفكارها كلها.

لم يظهر شيء على ملامحه وهو يقول: «كل ما أريده فقط ألا تكوني في الشارع».

صرخت فيه بعدوانية: «الشارع أفضل من بيتهما».

هز رأسه نفيًا قائلًا بابتسامة قاسية لم تصل إلى عينيه: «لا ليس كذلك، وعليكِ تصديقي في هذا».

صرخت مجددًا تستند بكفيها إلى الأرض بجوارها: «لا أصدقك، أريد الخروج من هنا».

ثم حاولت النهوض، وما إن فعلت حتى استقام في جلسته فتراجعت ناظرة إليه بوجه ممتقع.

سألته ترتعش: «هل أنا... محتجَزة هنا؟ هل ستعيدني إليهما أم ستأخذني إلى مصحة مرة أخرى؟».

رفع كفيه مجددًا قائلًا: «أنتِ لستِ محتجزة، وهاتان المرأتان يمكنك نسيانهما، أما العلاج فيمكنك إعادة التفكير فيه إن أردتِ».

خرجت أنفاسها كشهقات ترتعد، ثم ردت بخشونة محاوِلة اختبار صدق كلامه: «أريد أن أخرج إذًا».

أومأ لها مجيبًا: «يمكنك الخروج، لكن ألن تخبريني على الأقل عن مكان إقامتك وكيف تتدبرين حالك؟».

هزت رأسها نفيًا بسرعة ترمقه بنظرات حادة والخوف يسكنها.

أومأ مجددًا ثم قال بعد فترة ببطء شديد محدقًا إلى عينيها: «حسنًا، يحق لكِ هذا، لكن اسمعيني لدقائق».

لم ترد بالإيجاب لكنها بقيت صامتة محدقة إليه بكره شديد.

قال بصوت متقطع: «بقاؤك معي منذ ثماني سنوات كان...».

صمت للحظة ثم تابع على مضض يهز رأسه وكأنما يخاطب نفسه: «كان مستحيلًا، ما كنتُ قادرًا عليه، فالموت لديَّ أرحم».

ساد الصمت بينهما للحظات ثم نظر إلى عينيها المهتزتين وتابع بخفوت: «لم يكن لديَّ حل آخر سوى إرسالك إلى بيت يرعاكِ مشدِّدًا على إحكام مراقبتك وعدم السماح بفرارك».

أطرقت بوجهها ذي الملامح المتشنجة بينما أضاف: «لم أحمِّلكِ ذنبًا، إنما أنتِ...».

لم يعرف ما يستطيع قوله، فتكلمت تشاركه للمرة الأولى بصوت يرتعد: «بينما أنا وليدة هذا الذنب».

نظر إليها متفاجئًا، فقالت ترفع كتفها: «سمعتُها كثيرًا، لم يكن ينبغي لي أن أولَد أو أحيا».

هز رأسه نفيًا، لكنها قالت متحفزة وأصابعها تنقبض فوق سطح الأرض: «هل يمكنني الخروج الآن؟».

أطرق بوجهه للحظة ثم لم يلبث أن أومأ برأسه وسألها بحذر: «ستخرجين، لكن أخبريني قبلًا عن مكان ترنيم».

بادلته النظر مشكِّكة، فقال يهدئ خوفها: «ترنيم هي الوحيدة التي أرادت إنقاذك، لقد سمعت استغاثتك وتتبعتها حتى وصلت إليكِ».

- أنت تتلاعب بعقلي فحسب حتى تتمكن من إرسالي مجددًا.
- ما رأيك لو سمعتِ باقي الحكاية إذن؟ وبعدها سيكون الحكم لكِ.

****

فتحت أم درويش الباب بسرعة ثم لم تلبث أن هتفت تتنفس الصعداء: «أين كنتِ يا أمنية؟! أرعبتني حتى ظننت أنكِ هربتِ وضِعْتِ إلى الأبد!».

كانت الفتاة واسعة العينين، شاحبة الوجه كبياض الأموات، متشبثة بحقيبتها أمام صدرها وكأنها تطلب منها الحماية من خطر مجهول، تهتز حدقتاها على نحو لا إرادي.

ردت بصوت خفيض مشتد: «هل أستطيع الذهاب إلى غرفتي؟».

أمسكت أم درويش بذراعها توقفها سائلة بقلق: «هل تعرض لكِ أحد؟ هل حدث شيء؟ أخبريني يا بنتي بالله عليكِ».

لم ترد هذه المرة، بل اتجهت رأسًا إلى غرفتها فسارعت أم درويش إلى هاتفها تُجري منه اتصالًا.

مضت ساعة بعد اتصالها، ثم فتحت الباب للزائرة التي وصلت لتوها.

بادرتها قائلة: «الحمد لله أنكِ وصلتِ يا ترنيم، منذ عودتها وهي تحتجز نفسها بغرفتها لا تخرج منها رافضة الكلام».

دخلت ترنيم سائلة بقلق: «ألم تخبرك أين كانت؟».

- أبدًا والله، وهذا هو ما زاد قلقي، أخشى أن تكون قد تعرضت للأذى، أخبرتك أنه لا ينبغي لنا السماح لها بالخروج وحدها.

نظرت ترنيم تجاه باب الغرفة المغلق ثم قالت بصوتٍ خفيض: «أظن أنه آن الأوان كي نتعارف فعليًّا».

****

رفعت أمنية وجهها الشاحب عن ركبتيها ما إن سمعت صوت باب غرفتها يُفتح بعد طرقة خفيضة، ففتحت فمها لتطلب من أم درويش البقاء بمفردها، لكن الكلمات احتُجزت في حلقها ما إن أبصرت الشابة التي دخلت غرفتها واقتربت منها لتقف أمام سريرها بملامح هادئة، جحظت عينا أمنية وفغرت فمها قليلًا.

بادرتها ترنيم قائلة بخفوت: «أستطيع تفهُّم سبب ذهولك لرؤيتي على الحقيقة وهنا في غرفتك تحديدًا».

لم تجبها أمنية، وإنما لازمت التحديق إليها بعينين واسعتين مما لامس قلب ترنيم بشفقة مربكة، فتلك الفتاة التي بلغت من العمر عشرين عامًا، لها من الهشاشة والضعف ما لطفلة لم تتجاوز الخامسة، بينما لها من المرارة والأسى ما يناسب امرأة عاشت فوق سبعين عامًا! لقد شهدت على جريمة مروِّعة لا تزال تدفع ثمنها حتى هذه اللحظة، لقد ابتلاها القدر في والدها، وابتلى «علي» في أمه. أما هذه الفتاة فقد ابتُليت في والديها معًا حتى كانت نهاية أحدهما على يد الآخر وأمام عينيها.

للأسف كبرت الفتاة غير مستقرة نفسيًا بشكلٍ واضح فاق تخيلها، فبعد خروجها من بيت عوالي لم تذهب إلى أم درويش، بل أرادت فترة تتعرف فيها على أمنية قبلًا، عاونها زميلها على تأجير غرفة متواضعة، والحصول على فرصة تدريب في المكتب الذي يعمل به بادئة من الصفر، وبعدها حثت أم درويش على إرشاد أمنية إلى موقع التواصل كي تشغل به وقتها ومررتْها لها كصديقة مشتركة، فبدأ تعارفهما ومن ثم تلته الاتصالات المرئية بينهما.

في البداية كانت متحفظة متجهمة الملامح على الدوام، تكاد ألا تنفعل بأي شيء، تتوجس في كل سؤال موجَّه إليها وتفكر فيه لما يقرب من الدقيقة الكاملة قبل أن ترد باقتضاب، لكن بمرور الأيام بدا وكأنها كانت تتمنى وجود إنسان في حياتها، يسأل عنها، يتكلم معها، وبمرور الأيام أيضًا ومع إسهابها في الكلام بدأ اضطرابها في الظهور بشكلٍ واضح، تغيب بعينيها وكأنها تعود إلى ذكرى بعيدة، تهز رأسها فجأة وأحيانًا تنسى ما كانت تقوله في منتصف كلامها وتكمل موضوعًا آخر.

بصبر استمعت ترنيم لها، حتى إنها في المجمل كانت صامتة وأمنية هي من يتكلم بكل هذا الكبت المشحون بداخلها.

تكلمت ترنيم بهدوء مضيفة حين لم تجبها أمنية: «ربما تتساءلين عن سبب اختفائي لفترة وانقطاع اتصالاتي، ثم ظهوري فجأة على بابك. لماذا أنتِ صامتة؟».

مع صمت الفتاة المستمر بدأ قلق يتضاعف داخلها حول ما جرى لها خلال خروجها الغامض، إنها حتى ليست مدهوشة من ظهور صديقتها الافتراضية فجأة في غرفتها.

تقدمت بخطوات حذرة ثم جلست على حافة سريرها وسألتها برفق: «هلّا تعارفنا؟ تعارفًا حقيقيًا وليس افتراضيًا».

رفعت أمنية أصابعها إلى واحد من حاجبيها ومالت برأسها قائلة بتلعثم: «خرجتُ... خرجتُ أبحث عنكِ».

ضاقت عينا ترنيم للحظات ثم سألتها مستفهمة: «خرجتِ تبحثين عني أنا؟! أبسبب اختفائي ليومين فقط من موقع التواصل؟!».

صمتت قليلًا ثم عادت وسألتها بقلق شديد: «هل صادفكِ إعلان عني يا أمنية؟».

نعم، لقد رأت إعلانًا مرفقًا به صورتها ورقم هاتف «علي» تعلوه كلمة «مفقودة».

يصعب تحديد مشاعرها في تلك اللحظة التي أدركت خلالها أنه يبحث عنها، انطباعها الأول كان الصدمة، ثم الخوف من الكلمة ومقصدها، ثم سرعان ما تسلل إلى قلبها شعاع دافئ بدَّد الضباب وتجمعت حوله فراشات ذهبية، مبقيًا معنى واحدًا فقط: «علي» يبحث عنها.

قلبها الخائن توسل إليها كي تعود إليه، لكن هذه المرة كانت مختلفة، هذه المرة ذكَّرت نفسها بحجم الهوة الفاصلة بينهما، هوة سوداء عميقة، المرور من فوقها للوصول إليه يعد انتحارًا، فالهوة تسكنها أشباح وآثام تجذب العابرين إلى قاعها دون أمل لهم في الصعود مجددًا.

ذكَّرت نفسها مرة ولم تكن في حاجة إلى الثانية قبل أن تغلق حسابها أمام توسله اعترافًا على العلن بفقدها، أغلقت حسابها كي لا تصادف رجاءه مجددًا فتعود إلى القلب خيانته من جديد، لكن ماذا عن أمنية؟!

مع بقائها صامتة سألتها ترنيم مجددًا بنبرة أقوى: «أين كنتِ يا أمنية؟».

أغمضت الفتاة عينيها وهي تزيد من ضغط أصابعها فوق حاجبها ثم هزت رأسها قائلة بتلعثم: «قال... قال إنكِ كنتِ تبحثين عني».

اتسعت عينا ترنيم وهمست تسألها رغم استنتاجها لجواب لا وجود لغيره: «هل اتصلتِ بعلي؟! هل ذهبتِ إليه؟!».

ازداد انكماش أمنية حول نفسها، مما أقلق ترنيم بشدة من رد فعلها هذا، تُرى هل أساء «علي» معاملتها ما إن رآها؟! لا تريد أن تصدِّق هذا الاحتمال ومع ذلك لا يمكنها استبعاده.

نظرت أمنية إلى عينَي ترنيم مباشرة، ثم قالت متابِعة بنبرة هامسة كالسر: «لم أخبره عن مكانك، فلو عثر عليكِ لاحتجزك».

هزت ترنيم رأسها نفيًا هامسة: «لا يا أمنية، إنه ليس بمثل هذا السوء، هو فقط عانى مثلنا ومعاناته تركت في نفسه الندوب كما تركت فينا».

أطبقت أمنية عينيها بشدة ضاغطة جبهتها بقبضتيها ثم قالت بعناء: «لماذا كنت تبحثين عني؟».

مالت ترنيم برأسها إلى الأمام وسألتها بخفوت: «هل أزعجك هذا؟ لن يُفرَض عليكِ شيء بعد الآن، فلا تخافي».

ساد الصمت التام للحظات طويلة، ثم قالت أمنية بصوت فاتر: «لقد ماتت أمي بداية هذا العام ولم أتمكن من زيارتها والكلام معها، لم أجد الفرصة لأعتذر لها».

تنهدت ترنيم شاعرة بالحزن للدوامة التي تدور فيها تلك الفتاة، فردت عليها برفق: «لم يكن بيدك شيء تستطيعين فعله، لقد حدث ما حدث وعليكِ تجاوزه».

رفعت أمنية إصبعها وهي تهز رأسها مجددًا معقِّبة: «صوت الرصاصة حتى الآن...».

قاطعتها ترنيم بصوت مبحوح، لا تود سماع المزيد عن يوم الحادث: «كفى يا أمنية، لقد رحلا... وعليك دفن تلك الذكرى معهما».

عضت الفتاة شفتها بقوة حتى أدمتها، ثم همست من بين أسنانها مغمضة عاقدة حاجبيها: «كنت أحاول تخليصها فقط، لكن لم أقصد ما حدث».

سألتها ترنيم بحيرة: «ما هو الذي لم.....».

صمتت فجأة وشعرت بتوقف أنفاسها، صمتت وما عادت قادرة على إتمام كلمة، فقد غادر كل الكلام لسانها، كما فرَّ الدم من وجهها، فسكنت محدقة إلى الفتاة بعينين جامدتين.

****

«ما طرح شجر الخيانة يومًا إلا سُمًّا، تطول الأيام ومَصِيرُ زارِعِها تذوُّقه».

دفنت رأسها تحت وسادتها محاوِلة إبعاد أصوات كرههما عن مسامعها لكن دون جدوى، فما عادت كفاها كافيتين، ولا الوسادة أو حتى الباب المغلق، لو شُيد جدار من الحجر فما عاد قادرًا على منعها من سماع بصق السم بينهما! لكن الليلة كانت أصواتهما أعلى وأشد حدة، الليلة كانت أكثر كآبة وعنفًا بينهما، وهذا الشعور أقلقها وحثها على القيام من تحت الغطاء مبعِدة الوسادة عن وجهها، ثم فتحت باب غرفتها وخرجت إلى الرواق تراقب المعركة الدائرة.

أمسكت فاتن بقميصه بأظافرها فسمعت صوت تمزق عاليًا، لكنها لم تهتم، بل غرست أظافرها في لحم ذراعه صارخة وعيناها تبرقانِ بالمقت.

وتقول: «ماذا تعني بأنك راحل؟! هل صوّر لك عقلك أنك تستطيع التخلي عني وعن ابنتك الآن؟!».

استدار إليها ليقبض على كفيها بشدة ثم هدر في وجهها بلا تردد: «لا بنات لديَّ سوى واحدة، هي التي جاءت بالحلال، أنا عائد إليها لأحاول تعويضها عن سنوات خسارتي لها».

دفعها عنه بقوة ثم انحنى ليمسك بحقيبة ملابسه التي وقعت أرضًا، إلا أن فاتن لم تتراجع، بل اندفعت نحوه ممسكة بذراعيه.

تصرخ قائلة: «أقسم بالله إن خرجتَ من هذا الباب فسوف أتصل بأهلي وأهل والد ابني وأخبرهم عن مكانك، وحينها سأكون راضية بالموت في سبيل رؤية دمك بين أصابعهم».

دفع رأسها بيده عدة مرات هاتفًا: «أفيقي، لقد مر اثنا عشر عامًا، مات منهم الكبار، أما الأصغر فدارت بهم الحياة ونسوا أمرنا، انقضت أيام الهرب يا فاتن وأنا عائد إلى ابنتي».

صرخت بجنون تعترض طريقه مجددًا بعد أن أزاحها: «ابنتك! أتظن أنك ستعود وتجدها كما تركتها؟! الدنيا دوارة وكما تدين تدان، سيأتي من يدنِّس شرف ابنتك كما دنستَ شرفي».

صفعها بقوة على وجهها، صفعة من شدتها ترنحتْ لها.

صفعها مجددًا هاتفًا: «إياكِ والتجرؤ على شرف ابنتي، ابنتي أنا أعرفها، لو تركتُها وحيدة في عالم نجس فستخرج منه طاهرة، ابنتي ليست مثلك».

لم تهتم للصفعات على وجهها، بل صفعتها كلماته السامة.

مما جعلها كالمجنونة تصرخ بهذيان: «ليست مثلي؟! الآن تتجرأ أنت على شرفي بعد أن كنتَ تلهث خلفي ككلب ضال حتى جررتني معك إلى وحلك؟!».

قبض بكفه على ذقنها بعنف رافعًا وجهها إليه ثم همس بشراسة من بين أسنانه: «المرأة الشريفة لا تُجر ولا تضعف ولو لهث خلفها جيش من الرجال، لا مجرد كلب ضال».

حدقت إليه ذاهلة غير مصدِّقة، كانت تعرف أن الشغف قد انتهى وأن الحب ما كان سوى وهم، لكن من أين نبع كل هذا الكره؟!

كما كرهتْه كرهها أضعافًا مضاعفة، لكنها لن تسمح بذهابه، لن تسمح بأن تكون هي وابنتها فقط من يتحمل الثمن بينما يتنصل هو وكأنه ما كان شريكها.

هزت رأسها ببطء ثم همست بصوت يقطر بغضًا: «الآن تقول هذا؟ الآن ما عدتُ المرأة نفسها التي سلبتْ عقلك والتي أقسمتَ ألا تكون إلا لك ولو حاربتَ البلد كلها؟!».

تحركت عيناه عليها ببطء يرمقها بنظرة قتلت الرمق الأخير من نفسها، كانت نظرة ازدراء وتقزز.

ثم سألها ساخرًا: «هل أنتِ هي فعلًا؟! ألا تنظرين إلى نفسك؟! لقد تحولتِ إلى مسخ لا أعرفه، روحك الممسوخة نضحت على وجهه فلوَّنته بالعجز والبشاعة، وكأنه عقاب إلهي ظهر عليكِ ليدمغك إلى الأبد».

رفعت أصابعها إلى عنقها شاعرة بالبرودة وكأن جسدها يصفَّى من الدماء تدريجيًا، حتى تبقت كجثمان ميت واقف على قدمين.

رفعت وجهها وهتفت من قهرها: «أما أنت فقد كنتَ العقاب منذ البداية، فما أقساه من عقاب حين يُسلَّط من هو ليس برجل على أذنَي امرأة فلا يتركها إلا وقد خسرتْ كل غالٍ واشترت به الرخيص النجس، لكن أقسم إنني لن أدعك تعود إلى ابنتك الغالية متخليًا عن ابنتي، ولو اقتضى الأمر أن أشوّه سمعتها، بل حتى قد أدفع من يسلِبها شرفها الذي تتكلم عنه، أقسم أن أجعلك تخسر المتبقي لك كما خسرت أنا».

اندفعت يده لتحيط بعنقها وباليد الأخرى هوى على وجهها ما بين صفعات ولكمات حتى اهتز النور أمام حدقتيها، شعرت بنفسها تتراجع ثم ارتطمت ساقاها بمقعد فسقطت جالسة فوقه، لكنه لم يترك عنقها، ويبدو أنه لم يشعر بزيادة ضغطه من شدة الغضب الشيطاني الذي سيطر عليه في تلك اللحظة، إذ أحست بأن أنفاسها تتقطع وأن النهاية قد جاءت لا محالة، فاستسلمت ساكنة.

في الثانية عشرة من عمرها أُجبرَت على استيعاب الكثير مما يفوق سنها. في الثانية عشرة من عمرها تعودت في بيتها سماع الكلام بطبيعية عن الشرف المدنَّس والعار كالكلام عن غلاء الأسعار وسوء الطقس. في الثانية عشرة من عمرها اعتادت الاندفاع محاولة تخليص أمها من بين يدَي والدها

كلما بدأ بضربها. في الثانية عشرة من عمرها شعرتْ بأن الأمر مختلف هذه المرة، فقد تحول وجه أمها إلى لون أزرق بينما جحظت عيناها بشدة وأنها على وشك الموت خلال لحظات، لذا وعوضًا عن الخروج للاستغاثة بالجيران شعرت بنفسها تجري كالمنوّمة إلى حيث سلاح يخص والدها، كبرت على وجوده في البيت ليدافع به عن نفسه وقت الحاجة.

جاءت من خلف الكرسي الواقعة عليه أمها ممسِكة بالسلاح تصوِّبه تجاه والدها هاتفة: «اتركها».

رفع والدها وجهه إليها ذاهلًا، ثم لم يلبث أن همس بوحشية: «أعيدي السلاح مكانه إن كنتِ لا تتمنين أن تكون الضربة التالية من نصيبك».

فتحت فمها لتعيد هتافها كي يترك أمها، لكن شيئًا ما حدث ولا تعلم كيف وقع.

أصابعها المهتزة تشنجت ضاغطة إثر التهديد الذي أخافها ووتر أعصابها بالكامل، ولم تفهم ما رأته! صوت عالٍ انطلق كاد أن يصمَّ أذنيها، ثم انفجرت عين واحدة من عينَي والدها قبل أن يقع أرضًا محرِّرًا عنق أمها.

لم تفهم! كانت تحاول استيعاب سبب تفجُّر عين والدها وسبب وقوعه، ثم حادت عيناها إلى الدخان الطفيف الخارج من فوهة السلاح ورائحة حارقة اندفعت لتثقِل أنفاسها.

وقفت فاتن ببطء شديد مترنحة حتى اضطرت إلى التمسك بذراع الكرسي الذي كانت تحتله منذ لحظة، وحدقت إلى وجه زوجها المستلقي على الأرض بلا تعبير، ثم التفتت ناظرة إلى ابنتها.

ظلتا واقفتين تحدق كلٌّ منهما إلى الأخرى طويلًا دون صراخ أو كلام، حتى تمالكت فاتن نفسها فخطت من فوق جسد زوجها واقتربت منها لتأخذ السلاح بحرص.

ثم همست لها بنبرة جادة آمرة كحد السيف: «ما حدث لن تتكلمي عنه أبدًا إلى آخر لحظة في عمرك، حتى بينك وبين نفسك، ستنسين الأمر. مفهوم؟».

****

«ما كان فخًّا نَصَبْتُه لكَ وما نَصَبْتَه لي، فما كُنْتَ إلا مصيرًا انتهيتُ إليه بإرساء سفني على صدرك».

كل ما أرادته في تلك اللحظة هو الحصول على الهواء، فقد أوشكت على الاختناق، كيف تمكنت من الجلوس صامتة هادئة حتى النهاية؟ كيف غامت عيناها إنما لم تُفض منابعهما؟ بل كيف مرت لحظات الصمت الطويل فتمكّنت بعدها من مد يدها تربت على ساق فتاة تناشدها الصفح بعينين معذّبتين فاغتصبت شيئًا أشبه بابتسامة حزينة لنفسها، ثم نهضت واقفة ودون كلام خرجت مسرعة.

لم تنتظر المصعد، بل جرت فوق السلالم يزداد شعورها بالاختناق، وحاجتها إلى هواء نظيف باتت ملحة، حتى تعلقت بباب البناية فتمسكت به مترنحة سامحة للهواء بلفح وجهها الشاحب، أغمضت عينيها تحاول ملء رئتيها شاهقة بصوت خفيض أشبه بنحيب صافٍ، وحين فتحتهما توقف الزمن فجأة، فهناك على الجانب الآخر كان واقفًا، يداه في جيبَي سترته، يميل بوجهه محدقًا إلى عينيها وعلى وجهه تعبير مؤلم وحنون، يبعث في النفس دفئًا وفي القلب لوعة عليه.

ارتجف ذقنها وأيضًا شفتاها، فعضت عليهما تحاول أن تغلب دموعها، لكنه كان المستحيل، فالدموع التي منعتها منذ دقائق تجمعت مع دموع شوقها إليه وانحدرت كنهرين فوق وجنتيها المتوردتين بلقياه بعد شحوب طال كعمر كامل.

اندفعت تقطع الطريق جريًا بينما ظل واقفًا مكانه لم يتحرك سوى بإخراج كفيه من جيبيه ليفتحهما، فتح لها أبواب الملاذ فلاذت بها ترمي بنفسها على صدره بقوة لا تأبه بالطريق والمارة، فلم تكن تشعر في تلك اللحظة إلا بوجوده من حولها وكأنه البشر جميعًا.

تراجع إلى الخلف إثر قوة رميها لنفسها على صدره، ثم اتزن مغلقًا ذراعيه حولها مع بكائها الخفيض الحار، أغمض عينيه متنهدًا تنهيدة عميقة،

فكأنما وزنها فوق صدره أزاح ثقلًا طال بقاؤه، ثقلًا حمله معه أينما حملته الحياة وحطته.

تكلم أخيرًا ملامسًا شعرها بشفتيه: «أطلتِ البقاء، كنت على وشك اختطافك حين رأيتك تدخلين، ثم تراجعتُ وتركتُك لها بعض الوقت».

سألته بصوت هش ناعم رغم الدموع: «لماذا لم تخبرني؟».

تخللت أصابعه الخصلات الطويلة وأجابها بخفوت: «ما الفارق؟ فجميعها أزقة مظلمة نهايتها واحدة، وكلنا ضحاياها».

انتفض جسدها فرفعت وجهها المبلل إليه، ثم تراجعت ببطء لكن يده أمسكت بمعصمها تمنعها عن الفرار، وأبقتها على بعد خطوة واحدة منه إن كانت تريد مسافة، فليس لديه الأبعد ليمنحها.

سألته بصوت متهدج: «لماذا بحثتَ عني يا «علي»؟ لقد فُزِعَ الجميع في مكان عملي ولم يطمئنوا حتى ظهرتُ لهم بشحمي ولحمي، ربما تخيلوا أنني كنت شبحًا منذ البداية!».

حاولت التبسم رافعة كتفها، لكن ابتسامتها تكسرت مع الدموع التي لامست حدود شفتيها كأمواج متكسرة على شاطئ مهجور. تحركت عيناه على ملامحها الجميلة في حزنها، أما ملامحه فكانت عابسة مفكرة وكأنه في اختبار فرضته الحياة.

قال أخيرًا: «سبقتْهم أمنية في الرد، أم تراكِ منعتِهم؟».

أسبلت جفنيها فوق عينين حمراوين مجيبة همسًا: «لقد طردتَني، وكنتَ محقًا، فقد وضعتَ النهاية التي عجزتُ أنا عن وضعها، فلماذا جئت الآن؟».

بلل شفتيه المتحجرتين متجهمًا بشدة، مقطب الجبين، ثم قال بخشونة: «جئت لأن كلينا نسي شيئًا قبل الرحيل».

تأملت عينيه المضطربتين وسألته بوهن: «ماذا نسيتُ أنا؟».

بادل عينيها النظر وأجاب مشددًا قبضته حول معصمها: «نسيتِ أنكِ تحملين اسمي في وثيقة زواج رسمية».

تنهدت ملوِّحة بيدها هامسة: «كان بإمكانك أن تطلقني غيابيًا وقتما شئتَ».

ازداد انعقاد حاجبيه سائلًا: «بهذه البساطة؟! ألن يهمك معرفة إن كنتِ مطلقة أم ما زلتِ على ذمتي؟!».

أخذت نفسًا عميقًا مرتجفًا دون أن تحيد بعينيها عن عينيه، ثم قالت: «ما الفارق ما دام الفراق هو النهاية الحتمية؟ فأنا لن أكون لغيرك أبدًا».

اختلجت حدقتاه من اعترافها البسيط الواضح، فابتلع غصة مؤلمة وبقي صامتًا مضطربًا بشكل واضح، حتى إن قلبها رقَّ له بحنين لا يوصَف.

ومع صمته سألته بصوت لا يكاد يُسمع: «وما هو ما نسيتَه أنت؟».

نظر إليها وقد زاد تجهمه وتعقيد تفكيره، فأجابها ببطء: «نسيت إخبارك بأنني ربما أكون قد أحببتك».

ضحكت وبكت ثم أغمضت عينيها للحظة واحدة قبل أن تسأله ممازحة بتحشرج: «ألم تتأكد بعد؟».

زاد ضغط أصابعه أكثر وهو يقرِّبها منه مجيبًا: «أظنني تأكدت».

تأملته طويلًا تشبِع عينيها بصورته بينما القلب لا يعرف شبعًا ولا راحة.

همست أخيرًا تحاول الخروج من الحلم القصير الخائن: «لن ننجح يا «علي»، نحن مجموعة من المرضى، وإن لم يكن اليوم فغدًا ستصحو أعراض مرضنا لتقلِبنا ضِد بعضنا بعضًا».

- وربما...

نطق بالكلمة بخفوتٍ مطرقًا رأسه ثم تابع ببطء: «وربما لأننا مجموعة من المرضى بالمرض ذاته سنتمكن من النجاة منه معًا».

ابتسمت بألم تمسح الدموع عن وجهها وأجابته: «أنت تنسج حلمًا خياليًّا، أما على هذه الأرض فلن أتحمل كرهك لي».

- أما أنا فلن أتحمل رحيلك، لقد كان خطأك منذ البداية وعليكِ تحمل عواقبه.

ها هي ذي تعود بين شقّي الرحى من جديد، شاعرة بنفسها تتمزق ببطء، وحين أخفضت وجهها اليائس أحاط وجنتها بكفه.

قال بصدق: «تركت عوالي وصية باستمرار كل شيء كما كان في حياتها وبقاء الطابق الأرضي مفتوحًا، ولا أظنني قادرًا على هذا بمفردي».

نظرت إليه وهمست بحرارة ضاغطة كفه الممسكة بمعصمها: «بلى ستقدر، أنا أثق أنك تقدر».

وضع كفه الأخرى فوق يدها وقال: «وأنا أثق أنكِ لن تتخلي عني يا ترنيم».

في حرارة كلماته بدت ثقته مدمِّرة لها، فكيف تخذله؟ وكيف ستكون حياتهما إن لم تفعل؟

قال: «لقد رحلا ودُفن معهما إثم لم نقترفه، ومنذ هذه اللحظة سنتعهد ألا نذكرهما».

- هل ستقدر؟

- سنحاول معًا، كان كلٌّ منا وحيدًا ولم ننسَ، ربما في اجتماعنا سيكون لدينا ما هو أغلى من ذكرى فاسدة، وحينها سنتأكد من دفنها كي لا نخسر ما لدينا.

ترقرقت غلالة الدموع بعينيها ورفعت يدها تلامس بها وجنته برفق.

همست تسأله بضياع: «ماذا حدث لك في غيابي؟».

مد إصبعه ليلامس وجنتها برفق يتجول به من الوجنة إلى الأخرى عابرًا فوق حاجز أنفها، تلاحق عيناه النجوم الصغيرة المتزاحمة فتبرقانِ لها.

رد: «هذا هو جواب سؤالك، في غيابك... في غيابك أدركت أنني ما عدت أتحمل العزلة أكثر، والعالم دونك عزلة».

حين ظلت صامتة بادرها قائلًا: «أستطيع إغراءكِ».

نظرت إليه هامسة: «أحقًا تستطيع؟!».

- أتراهنين على أنني أستطيع إغراءكِ بالعودة.

أومأت برأسها مبتسمة لا تتوقف دموعها متمسكة بيده على ساعدها خوفًا من أن تخذلها ساقاها.

قال راميًا رهانه الرابح: «لقد حصل منصور على طرف صناعي، لا يكاد يصبر على رؤيتك له في خطواته، فأخبرتُه أنني لن أعود إلا بكِ، وقُضي الأمر».

اتسعت عيناها بذهول وبرقتا ذلك البريق الخاطف، القادر على إحياء الحياة في نفسه بعد أن كان قد آمن بأنها لم تكن خيارًا مطروحًا له.

غطت ترنيم شفتيها بأصابعها، فما عاد قادرًا على الصبر أكثر، إذ أحاط كتفيها بذراعه يشدها معه تجاه سيارته.

وثرثر رغم تهدج صوته: «الأولاد جميعهم في انتظارك، لكن عليَّ تحذيرك أنني لا أقبل بلقب دلالهم لكِ، فهو لا يشعرني بالراحة».

التفتت ناظرة إليه وسألته: «حتى من صابر الصغير؟!».

رماها بنظرة من طرف عينيه وأجابها بصرامة: «بالأخص صابر الصغير».

ضحكت وتعجب المارة بهما من اثنين يسيران متشبثين ببعضهما بعضًا وكأن كلًّا منهما يخشى أن يفقد الآخر في الطريق المزدحم، يضحكان بينما تفيض أعينهما بالدموع!

انحنى وجهه إليها وقبَّل وجنتها بقوة مغمِضًا عينيه، فارتاحت يدها فوق قلبه الخافق، وحين تلاقت أعينهما مجددًا لم تعد الحرب قائمة، بل كان بينهما حوار صامت طويل.

استدارت ترنيم ناظرة إلى البناية خلفها وقالت: «ماذا عن أمنية؟».

تبعت عيناه نظرتها ثم أجابها: «لن أتخلى عنها هذه المرة، سنتعود ونتعلم أن يتقبل كلٌّ منا وجود الآخر، فوجوده ما عاد اختياريًّا الآن».

أمسك بكفها لتمشي بجواره، ينظر إليها كل خطوة فتختلس النظر بطرف عينيها.

ثم قال أخيرًا: «لقد اقترب المغيب، ولا أتمنى شيئًا الآن سوى الجلوس بجوارك فوق البساط».

شددت أصابعها على يده وأعطته الوعد: «حتى الشروق، ولن نترك نافذة مغلقة».

«تمت»

نعتذر على التوقف عن النشر على القنوات الاخرى مؤقتاً

وجميع الحصريات ستكون على

هذة القناة فى الوقت الحالى

تلقرام

https://t.me/MktbtArab